

د. عامر الزوبعي

«سَجَّحْنَا إِلَى الْفُجَاءِ الَّذِي بَعْدَهُ لَبِئْسَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا»
«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَثِيرًا»

بنو إسرائيل

بداية النهاية

وَحْتَمِيَّةُ التَّيَّارِ

دراسة تحليلية لإفساد بني إسرائيل
من خلال سورة الإسراء

تقديم

الدكتور عماد الدين خليل

دار الغصاء





بنو إسرائيل

بداية النهاية

وحتمية التبار

دراسة تحليلية لإفصادي بني إسرائيل
من خلال سورة الإسراء

تأليف

د. عامر الزوبعي

تقديم

الدكتور عماد الدين خليل

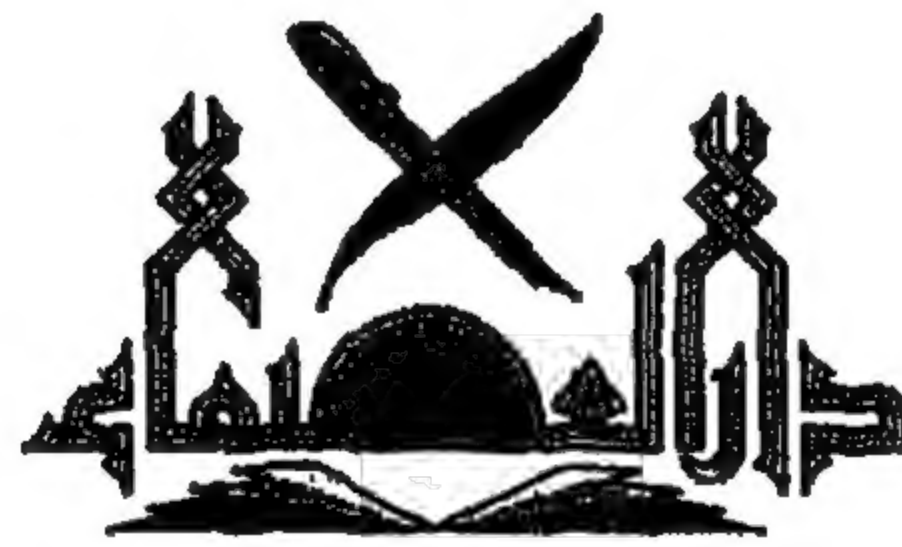
دار الغصاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكل طرق
الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل الحاسوبي وغيرها
إلا بإذن خطي من دار العصمساء



سوريا دمشق - بrameكة

مقابل كراج الانطلاق الموحد - دخلة الحلبي

هاتف : ٢٢٢٤٢٧٩ - تليفاكس : ٢٤٥٧٥٥٤

خليوي : ٠٩٤ / ٣٤٩٤٣٤ ص.ب : ٣٦٢٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدي كتاب الله

• ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

• ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

• ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

النمل / ٧٦



من هدي رسول الله ﷺ

عن أبي إمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ، لَعْدُوهُمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ

خَالِفِهِمْ، وَلَا مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

قالوا يا رسول وأين هم؟

قال: «ببيت المقدس... وأكناف بيت المقدس»...

أحمد في مسنده: ٢٦٩/٥



كلمة للذكرى

لما جيء بحبي بن أخطب... ليقتل... نظر إلى النبي ﷺ بعينين
واجفتين فقال:

«أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك.. ولكنه من يخذل الله
يُخذل..».

ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله...».
كتاب وقدر... وملحمة كتبها الله على...

بني إسرائيل ...



الإهداء

* إلى الذي أحبته السماء حين سرى فيها نجماً وعاد يتلألاً...

* وإلى الذي أحبته الجبال... فاهتزت حين سما عليها.. فتهافت ثم سكنت حين قال لها... أثبتى...

رسول الله محمد ﷺ

* إلى من كانوا أشداء على الكفار... رحماء بينهم... فاستحقوا شرف النسبة في عباداً لنا أولي بأسٍ شديد...

* إلى الذين هم منهم ولما يلحقوا بهم... ثلة من الآخرين... وهم على الدرب سائرون...

* إلى الذين استكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة... وعلو علواً كبيراً... إلى الذين - يتلمسون معالم الطريق... ليثوبوا... ثقة بوعدده... وبقيناً بنصره لو تقبلوا مني إهداء.. أهديتهم كتابي هذا..

مع أشجائي...

وأشواقِي...

وانتظاري المرّ

الباحث



إقترح البعض واعتذر إليهم

١/ "اليهود وبنوا إسرائيل"

ربما كان الأولى أن يكون العنوان - كما اقترح البعض - [اليهود... بداية النهاية وحتمية التبار] باعتبار أن اليهود وراء كل جريمة - كما هو في الحقيقة - وأن اليهود قد علو في الأرض اليوم علوا كبيرا - كما هو الواقع - إلا أنني أعتقد أن تخصيص العموم هنا يخلّ بالمعنى، كما أن تقييد المطلق يقصره، فمصطلح (بني إسرائيل) أطلقه القرآن على اليهود والنصارى على حد سواء ولم يخص به أحدهما، وإن كان اليهود يدخلون فيه بصورة أعم لاتساع إفسادهم وشدة عداوتهم، والواقع يشهد أن النصارى قد شاركوا اليهود بل وأعانواهم على كثير من هذا الإفساد والعلو فيه فالصهيونية، ما طغت اليوم لولا جهود الصليبية ومساعيها، وهذه ما نجحت لولا دفع اليهودية العالمية لها... فـ(بنوا إسرائيل) بالتالي أصح وأشمل...

٢/ "التبار والدمار"

قالوا: لولا جعلت العنوان "بداية النهاية وحتمية الدمار" لكان أوضح وأفهم، فالدمار واضح والتبار غير مفهوم... وأعتذر إليهم من حيث أننا لا ينبغي أن نعتمد عدم الفهم أساساً لعرض قضيتنا بل ينبغي أن يكون الفهم وليس القراءة فقط رائدنا، فحين استعمل القرآن هذه المفردة الغريبة "وليتبروا... تتبيرا" إنما يقصد شيئاً آخر أبعد من التدمير، إذ أن التدمير له معنى أعم منه التتير فما دمرته قد يمكن إصلاحه أما التتير فلا سبيل إلى إصلاحه بوجه ما، والقرآن يعلو ولا يعلى عليه.

٣/ "بداية النهاية"

قالوا لو جعلته "حتمية التبار وبداية النهاية" فقلت: إن البداية دائماً تسبق النهاية وذكر السبب مقدم على النتيجة فما كان مقدماً قدمناه ولو أخرناه لتأخر المعنى إدراكاً، ولما فهم الكثير أن استعلاء بني إسرائيل كان قد ابتدأ من زمن بعيد واليوم قد بدأت نهايته، وإن كنا اليوم نعيش غمراته فإنما هي زفرات زهوقه وتخططات تردّيه، وهو يمضي إلى مصيره الحتمي المرتقب، والدلائل تشير إلى قيام العباد من الزحف وارتقاءهم مرتبة البأس الشديد وإعلان النهاية لهذا الجبروت الأجوف وحتمية تبارهِ في الأرض، تلك حقيقة ترهص بها جلّ المعطيات القرآنية والأحداث الدامية في الأرض اليوم...

تقريظ

بقلم

الدكتور: عماد الدين خليل

بسم الله والصلاة على رسول الله وبعد:

فقد كتب كثيراً عن سورة الإسراء وإفسادي بني إسرائيل، بدءاً بمفسرينا القدماء وانتهاءً بالمفسرين والباحثين المحدثين.

ومن بين هذا الذي كتب تبرز دراستان قيمتان تمثلان أكثر تلك المحاولات دقة وإحكاماً وهما:

* كتاب: (حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية للدكتور صلاح الخالدي، صدرت طبعته الأولى عام / ١٩٩٤م).

* ورسالة (سورة الإسراء وبنو إسرائيل - دراسة تحليلية في إفسادي بني إسرائيل - والتي حاز بها الأخ الشيخ عامر نايف الزوبعي - درجة الماجستير في العلوم الإسلامية / التفسير وعلوم القرآن من جامعة بغداد عام / ١٩٩٧م)

وفي الحالتين فإن اعتماد منهج التفسير الدلالي الذي يتابع دلالات المفردات القرآنية أي ما يصطلح عليه أحياناً بالتفسير الموضوعي. وآخر بالتفسير البياني وثالثة بتفسير القرآن بالقرآن. قادهما إلى تقديم تصور عن إفسادي بني إسرائيل يملك قدراً كبيراً من الموضوعية والمقاربة للمعطى القرآني.

والحق إن انفجار الدراسات العليا في جامعاتنا العربية والإسلامية جاء بمثابة فرصة طيبة لإشباع النص القرآني بالدراسات الدلالية في سياقها اللغوي والبياني - أو البلاغي - وقدم للمكتبة القرآنية رسائل على قدر كبير من الأهمية.

والرسالة التي بين أيدينا هي واحدة من بين هذه الثمار. وبإحالة ما قاله المفسرون القدماء والمحدثون عن - الإفسادين - على هذه الرسالة يبدو البون شاسعا بين الطرفين. حيث تتحدد في هذه الرسالة إلى حدّ بعيد الأبعاد التاريخية للآيات الواردة في صدر سورة الإسراء عن الموضوع. ويجد القرئ نفسه يخرج من دائرة الاحتمال والتخمين والتنبؤ إلى استقرار دلالي داخل النص القرآني يقوده إلى نتائج منضبطة إلى حدّ كبير.

لقد كان الإفساد الأول في جزيرة العرب قبل عصر الرسالة وأثناءها حيث بعث الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين - من الصحابة. ليجوسوا خلال الديار، وسيكون الإفساد الثاني في زمن قادم سيمكّن خلاله لبني إسرائيل في الأرض بحبل من الناس، وستجيء بهما الإرادة الإلهية من الشتات لفيها إلى فلسطين لحكمة يريدّها الله سبحانه، حيث يتحقق الوعد الحق وتكون المعركة الحاسمة بين الأمة الإسلامية وأعداؤها من بني إسرائيل ويدخل العباد الصالحون الذين ابتعثهم الله سبحانه وتعالى المسجد الأقصى كما دخله آباؤهم أول مرة. فيما ترهص به جلّ المعطيات المعاصرة في الساحة الفلسطينية والعالمية على السواء.

إن إحدى مميزات الدراسات الأكاديمية العليا أنها تمنح الطالب فرصة اختيار موضوع محدد لكي ينفذ إزاءه دراسة معمّقة قد يصل - الباحث - من خلالها إلى نتائج لا تستأى للدراسات ذات الطابع الشمولي. وإن الرسالة التي بين أيدينا تعطينا شاهداً على هذا.

لقد أوغل الباحث في دراسة الآيات الخاصة بالموضوع من صدر سورة الإسراء وتمكّن من الإمساك بخيوطه كافة، وبالتالي تقديم هذا الذي يجده القارئ بين يديه فيما لم ترق إليه أي دراسة أخرى للموضوع. إذا استثنينا مرة أخرى دراسة الدكتور صلاح الخالدي المشار إليها قبل قليل.

وبمرور الوقت ومن خلال تعامل هذه الرسالة الجامعية أو تلك مع سورة ما من سور القرآن، أو مقطع ما من مقاطعه، أو عدد من آياته البينات التي تعالج نقطة ما أو مفردة من مفرداته الغنية المتشابكة سيكشف الباحثون ومن خلال دراساتهم المعمّقة لهذه

الجوانب المحددة من النص القرآني عن معاني وقيم وحقائق قرآنية لم تكن التفاسير القديمة والحديثة قد كشفت عنها النقاب.

وقي كل الأحوال فإن المكتبة القرآنية ستزداد غنا وخصبا بما سيصبّ فيها من هذه الدراسات التي يقدمها طلبة الدراسات العليا والتي أخذ المهتمّون بعلوم القرآن يلحظونها عبر العقدين الأخيرين، رغم أن تأسيساتها المبكرة — إذا أردنا أن نكون منصفين — كانت قد أومضت بها وأرست قواعدها محاولات سابقة تنظيرا وتطبيقا من مثل ما قدّمه الدكتور أمين الخولي، والدكتورة عائشة عبد الرحمن، والشهيد سيّد قطب، وغيرهم من الرّواد الذين لا يتسع المجال لذكرهم.

ويظلّ القرآن الكريم قبل هؤلاء وأولئك وبعدهم ذلك الكتاب المدهش الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الردّ

عماد الدين خليل
أستاذ التاريخ الإسلامي
جامعة الموصل



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالهدى والبيّنات، فكان أن أخرج الناس إلى النور من الظلمات، ولعلّ ما جاء في سورة الإسراء قبساً من ذلك النور، بدى نجماً وليداً يتلأأ وعاد وقد غدا كوكباً درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية لأنه كلام الله، إلا أن إشراقات وحيه قد عمّت الآفاق من المشرق والمغرب ولا زالت تنمو وتتسع وتتفجر إذ لا منتهى لكلمات وحي الله ولو كانت كل أشجار الدنيا أقلاماً والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ثم كتبت به كلمات الله: ﴿لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾.

إن ما انبثق من نور من سورة الإسراء وحيّاً يهدي وروحاً يحيي هذه الأمة ويهيدها بعدما ظلت وضاعت في الدروب الحالكات تتخبط من الحيرة وهي على مفترق الطرق فلا سبيل واضح ولا دليل ناصح، وجماع المكر اليهودية لا تفرّ تغير العلامات وتطمس الإشارات وتلبس الحق بالباطل وتكتم الحق بعدما تبين.

وديناصور الكفر اليهودي العالمي يقف معترضاً سبيل المؤمنين بالإرهاب المنظم تدعمه التكنولوجيا والأفكار الهدامة والنظريات التي ما من وراءها إلا التمزق والضياع والتهيه، وكل أبواق الإعلام في اتجاه معاكس لصدى الحق وذهب الأرض ينفق في محاولة تحقيق أسطورة التلمود، وجنود الباطل ينشرون الظلام محاولين أن يطفئوا نور الله بأفواههم من كل اتجاه وفي كل مكان، وهيئات ونور الله ثاقب والحق المبين يرتكز في الأرض رغم كل ما يبذله الأقزام من جهد ومال وعدّة ودماء، وليس غير القرآن ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ وبريق سورة الإسراء يشتد ليدل على أن القرآن هو الخلاص وفيه النجاة وأن الذين يعتقدون أن ما فيه يخص الزمن الماضي - حصراً - مخطئون فالزمن المعاصر لتزوله ما سما وارتقى إلا به وذلك السمو والارتقاء كان ينبغي أن يكون أساساً لارتقاء المستقبل الذي نعيشه اليوم، ولأن الأمة لم تجعله كذلك ما ارتقت ولا حتى اهتدت بل كان التيه والتمزق والضياع نصبها جزاءً وفاقاً بما جعلت كتاب الله يقرأ ويقرأ ولكن دون أن تتجاوز هذه القراءة الحناجر والتراقي، ومن ثم حاولت أن تهتدي بغيره من نظم ونظريات صاغتها جماجم المكر اليهودية لتصدّ الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس كلما ظلوا وأمناً كلما ظلّموا.

إن سورة الإسراء لترسم للأمة السبيل الذي يريد الله منها أن تسلكه وهي تواجه ديناصور الكفر اليهودي العالمي في استعلاءه المعاصر الذي تفرّدت سورة الإسراء ببيان مقوماته ومقتضياته في صورة قد رسمتها وفصلت جوانبها بمثال سابق وتجربة حيّة عاشتها الأمة واقعاً ملموساً حين كانت جزءاً من سيرة النبي ﷺ ومرحلة حيّة في تاريخ التصديّ والمواجهة المسلحة مع بني إسرائيل في المدينة عند قيام دولة الإسلام على يد النبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا بحق ﴿عباداً لنا أولى بأس شديد... جاسوا خلال الديار... ودخلوا المسجد أول مرة... وكان وعداً مفعولاً﴾ أولاً، والتصدي للنصارى في بعث أسامة ابتداءً وانتهاءً بمن دخل المسجد الأقصى الفاروق وأبي عبيدة وجنودهما الدخول الأول، وعليه فمن سار على دربهم وتلمّس خطا جهادهم وكان على ما كانوا عليه فإنه مرشّح في أن يكون من الذين سيبعثهم الله عليهم مرّة أخرى ﴿ليسوا وجوههم... وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة... وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾.

واليوم قد أذن الله لهذا النور أن ينبثق ولهذه الصرخة أن تعلو والتي أسأله سبحانه أن لا تكون صرخة في واد ولا نفخة في رماد، وإنما صاعقة على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ومقهور، ولتستبين بها سبيل المجرمين لكلّ من كان مخدوعاً من التائهين وليستقين الذين آمنوا أنهم كانوا وما زالوا قدر الله الغالب.

ثقة بوعدده... وبقينا بنصره!!!

وأهم على الطريق ماضون سبقتهم ﴿ثلة من الأولين﴾!!!

وهم اليوم ﴿ثلة من الآخرين﴾!!!

لأنهم بلا شك ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾!!!

وإنما ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾!!!

فاجعلنا اللهم بفضلك من الآخرين فإنك

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾!!!.

وخالص شكري لأستاذي الدكتور العالم عماد الدين خليل لتقريضه وتقديمه الذي أعتز به تقديرًا وإكرامًا، كما وأشكر أخي الدكتور الفاضل مثنى حارث الضاري على توجيهاته القيمة وأسأل الله أن يديم فضله على دار العصماء في المساهمة بنشر هذا الكتاب وكان لها قدم السبق فيه. فما كان فيه من خير فمن الله بتوفيقه وما كان فيه من قصور فمني فأرجو المعذرة والدعاء.

المؤلف

بين يدي الكتاب

في أهمية الموضوع.. وأسباب اختياره.. وخطة البحث الموضوعية له.. والصعوبات التي واجهتني فيه.

أحمدك ربي على ما أنزلت إلينا من عظيم قرآن، على خير من اصطفت من إنسان، في أقدس ما شرفت من مكان، وفي خير ما اخترت من زمان وأصلي واسلم على سيد الخلق وحبيب الحق محمد، وعلى آله أصحابه، ومن دعا بدعوته واستن بسنته إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الأمة التي تعيش على حساب الحق وعلى حساب التاريخ، من دون أن تنصر الحق وتصنع لنفسها تاريخاً هي - بلا شك - أمة حمقى، أمة مضیعة، لا تستحق إلا أن تعيش على هامش التاريخ - جزاءً وفاقاً - بما جعلت الحق على هامش حياتها.

وأمة الإسلام اليوم والتي كانت خير أمة أخرجت للناس بدأت - والحمد لله - تدرك هذه الحقيقة جيداً، كما أدركت حقائق غيرها - بفضل الله ورحمته - حقائق غابت عن الأمة أو غُيبت عنها عن عمدٍ وقصدٍ سابق بغية إخفاء الحق وإعلاء الباطل في الأرض.. كل الأرض.

ولئن كانت أمة الإسلام تعيش في إغفاءٍ قد سألنا الله تعالى أن تزول ولا تطول... فلقد بدأت الآن - بحمد الله - بصحوة إيمانية نسأل الله تعالى أن تطول ولا تزول.

ولقد شاءت حكمة الله سبحانه أن لا يكشف للناس آيات الحق الدالة عليه كلها مرة واحدة، وإنما يفتح الله لهم باباً بعد باب، ويريهم آياته في الآفاق آية بعد أخرى، جرياً على سنته التي لا تبدل لها ولا تحویل ﴿ولا تجد لسنننا تحويلاً﴾ الإسراء/٧٧.

وعلى قدر ما تستحق الأمة من فتح يفتح الله لها، وعلى قدر ما تفتح الأمة بصرها وبصيرتها لنور الله يفتح الله لها ويريهما من آياته المنظورة والمقروءة... مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ فصلت/٥٣.

وكما قال الزركشي «إن القرآن كتاب الله وكلامه وكما أنه ليس لله نهاية فذلك لا نهاية لفهم كتابه إنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه»^(١).

وما من شيء - صغر أم كبر - فيما يخص الحياة الإنسانية على هذه الأرض إلا له من الله بيان شافٍ وحكم متزل: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وفي أمم السابقين وقصص الأولين عبرة^(٢) وحكمة لا ينبغي أن تغفل عنها الأمة وإلا وقعت فيما وقعت به الأمم قبلها.. فلكل ظلم وبغي في الأرض سوء عاقبة، ولكل تكبر وطغيان خسف من الله ونخذلان، ولكل فساد في الأرض دمار خراب وذلك قانون وصدق الله إذ يقول: «فكل أخذنا بذنبه» العنكبوت/٤٠ و«فأخذهم الله بذنوبهم» آل عمران/١١.

كما أن لكل إيمان صادق نصراً من الله ورضواناً.. نصر من الله للمؤمنين وللرسول وصدق الله: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون» الصافات/١٧٨.

أما عن أهمية موضوع هذا الكتاب: فأقول - هذه سورة من كتاب الله الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» فصلت/٤٢. والذي قال عنه رسول الله ﷺ: «فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل»^(٣).

(١) البرهان للزركشي ٨/١.

(٢) قال تعالى: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. ما كان حديثاً يفترى» يوسف/١١١.

(٣) الحديث رواه الإمام الترمذي في مسنده عن علي بن أبي طالب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم» قلت: وما المخرج منها يا رسول الله.. قال: «كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم.. هو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى بغيره أضله الله.. هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعن معه الآراء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقض عجائبه.. لا مجلة لاتقياء ولا يشبع منه العلماء وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً.. من علم علمه سبق لله قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عجل به اجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب به مرفوعاً انظر (٢٩٠٦/١٥٨/٥).

هذه سورة من كتاب الله الكريم تبين ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من استعداد إزاء ما يعاصره من أحداث، وما ينبغي أن يكون موقفه تجاه أعداء الله والأمة والتاريخ.. ذلك السرطان البغيض الذي ما فتئ ينخر في عروق الأمة ويمزقها، ويستنزف طاقاتها، لا يكل ولا يمل حتى يفجر الأرض تحتها تفجيراً، أو يسقط السماء عليها كسفاً، أو يطفى نور الله ويرد المؤمنين عن دينهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كما قال تعالى:

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ البقرة/ ٢١٧.

إن أهمية سورة الإسراء - دراسة وتحليلاً - تكمن في أهمية الموضوع الذي اشتملت عليه السورة... ذلك الموضوع الذي هو ما ينبغي أن يعرفه المسلم من مسؤولية ملقاة على عاتقه - وقد كُلف بحملها - تجاه دينه وعقيدته وأمته بل وأهل الأرض جميعاً، وكذلك ما ينبغي أن يكون عليه من استعداد دائم ومتكامل في كل شيء وهو يواجه أخطر وحش يمكر في الليل ويتبسم في النهار، وأدهى ذئب يأكل يوسف الأمة دون أن يمزق قميصه.. وألثم أفعى تريك من نعومة جلدها ما ينسبك أو يشغلك عن سمّ ناهها اللئيم ... ناهها النابت في جنب الأمة عبر التاريخ.

أما عن أسباب اختيار الموضوع فأقول:

أني لما رأيت المصائب والفتن تزداد وتثقل على أمة الإسلام اليوم حتى باتت تعتصرها إلى درجة لا تقوى على الفكاك منها ولا تهتدي إلى الطريق المنقذ لها رغم أن كتاب الله بين يديها.. وما رأيت من إفساد بني إسرائيل في الأرض واستعلاؤهم فيها وسيطرتهم على مقدرات الشعوب حتى ما بقي - كما أظن - جانباً من الأرض إلا ومدّوا إليه أيديهم بالفساد والإفساد ابتغاء الفتنة وابتغاء العلو فيه... بشتى الوسائل والرايات التي تجمع من انظوى تحتها في دروب الدجل والخداع وهي تلوح لهم برغيف الخبز حيناً... وبالسعادة والرفاهية حيناً آخر وبالعدالة الاجتماعية ثالثاً كل ذلك لتحكم قبضتها على الأمم والشعوب بنظام - عالمي - جديد صنعتته وتحاول تنفيذه أدمغة المكر اليهودية عبر التاريخ.. يسلب الأرض ويهين أهلها، بقتل الأطفال والنساء، ويدس السم ويصنعه لأمم - العالم الثالث - والتي جعلها سوقاً لما ينتجه، وينشر الرذيلة والشذوذ

والكفر والإلحاد ... وليخفق الوعي والقيام من الزحف وليمزق الوحدة والتصدي لرايات الدجل وضلال المبطلين.. كل هذا وذاك ما جعلني أعكف على دراسة هذه القضية التي جاءت بها آيات من سورة الإسراء والتي هداني الله إليها فقد أيقنت أولاً ثم ازددت يقيناً آخراً بأن قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ

إِنَّمَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ... وَ﴿بِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

إِنْ مَا يَمُرُّ بِالْأُمَّةِ الْيَوْمَ مِنْ أَحْدَاثٍ جَسَامٍ مَتَلَحِّقَةٍ مَتَسَارِعَةٍ تَكْشِفُ النِّوَايَا وَالْأَهْدَافَ بَعْدَ مَا تَسَاقَطَتْ عَنْ الْوُجُوهِ كُلِّ الْأَقْنَعَةِ.

إِنْ مَا يَمُرُّ بِالْأُمَّةِ الْيَوْمَ مِنْ مَحَنٍ وَفِتَنِ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ مَا يَجْعَلُ بَعْضُ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ يَتَسَاقَطُ مِنَ الضَّعْفِ وَالْإِعْيَاءِ، بَيْنَمَا الْبَعْضُ الْآخَرُ يَتَشَبَّثُ بِالْحَبْلِ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ مَتِينٌ.

إِنْ كُلُّ هَذَا وَذَلِكَ مَا جَعَلَنِي أَفْتَحُ عَيْنِي وَقَلْبِي عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَبْتَغِي فِيهِ الْهُدَى وَمِنْهُ الضِّيَاءَ، لَأُسْتَدِلَّ عَلَى الدَّرَبِ الصَّحِيحِ فِي هَذِهِ الظُّلُمَاتِ الَّتِي لَفَّتْ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَإِذَا بِي أَسْمَعُ وَأَرَى وَأَجِدُ.. وَأَحْسُ بِالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ وَالْجَنَانِ طَرِيقَ الْإِيمَانِ وَاضِحاً جَلِياً، وَهِيَ ذِي آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَجْدَاتِ الصَّدِيقِينَ وَتِلْكَ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ أُنْهَى تَضْوَعُ مَسْكٌ وَضِيَاءٌ... فَلْأَصُورَنَّ تِلْكَ الْآثَارَ وَالسَّجْدَاتِ بِهَذَا الْمَدَادِ مِنْ دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ.. وَسَأَعُودُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لِأَنْثَرَهَا فِي تِلْكَ الدَّرُوبِ الْحَالِكَاتِ لَعَلَّهَا تَكُونُ مَعَالِمَ عَلَى الطَّرِيقِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي ظُمْتُ وَقَدْ تَعَبْتُ، حِينَ تَصْحُو - وَقَدْ كَادَتْ - وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَتَقَبَّلَهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَيَنْبِتَهَا نَبَاتاً حَسِناً، وَيَهَيِّئَ لَهَا مِنْ يَكْفُلُهَا - إِنْ لَمْ أَصِلْ بِهَا - إِنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، نَعَمُ الْمَوْلَى وَنَعَمُ النَّصِيرُ.

وَقَدْ اسْتَعْنَتْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَجَعَلْتُ لَهُ فُصُولاً أَرْبَعَةً:

• الفصل الأول:

أهم المواضع الرئيسية في سورة الإسراء.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول - (التعريف بسورة الإسراء)

فقد فصلت القول فيه من حيث أسمائها وآياتها ونسبتها وفضلها وأهم موضوعاتها ومحورها الرئيس ومكانها من الترتيب التزوي للمكي والمدني والغاية من ذلك وموقفها من بني إسرائيل من ثم.

المبحث الثاني - (عن خارقة الإسراء)

وكيف كانت في أنسب وأدق فترة حرجة كان يعيشها النبي ﷺ وهو (يجاهد كي يتم بعث الأمة التي شاء الله أن تكون عقوبة بني إسرائيل على يديها)، فكان الإسراء نقلة بعيدة في آفاق غيب الله عبر أبعاد الزمان والمكان ليرسم آفاق المستقبل لهذا الدين ودوره في القضاء على إفساد بني إسرائيل وإعادة المسجد الأقصى إلى حظيرة الإسلام وتبوير كل ما علاه اليهود تبيرا وقد بينت ما يعنيه الإسراء في اللغة والاصطلاح وأوردت أهم الروايات التي وردت فيه وما كان لبني إسرائيل دور فيها ومناسبتة وأسبابه والحكمة منه ومن ثم علاقته ببني إسرائيل.

المبحث الثالث - (بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء)

فقد حصرت الحديث فيه عن أهم القضايا التي طرحتها سورة الإسراء ضمن الإطار العام الذي تحدثت به السورة عن بني إسرائيل، وقد اخترت ثلاث قضايا جعلت لكل قضية منها مطلب خاص بها فكان:

المطلب الأول - أصل بني إسرائيل.

المطلب الثاني - أسماء بني إسرائيل.

المطلب الثالث - الكتب المقدسة عند بني إسرائيل.

وقد اثبتُ من خلاله كذب ادعاء اليهود انهم من سام وحده وإنما هم أخلاط من قبائل وأمم شتى كانوا مقطعين في الأرض وقد جيء بهم ليفيلاً لتحقيق الوعد الآخر بهم بعد إفسادهم الحالي بإذن الله تعالى^(١).

• الفصل الثاني:

سورة الإسراء بين الحقائق والقواعد والأصول التفسيرية

فقد كان المدخل أو الأساس الذي بنيت عليه الفصول الثلاثة الباقية من حيث أنها جاءت دراسة تحليلية لإفسادي بني إسرائيل في القرآن الكريم ولأن هذه الدراسة كان ميدانها كتب التفسير واللغة وعلوم القرآن والحديث وحقائق التأريخ كان من الضروري - باعتقادي - أن أضع لها أساساً من الأصول التفسيرية والحقائق اللغوية والقواعد التي قعدها المتقدمون في مجال التفسير عموماً وفي مجال التفسير اللغوي والتفسير البياني خصوصاً وعليه فقد جاء هذا الفصل مشتملاً على مبحثين:

المبحث الأول- (سورة الإسراء بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية)

بينت فيه موقع سورة الإسراء المتفرد بين الحقائق القرآنية والتي جاءت مثل فلق الصبح ولم تكن كذلك من قبل وبين القواعد التفسيرية التي لم تعامل بها سورة الإسراء وكانت في معزل منها أو تكاد.

والمبحث الثاني- جاء في (بعض أصول التفسير وقواعده) مما ينبغي أن تكون نصب العين وبين اليد ونحن نتعرض لتفسير سورة فريدة في إيحاءها كسورة الإسراء من حيث المنقول والمعقول في التفسير وأسباب ضعف التفسير بالمأثور وعدم إهمال بعض مصادر التفسير وبعض قواعده وأن هناك اختلاف في التفاسير ينبغي أن يقدر.

• الفصل الثالث:

إفسادا بني إسرائيل عند أهل التفسير

المبحث الأول - قد جعلته في (أقوال المفسرين ومناقشتهم فيها).

(١) اضطررت إلى حذف هذا المبحث في هذه الطبعة اختصاراً.

المطلب الأول - معنى القضاء والكتاب في قوله تعالى:
﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً
كبيراً﴾.

المطلب الثاني - معنى الإفساد الوارد ذكره في الآية.
المطلب الثالث - معنى العلو الوارد ذكره في الآية أيضاً.
المبحث الثاني - فقد جاء في أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتهم فيها.
المطلب الأول - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول ومناقشتها.
المطلب الثاني - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني ومناقشتها.
المطلب الثالث - أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني ومناقشتها.

• الفصل الرابع:

إفساد بني إسرائيل كما أوحى بهما المعطيات القرآنية

ففي:

المبحث الأول - تحدثت فيه عن الإفساد الأول والعقوبة عليه.
المبحث الثاني - عن الإفساد الثاني والعقوبة عليه وكلاهما من خلال تحقق مقومات
الإفساد الأول والثاني.

• الفصل الخامس:

بيان مستقبل بني إسرائيل من خلال سورة الإسراء

حيث جاء:

المبحث الأول - في بيان قانوني العقوبة على بني إسرائيل.
المبحث الثاني - جاء في بيان أن مجيء الجمع اللفيف إنما هو تمهيد لإيقاع العقوبة
عليهم في الوعد الآخر.
لأنخلص بعد ذلك لمنهج التصدي لإفساد بني إسرائيل واستعلاؤهم فيه.

• الخاتمة:

ثم جاءت الخاتمة بعد ذلك في بيان مسألتين:

الأولى- الاستنتاجات المتحصلة من خلال هذه الدراسة المكثفة لهذه القضية.

الثانية- التوصيات التي قدمتها بناءً على ما توصلت إليه من حقائق جاءت

كالشمس لا يمارى فيها.

ثم ختمت الرسالة بملحقين..

الأول: عن الجدول الزمني لتزول القرآن وبينت فيه ترتيب السور المكية والمدنية

حسب التزول والغرض منه بيان زمن الخبر ونوعه والآيات التي ورد بها وذلك لإثبات أن

السور المكيّة إنما جاءت لتخبر عن فساد بني إسرائيل الماضي - غالباً - وان السور المدنية

جاءت لعلاج إفساد بني إسرائيل المعاصر للنبي - غالباً - بينما تفردت سورة الإسراء

بالإنباء عن مستقبل إفساد بني إسرائيل في الأرض..

الثاني: جعلته جدولاً ومخططاً توضيحياً لبيان تسلسل الأنبياء إلى بني إسرائيل

وتسلسل الملوك الذين تعرضوا لهم والمراحل التي مروا بها والغرض منه بيان وتحديد

الإفسادين حسب ما ورد في أقوال المفسرين وكذلك بيان وتحديد الإفسادين كما

أوحى به المعطيات القرآنية..

أما عن منهج البحث ...

فقبل ذي بدء أقول..

إنه لما يتعجب له المرء أن تترك قضية كقضية بني إسرائيل على ما نراه من

اختلاف عند جمهور المفسرين الكرام - مدّة اثني عشر قرناً من الزمان - دون أن تدرس

أو يحاط بها علماً.. ويُحلّ الخلاف الواقع فيها على ما يحبه الله ويرضاه طيلة هذه المدة

والتي ما أظنها قصيرة أبداً من يوم أن تعرّض الإمام الجهيد ابن جرير الطبري وأورد في

تفسيره لها عدّة روايات لا تقوى - في الأغلب الأعم - أن تكون أساساً يعتمد عليه في

التوصل إلى (فهم صحيح لهذه القضية) لإمور سنذكرها إن شاء الله تعالى...

ومن ثم فإن كل من جاء بعده من المفسرين إنما أخذها عنه - كلاً أو جزءاً - فأوردها في تفسيره كما فعل السيوطي في الدر المنثور مثلاً، أو ربما حذف الأسانيد منها وتخير ما رآه راجحاً عنده كما فعل الماوردي وتبعه ابن الجوزي رحمهم الله، بينما البعض الآخر نجده أعرض كلياً عن هذه الروايات وقال إنها من الإسرائيليات ولا علاقة للنص القرآني بها كما فعل صاحب أضواء البيان.

بينما نجد القسم الرابع قد ترك النص والمأثور واعتمد على ما في التوراة أو التاريخ من قريب أو بعيد كما فعل ابن عاشور في هذه القضية التي نحن بصددتها في الوقت الذي يشهد تفسيره القيم بسعة علمه في غير هذه القضية.

والذي أريد أن أخلص إليه أن هذه القضية - قضية إفساد بني إسرائيل - والتي جاءت الآيات في صدر سورة الإسراء تتحدث عنها لم تلق حظها من العناية دراسة وتحقيقاً طيلة هذه القرون الطويلة.

ولعل ذلك له علاقة بإعجاز القرآن..

* فلماذا يا ترى حين بين النبي ﷺ بعض ما في آي القرآن لم يبين هذه الآيات؟.

* فمتى كان هذين الإفسادين أو متى سيكونان؟.

* ومن هم المبعوثون عليهم عقب كل إفساد؟.

* ولماذا لم تتفق أقوال الصحابة في هذه القضية..؟.

* ولماذا زادت شقة الخلاف عند التابعين وقد سألوا أهل الكتاب عن

أخبارهم؟.

● ولماذا تضاربت الأقوال واختلفت اختلافاً كثيراً عند من جاء بعدهم؟.

وذي كتب التفسير و التاريخ تعج بالأخبار المتناقضة عن هذين الإفسادين حتى لا

يصدر عنها القارئ لها إلا وقد اختلط الأمر عليه وزيد في حيرته ...

لماذا هذا الاختلاف؟

أهي قضية في القرآن من القضايا التي استأثر الله تعالى بعلمها كقضية الروح مثلاً.

فلا ينالنا من العلم فيها إلا قليلاً؟..

أم إنها قضية لم يبينها النبي ﷺ وهو الذي جعل الله مهمته أن يبين للناس كما.
قال تعالى:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ النحل/ ٤٤ .
أكان تقصيراً منه وحاشاه - عليه الصلاة والسلام - وهو الذي كان يأخذ
الشهادة من الناس أمام الله في كل وقت بقوله (ألا هل بلغت) فيقول الناس (بلى) فيقول
الله فاشهد.

أم أن العربية لم تسعف أساطينها؟ وقد نزل القرآن بها.

فقال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ يوسف/ ٣.

أم قعد بالمفسرين الاجتهاد والسعي عن إدراك وبلوغ المرام وهم الذين نشروا هدي
هذا الدين في الأرض حتى اجتاز المشرقين؟ وأوصلوه إلى من سكن الآفاق. بعد ذلك
الانفجار الإسلامي الذي هز الدنيا وأودعوا مكاتب التاريخ بالذخائر والنفائس حتى لم
يجد الحاقدون شيئاً يظهرون به سواد قلوبهم إلا أن يصبغوا مياه الأنهار بسواد مدادها.
أم أن التاريخ وقف عاجزاً عن أن يخبرهم عن إفساد بني إسرائيل في الأرض؟
التاريخ الذي يكاد لم يخبر عن شيء كما أخبر عن إفساد بني إسرائيل في الأرض على
مدار فصوله؟.

ولذلك كان عليّ أن أحصر هذا الخلاف - كمرحلة أولى - فحصرته في قضيتين.

الأولى: هي تحديد هذين الإفسادين ووقت وقوعهما.

الثانية: بيان هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد منهما..

أما عن القضية الأولى فقد اختلف المفسرون في تحديد هذين الإفسادين غير أنهم
اتفقوا على أنهما وقعا قبل الإسلام وقبل نزول القرآن..
وأما عن القضية الثانية فقد اختلفوا في هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد
اختلافاً كبيراً.

قلت: إنه إن كان ولا بد من حصر هذا الاختلاف فبعد الدراسة المستفيضة والمتابعة الكثيرة وجدت بفضل الله تعالى أن المسألة لا تعدو أكثر من انقسام العلماء إلى فريقين ولكل فريق قول اعتمده على ما ترجح عنده من أدلة توصل بها إلى ما قال..

الفريق الأول: قالوا إن هذين الإفسادين اللذين ذكرتهما سورة بني إسرائيل إنما وقعا منهم قبل الإسلام وقبل نزول القرآن... وهو ما قال به أكثر المفسرين - رحمهم الله - غير أنهم اختلفوا في تحديد هذين الإفسادين وفي هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد - إختلافاً كبيراً وسأعرض تفاصيل هذا القول وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها وسأسقط ما ضعف وبان شذوذه من أدلتهم..

الفريق الثاني: قالوا إن هذين الإفسادين إنما وقعت العقوبة على الأول منهما في الإسلام وعلى يد النبي ﷺ وأصحابه الذين استحقوا شرف الانتساب إليه في ﴿عباداً لنا﴾.. والإفساد الثاني سيكون منهم مستقبلاً وستكون العقوبة أيضاً على يد عباد يعثهم الله ليسؤوا وجوه اليهود وليدخلوا المسجد كما دخله سلفهم أول مرة.. ولكن لن يكتفوا هذه المرة بالجلوس خلال الديار وإنما سيتبرأوا ما علاه اليهود - تنبيراً - وبهذا قال بعض العلماء المحدثين الذين تعرضوا لتفسير هذه الآيات.. وسأعرض تفاصيل هذا القول أيضاً وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها عندهم..

والمنهج الذي اتبعته في معالجة هذه القضية إنما كان:

أولاً: جمع أقوال المفسرين وتوحيدها وحصرها ضمن محاور ثلاثة:

المحور الأول - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول ومناقشتهم فيها مبيناً:

أ: - من قتل فيه من الأنبياء.

ب: - من بعث عليهم فيه.

المحور الثاني - أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني ومناقشتهم فيها كذلك

مبيناً: أ: - من قتل فيه من الأنبياء. ب: - من بعث عليهم فيه.

المحور الثالث - أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين ومناقشتها.

ثانياً : إرجاعها إلى أصل الروايات التي أوردها الإمام الطبري حيث أنه - رحمه الله - قد أورد كل الروايات - على ما أظن - فيما يخصّ هذا الموضوع ولم يترك شيئاً، يفهم هذا من كثرة ما أورده الطبري من روايات والتي كان منها روايات موضوعة أصلاً كما ذكر ذلك الإمام ابن كثير في تفسيره،(*) ومنها ضعيفة السند وشاذة المتن ومنها ما كان صحيح الإسناد وشاذة المتن كذلك.

ثالثاً: تحرّيت الأقوال التي رجّحها المفسرون الذين أوردوا الروايات التي اعتمدوها بعد حذفهم لأسانيدها فوجدت أن لها أصلاً في تفسير الطبري وقد أوردوها في تفاسيرهم بصورة مختصرة.

رابعاً: حققت هذه الأسانيد والطرق التي أوردها الإمام الطبري في تفسيره فاخترت الصحيح وأسقطت الضعيف - للأمانة العلمية - من ناحية السند، أما من ناحية المتن فقد عدت إلى كتب التاريخ لأثبت من حقيقة هذا القول أو ذاك فوجدت في تلك الروايات من الشذوذ ما يسقط قيمتها العلمية لمخالفتها الحقائق التاريخية الثابتة.

خامساً: أما الأقوال التي قال بها أصحابها والتي لم يعتمدوا فيها على الروايات المأثورة وإنما استنتجوها من خلال دراستهم أو ما توصلوا إليه من علم فقد عرضتها على الحقائق القرآنية وحقائق التاريخ ومن ثمّ فما وافقتها أخذته وإلا فتركته.

ثم بعد ما رأيت في النهاية أنه ليس ثمة ما يعتمد عليه أو يصلح أن يكون فيه تفسيراً لهذه الآيات تفسيراً مقبولاً ينسجم مع أبعاد ومعطيات النص القرآني وليس له في الواقع الذي نعيشه أي تأثير.. إذ ما تأثير آيات حُصر معناها في ماضي الزمان دون الحاضر والمستقبل..؟ عدت إلى القرآن، قرأته، تدبرته، بحثاً واستقصاءً، فوجدت من الآيات ما لها علاقة وثيقة بالآيات في صدر سورة الإسراء وأضنها مما تقتضيه الوحدة الموضوعية في القرآن.. واستعنت بكتب ومعاجم اللغة لأصل إلى المعنى الأمثل للمفردة القرآنية.. فاتسعت دائرة الفهم وقويت الروابط بين الآيات.

(*) كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وكان هاجساً يدعوني إلى مراجعة كتب السيرة في بعض مفاصلها.. وشيئاً فشيئاً تبينت لي معطيات قرآنية ثرة بإشرافات فيّاضة... بدت وكأنها حية تنبض... أخذتها للمتها من هنا وهناك، ثم نظمتها فانسجمت واتسقت مع حركة الإسلام الفتي يوم أن قوي عوده فكان دولة في المدينة وتصدّي للفساد والإفساد اليهودي الذي تجمع وتكاثف وعاند وتطاول، فظهر في أبشع صورة يوم أن واجه الإسلام وني الإسلام بذلك الوجه القبيح من الكفر والغدر ونقض العهود وتآليب أعداء الله من الكافرين والمنافقين على نبي الإسلام ودولته التي قامت قبل حين..

ثم ومن خلال هذه الدراسة للمفردات القرآنية ومطابقتها للواقع التاريخي الذي عاشه بنو إسرائيل في القدم والواقع المعاصر للنبي ﷺ برزت معطيات قرآنية أعطت صورة مقبولة جداً وليس من السهل إنكارها - غير أنني لا أجزم بها بشدة - لاعتقادي بأن هذا القرآن معجز وأن الجزم بمعنى ما حجرٌ عليه في زمن ما، وهذا غير صحيح فمن يدري ربما سيكون هذا الفهم الذي توصلتُ إليه قاصراً وسيأتي بعدُ من يُظهر الله على يديه حقائق ومعطيات أشمل وأجل مما ظهر من خلال هذه الدراسة من معطيات قرآنية أعطت صورة مقبولة ترجّحت عندي وما وجدت لها نكيرا في مجال الفكر والاعتقاد أو في مجال التحليل العلمي للمفردات القرآنية للوصول للحقائق القرآنية التي تؤيدها بشدة حقائق التاريخ الذي عاشه بنو إسرائيل في الزمن الماضي والذي سبق مبعث النبي من قريب أو بعيد والتاريخ الذي عاصروا فيه النبي ﷺ وما كان دورهم فيه وفي التاريخ الذي هم فيه اليوم.

ويبقى ادعاء الكمال أول النقص كما أن ادعاء العلم أول الجهل إذ هما لا يليقان إلا بالله تعالى القادر على كل شيء والعليم بكل شيء سبحانه وصدق الله:

﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ يوسف/ ٧٦.

أما عن الصعوبات:

فلقد عانيت من عقبات وجدت فيها من الصعوبات الشيء الكثير بسبب سعة الموضوع وتشعب أطرافه وخطورة المسألة التي أقحمت في التعرض لها والتي اختلفت فيها

أقوال الجهابذة من المفسرين والعلماء الإجلاء حتى لقد سودت فيها صحائف كثيرة من كتب التفسير والتأريخ والسير من الإسرائيليات والأخبار العجيبة والروايات الضعيفة المخالفة للنص القرآني من قريب أو بعيد والتي جاءت الحقائق التاريخية مخالفة لها كذلك. إن سورة الإسراء بحد ذاتها بحر خضم لا تكاد تجد له من ساحل لاشتمالها على كثير من الحقائق القرآنية والتي أعظمها خارقة الإسراء التي حدثت للنبي ﷺ وهذه بدورها - والتي لم يتحدث عنها القرآن بأكثر من آية - لكنها في الحقيقة لا تكفيها كتب ومجلدات كيما يحاط بها، وإلا من يملك أن يواكب نجماً سما في الآفاق واخترق السبع الطباق - لكي يرى - ثم عاد في جزء من الليل يسير وقد ﴿رأى من آيات ربه الكبرى﴾ النجم/١٨.

وبنو إسرائيل الذين لم يسع التاريخ فسادهم، أفتسعهم صحائفهم؟ فقد ضاقت بهم - على اتساعها - الدنيا، وجاء ذكرهم في ثلاثة أرباع سور القرآن تقريباً بين مكّيّه ومدنيّه، حتى شمل الحديث عن فسادهم في كل صورته وجوانبه - وكذا مراحلها - في السور ذوات العدد فما ظنك بإفسادين في الأرض واستعلاء على الناس - علواً كبيراً - جاء الإنبياء عنهما في آيات قليلة في سورة سميت باسمهم - سورة بني إسرائيل - اضطربت في بيانهما أقوال كبار المفسرين واختلطت فيها مذاهب العلماء والمفكرين.. حتى زحرت بالحديث عنها كتب وصحائف كثيرة لا يكاد العليل يجد فيها بلّة لريق، أو شفاء لصاد أو نجدة لغريق.

إذ أن كل ما اعتمد عليه في تفسير هذه الآيات إنما كان في الأغلب الأعم من الروايات الضعيفة بحيث أني أنفقت من الجهد الكثير قبل الوصول إلى ما وصلت إليه في تحقيق تلك الروايات وذلك بالرجوع إلى كتب الحديث المعتمدة وتراجم الرجال في كتب الجرح والتعديل وكذلك دراسة النصوص والتثبت من حقائق التأريخ في مضافها، كل ذلك من أجل الوصول إلى تفسير مقبول في فهم معنى هذه الآيات، مع الأخذ بنظر الاعتبار صعوبة الحصول على المراجع والمصادر في هذا الظرف الذي يمر به بلدنا الكريم من حصار فرضه أعداء الله والدين..

ولا يخفى على كل ذي لب أن من يُطلب إليه حلّ معضلة ينبغي أن يتفرغ أو يُفرّغ لها فكيف وقد عشتُ السنوات الأخيرة في دراسة هذه القضية وأنا كمن تجنّد لحربه شياطين من الإنس والجن؟ حتى ما عدت أعرف من أين تأتي المشاغل والفتن يجر بعضها بعضها ولولا أن الله ثبت هذا العقل برحمته وثبت ذلك القلب بالإيمان به لما توصلتُ إلى ما وصلت إليه من نتائج كانت في ظهورها كالشمس لا يمارى فيها.. فله الحمد أولاً وآخراً.

فوجدت الطريق من خلال آيات فيها من العطاءات القرآنية ما كانت - ولا تزال - ثرةً وستبقى، لأنها من نور، وفيها من الوحي المتفجر الذي يكتسح ظلمات كل القرون، ترسم المنهج وتعطيك الزاد وتبعثك من الموت ومن الضياع ومن التخاذل - بعثاً - لتكون قدراً من أقدار الله في ﴿عباداً لنا أولي بأسٍ شديد...﴾..

وبفضل الله ورحمته استطعت أن اجمع حقائق من كتاب الله ... تفجرت من خلال آيات من سورة الإسراء.. حقائق لا أقول أني استوفيتها من أقطارها فهذا شيء غير ممكن لأسباب كثيرة أهمها أنها من كتاب الله الذي هو كلام الله المعجز.. الذي ليس كمثله شيء، وكما أنه سبحانه لا تحدّه الحدود ولا يسعه كل الوجود.. فكذلك كلامه سبحانه لا نهاية لوحيه ولا ساحل لبحره بل ﴿لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مددا﴾ الكهف/ ١٠٩.

وكل شجر الدنيا لو كان أقلاماً وأصبح البحر حبراً لهذه الأقلام وأمد بسبعة أبحر أخرى، ما نفذت كلمات الله... وصدق الله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ لقمان/ ٢٧.

لا.. وإنما هي إشراقات من وحي القرآن المتجدد والتي اتسعت واتسعت حتى بلغت الآفاق لأنها من الآفاق جاءت لتصبّ في كل قلب قهياً لها بعد ما تدبر آياته على مكثٍ دون أن يتعجل طامعاً بهدي الله ليقضى إليه وحيه، داعياً من الله كما أمر ولا يزال يدعو ﴿ربي زدني علماً﴾ ربي زدني بما علمت عملاً وفهماً.

هذه الآيات ما جاءت لتخبر فقط بل لتنبئ أيضا، إذ أنها من الآيات التي أوحى إلى النبي بها وقيل له ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ هود/٤٩.

وما جاءت لتوضح فحسب بل لترسم كذلك، إن خطوات من مضوا في الطريق قد درست.. وخطوات من بقوا على الطريق فقد قضيت ﴿تلك أمة قد خلت﴾ البقرة/١٣٤.

﴿من يتردد منكم عن دينه، فسوف يأت الله بقوم يحبه ويجبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله﴾ المائدة/٥٤.

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾ هود/١١٦.

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين - ونمكّن لهم في الأرض - ونري فرعون وهامان وجنودهما - منهم - ما كانوا يحذرون﴾ القصص/٥-٦.

وليس ثمة ما يحذرون أكثر من بعث عباد الله أولي بأس شديد ليسوؤا وجوههم ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تبيرا﴾ الإسراء/٧.

كل تلك مشاعل وكل مشعل منها كفيل أن ينير جانبا من الجوانب التي ادلهمت على أمة فقدت - أو كادت - الاتجاه الصحيح.

* تلك الصفحات التي من الضياء انطلقت.

* بأدلة من الحق والتاريخ والواقع قد أُيدت.

* كتبتها بقلب مطمئن إلى قدر الله رغم اضطراب كل شيء من حولي..

* وبفكرٍ عرف الطريق رغم ضياع العقول بين الدروب..

* وبعبارة صادقة رغم طوفان نفاق الكاذبين اليوم..

بإسلوب سهل وجزيل، قاصدا البيان والتبيين، فيه تفصيل غير ممل على ما به من
اختصار غير مغل... ..

والله أرجو أن أكون عند حسن ظنه بي.. وظنه ليس إلا حسنا سبحانه..
فهو ربي..

وهو حسبي...

ونعم الوكيل...

اللهم تقبل مني...

واقبلني عندك في الشهداء..

أو في الشاهدين...

الباحث



الفصل الأول

أهم المواضيع الرئيسية في سورة الإسراء

المبحث الأول

التعريف بسورة الإسراء

المطلب الأول:

أسمائها - آياتها - نسبتها - وقت نزولها -
فضلها عند النبي ﷺ والصحابة.

المطلب الثاني:

موضوعاتها - أغراضها - محورها الرئيسي
أهميتها في علاج واقع المسلمين اليوم

المطلب الثالث:

علاقتها ببني إسرائيل

المبحث الأول

التعريف بسورة الإسراء

المطلب الأول

أسمائها - آياتها - نسبتها - وقت نزولها

فضلها عند النبي ﷺ والصحابة

١ - أسمائها:

لسورة الإسراء عدة أسماء ذكرها المفسرون هي:

أولاً - سورة الإسراء^(١):

وذلك نسبة إلى حادثة الإسراء التي ذكرت في أول آية منها.. تلك الخارقة^(٢) العجيبة التي اختص بها النبي ﷺ واختصت بذكره، وقد سميت في كثير من المصاحف بـ«سورة الإسراء»^(٣).

ثانياً - سورة بني إسرائيل:

عن عبد الله بن مسعود انه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: «إنهن من العتاق الأول وهنّ تلادي». وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير ووجه ذلك أنها ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها^(٤).

(١) انظر الآلوسي (١٥-٢).

(٢) اختلف في الإسراء أهو خارقة أم هو معجزة للنبي ﷺ والراجح انه خارقة ولذلك أثبتته هنا، وقد فصلت القول في مبحث الإسراء فانظر هناك.

(٣) وانظر التحرير والتنوير لابن عاشور (٥/١٥).

(٤) انظر فتح القدير ١٩٨/٣ وانظر ابن عاشور ٥/١٥ والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير انظر فتح الباري ٤٩٥/٨.

ثالثاً - سورة سبحان^(١):

قيل لأنها ابتدأت بتزيه الله سبحانه عن النقائص وختمت به كذلك وجاءت كثير من آياتها تتحدث عن كمال الله تعالى ونفي النقص عنه سبحانه. ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به^(٢).

٢ - آياتها:

الجمهور على أنها (١١١)^(٣) غير أن الشوكاني قال إنها (١١٠) مائة وعشر آيات وعند الكوفيين أنها (١١١) مائة وإحدى عشرة^(٤) «وهي ١٥٣٣» ثلاثة وثلاثون وخمسمائة وألف كلمة و«٦٤٦٠، وستون وأربعمائة وستة آلاف حرف»^(٥). «ولم تثبت البسمة إلا لأبي ذر».*

٣ - نسبتها:

جاء في فتح القدير عن ابن عباس قال «نزلت سورة بني إسرائيل بمكة»^(٦) وذكر الإمام الرازي في تفسيره «أنها مكية إلا الآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧ ومن الآية ٨٠ فمدنية»^(٧) أما الإمام الألوسي فقال: «وهي كما اخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن

(١) الألوسي ٢/١٥.

(٢) تفسير بيان المعاني عبد القادر ملا حويش/ القسم المكي ج/١.

(٣) قلت في تفسير الرازي الذي بين يدي الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية أورد مرة أنها «١١١» ومرة قال: «عدها مائة آية وعشر آيات دون أن يبين لعله خطأ مطبعي» انظر «١٤٥/٢٠».

(٤) فتح القدير ١٩٨/٣. قلت هي في كل المصاحف (١١١) آية ولم أجد أحداً من المفسرين أيد ما قال الشوكاني. أو ذكر الآية المختلف فيها.

(٥) تفسير بيان المعاني على ترتيب التزول ج/١ القسم المكي.

* غير انه جاء في عمدة القاري إن البسمة لم تثبت إلا لأبي ذر. قلت ولعلها هي - الآية - التي اختلف فيها... انظر عمدة القاري «٢٣٥/١٩ رقم الحديث/٣٩١».

(٦) انظر فتح القدير ١٩٨/٣.

(٧) التفسير الكبير للرازي ١٤٥/٢٠.

الزبير رضي الله عنهما أنها مكية وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور»^(١) وقد نزلت بعد القصص^(٢).

٤ - وقت نزولها:

نزلت سورة الإسراء بمكة بعد حادثة الإسراء التي حدثت للنبي ﷺ، وهي من أوائل السور المكية الطويلة حيث كان ترتيب نزولها الخمسين. وقد سبقتها سورة القصص التاسعة والأربعون ونزلت بعدها سورة يونس وهي الحادية والخمسون حسب ترتيب نزول القرآن الكريم^(٣).

٥ - فضلها عند النبي ﷺ وأصحابه:

روى الإمام أحمد في مسنده عن وائلة بنت الاسقع: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المثني مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني.. وفضلني ربي بالمفصل..»^(٤).

لقد كان لسورة الإسراء فضل عند النبي ﷺ، فقد ذكر الإمام الشوكاني في فتح القدير.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمير»^(٥). وقال الإمام القرطبي عن ابن مسعود ﷺ، عن بني إسرائيل والكهف ومريم - إهن من العتاق الأول - وهن من تلادي يريد من قسم كسبه^(٦).

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ٢/١٥.

(٢) تفسير بيان المعاني ج/١ القسم المكي.

(٣) انظر تفسير ابن عاشور ٧/١٥. وانظر الجدول الزمني لنزول القرآن ملحق رقم ١ وانظر أسباب النزول للواحدي ص/٢١٦ وما بعدها.

(٤) رواه الطبري في التفسير ٤٤/١ والهيتمي في مجمع الزوائد ١٥٨/٧.

(٥) انظر فتح القدير ٣/١٩٨.

(٦) القرطبي ١٠/٢٠١، والحديث رواه الإمام البخاري في كتاب التفسير انظر فتح الباري ٨/٤٩٥.

وجاء في روح المعاني للآلوسي قوله: أخرج ابن جرير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: أن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم واستفزازهم للنبي ﷺ وأرادهم إخراجهم من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح ثم ختمها جل شأنه بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون. وأخبر تعالى إن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأهلك. وورث بنوا إسرائيل من بعده. وفي ذلك تحريض بهم انهم سينالون ما نال فرعون.. حيث أرادوا بالنبي ﷺ ما أراد هو بموسى عليه الصلاة والسلام وأصحابه^(١).

المطلب الثاني

موضوعاتها وأغراضها ومحورها الرئيس

سورة الإسراء من السور التي ركزت على قضايا العقيدة وأصول الدين، كالوحدانية والرسالة والبعث والحساب. شأنها كشأن غيرها من السور المكية، ولكن العنصر البارز فيها هو شخصية الرسول ﷺ وما أيده الله به من المعجزات الباهرات والحجج القاطعة الدالة على صدقه.

وموضوعات سورة الإسراء وأغراضها كثيرة أجمالها في نقاط اختصاراً:

● إثبات وقوع معجزة الإسراء للنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعودته إلى مكانه في جزء من الليل.. حين أرسل الله إليه استضافة في جنابه وكلمه مباشرة وأعطاه ما لم يعط غيره من الأنبياء، وكان هذا مظهراً من اعظم مظاهر التكريم له ﷺ.

● إثبات نبوة محمد ﷺ وان الله شرفه بنسبته إليه بصفة العبودية له سبحانه فقال «بعده» ثبت الكمال له ﷺ بتحقيق العبودية لله دون سواه.. وأنه شرفه بالحديث معه مباشرة في مكان لم يصل إليه أحد قبله ولا بعده.

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ٢/١٥، وانظر الأساس في التفسير لسعيد حوى ٣٠٢٣/٦.

● إثبات أن القرآن وحي من الله تعالى.. وإثبات فضله - على الكتب - وإثبات أنه معجز وأنه فيه وحده الهداية والصلاح، فكان اختصاصه بالهداية للتي هي أقوم من غيرها، وأنه يبشر المؤمنين وينذر الكافرين..

● بينت السورة أن الله قضى على بني إسرائيل أنهم سيفسدون في الأرض مرتين وسيعلمون علواً كبيراً وما سيصيبهم من ذلة ودمار وإساءة لوجوههم عقب كل إفساد وعلو في الأرض بالظلم والطغيان.

● بينت السورة فضائل الآداب الاجتماعية والأخلاقية الكريمة فحثت عليها ودعت إلى التحلي بها ليكون المجتمع المثالي الفاضل من قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ الآية ٢٣ إلى قوله تعالى ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ آية/٣٩.

● إن الله تعالى عندما ينزل وحياً على أمة، ويختارها لحمل رسالته فهذه نعمة يستوجب كفرها عقابه. وقد انزل الله وحياً على بني إسرائيل فكفروه فاستحقوا عقابه. وقد انزل الله على هذه الأمة هذا الإسلام، وأمرهم بالدخول فيه كله، ونهاهم عن اجتناب خطوات الشيطان وعليهم أن يتعظوا بما حدث لبني إسرائيل من تسلط غيرهم عليهم عندما ابتعدوا عن دينه.

● وذكرت كذلك ضلالات المشركين وكيف رد الله عليهم شبهاتهم عند قوله تعالى ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ الآيات/٤٠-٤٣.

● وتحدثت عن تزيه الكون كله والسموات السبع والأرض ومن فيهن لله تعالى وما من شيء إلا يسبح بحمده غير إنكم تظلمون فلا تزهونه كما ينبغي لكم. ومع هذا كله كان حلماً غفوراً.

● وتحدثت عن إعراض الذين لا يؤمنون بالآخرة وجعل الحجب عليهم والاكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم فلا يفقهون ما في هذا القرآن من هدي فيضلون فلا يستطيعون سبيلاً.

● وتسجل سورة الإسراء عجبهم من إمكان خلقهم من جديد بعد أن يكونوا عظاماً ورفاتاً وتخبرهم أن يكونوا ما شاءوا حجارة أو حديداً أو أي خلق مما يكبر في صدورهم.. فسيعيدهم.

● وتحذر من نزع الشيطان بينهم عدوهم المبين.

● وتقرر أن الله قد فضل بعض النبيين على بعض فيأبراهيم اتخذ الله خليلاً وجعله إماماً وموسى أعطاه تسع آيات بينات وعيسى جعله من روحه وجعله آية للناس وأرسله إلى بني إسرائيل، ومحمد ﷺ قد أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت ومن أجل ذلك شرفه بضيافته إلى بساط قدسه في أعلى وأجل مكان كما أجله على الأرض بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان - دونه - والذي هو مهبط الشريعة الموسوية ورمز أطوارها - وأحداث تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم.

● وفيها التهديد بالهلاك للقرى إذا ظلمت وفسقت عن أمر الله وإن ذلك سنة الله في خلقه سطرها الله في كتابه.

● ويثبت السورة رعاية الله لعباده المؤمنين باعتباره وكيلاً لهم وتحدث كل أعدائهم من المشركين والكافرين من أهل الكتاب وخاطبتهم من خلال مخاطبتها للشيطان باعتبارهم أعوان الشيطان وأولياءه فقالت لهم وله: واستفز من استطعت منهم بكل ما تملك من إعلام وصحافة وخيل وقوة وو.. ولكن عبادي ليس لك عليهم سلطان ما دمت أنا وليهم.

● وتبين السورة طرفاً من فضل الله عليهم وإنجائهم لهم من مصائب البر والبحر ومن عدم إرسال العذاب عليهم بالخصباء من السماء أو الرياح العاتية أو الغرق ولن تجدوا لكم تبعاً... فقد كرمكم ورزقكم من الطيبات وفضلكم على كثير ممن خلق تفضيلاً.

● وتقرر السورة إن كل أمة تدعى بإمامها وسوف يشهد لها أو عليها.. فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.. ومن اهتدى فلأنفسهم يمهدون.

● ويثبت السورة كيف أنهم كادوا يفتنون النبي ﷺ عن الذي أوحاه الله إليه ليفتري غيره ولو فعل ذلك لاتخذوه خليلاً لكن الله ثبته ونصره.

● كذلك بينت كيف كادوا يقتلون النبي ﷺ ليخرجوه من الأرض ولو فعلوا لما لبثوا خلفه إلا قليلاً.. وتلك سنة الله في الدين أرسلهم قبله ولن تجد لسنة الله تبديلاً..

● وتعلن سورة الإسراء مجيء الحق بقوة وزهوق الباطل واختناقه وان من طبيعته أنه كان زهوقاً..

● وتعرض السورة لصور من إفساد بني إسرائيل في سؤال النبي ﷺ أسئلة لتحرجه به وتشكك أصحابه بكتابه الذي تحداهم بأن يأتوا بمثله ولو كان الجن والإنس بعضهم لبعض ظهيراً.

● وتعرض السورة عناد أعداء هذا الدين من المشركين واليهود وطلبهم تفجير الينابيع في الأرض أو ملك جنان من نخيل أو إسقاط الكسف عليهم من السماء أو ان يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء أمام أعينهم فيأتي بكتاب يقرؤونه يشهد لهم أنه رسول من الله.. وسبحان الله هل كان إلا بشراً رسولاً.

● وتبين السورة أنموذجاً آخر من إفساد بني إسرائيل هو أمر المسلمين بعدم الإنفاق على من عند رسول الله وأنهم يأمرون الناس بالبخل حتى لو ملكهم خزائن رحمته.. لأمسكوا وبخلوا خشية الإنفاق.

● وأخبرت كيف أتى الله موسى تسع آيات بصائر لفرعون وقومه فاستكبر هو وجنوده فأراد أن يقتلهم فأغرقه الله ومن معه جميعاً.

● ثم تعلن أن الله أكرم بني إسرائيل بسكنى الأرض لحين الوعد الآخر ليأتي بهم لفيفا من كل مكان.

● وتقرر حقيقة إنزال هذا القرآن بالحق مفرقاً على فترة ومترلاً تزيلاً.. ويخير الناس في الإيمان به أو عدم الإيمان فكلٌ ميسر لما خلق له.

وتعلن حقيقة في بني إسرائيل ما كانت تعرف لولا نزول هذا القرآن هي أن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب حين يتلى عليهم هذا القرآن يخرون للأذقان سجداً يكون ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً.

● وقد ختمت السورة كما بدأت بتتريه الله تعالى عن الشريك والولد وعن صفات النقص.. وإعلان الحمد له إذ لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك.. ولم يكن له ولي من الدن سبحانه.. فكبره تكبيراً^(١).

● أما عن تضمن سورة الإسراء لأحكام التوراة فعن ابن عباس قال: «التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة الإسراء». وفي رواية له ثمان عشرة آية من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ آية/٢٢ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ آية/٣٩^(٢).

● أما عن محور موضوعاتها الأصيل الذي يُعدُّ العنصر البارز في كيان السورة إنما هو [شخص رسول الله ﷺ] وموقف القوم منه في مكة.. ومن القرآن الكريم الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن وما يهدي إليه... واستقبال القوم له.. (كما ذكر ذلك سيد قطب). واستطرد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسول.. وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الإعتقادي والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع.

كل ذلك بعد أن يعذر الله سبحانه إلى الناس فيراسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل ﴿وَكُلْ شَيْءٌ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً﴾^(٣).

على إن أغلب المفسرين يرحمهم الله تعالى، لم يُعيروا كبير اهتمام لموضوع مهم جداً تفردت به سورة الإسراء ألا وهو قضاء الله إلى بني إسرائيل بالإفساد في الأرض مرتين وانهم سيعلون علواً كبيراً.. ومن ثم فقد تحقق وعد الله بأن يبعث عليهم، كلما فسدوا واستعلوا وجعلوا العلوا وسيلة للإفساد، عباداً له يسومونهم سوء العذاب، مع إن هذه القضية تكاد تكون لها الميزة البارزة في السورة فيما يتعلق ببني إسرائيل..

(١) انظر صفوة التفاسير للصابوني ١٥٠/٢.

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/١٥ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٧/٥.

حيث إن سورة الإسراء مكية، قد تفرّدت بها دون باقي السور المكية.. إذ أن كل السور - المكية والمدنية - قد تحدثت عن جانب من جوانب فساد بني إسرائيل والذي شمل كل جوانب الحياة الإنسانية في أغلب مراحل التاريخ الماضي والمعاصر لتزول القرآن والذي كان يمثل الحاضر الذي كان يعيشه النبي ﷺ وصحابته الأخيار..

بينما تفرّدت سورة الإسراء بالحديث أو بالأنباء عن إفساد بني إسرائيل المستقبلي، في الأرض كما سنرى إن شاء الله تعالى.

أهمية سورة الإسراء في علاج واقع المسلمين اليوم:

لقد سبق وان قلت في المقدمة: إن أهمية سورة الإسراء - تفسيراً وتحليلاً - تكمن في أهمية الموضوع الذي اشتملت عليه سورة الإسراء.. ذلك الموضوع الذي هو: ما ينبغي أن يعرفه المسلم من مسؤولية ملقاة على عاتقه، وقد كُلف بحملها، تجاه دينه وعقيدته وأمته بل وأهل الأرض جميعاً.

إن سورة الإسراء تميزت عن غيرها من السور المكية، أنها جاءت بشيء جديد لم تأت به سورة قبلها فيما يخص مستقبل هذا الدين مع بني إسرائيل أو بعبارة أصح مستقبل بني إسرائيل مع هذا الدين والمهتدين بهديه.. إنها شخّصت الداء ومن ثم فقد وصفت الدواء، ومنهج العلاج.

لقد رسمت سورة الإسراء لهذه الأمة الطريق الصحيح لعلاج الانحراف الذي ابتليت به فضاعت في الدروب المعوجة، وها هي ذي تقف حائرة عند مفترق الطرق، لا تدري إلى أين تتجه.. وإلى من تستجيب.. ولا إلى أين ينبغي لها أن تسير.

إنها تخاطب المؤمنين اليوم بلغة المستقبل كما خاطبت المؤمنين بالأمس بلغة الحاضر، لتعلمنا كما علمتهم، كيف يكون بناء الأمة والتأريخ على دين الله وشرعه وهداه.

إنها ذي تقول لنا كما قالت لهم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وأن وحي القرآن هو أصدق وأنفع العلم، أنه العلم بآيات الله التي شاء الله أن يريها للنبي ﷺ، حيث أسرى به فقال ومن ثم لтраها الأمة من بعده وحيّاً يتدفق كلما نظر

مؤمن إليه بنور الله، وليسير على هداه كما سار النبي ﷺ وليهتدي به كما اهتدى ولينتصر كما انتصر فإنه ﴿كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

إنها تبين للمؤمنين كيف يعملون وماذا عليهم أن يعملوا إذا تعرضوا لإفساد من بني إسرائيل كبير. كيف يستعدون، كيف يجاهدون، كيف يمكن أن يسوءوا وجوههم، كيف يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة، وكيف يتبرّون ما علاه اليهود تبيرا..

إنها تعلمهم كيف يبتغون فضلاً من ربهم يستعينون به في جهادهم.. وكيف ينبغي أن يكونوا عالمين بتفاصيل كل شيء - كما هو الحال - إذ أن الله لم يدعهم بغير أن يفصل لهم كل شيء تفصيلاً.. إنها تخبرهم بأن الله الرحيم يمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطائه إذ ما كان عطاء ربك محظوراً فلا تقصر أيديكم عن عطائه طمعاً في عطاء غيره..

ثم كيف ينبغي أن لا يجعلوا مع الله إلهاً آخر وإلا قعدوا مذمومين مخذولين - كما هو اليوم - والواقع يشهد. كيف ينبغي أن يكون منهج التغيير الذي لا بد منه فـ ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغِيرَ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١.

ابتداء من النواة في عالم الضمير ومن الخلية في عالم الأسرة، على أساس الإقرار بالعبودية لله وحده دون سواه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الإسراء/ ٢٣ وكيف يكون خفض الجناح من الرحمة والدعاء بطلب الخير، والإنفاق بلا إسراف ولا تبذير، وان لا يقربوا الزنى، ولا يقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، وان لا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن وأن يكون الوزن بينهم بالقسطاس المستقيم. فان كل ذلك من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً...

إنها على وجه الإجمال تبين كيف ينبغي أن تصنع الرجال وكيف يكون الرجال أبطالاً.

وكيف يدخل هؤلاء الأبطال التاريخ لا لكي يستعلوا على الناس ويفسدوا في الأرض كما يفعل الظالمون بل لكي يمسكوا بخطامه فيكبحوا جماحه ولتكون بأيديهم قياده وليوجهوه الوجهة التي أمر الله بها وأراد..

إن سورة الإسراء تعلن على المدى، مجيء الحق وزهوق الباطل إذ إن الباطل - دوماً - كان زهوقاً وإن علا وعربد وقام يتبجح.. فكيف تسمعون له بالقيام والتبجح وأنتم الأعلون والله معكم.

إنها تخبرهم إن الله - دائماً - يتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. بينما هو لا يزيد الظالمين - كل الظالمين - إلا خساراً.

«إن الله تعالى عندما يتزل وحياً على أمة أو يختارها لحمل رسالته فهذه نعمة يستوجب كفرها عقابه».

وقد أنزل الله وحياً على بني إسرائيل فكفروه فاستحقوا عقابه. وقد أنزل الله على هذه الأمة هذا الإسلام وأمرهم بالدخول فيه كله، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وعليهم أن يتعظوا لما حدث لبني إسرائيل من تسليط غيرهم عليهم عندما ابتعدوا عن دينه.

فالسورة إذن تخدم الدخول في الإسلام، وترك اتباع خطوات الشيطان من خلال التذكير بما جرى ويجري لبني إسرائيل، ومن خلال التعريف على الله بأنه شديد العقاب لمن بدل نعمته^(١).

وأخيراً.. إنها لترسم - المنهج - الذي ينبغي لهم أن يلتزموه لإعلان «الحقيقة التي غابت بل وأُخفيت عن الأمة والتأريخ... الحقيقة التي لا تختلف عن المنهج.. والمنهج الذي هو ليس غير الحقيقة أبداً» يقول صاحب الضلال: «إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ولا انفصام بينهما.. وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية.. والمناهج الغربية يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية ولكن لا يمكن أن تحقق منهجنا.. فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة، وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية.. **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم..﴾** الإسراء/٩^(٢).

(١) الأساس في التفسير سعيد حوى ٣٠٢٦/٦.

(٢) معالم في الطريق سيد قطب ص/٥١.

المطلب الثالث

علاقتها ببني إسرائيل

أما عن علاقة السورة ببني إسرائيل فان لها عدة جوانب سأتكلم عنها باختصار.

١- كون الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي كان قبلة بني إسرائيل، ومكان تنزيل رسالتهم على يد أنبيائهم الذي كان عشاً لهم وميدان جهاد فيه مع بني إسرائيل وكانوا سبباً من أسباب حلول البركة فيه وحوله.. الآية الأولى.

٢- أعلنت السورة إيتاء موسى الذي هو أبرز أنبياء بني إسرائيل التوراة التي أراد الله أن تكون لهم هدى ونوراً.. لكنهم نسوا حظاً مما ذكروا به واشتروا بالباقي ثمناً قليلاً ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ آية/٢.

٣- ذكرتهم بعظيم فضل الله عليهم أن جعلهم من ذرية من حمل الله مع نوح في السفينة لعلهم يكونون من عباده الشاكرين له كما كان نوح عبداً شكوراً ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ آية/٣.

٤- أعلنت إن الله تعالى قد كتب عليهم في اللوح المحفوظ قدرهم بأنهم سيفسدون في الأرض إفسادين عظيمين وسيعلمون في الأرض علواً كبيراً. وقضى كذلك بأن يبعث عليهم عقب كل إفساد منهما عبداً له أولي بأس شديد يذلونهم ويسوءون وجوههم ويدمروهم تدميراً. الآية ٤/٧.

٥- بينت السورة إن رحمة الله قريية من المحسنين فان أحسنوا رحمهم الله وأن أساءوا أعاد الله عليهم السوء على أنفسهم ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وإن أسأتم فلها﴾ الآية/٧ ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾ الآية/٨.

٦- حذرهم ضمناً كما حذرت غيرهم من الفسوق عن أمر الله وإلا كان مصيرهم الهلاك والتدمير ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ الآية/١٦.

٧- حذرهم من الشرك بالله واتخاذ غير الله وكيلًا وألا يعبدوا أحداً غير الله قال تعالى:
﴿لا تتخذوا من دوني وكيلًا﴾ الآية/٢.

٨- إن كل ما جاء في آيات الحكمة^(١) التي نصت عليها سورة الإسراء أو التي جاءت مفرقة في كتاب الله تعالى قد خوطب بها بنو إسرائيل ضمناً.
ذكر هذا ابن عاشور - رحمه الله - في تفسيره فقال:

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل.
وفي رواية عنه: ثماني عشرة آية منها كانت في ألواح موسى، أي من قوله تعالى:
﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ ٢٢/، إلى قوله تعالى: ﴿ولا تجعل مع
الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ ١٣٩/.

ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أن القرآن حكى
ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة..^(٢)

إن كل ما جاء في سورة الإسراء في آيات الحكمة إنما أمر به بنو إسرائيل ضمناً
سواء في نفس السورة أو في غيرها فمثلاً:

* حين يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين
إحساناً﴾ ٣٣/ وقال تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾ ٢٦/.

* قال في سورة البقرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله
وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين﴾ ٣٨/.

* وقال في الإسراء: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾
/ ٢٩، كناية عن البخل والإسراف.

* فقال في سورة الحديد: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ الحديد/ ٢٤.

(١) من قوله تعالى: ((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه... إلى قوله: ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة))
٢٣-٣٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/١٥.

* وقال عن بخل اليهود: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ آل عمران/ ١٨٠.

* وقال في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ ٣١/، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ٣٣/.

* وقال في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ٨٤/.

* قال في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ٣٦/.

* وقال في البقرة: ﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ البقرة/ ١٠٠. وقال في الأنفال: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ الأنفال/ ٥٦. وقد نهي عن عدة قضايا من الفساد منها:

* ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ٣١/.

* ومنها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ٣٤/.

* ومنها: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ٣٢/.

* ومنها: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ٣٦/.

* ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ٣٧/.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ ٣٩/.

لأن: ﴿كُلِّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ٣٨/.

* فقال في غير موضع:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِهِمْ﴾ البقرة/ ١٠٩.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ آل عمران/ ٦٩.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ آل عمران/ ٦٣.

﴿مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارًا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ آل عمران/ ٧٥.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران/ ٩٩.

ولقد ذكرت سورة الإسراء الآيات البينات التي أوتيها موسى فكانت بصائر
ذكرتها على جهة الإجمال والتي قال عنها ابن عباس ومجاهد: «هي يدها وعصاه والسنين،
ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع، والدم».

قال ابن كثير: (وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري السنين
ونقص الثمرات واحدة، وعنده أن التاسعة هي تلفف العصا ما يافكون)^(١).
وقد فصلت في مواضع من القرآن ...

منها في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ونزع
يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ ١٠٧/١٠٨.

وعند قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ﴾ ١٣٠.

وعند قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ
مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ١٣٣.

وكذلك بينت السورة كيف أن الله قضى لبني إسرائيل أن يسكنوا الأرض حتى
يجيء وعد الآخرة فيجيء الله بهم لفيماً من كل قبيلة ومن كل مكان ليحق الله وعده
الذي كان مفعولاً.

وقررت السورة أن بعض علماء بني إسرائيل ليؤمنون بما نزل على محمد وأنهم
ليخروا ساجدين وهم يكونون وهم: (من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ولم
يسبدلوه ولا حرفوه)^(٢) عندما يسمعون كلام الله ويقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ
رَبِّنَا لِمَفْعُولٍ﴾ ١٠٨.

(١) تفسير ابن كثير ٦٦/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦٨/٣.

وقد أكدت سور أخرى أن ليس كل بني إسرائيل سواء: ﴿فمنهم من آمن به
ومنهم من صدّ عنه﴾ النساء/٥٥.

وقال تعالى في آل عمران: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات
الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ ١١٣/١١٤.



المبحث الثاني

خارقة الإسرائء وبنو إسرائيل

المطلب الأول:

الإسرائء

المطلب الثاني:

علاقة الإسرائء ببني إسرائيل

المبحث الثاني

خارقة الإسراء وبنوا إسرائيل

لما كان موضوع بحثنا (بنو إسرائيل في سورة الإسراء) كان التركيز على بني إسرائيل هو الذي ينبغي إن ييسط الحديث فيه غير أن حادثة الإسراء التي جاء ذكرها في بداية السورة تجعلنا نتمهل قليلاً لتحدث عن الإسراء باعتباره الحدث الأكبر بروزاً الذي تضمنته السورة حتى سُميت به. وكذلك للصلة الوثيقة بين خلفية أحداث الإسراء وبني إسرائيل، هذه الصلة المتمثلة بالمكان الذي جرت فيه تفاصيل حادثة الإسراء والذي أمكن أن يقال عنه أنه خارطة^(١) الإسراء إن صح التعبير. هذا المكان (بيت المقدس وما حوله) كان عاملاً مشتركاً في حكاية الأحداث المتعلقة بالإسراء وبني إسرائيل.

ومن هنا - فيما نرى - جاء الإنباء على أهم مرحلة من مراحل إفساد بني إسرائيل. ألا وهو إفسادهم في المستقبل في هذه السورة التي سميت باسمهم. في حين جاء الإخبار عن فسادهم الماضي مع أنبياءهم وملوكهم في السور المكية الأخرى، وتفصيل إفسادهم المعاصر للنبي ﷺ في السور المدنية غالباً فلأجل هذا التلازم بين سورة الإسراء وما جاء فيها من إخبار عن أحداث مهمة وعلى رأسها الإخبار عن إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين.. لزم الكلام عن الإسراء بشيء من الإحاطة مع الاختصار.. ولذا فسأتحدث عن خارقة الإسراء في المطلبين الآتين.

(١) أنظر الرسم الذي يوضح سير النبي ﷺ في أسرائه في نهاية هذا المبحث.

المطلب الأول

الإسراء

معناه في اللغة: هو السير ليلاً^(١).

يقال أسرى.. وسرى لغتان.

قال الشاعر:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر في داجٍ من الظلم^(٢)
والإسراء - سير الليل.

قيل.. أسرى.. سار من أول الليل.

وسرى.. سار من آخره.. والأول أعرف^(٣).

(وأما - سار - فالجمهور على أنه عام لا اختصاص له بليلٍ أو نهار.. وقيل أنه مختص بالنهار)(٤).

أما استعماله في الاصطلاح:

فيمكن تعريفه أنه (هو تلك الرحلة الخارقة للعادة للنبي ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بيت المقدس في فلسطين ثم عودته إلى مكة في نفس الليلة على دابة بيضاء كانت تضع حافرها عند منتهى طرفها دون البغل وفوق الحمار إسمها - البراق - وكان ذلك بروحه وجسده يقظة لا مناماً فقد أجمع العلماء على وقوعه ليلاً بدلالة الآية في كون لفظ الإسراء من (سرى وسرى وأسرى) لا تكون إلا ليلاً وبذكره صريحاً في الآية وبإخباره عليه الصلاة والسلام في ذلك في جميع ما روي عنه من أحاديث.

(١) أنظر مفردات الراغب ٢٣١. أنظر صفوة التفاسير للصابوني ١٥٨١/٢.

(٢) البيت من قصيدة البردة للبوصيري.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٣/١٠.

(٤) أنظر روح المعاني للآلوسي ٤/١٥.

فقد تحدثت سورة الإسراء صراحة عن خارقة الإسراء بطريقة تنفي أي شك في إمكان وقوعها. إذ أن نسبتها إلى الله الذي لا يعجزه شيء وتترهه على كل ملا يليق به سبحانه. فقال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ وإن معنى - سبحان الله - أن الله متره في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله عن كل نقص وعيب لا يليق به سبحانه. إذ أن أصل كلمة - سبحان - مأخوذة من السبح في الأرض أو في الماء وهو البعد والتوغل فإن فيها معنى البعد والتتريه عن النقائص وصفات العجز.

وفي هذا يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي:

(فإذاً يجب إن أنزهه أنا عن القوانين البشرية التي لا تخلو من نقص أو عيب. والا أخضع فعل الله سبحانه وتعالى إلى قانون فعلي. ثم بعد ذلك ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي أسرى. ومحمد ﷺ هو الذي أسرى به)^(١).

و(لقد كانت حكمة الإسراء والمعراج أن - يُري - الله رسوله من آياته الكبرى توطئة لمرحلة المواجهة المسلحة، فمن حكمة الله أنه عندما كُلف موسى بمواجهة فرعون أراه من آياته الكبرى فقال تعالى بعد ذكر العصا واليد: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى أذهب إلى فرعون أنه طغى﴾ (طه/٢٤)، لأنها مواجهة تحتاج إلى مزيد من يقين فكانت رؤية الآيات الكبرى توطئة للأمر بمواجهة فرعون.. وكان الإسراء والمعراج توطئة للهجرة، ولأعظم مواجهة على مدى التاريخ للكفر والضلال والفسوق)^(٢) في أمتين إحداهما أمية جاهلة وهي أمة العرب... والأخرى أمة عالمة بالحق الذي في كتابها غير جاهلة بما جاء به محمد ﷺ مصداقاً لما جاء به موسى وعيسى إلى بني إسرائيل قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ (الأنعام/٢٠).

لكنهم آثروا الكفر والفسوق والعصيان والفساد في الأرض على الإيمان بينما هم كانوا كما قال الله تعالى:

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص ٢٢١.

(٢) الإسراء والمعراج - محمد متولي الشعراوي ص ١٩.

(٣) الأساس في السنة - سعيد حوى ٢٩١/١ بتصرف. وانظر الأساس في التفسير - للمؤلف ٣٠٣٤/٦.

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ (البقرة/٨٩).

إن الإسراء والمعراج - كما هو معلوم - في زمن واحد.. ليس بينهما مُدَّة زمنية تذكر وهذا ما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين. لكن سورة الإسراء تحدثت عن الإسراء فقط وقد نزلت بعد حادثة الإسراء بقليل.

أما المعراج فقد أشارت إليه سورة النجم التي نزلت قبل سورة الإسراء بكثير حيث إن ترتيب نزول سورة الإسراء هو الخمسون، أما سورة النجم فترتيبها التزولي هو الثالث والعشرون^(١).

فكيف أخبرت عن المعراج وهو لم يقع بعد؟ بل كيف أخبرت عنه بصيغة الماضي التي تدل على انقضاء الفعل فقالت: ﴿لقد رأى﴾. بل إنها لتستنكر على الذين يجادلونه فيما رأى فتقول لهم:

﴿أفتمارونه على ما يرى؟... ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ وقد أقسم الله في مطلع السورة بالنجم إذا هوى أنه ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى﴾ إذ أنه ﴿رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

تلك الآيات التي كان منها آيات أرضية هنا ومنها آيات سماوية هناك في رحاب غيب الله.. فالإسراء الذي حدث للنبي ﷺ كآية أرضية حدثت على الأرض تحمل معها أدلتها المادية المصدقة لها من مشاهدات تثبت أن قانون الزمان والمكان قد خرقا لرسول الله ﷺ وهو في انطلاقته بهذه الرحلة العجيبة التي كانت في جزء يسير من الليل.. بدأت من المسجد الحرام بمكة في جنوب الجزيرة العربية إلى المسجد الأقصى في أقصى الشام تقريباً مروراً بطيبة ثم بوادي الطور بمدين في جنوب سيناء ثم بيت لحم ثم المسجد الأقصى.

تلك خارطة^(٢) الإسراء التي رسمتها هذه الرحلة المباركة والتي كانت في حقيقتها تمهيداً لرحلة المعراج إلى السموات وإلى سدرة المنتهى.

(١) على ما جاء في الرواية التي ذكرها الإمام السيوطي في الاتقان انظر ٩٦/١.

(٢) سنين فيما بعد أن حركة الإسراء لم تكن بخط مستقيم «مباشرة» إلى المسجد الأقصى وإنما كما ذكرنا.

يقول صاحب الظلال... .

(إن الإسراء آية صاحبها آيات - لنريه من آياتنا - والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش رسول الله ﷺ أياً كانت صورتها وكيفيتها.. آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري والاستعدادات البدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في الأشخاص المختارين من هذا الجنس الذي أكرمه الله وفضله على كثير من خلقه وأودع فيه هذه لأسرار اللطيفة - أنه هو السميع البصير - يسمع ويرى كل ما لطف ودق وخفي على الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار)^(١).

أما المعراج الذي كان فيه ما فيه من الآيات السماوية الكبرى الغيبية التي لا يمكن أن تقام عليها أدلة مادية لإثباتها، وليس إلا الخبر الصادق الذي هو أساس الإيمان بالغيب والذي يوكل أمر تصديقه والإيمان به إلى القلب في درجات اليقين الثلاث^(٢) التي ينبغي للمؤمن أن يرتقيها.

ولذلك جاء الإخبار بالمعراج - قبل وقوعه - في سورة النجم ضمناً وإشارة وبخبر الواحد في السنة بينما جاء الإسراء في القرآن صراحة وبالسنة المتواترة وإجماع المسلمين^(٣).

(١) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٤/٥.

(٢) لليقين بالحق درجات ثلاث ينبغي إن يرتقيها المؤمن حتى يبلغ درجة المحسنين: الأولى: علم اليقين - والثانية: عين اليقين. والثالثة: حق اليقين. قال تعالى: ﴿لو تعلمون علم اليقين. ثم لترونها عين اليقين﴾ التكاثر. وقال تعالى ﴿إن هذا هو حق اليقين﴾ الواقعة/٩٠. انظر تفسير القرآن العظيم للشيخ محمد متولي الشعراوي ١٩٢/١ تفسير سورة التكاثر. المكتبة الشرقية.

(٣) لقد جاء الإسراء صراحة في القرآن ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ فهو ثابت بالكتاب والسنة المتواترة وإجماع المسلمين.

أما المعراج فقد ثبت في القرآن إشارة في قوله تعالى «والنجم إذا هوى....» لقد رأى من آيات ربه الكبرى «النجم» ١-١٧ من المسجد الأقصى إلى السموات السبع ومنها إلى الجنة. ثم إلى سدرة المنتهى أو العرش بخبر الواحد، لذا لا يكفر منكره بل يفسق، انظر الأساس في السنة - سعيد حوى «٢٩٣/١».

ومن ثم كان على المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بوقوعه كأي قضية إيمانية غيبية أخرى تستقر في القلب فلا تطفوا إلى الذهن لتناقش من جديد. ذلك لأن الإيمان هو التصديق بالقلب بقضية ما، فإذا طفت إلى الذهن لتناقش أو يعاد النظر فيها لم يكن التصديق كاملاً وإنما فيه شك. فإذا استقرت كان إيماناً وتصديقاً ظهر على اللسان إقراراً وعلى الجوارح عملاً وسلوكاً.

ولهذا قيل (إن الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمية.. وجماعة الماديين في هذا الزمان كجماعة الماديين في كل زمان يريدون إن يعودوا بالإنسان القهقري إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس، ويسمّون هذا تقديمية وهو النكسة العظمى التي وقى الله المؤمنين إياها فجعل صفتهم الميزة صفة ﴿والذين يؤمنون بالغيب﴾^(١).

ثم بعد ذلك يقول: إن كل الآيات التي رآها النبي ﷺ في السماء كرؤيته لبعض الأنبياء ورؤية الغيب الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلين من الملائكة والجنة والنار ونماذج من النعيم والعذاب. وبذلك يكون قد شاهد عياناً ما دعا إليه الناس^(٢) من الإيمان بالغيوب وكان بذلك الشاهد المبصر على أمر الغيوب: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ (الأحزاب/٤٦).

فإذاً - مبشراً ونذيراً - بالخبر الصادق المبلّغ عن الله في أمر الغيب الذي لم يطلع عليه أحد ولا يمكن إن يؤيد بالدليل المادي كما هو الحال في آيات الإسراء.

يقول الشيخ الشعراوي: (الإسراء آية أرضية أمكن أن يقام الدليل عليها، وإذا أمكن إقامة الدليل المادي المرئي بواسطة البشر عليها^(٣). فهمت العقول أولاً أن المسافة قد اختصرت لرسول الله ﷺ وأن قانون الزمن قد الغي عنده. إذا خرق له الناموس. فإذا أدركنا أن الناموس قد خرق له في أمر عادي نعلمه ونستدل عليه بعقولنا، فإذا حدث

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٤١/١.

(٢) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٣٥/٦ فقد أجاد التعليق على هذه المسألة.

(٣) سنضرب أمثلة من هذه الأدلة المادية البشرية المرئية عبر أبعاد الزمان والمكان.

رسول الله ﷺ بعد ذلك أن قانون السماء قد خرق له فاخرقه - فمن الممكن للعقل أن يستأنس بأن الذي خرق له الناموس فيما نعلم وفيما استدللنا عليه - قادر - على أن يخرق له الناموس فيما لا نعلم.

إذاً.. إن آية الإسراء كانت إنساناً لعملية الإيمان بالمعراج، فالله سبحانه وتعالى الذي خرق القانون لمحمد ﷺ في المسافة والزمن - على الأرض - خرق له القانون في - المعراج - للسموات السبع ولما لم يكن أيضاً في الطريق إلى سدرة المنتهى قافلة ما.. فلا يمكن أبداً إن يقام الدليل من المخلوقين الذين يسمعون ذلك إلا بصفة أمر حسبي له وهو الإسراء، ولذلك كانت آية الإسراء إنساناً للعقول بإمكانية الإيمان بما يحدث به الرسول الكريم ﷺ^(١).

وقبل أن أورد الروايات التي وردت في الإسراء أحب إن أنبه إلى أمر مهم: وهو أنني سوف أركز هنا على أهم الروايات التي وردت وفيها من المشاهد التي لها علاقة ببني إسرائيل مقتصرأ على ما يناسب الموضوع الذي نحن بصدد تاركاً ما لا علاقة له ببني إسرائيل بسبب ضيق المجال أولاً ولكون موضوع الإسراء هو ليس الموضوع الرئيس في بحثنا هذا ثانياً.

وإنما تعرضت له هنا استثناساً لكونه ذكر في أول السورة التي سميت باسمهم ولكونه كان انطلاقة للدخول في أهم قضية تعرضت لها السورة وهي قضية: (إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين).

وقد آثرت إن تكون الروايات في تسلسل موضوعي حتى أرسم صورة وحركة الإسراء وأسلط الضوء على المحاور التي كان لبني إسرائيل أثر فيها والتي كانت المرائي والمشاهد رمزاً لها ودليلاً عليها وربما كانت هي من الآيات التي أريد للنبي ﷺ أن يراها - فرآها - وربما لتراها الأمة من بعده - والله أعلم -.

أولاً: أورد الإمام القرطبي في تفسيره (عن أبي سعيد الخدري) في قوله تعالى: ﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ (الإسراء/١).

(١) انظر الإسراء والمعراج - محمد متولي الشعراوي ٤٨-٥٠.

قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسرى به. قال النبي ﷺ أتيت بدابة هي أشبه الدواب بالبغل.. له أذنان يضطربان، وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبل، فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره، فسمعت نداءً عن يميني: يا محمد على رسلك حتى أسألك.. فمضيت ولم أعرج عليه. ثم سمعت نداءً عن يساري: يا محمد على رسلك فمضيت ولم أعرج عليه. ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رسلك حتى أسألك، فمضيت ولم أعرج.. ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فترلت عن الدابة فأوثقته في الحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها. ثم دخلت المسجد وصليت فيه..

فقال جبريل (عليه السلام): ما سمعت يا محمد؟ فقلت: سمعت نداءً عن يميني: يا محمد على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج فقال: ذلك داعي اليهود، ولو وقفت لتهودت أمتك.

قال: ثم سمعت نداءً عن يساري على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج عليه فقال: ذلك داعي النصارى أما أنك لو وقفت لتنصرت أمتك.

قال: ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رسلك فمضيت ولم أعرج عليها، فقال تلك الدنيا لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة. قال: ثم أتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقبل لي خذ فاشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته، فقال لي جبريل: أصبت الفطرة ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك. ثم جاء المعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيت.. وذكر الحديث»^(١).

ثانياً: روى الإمام الترمذي عن شداد بن أوس قال: قلنا يا رسول الله كيف أسرى بك؟

قال: صليت لأصحابي صلاة العتمة^(٢) بمكة معتماً فأتاني جبريل عليه السلام بدابة

(١) تفسير القرطبي ٢٠٦/١٠ والحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ٣٩٠/٢ ورواه الطبري كذلك في تفسيره من طريق محمد بن اسحاق ١٥/١٣-١٤.

(٢) يعني العشاء - ومعنى عتماً - أي متأخر عن وقتها حتى يعتم الليل.

أبيض - أو قال - بيضاء، فوق الحمار ودون البغل فقال: اركب، فاستعصت عليّ، فرازها بأذنها ثم حملي عليها، فانطلقت تهوي بنا.. يقع حافرها حيث انتهى طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخلٍ فأنزلني، فقال: صلّ، فصليتُ ثم ركبت. فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال صليت بيثرب، صليت بطيبة. فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها ثم بلغنا أرضاً قال: أنزل، ثم قال: صلّ، فصليتُ ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت الله أعلم، قال صليت بمدين عند شجرة موسى. ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، فقال: إنزل فترلت فقال: صلّ، فصليتُ، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت الله أعلم، قال صليت بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر، فصليت في المسجد حيث شاء الله، وأخذني العطش ما أخذني، فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إليّ بهما جميعاً. فعدلت بينهما ثم هداني الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على مثنوات له فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا بجهنم تنكشف عن مثل الروابي، قلت: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: وجدتها مثل اللحم السنخة.. ثم انصرف بي فمررت بعيرٍ لقريش بمكان كذا قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان، فسلمتُ عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد!! ثم أتيت أصحابي قبل الصبح^(١) بمكة.

فأتاني أبو بكر رضي الله عنه فقال يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسك في منامك، فقد علمت أنك أتيت بيت المقدس الليلة، فقال: يا رسول الله إنه مسيرة شهر، فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألون عن شيء إلا أنبأهم به، فقال أبو بكر أشهد إنك رسول الله. وقال المشركون: أنظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة!! قال فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا

(١) لعل المقصود قبل وضوح النهار - والله أعلم -.

وكذا وقد أضلوا بغيراً لهم فجمعه لهم فلان، وأن مسيرهم يتزلون بكذا ثم بكذا، ويأتوكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ^(١).

ثالثاً: عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله ما ركبك مثله.. وسار رسول الله ﷺ فإذا هو - بعجوز - على جانب الطريق فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سر يا محمد، قال: فسار ما شاء الله إن يسير فإذا شيء يدعو متحياً عن الطريق، فقال: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر يا محمد، فسار ما شاء الله إن يسير، قال: فلقية من خلق الله.. فقالوا السلام عليك يا أول.. السلام عليك يا آخر.. السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: أردد السلام يا محمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن. فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد إن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد إن تميل إليه. وأما الذين سلموا عليك إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام^(٢).

ومن خلال الربط بين سياق آيات الإسراء وأحاديثه نخلص إلى أن تلك المراتي والمشاهد هي في حقيقتها علامات ودلائل وآيات أريها النبي ﷺ لتكون معالم على الطريق. فقد الشيطان في وسطه وقام على جانبيه اليهود ونهياً في ثناياه النصارى،

(١) أخرجه ابن كثير في تفسيره وقال إسناده صحيح وقال "وهذا الحديث مشتمل على ما هو صحيح كما

قال البيهقي انظر ١٤/٣ وقد رواه البيهقي في دلائل النبوة انظر ٣٨٢/٢.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة ٣٨٢/٢.

ونشرت زينتها الدنيا على كل خطوة فيه تدعو الناس إليها. ورسول الله ماضٍ قدماً، لا يلتفت ولا يعرج. إن الطريق طويل، يمتد أمامه عبر أبعاد رؤياه، يرقب الأفق وخطوات البراق التي يضعها عند منتهى طرفه تنبئ عن طول الطريق وتنبئ عن عقباته التي صنعها اليهود والنصارى إذ أن بعضهم أولياء بعض في ظل راية الشيطان وزينة الدنيا.

ماذا يعني كل هذا غير أن اتركوا اليهود واتركوا النصارى فما عندكم يكفيكم إن أي استجابة لهم في أي شيء مهما صغر يعني منكم محاولة استكمال لنقص عندكم والله أكمل الدين وأتم النعمة ورضي لكم الإسلام ديناً ومنهجاً للحياة:

﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ (النساء/٢٧).

﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً﴾ (فاطر/٦).

ومحطات على الطريق عبر مراحل.. صلاة بطيبة.. وصلاة بمدين، وأخرى بيت

لحم وخاتمة المطاف المسجد الأقصى.

كل تلك معالم ودلائل ينبغي إن تعيها الأمة، فالمسجد الأقصى الذي أقصاه اليهود

وقسى عليه النصارى يحتاج لمسجد أدنى تنبثق منه جحافل البأس الشديد في عبودية خالصة لله لترده إلى حظيرة الإسلام فكان بطيبة وقد أريه النبي قبل أن يكون وصلى فيه.

المسجد الأول في الإسلام كان بطيبة انطلقت منه الجيوش فيه السابقون الأولون من

خير القرون من المهاجرين والأنصار تقودهم فتوة الإسلام^(١) للقضاء على مومياة اليهود

حول صلبان النصارى.

وهناك في الأفق كان الركب الكريم ينتظر ليسلم على النبي الأُمي.. الآتي في آخر

الزمان — كالبرق — لم يصمد له اليهود ولا النصارى وما غلبه الشيطان ولا أغرته

الدنيا. وقف الركب من أولي العزم يستقبلون الأول والآخر والهاشر: إبراهيم وموسى

وعيسى.. ويحشر له إخوانه من الأنبياء بعد عودته من سدره المنتهى وتشرفه بلقاء الله..

يجتمعون له في بيت المقدس فيصلي بهم إماماً.

(١) إشارة الى قيادة أسامة بن زيد لجيوش المسلمين.

شهادة بأنهم على دينه وقد سلّموه إرثهم ومقدساتهم والتي منها المسجد الأقصى.

والولاية على من بقي من أتباعهم. ممن يقرؤون ويجدون صفته ومخرجه في كتبهم..

ويعود إلى مكة بغلس.. وفي طريق العودة كانت مشاهد أخرى..

حيث كانت المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ والمواقف التي أخبر المشركون عنها بمثابة أدلة واقعية على صدق ما أخبرهم به ﷺ من إسرائه إلى المسجد الأقصى في تلك الليلة من سلامه على بعضهم ودلالته لهم عن الجمل الذي نذّ عنهم وشربه الماء الذي غطّوه ومعرفة صوته وإثبات صفة الجمل الذي يتقدمهم وموعد وصولهم. وكلها أدلة واقعية بشرية تثبت صدقه ﷺ فيما أخبرهم به. بل إن الأمر ليزداد يقيناً عندما يثبت صدق ما أخبرهم به حين يشهد له الأبعدون في ديار بيت المقدس، فلقد أورد الأمام محمد الشنقيطي في أضواء البيان قوله: (وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، في آخر كلامه على هذه الآية الكريمة: ﴿لنريه من آياتنا﴾ فائدتين قال في:

أولاهما: فائدة حسنة جليّة، وروى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل

النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي:

حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي قال:

بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر.. فذكر وروده عليه وقدمه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار فجاء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه، وجعل أبو سفيان يجتهد إن يحقر أمره ويصغّره عنده.

قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعي أن أقول عليه قولاً أسقطه به

من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عليّ ولا يصدقني في شيء. قال:

فذكرت قوله ليلة أسرى به. قال فقلت أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف به إنه قد

كذب؟ قال: وما هو، قال: قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة

فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند

رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة.

قال: فنظر إليه قيصر، قال: وما علمك بهذا؟ قال إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبي، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنى كلهم فغلبننا فلم نستطع إن نحركه، كأنما نزاوُل به جبلاً فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع إن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى! قال: فرجعت وتركت السباين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليها فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربوط الدابة،

قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا. أهـ^(١).

والأحاديث كثيرة في هذا الباب لا أجد المجال لذكرها. وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس.. وتواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وجابر، وحذيفة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة ابن جندب، وصهيب الرومي، وأم هانيء، وعائشة، رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة. فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون. وأعرض عنه الزنادقة الملحدون ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾^(٢).

وقد ثبت بالكتاب والسنة المتواترة.

قال القرطبي: (ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه).

(١) انظر أضواء البيان للشنقيطي ٣/٣٩٦. وانظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٦/٣٠٣٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٤.

وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً^(١). وقال في موضع آخر (وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على إن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار)^(٢).
إذ إن الإسراء من أعظم معجزاته^(٣) ﷺ التي حدثت له في حياته لا مناص من قبولها ولا مجال لردها، لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التي ترتقي بالفكر والعقل إلى درجة القطع واليقين.

(١) انظر القرطبي ٢٠٥/١٠ - ٢٠٩.

(٢) انظر القرطبي ٢٠٥/١٠ - ٢٠٩.

(٣) من المفسرين من ذهب إلى إن (هذه الخوارق التي امتعت في هذه الرسالة لأن الأولين الذين جاءهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك. والهلاك لم يقدر على أمة محمد ﷺ لذلك لم يرسله بالخوارق المادية، وما كانت الخوارق إلا تخويفاً للامم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها. وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب. وهي الهلاك بالعذاب. ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان.. أما الجاحدون فقد كذبوا بها في زمانهم. ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون. وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ الإسراء/٥٩.

إن معجزة الإسلام هي القرآن، وهو كتاب يرسم منهجاً كاملاً للحياة ويخاطب الفكر والقلب، ويلي الفطرة القويمة، ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرأه وتؤمن به إلى يوم القيامة. أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلاً واحداً من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل. هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها. ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل، وتحترم ادراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه.

أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء: ﴿وإذ قلنا لك: إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الروعيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ الإسراء/٦٢.

ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء كما ثبت بعضهم وازداد يقيناً. ومن ثم كانت الرؤيا التي أراها الله لعبده في تلك الليلة «فتنة للناس»، وابتلاء لإيمانهم. أما احاطة الله بالناس فقد كانت وعداً من الله لرسوله وبالنصر وعصمة له من إن تمتد أيديهم إليه. =

فمن ذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ، حيث أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، ومسلم في كتاب الفضائل، ومالك في الموطأ في كتاب الطهارة، وغيرهم من أئمة الحديث بطرق مختلفة كثيرة. حتى نقل الزرقاني قوله: (إن نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، تكرر في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي. ومن ذلك حديث انشقاق القمر على عهده ﷺ حينما سأله المشركون ذلك. فقد أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، وأخرجه غيرهما من علماء الحديث).

قال ابن كثير: (ووردت بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وأمر الإسراء متفق عليه بين العلماء أنه وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات).

والذي نسوق هذا البحث بمناسبة وهو حديث متفق عليه لا تنكر قطعية ثبوته التي وردت بالقرآن والسنة المتواترة وإجماع المسلمين وبشارة الكتب السماوية السابقة.

= ولقد أخبرهم بوعد الله له وبما اطلعه الله عليه في روءياه الكاشفة الصادقة. ومنه شجرة الزقوم التي يخوف الله بها المكذبين. فكذبوا بذلك حتى قال ابو جهل متهمكماً: هاتوا لنا ثمراً وزبداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا ١.

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين؟ وما زادهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغياناً كبيراً؟ وظل القرآن - معجزة الاسلام - كتاباً مفتوحاً بليل - محمد - ﷺ وللأجيال بعده، فأمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته، انما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه. وسيبقى القرآن كتاباً مفتوحاً للأجيال، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب. وقد يكون منهم من هو أشد ايماناً وأصلح عملاً، وأنفع للاسلام من كثير سبقوه "انظر - في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٤١/٥.

ويعلق الشيخ سعيد حوى على هذه المسألة بقوله: "إن الإسراء والمعراج يذكر أن في باب المعجزات من كتب الحديث والسيرة والدلائل، والمعجزة ما به تقوم الحجة على الناس، وقد قامت الحجة عليهم بالإسراء من حيث انهم امتحنوا الرسول ﷺ بعد اخباره لهم بالإسراء امتحانات متعددة للتأكد من صدق الحادث، وكان إن وجدوا في كل امتحان ما يدل على صدقه ﷺ.. وهذا قامت الحجة على الناس بالمعجزة وحدوثها" انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٣٤/٦.

من ذلك ما جاء في إنجيل برنابا إشارة واضحة وضوح الشمس وهي تنطق بالحق على الرغم من أنها صدرت في ذلك العمق الزمني الذي يؤكد ما جاء به موسى كان حقاً وكان فيه هدى لبني إسرائيل. وإن ما جاء به عيسى إنما كان مصداقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً بمن سيأتي من بعده وأنه سيهيمن على ما كان قبله على الرغم من أنه يصدر من مشكاة واحدة.

يخبر برنابا بأن رحمة الله ستصيب كل العالمين حتى أهل جهنم إكراماً لرسول الله ﷺ ولتحقق أمر الله في كونه رحمة الله للعالمين. يقول برنابا في الإصحاح ١٣٧/ فقرة ٦ من إنجيله مخبراً عن إسراء النبي ﷺ، ومعراجته.

يقول: (أفيدكم.. أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله. فترتعد ثمة الجحيم لحضوره وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب. فيمكث بلا عقاب، مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم. لكنه لا يقيم هناك طرفة عين. وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله ﷺ. ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد. قائلاً لبعضهم البعض.. أهربوا أهربوا فإن عدونا محمد قد أتى...

فمتى سمع الشيطان ذلك يضع وجهه بكلتا كفيه ويقول صارخاً.. ذلك بالرغم عني لأشرف مني.. وهذا إنما فعل ظلماً..).

المطلب الثاني

علاقة الإسراء ببني إسرائيل

لبيان هذه العلاقة التي يمكن إن نستشفها من الجو العام لسورة الإسراء ومن مجموع السروايات التي توحى بان بني إسرائيل لهم - علاقة وثيقة - بقضية الإسراء، وكذلك من خلال تتبع خارطة الإسراء في الأرض المقدسة سواء في البعد الزمني أم المكاني، ومن ثم حال اليهود في زمن الإسراء وجمال المسجد الأقصى كذلك، أقول لبيان هذه العلاقة نورد الحقائق الآتية..

الحقيقة الأولى:

هي كون سورة الإسراء مكية وأنها نزلت في مكة قبل الهجرة بعام ونصف تقريباً بعد إسرائ النبي ﷺ يعني إن النبي لم يكن قد تعرض لبني إسرائيل بعد، وجهاً لوجه، حيث كانوا يسكنون بيثرب وهو لم يهاجر إليها بعد فقد كان يسكن بمكة ويسعى مجاهداً فيها وفي أطرافها في سبيل دعوته لا يكل ولا يمل رغم كل ما كان يعانيه فيها. ومع هذا كان في الإسراء حيزٌ كبير لبني إسرائيل. وجاءت سورة الإسراء تؤكد هذا كما رأينا سابقاً.

الحقيقة الثانية:

إن بيت المقدس الذي كان منتهى إسرائه إليه ﷺ والذي كان قد توجه إليه النبي بالصلاة فكان أولى القبلتين، حدث هذا منذ بداية دعوته ونبوته. يعني لم يكن مجاملة، لليهود بعد الهجرة، وإنما كان منذ الأيام الأولى لولادة الإسلام وهو ﷺ لم يزل في مكة البلد الذي كان مهداً للحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل.. فكأن الله وهو العليم سبحانه أراد إن يكسر حاجزاً كان أو سيكون بين الإسلام وبين بني إسرائيل. حتى قبل إن يتصل بهم النبي ﷺ ومنذ كان في مكة

الحقيقة الثالثة:

إن من المسلم به تأريخياً إن بيت المقدس لم يكن له من الاحترام والتقدير لا عند اليهود ولا عند النصارى شيء يذكر، فاليهود الذين كانوا يعدونه قبلتهم كثيراً ما دنسوه بالشرك وبالفساد والظلم حتى قيل إن كل ما أصابه من تخريب إنما كان بسبب فسادهم وظلمهم لأنفسهم وللناس.

بل وحتى من النصارى الرومان الذين جعلوا الصخرة التي فيه مكاناً يرمون فيه أقذارهم وأوساخهم^(١) احتقاراً لليهود، وتذكر كتب السيرة ذلك حيث عندما ذهب

(١) حتى يقال إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها لتلقى في الصخرة استخفافاً لليهود لأنها قبلتهم. انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٧/٧.

الفاروق عمر رضي الله عنه ليصالح أهل إيلياء دخل من الباب الذي دخل منه النبي ﷺ ليلة إسرائه فوجد أكوام النفايات والقاذورات والأتربة على الصخرة، فأخذ يحمل منها على رداءه وساعده المسلمون حتى نظفوها وتحرى عن محراب داود فصلى فيه^(١).

ولم يُعَدَّ إليه احترامه وتقديره إلا الإسلام ورسول الإسلام حين توجه إليه بالصلاة أولاً وشرّفه الله بإسراء عبده محمد ﷺ إليه والصلاة فيه والعروج منه إلى سدره المنتهى..
ثانياً.

الحقيقة الرابعة:

لقد تأكد لليهود بما لا يحتمل الشك إن هذا النبي المبعوث في مكة هو النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم وعلموا أنه توجه إلى قبلتهم في صلاته فكان هذا خيطاً من الصلة بينه وبينهم كان من الممكن إن يُقتل ليكون حبلاً يرفعون فيه الحواجز بينه وبينهم حتى قبل إن توجد بل وحتى قبل إن تظهر فيما بعد.. فإن ظهور نبي بشرت به كتبهم وعرفوا زمان ظهوره فجاءوا من أقصى الأرض يبحثون عن أرض بين حرتين ذات نخيل فترلوا فيها ينتظرون مبعثه وعرفوا صفاته وعلاماته فكان من الأجدر بهم أن ينصروه ويتبعوا النور الذي أنزل معه ويقاتلوا أعداءه من الكافرين والمشركين وأعداءهم من النصارى.

ولكن الذي حدث غير هذا.. إنهم افتروا على الله كذباً وكذبوا بما في كتبهم وكذبوا رسول الله ﷺ وكتبوا الحق الذي كان واضحاً جلياً في كتبهم^(٢) بل قالوا لمشركي مكة حينما وفدوا عليهم إلى يثرب ليسألوهم عن هذا النبي باعتبار أن عندهم علماً من الكتاب فقالوا لهم أنتم خير منهم وأهدى^(٣) فضّلوا وأضلوا.

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٧/٧.

(٢) انظر قصة إسلام عبد الله بن سلام وكتب اليهود الحق الذي عرفوه في سيرة ابن هشام ١٨٦/٢-١٨٧. وقصة إسلام مخيريق أحد أحبار يهود كذلك في سيرة ابن هشام ١٨٨/٢ وانظر تاريخ الطبري ٥٣١/٢.

(٣) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ (النساء/٥١). والقصة أوردها ابن هشام في سيرته انظر ٢٤١/٢.

الحقيقة الخامسة:

بعد هذا فإن الإسراء كان نقلة سريعة لرسول الله ﷺ عبر حدود الزمان والمكان ليرى من آيات الله التي ستحدث في المستقبل منها مع مشركي مكة وأغلبها مع بني إسرائيل فكان الإسراء حدثاً ليطلع رسول الله ﷺ على الخيوط والعلائق التي ينسج منها القدر تأريخ الفساد الذي أحدثه بنو إسرائيل والذي سيحدثونه في الأرض مستقبلاً، ومن ثم ليكون واضحاً للنبي ولأمته من بعده كيف كان اليهود وكيف سيكونون وكيف ينبغي أن يكون المسلمون معهم.

لقد أهمل بنو إسرائيل شأن إسماعيل ومشاركته لأبيه إبراهيم — عليه السلام — بناء الكعبة والتي كانت المسجد الحرام من بعد — أهملوا ذكره في التوراة كتماناً للحق وتحريفاً لكتاب الله وأظهروا ذكر بناء الهيكل لداود وسليمان ويخفون أنه بني ليكون بيتاً لله وأنه بُني في حياة إبراهيم أيضاً — وربما بمساعدة ابنه إسحاق — ومع هذا فلم يراعوا حرمة بيت المقدس فكان ظلمهم وفسادهم وطغيانهم حتى على أنبيائهم فكم قتلوا على الصخرة نفسها من الأنبياء ودنسوا حرمة البيت وما حوله وهو وضع أصلاً ليكون طاهراً من نجاسات الشرك والوثنية وليكون مقدساً أي مطهراً لهم منها^(١).

فجاء الإسراء ليجمع بين بيتي الله الذين بناهما إبراهيم بمساعدة إسماعيل في مكة وإسحاق في الشام. وقد فرق الشيطان وأعوانه من اليهود بينهما. جاء الإسراء ليعيد ربط هذين البيتين برباط عقيدة التوحيد على يدي خاتم النبيين محمد ﷺ تماماً كما أراد الله من إبراهيم إن يغرس جذور عقيدة التوحيد في طرفي الأرض المباركة — البيت الحرام في الحجاز بفرعه إسماعيل، وبيت المقدس في الشام بفرعه إسحاق — وقد ابتلاه الله بهذا فأتمه على ما أحب الله وأراد فكان جزاؤه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة/١٢٤).

كان الإسراء برسول الله ﷺ بين هذين البيتين إيماءً وإيحاءاً إلى أن الرباط بينهما واحد. وقد قطعهُ اليهود تقطيعاً كما تقطعوا بينهم أمرهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون وكما قطعوا أمر دينهم بينهم فأمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فقطعوا ما

(١) انظر معنى التقديس في مفردات الراغب ص ٣٩٦.

جاءهم على يد أنبيائهم إلى توراة وإنجيل وإنما أنزل الثاني ليكمل الأول.

وكان الإسراء ليقرر حقيقة رسالة النبي ﷺ وحقيقة مهمته في هداية أبناء إسماعيل الذين تركوا دين أبيهم وعبدوا الأصنام، وليهدي أبناء إسحاق ويعقوب - بني إسرائيل - الذين تركوا دين آبائهم وعبدوا الأصنام ذرية بعضها من بعض منهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات، فأمر إن يبلغهم بنداء الحق: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ (المائدة/ ١٥).
كما أمر أن يقول: ﴿قل يا أهل الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف/ ١٥٨).

الحقيقة السادسة:

إن الإسراء من المسجد الحرام الذي صلى فيه النبي ﷺ العتمة بالصحابة إماماً ثم عرجه إلى سدره المنتهى وتشرفه بلقاء الله في جناب قدسه، وأعطاه هدية القرب للقرب ... ووسيلة الوصول للوصال ... ثم عاد إلى المسجد الأقصى مشفوعاً بالأنبياء الذين صلى بهم الصبح - إماماً - فيه. ثم عاد إلى مكة قبل أن يطلع الصبح.
هذه الصلاة في مكة ثم في المدينة ثم في مدين وبيت لحم ثم في المسجد الأقصى إنما ترمز إلى مدى الصلة التي كانت تربطه بالأنبياء قبله فإن الناظر في خط سير النبي ﷺ في إسرائه يجد شيئاً غريباً.

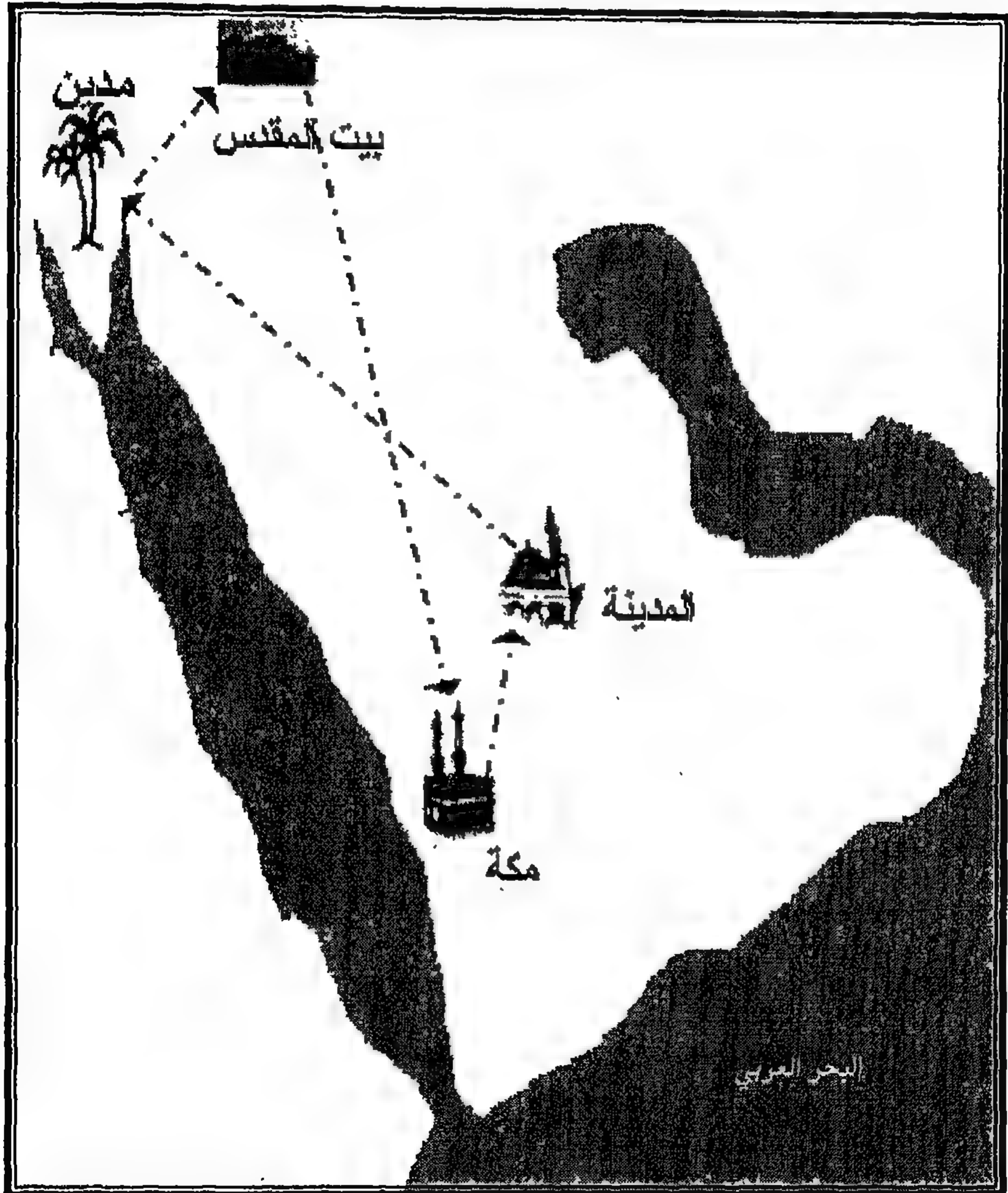
وهو أنه عليه الصلاة والسلام قد ذهب في طريق وعاد في طريق آخر غير الذي ذهب فيه. وربما كانت تلك سنة له عليه الصلاة والسلام.

أي أنه حينما انطلق من المسجد الحرام لم يقصد المسجد الأقصى مباشرة - كما قد يظن - وإنما كان طريقه من المسجد الحرام حيث صلى بأصحابه العتمة إلى طيبة ذات النخيل فصلى فيها ركعتين ثم منها إلى مدين في جنوب سيناء حيث صلى عند شجرة موسى ركعتين ثم منها إلى بيت لحم حيث ولد عيسى فصلى فيها ركعتين ثم منها إلى المسجد الأقصى^(١) فصلى فيه ركعتين حيث كان يصلي الأنبياء.

(١) استدللنا على خط سير النبي ﷺ بالحديث الذي رواه الامام الترمذي عن شداد بن أوس. وقال عنه البيهقي اسناده صحيح. انظر تفسير ابن كثير ١٤/٣ وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٨٢.

وحيث صلى بالأنبياء إماماً بعد نزوله من سدره المنتهى وكانوا قد رافقوه إلى المسجد الأقصى، ولعل في ذلك إيحاءاً على أنه سيدهم وأفضلهم وهم - مع أمهم - له تابعون.

بينما نجد طريق العودة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ربما مباشرة، كما في هذا المخطط التوضيحي ...



ماذا يعني هذا؟ ...

غير أن النبي ﷺ قبل أن يتسلم ميراث الأنبياء قد اطلع على أركان الأرض المقدسة والتي كانت مهد الرسالات والتي شهدت حركة ذلك الركب الإيماني الذي قاده الأنبياء قبله بدءاً بإبراهيم ومروراً بإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وانتهاءً بعيسى ...

كل ذلك الركب الإيماني الذي جاهد في كل تلك الأرض المباركة، وكل من يعيش عليها سيكونون إما أتباعاً أو أنصاراً أو معزّرين لك ... وستعلوا.. وسيكون ملك أمتك من بعدك مازوي لك من مشرقها إلى مغربها^(١).

كل ذلك كان في إسراء كلمح البرق أو كبرق الشهاب ... لقد كانت كل آية رآها، وكل مشهد أظهر له ولو كان رمزاً، كل ذلك كان فيه من العلم والإيحاء ما لا يخفى على رسول الله ﷺ معناه والحكمة منه. وكل صلاة صلاها في مكة والمدينة ومدين وبيت لحم ومن ثم بالمسجد الأقصى كانت دليلاً على توحيد هذه المناطق المقدسة ووصل بعضها ببعض بالصلاة التي هي في أحصّ معانيها أنها (صلة معنوية مادية، ورابطة روحية وجسدية بين عالمي الغيب والشهادة وبين الماضي والحاضر). ومن ثم كانت العهد بين الحاضر والمستقبل، بين هذا المكان وذاك، وكأنها إشارة إلى تسلّم هذه البلاد وما حولها، كما يُسلّم البلد المفتوح إلى الفاتحين. سلّمت هذه البلاد إلى رسول الله ﷺ، فصلى في مراكزها وعواصمها ركعتين شكراً لله تعالى على إكمال فضله وإتمام نعمته، وقد رضي له الإسلام ديناً كما رضي له للأنبياء المرسلين قبله. كل هذا حدث في لحظات خُرقت له فيها أبعاد الزمان والمكان، وهو لا يزال بمكة وقد أوحشه ﷺ ما يلاقيه من أقرب الناس إليه وهو في أول الطريق.

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها» أخرجه الإمام مسلم في الفتن باب اهلاك هذه الامة بعضهم ببعض برقم ٨٨٩. وابو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢ والترمذي ٢٢٠٣ في الفتن وابن ماجه ٣٩٥٢ في الفتن كذلك كله من حديث ثوبان رضي الله عنه.

نقلة بعيدة جداً في آفاق الزمان والمكان رأى فيها من آيات الله الكبرى، ثم أعيد إلى مكانه - الزماني والمكاني - وقد أيقن بأنه على طريق الحق المبين. فكان ما رأيناه من عزمه على التبليغ وثباته على الحق حين تشبث بشيابه أم هانئ وهو يهمل بالخروج فتقول له لا تحدث قومك بهذا فيكذبوك...

فيقول بعزم الموقن بأنه على الحق المبين (والله لأحدثنهموه).

إن تلك الصلاة التي صلاها رسول الله إنما كانت شحنات إيمانية يستعين بها على مشاق الطريق التي كادت إن تؤثر على عزمه وبقينه والتي اشتدت عليه - قبل الإسراء - حتى لكأنه ﷺ بات منشغلاً فكره، قد جفاه النوم في بيت أم هانئ فخرج إلى البيت فاضطجع هناك فجاءه جبريل بالبراق فكان الإسراء دعوة من الله سبحانه لهذا النبي الكريم الذي لم يرَ غير التكذيب والصدِّ والإعراض من قومه وعشيرته الأقربين والأبعدين^(١).

وتبعاً لهذا الصدِّ والإعراض - فلربما - أحسَّ النبي بشيء من الإحباط واليأس من إيمان قومه به، وتلك حالة تصيب الرسل أخبر عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿وحتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نصرنا﴾ (يوسف/١١٠).

فجاء الإسراء ليوضح للنبي حقيقةً ربما كانت قد غابت عنه خلف غيوم الهموم وليريه ربه من آياته التي توصله إلى يقين بأنه على الحق المبين وأنه ليس مكة وحدها هي ما ينبغي عليه إن يدعوها، وإنما هي ذرية إسماعيل التي كانت مكة مسكناً لها، وذرية إسحاق التي كان الشام مسكناً لهم حول بيت المقدس. إنها ليست فقط - أم القرى (مكة) مجال دعوتك وإنما هي كل الأرض المباركة (المسجد الأقصى - بيت المقدس -) وما حوله، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ لِّكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد/٧).

فلا وارث لهذه المقدسات سواك وليس هادياً لذرية إسماعيل وإسحاق إبنك إبراهيم غيرك.

(١) وفي هذا يقول سيد قطب «والراجح من مجموع الروايات إن رسول الله ﷺ ترك فراشه في بيت أم هانئ إلى المسجد فلما كان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسري به وعرج ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد» انظر الظلال ٣٠٢/٥.

لقد قيل لرسول الله ﷺ انطلق، وانظر كل هذه الأرض التي كانت مهذاً لرسالات إخوانك من الأنبياء والمرسلين وكل هذه الأمم التي ظلت عن هديهم وكتبهم، ينبغي أن تدين لك بالولاء والاتباع. ولتجمعهم على عقيدة التوحيد ولتربط بين البيتين مكة في الحجاز التي بناها إبراهيم وإسماعيل وبيت المقدس في الشام الذي بناه إبراهيم وإسحاق^(١) وعلى يديك ستتجدد دعوة أبيك إبراهيم الذي أتمّ كلمات الله فكان للناس إماماً... وستكون أنت صاحب رأيته التي تهدي بها أبناءه من بعده وتلك حقيقة قد غيبتها الشيطان تحت ركام أوهام وخرافات الجاهلية وضلالات الشياطين...

وإلا فما المناسبة بين هذين البيتين حتى يُسرى بالنبي ﷺ بينهما في ليلة واحدة، يصلي فيها النبي في المسجد الحرام العتمة بأصحابه^(٢) إماماً، ويصلي في المسجد الأقصى بالأنبياء الصبح إماماً كذلك؟ وفي الليلة نفسها بعدما يشرفه الله بلقاءه في جناب قدسه ليعطيه هدية القرب للقرب صلاةً يستعين بها على مشاق الطريق، وزاداً إيماناً يتصل بقوة الأزل رغم كل الحواجز والآفاق.

وفي هذا يقول صاحب أضواء البيان:

(وفي هذا اعتناء بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط الأنبياء معه فصلى بهم لما حانت الصلاة ويحتمل أنها الصبح من يومئذ... ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء !

والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق: لأنه كان مطلوباً إلى الجناب العلوي

(١) كما يروى بذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله !! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة وأينما أدركت الصلاة فصل فهو مسجد. رواه الإمام مسلم في كتاب المساجد الحديث الأول برقم ١/٥٢٠/٣٧٠ وقد سبق تخريجه.

(٢) قال ابن كثير رواه الترمذي والبيهقي وقال اسناده صحيح انظر تفسير ابن كثير ١٤/٣.

ليفرض عليه وعلى أمته ما شاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به إجتماع به^(١) هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة.. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس^(٢).

(إنها حكمة الله عز وجل من وراء الغيب البعيد تطلعنا على هذا الارتباط الوثيق بين مكة وبيت المقدس لتغرس في أعماق قلوبنا هذه الصلة التي لا تنفصم بين البلدين المقدستين التين بارك الله تعالى فيهما إشارة إلى أن هذه الأرض هي أرض النبوات وأنها هي القاعدة الأساسية للأيمان والتي لا شركة فيها لكفر أو الحاد وأنها هي المنطلق الخالد والحصن الدائم لدعوة التوحيد التي هي دعوة الأنبياء في كل الرسالات^(٣)).

وهو (الإيماء إلى أن الله تعالى قد جعل هذا الإسراء رمزاً إلى أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم - عليه السلام - الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس ثم إلى خاتمها التي ظهرت من مكة أيضاً فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرعت في المسجد الأقصى... ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سري يعقبه تأويب^(٤)).

وفي هذا يقول صاحب الضلال: (الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً. وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات.. وارتباط رسالته بها جميعاً، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً

(١) أي في المسجد الأقصى.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٦٢/٢ وانظر أضواء البيان لمحمد الشنقيطي ٣٩٤/٣.

(٣) من مقال بعنوان ظلال وأنداء من ذكر الإسراء والمعراج للأستاذ عبد اللطيف الشيرازي المنشور في مجلة حضارة الاسلام العدد ٥ لسنة ٤/ ص ٧٧.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/١٥.

أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القرية التي تتكشف عنها للنظرة الأولى..

وهذا الإسراء آية من آيات الله وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر.. والمسجد الأقصى هو طرف الرحلة..

والمسجد الأقصى هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ثم أخرجهم منها.. فسيرة موسى وبني إسرائيل تجيء هنا في مكانها المناسب من سياق السورة في الآيات التالية ﴿آتينا موسى الكتاب... وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾.

فإن هذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في هذه السورة وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها ودالت دولتهم بها. وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وتفشي الفساد فيها، وفاقاً لسنة الله التي ستذكر بعد قليل في السورة ذاتها.. وذلك أنه إذا قدر الله الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها..^(١).



(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٤/٥ - ٣٠٥.

المبحث الثالث

بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء

المطلب الأول:

أصل بني إسرائيل

المطلب الثاني:

أسماء بني إسرائيل

المطلب الثالث:

كتب بني إسرائيل

المبحث الثالث

بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء

المطلب الأول

أصل بني إسرائيل

قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل الذين كانوا يعاصرون النبي ﷺ بـ: ﴿ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً﴾ (الإسراء/ ٣).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهيج وتنبيه على المنّة أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم: ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾^(١).

والتعميم هنا واضح إذ لم يخص القرآن من أي أولاد نوح كنتم يا بني إسرائيل يا ذرية من حملنا مع نوح.. وقد كان مع نوح أولاده الثلاثة (سام وحام ويافث) وفي هذا يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي:

(سام أبو العرب ويافث أبو الروم وحام أبو الحبش)^(٢).

ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أصل الأجناس المتكاثرة بعد الطوفان ويتبين لنا كذب ادعاء اليهود بأن أصلهم من سام فقط وأن من حاربهم إنما هو معادٍ للسامية.. علماً بأن منهم من هو من نسل حام أبي الحبش، ومنهم من هو من نسل يافث أبي الروم وليس فقط من نسل سام كما يدعون^(٣).

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٤/٣.

(٢) رواه الترمذي في سننه من طريق الحسن البصري عن سمرة بن جندب مرفوعاً وقال عنه «حديث حسن» انظر ٦٨١/٥ وانظر قصص الأنبياء - الحسن بن محمد الكسائي ٣٠/٥/١.

(٣) سيتبين لنا زيف هذه القضية بما توصل إليه العلماء من حقائق.

والتوراة التي بين أيدينا تركز على قضية تريد أن تجعلها حقيقة مسلماً بها بينما هي محض افتراء على الله سبحانه وعلى الناس والتاريخ.. تلکم هي جعل حام أبا الكنعانيين، والكنعانيون هم العرب، وتنسب إليه لعن أبيه نوح فتقول: (أما أبناء نوح الذين خرجوا معه في الفلك فكانوا: ساماً وحاماً ويافث.. وحام هو أبو الكنعانيين. هؤلاء كانوا أبناء نوح الذين تفرعت منهم شعوب الأرض كلها...)^(١).

ثم تعلل التوراة سبب كون موقف نوح من ابنه حام يختلف عن موقفه من أخويه سام ويافث، لتجعل ذلك مسوغاً للعن نوح حاماً وجعله وذريته - الكنعانيين - بزعمهم - عبيداً لسام ويافث كما يدعون فتقول التوراة..

(واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً.. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عرياً أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجاً، فأخذ سام ويافث رداءً ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقري إلى داخل الخيمة وسترا عري أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه، وعندما أفاق نوح من سُكره وعلم ما فعله به أبنة الصغير قال: (ليكن كنعان ملعوناً، وليكن عبد العبيد لأخوته) ثم قال: (تبارك الله إله سام، وليكن كنعان عبداً له. ليوسع الله لياث فيسكن في خيام سام. وليكن كنعان عبداً له)^(٢).

وهكذا يُطرد حام من رحمة الله وتُلعن ذريته وتكون عبيداً لذرية أخويه، مع العلم أن الثابت تاريخياً أن حاماً ليس أبا الكنعانيين وإنما هو سام، فهم يريدون أن يلحقوا العرب الذين يرجعون بنسبهم إلى كنعان إلى حام الذي هو أبو الحبش كما ثبت ذلك من حديث رسول الله ﷺ. وكما هو الثابت تاريخياً فهم لا يريدون أن يشاركهم غيرهم في نسبٍ إلى سام الذي هو أبو العرب..

هذا من جهة النسب الذي لم يتوان اليهود في تحريفه ويكذبون حتى في هذه

(١) انظر سفر التكوين ٩/١٨-١٩ و ٩/٢٠-٢٧.

(٢) انظر سفر التكوين ٩/١٨-١٩ و ٩/٢٠-٢٧. انظر كيف يفترون الكذب من أدرى نوح أن ابن حام اسمه كنعان وهو لا يزال صغيراً كما تذكر الرواية ذاتها.

النبوءات ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون^(١).

أما من جهة الدين والعقيدة فإن ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة».. قالوا: كيف يا رسول الله؟.. قال: «الأنبياء أخوة من علأت، وأمهاقم شتى.. ودينهم واحد، وليس بيننا نبي»^(٢).

ومعنى الحديث إن أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فأفهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فكان فيها اختلاف^(٣).

وحين يقرر النبي ﷺ أنه أولى بعيسى ممن يدعى اتباعه يعني أن هناك صلة قرى ليس في الدين والعقيدة فحسب وإنما في النسب أيضاً بالإضافة إلى أنه لا نبي بينهم - صلوات الله عليهم وسلامه.

هذه قضية لها خطورتها وهي جديرة بالاهتمام والتبيين.. ولا سيما أننا بصدد أصل بني إسرائيل فلا يجوز إخفاء شيء من حقائق الدين والاعتقاد ولا من حقائق التاريخ والاجتماع التي لها علاقة وثيقة بقضية.. الذرية والنسب.. فاليهود يعلمون جيداً إن أصلهم لا يعود إلى سام بن نوح فقط والذي هو أبو العرب - كما يدعون - هذا.

وإنما هم في الحقيقة مزيج من ذرية أولاد نوح فمنهم من يعود نسبه إلى سام ومنهم من يعود إلى حام ومنهم إلى يافث.. ولذلك حين تحدث القرآن عنهم أخبر بصيغة الإجمال فقال: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ أي يا ذرية من حملنا مع نوح.. أما أن يحصرنا نسبهم في سام الذي هو أبو العرب وينسبوا العرب الذين هم أبناء كنعان - إلى حام - تحريفاً حتى يثبتوا إن لهم حقاً في الأرض عن طريق ميراث إبراهيم لأرض كنعان، ولذلك نجد أن التوراة حين تحدثت عن أبناء نوح وجعلت اللعنة خاصة بحام لأنه

(١) انظر الوعد الحق والوعد المفترى - للشيخ سفر الحوالي ص ٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ﴿واذكر في الكتاب مريم...﴾ وأخرجه مسلم في الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام وانظر ١٨٣٧/٤ حديث رقم ٢٣٦٥ واللفظ له.

(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم للحديث نفسه ١٨٣٧/٤.

رأى عُريّ أبيه كان هذا سبباً لعزل حام عن ميراث الأرض وأن قدره أن يكون عبد العبيد لإخوانه ثم ألحقوا به الكنعانيين أي أبناء كنعان الذي هو أبو العرب. والعجيب أنهم عرفوا اسم ابنه قبل أن يولد كنعان ويتكرر اللعن ثلاث مرات..

قلت: إننا نجد التوراة حين ذكرت هذه القصة ذكرت بعدها قطع الرب العهد لإبراهيم بميراث الأرض^(١). تقول التوراة: (أترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك واذهب إلى الأرض التي أريك..)^(٢).

وتقول: (وقال الرب لإبرام بعد أن أعتزل عنه لوط: «أرفع عينيك وتلفت حولك من الموضع الذي أنت فيه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فأن هذه الأرض التي تراها، سأعطيها لك ولذريتك إلى الأبد»)^(٣).

وتزيد التوراة الوعد بالأرض توضيحاً وتحديداً فتقول: (في ذلك اليوم عقد الله ميثاقاً مع إبرام قائلاً: «سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير نهر الفرات..»)^(٤).

وأنها لتقرّ أن أرض كنعان إنما هي أرض غربة بالنسبة لإبراهيم لكنها مع ذلك تقول: «وأهبك أنت وذريّتك من بعدك جميع أرض كنعان التي نزلت فيها غريباً - ملكاً أبدياً - وأكون لهم إلهاً»^(٥).

وتمضي التوراة حتى يصل الأخبار فيها عن إسحاق فتقول لإبراهيم: «لا يسوء في نفسك أمر الصبي أو أمر جاريتك» أي إسماعيل وأمه هاجر^(٦) «واسمع لكلام سارة في كل ما تشير به عليك لأنه بإسحاق يدعى لك نسل»^(٧). - أي وليس بإسماعيل -.

(١) وذلك لكي يربطو بين حلقات العهد عن طريق النسب ولو اضطرب ذلك إلى الترحيف والتبديل كما سنرى.

(٢) تكوين ١٢/١.

(٣) تكوين ١٣/١٤-١٧.

(٤) تكوين ١٢/١٨.

(٥) تكوين ١٧/٨.

(٦) انظر التأكيد على عبودية هاجر وانها ليست اكثر من جارية.

(٧) تكوين ٢١/١٢.

وتمضي التوراة لتخبر عن يعقوب ابن إسحاق فتقول إن الرب ظهر ليعقوب في الحلم فقال له: «أنا هو الرب إله أبائك إبراهيم وإله إسحاق وأن الأرض التي ترقد عليها الآن أعطيتها لك ولذريتك التي ستكون كتراب الأرض..»^(١)، وفي موضع آخر تقول وظهر الله ليعقوب مرة أخرى.. وقال له: لن يدعى اسمك يعقوب في ما بعد بل إسرائيل.. وقال له: «والأرض التي وهبتها لإبراهيم وإسحاق أعطيتها لك ولذريتك من بعدك أيضاً..»^(٢).

ولا ندري إلى أين ستصل هذه الوعود ومن هم النسل والذرية التي ستكون كتراب الأرض، صاحبة الحظ بامتلاك هذه الأرض؟.

ولكن اليهود يعلمون أنهم يريدون أن يجعلوا الناس يصدقون أنهم هم ذرية إسرائيل وأنهم ذرية من حمل الله مع نوح، أما غيرهم فلاحظ لهم بامتلاك الأرض ولا سيما ذرية حام - الكنعانيون - فهم ليسوا أكثر من عبيد لهم وهذا - كما علم - ادعاؤهم أنهم شعب الله المختار وغيرهم ليس أكثر من عبيد - جويم^(٣) - لهم..

تلك هي القصة وذلك هو المقصود من إرجاعهم أصل نسبهم إلى يعقوب وإسحاق لإبراهيم ثم إلى سام بن نوح عليه السلام.

بينما الذي ثبت أنهم ليسوا كلهم من بني إسرائيل أي من يعقوب فهناك من ينتمون إلى أجناس أخرى..

فقد: كشفت حقائق البحث العلمي إن يهود أوروبا ليسوا من ذرية بني إسرائيل.. وأنهم يمثلون تسعة أعشار يهود العالم وأغلبهم من منطقة بولونيا وحوض نهر الراين: وهم الاشكنازم، ولغتهم «بدش» وهم الذين كانوا يعيشون في الخزر، وهم من سلالة جرمانية أوربية محضة ابتدأت تتكاثر منذ القرن الثالث الميلادي، إعتنق أجدادهم قبل الميلاد بأكثر من قرنين الدين اليهودي الموسوي.. وهؤلاء غير اليهود الذين هربوا من الشرق إلى

(١) تكوين ٢٨/١٣-١٤.

(٢) تكوين ٣٥/٩-١٢.

(٣) انظر اليهودية - أحمد شلبي ص ٢٠٨ وما بعدها ط/٣ ١٩٧٣ مكتبة النهضة المصرية.

جنوب أوربا وشمال أفريقيا.. وقد بحث علماء الأجناس "رييلي - لامبروزو - رنيان" وتتبعوا هذه القضية فقال لامبروزو: إن يهود العالم الجديد أدنى إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي وهم عبارة عن طائفة دينية تميّزت بميزات اجتماعية واقتصادية، وأنظم إليهم في جميع العصور أشخاص شتى من الأجناس ومن مختلف صنوف البشر منهم الفلاشا (سكان الحبشة) والألمان والتأمل (اليهود السود من الهند) ومنهم الخزر (من الجنس التركي).. وأشاروا إلى أنه لا يعقل أن يكون اليهود الموجودون الآن في العالم وعددهم (١٦،٠٠٠،٠٠٠) مليوناً هم من سلالة الخمسين ألفاً الذين شرّدوا من عهد أوريانوس..

والمعروف إن شعب الخزر لم يسكن فلسطين، ولا الجماعات العبرانية جميعاً ذهبت إلى هناك..

قال الأستاذان - ربلي وتيار -: (إن اليهود في ألمانيا يشبهون الألمان شبيهاً واضحاً وإن اليهود السلاف لا يختلفون عن مواطنيهم السلافيين... وكذلك قرر علماء الأجناس: إن بعض الصفات التي يزعم اليهود أنها خاصة بهم - كالأنف البارز - قد لوحظ أنه ليس شائعاً بين جميع الجماعات اليهودية... ويقول: إن تسعة أعشار يهود العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافاً واسعاً ليس له نظير. وأن الزعم بأن اليهود جنس نقي حديث خرافة..)^(١).

أما من ناحية المعتقد فقد دلّت الأحداث التي تمخّضت عن حالة التمزّق والضياع ورحلة الشتات إلى أن:

اليهودية يهوديتان هي:

أولاً: يهودية التوراة... المتمثلة بالجماعات التي هاجرت من المشرق وتدفقت على أوربا..

(١) المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية غزوا الفكر الإسلامي المعاصر لأنور الجندي ص ٣٨ ط ٢/ -

١٩٧٤م - دار الاعتصام.

ثانياً: يهودية التلمود... وهي تلك الجماعات التي نشأت في بولونيا وحوض نهر الراين وهم يهود أوربا الإشكنازيون اللذين ليسوا من نسل إسرائيل والذين يمثلون الآن تسعة أعشار يهود العالم..

أما يهود التوراة فيطلق عليهم اسم «السينارديون» وليهود التوراة في أوربا رحلة بدأت في عصر الدولة الرومانية ثم تجددت بعد سقوط القدس حيث تشتتوا في إنجلترا وفرنسا وألمانيا ثم أزيلوا عنها بعد ذلك فاعتصموا بالدولة الإسلامية في الأندلس حتى خرج العرب منها عام/١٤٩٢ ف لجؤا إلى الدولة العثمانية في سالونيك حيث كانت مؤامراتهم الخطيرة في إسقاط الخلافة والوصول إلى القدس...^(١).

ولا بد من التفرقة التامة بين يهود التوراة ويهود التلمود.. (يهود التوراة الذين هم يهود الشتات الذين انطلقوا في القرن الأول الميلادي إلى أوربا وإلى أجزاء مختلفة أخرى.. أما يهود التلمود فهم الذين نشأوا في بيئات أخرى في الغرب لا صلة لهم بالنسبة ليهود بني إسرائيل..).

اليهودي العربي الحديث - كما يقول فرنك لي بریتون: (لا يؤمن حقيقة بالتوراة بل بالتلمود وهو لا يتكلم العبرية بل اليهودية الدارجة وهو ليس من نسل بني إسرائيل بل من حثالة شرقي البحر المتوسط..)^(٢).

يقول السيد «س. ناجي»: ^(٣) تزعم المصادر اليهودية أن منشأ بني إسرائيل هو بلاد الكلدان، باعتبار أن مسقط رأس جدهم إبرام هو أور إحدى المدن الكلدانية «أور كلدان» ويعتمد اليهود في زعمهم هذا على ما جاء في سفر التكوين...

ولكن هذا الادعاء يفتقر إلى أدلة تاريخية وبراهين علمية، علماء التاريخ ينفونه بصورة تكاد تكون جازمة، وآراؤهم في هذا الموضوع تختلف كلياً عما ذهبت إليه

(١) المخططات التلمودية - أنور الجندي ص ٣١-٣٢.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ بتصرف.

(٣) صاحب كتاب المفسرون في الأرض - أو جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ ط/١/

١٩٦٥ دمشق.

المصادر اليهودية، إذ لكل عالم منهم رأيه الخاص في هذا المنشأ... ومن بين هؤلاء العلماء يحدثنا العالم الأمريكي «جورج بارتون» عن اليهود فيقول:

«إنهم من القبائل السامية الرحّل التي كانت تتجول في صحارى شبه الجزيرة العربية منذ أقدم العصور. ولقد عرفت باحتراف تربية المواشي والتنقل الدائم، ولم يعرف لها قط بلد أو وطن، حتى ظهرت في فلسطين قبل مولد المسيح بعدة قرون...»^(١).

ولقد أيدته في هذا الرأي كل من المؤرخين «روجر وبروني»^(٢)... ومن العلماء الذي اشتهروا بتوسعهم في هذا البحث وبتجردهم في جميع أبحاثهم العالم الفرنسي المعاصر (أدولف لودس) حيث أنه - عند بحثه عن اليهود - لا يعترض على أنهم كانوا قبائل رحّل تجوب الصحارى العربية، ولكنه يشك كثيراً في نسبتهم إلى السامية، ويحبذ انتماءهم للآرامية. ويدعم نظريته هذه بدلالة عما بين اليهود والآراميين من تقاليد مشتركة، كتطبيق كل من الشعبين نظام الضريبة العشرية التي تقدم للآلهة، أو على ما في التراتيل القديمة من الإشارة إلى قرابة اليهود من الآراميين، ويستشهد لذلك بالترتيل اليهودي الشهير القائل (كان أبي آرامياً تائهاً).. ويضيف إلى ما سبق دليلاً آخر هو التقارب الوثيق الكائن بين اللغتين ويستخلص من كل هذا فكرة نفي السامية عن اليهود^(٣).

يتبين لنا مما سبق إن اليهود لا ينتمون إلى السامية بصورة خالصة وإنما يختلط نسبهم بمن كان مع نوح اختلاطاً ينفي عنهم كونهم أنهم شعب مختار ومميز وصاحب دم نقي كما يدعون بل إنهم أخلاط شعوب وصعاليك أمم وقبائل ورثوا عن أسلافهم رذائلهم دون محاسنهم وإلا لما زيفوا التاريخ والواقع وكتب السماء ليخادعوا الله والناس.

﴿وما يخذعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (البقرة/٩).

(١) نقلا عن كتاب G.A.Barton Asketeh of Simitic Origines New york, 1902.

(٢) المفسدون في الأرض - س. ناجي ص ١١.

(٣) المصدر السابق ص ١٣.

المطلب الثاني

أسماء بني إسرائيل

سأتناول هنا أسماءهم التي وردت في القرآن فحسب - متخطياً أسمائهم التي جاءت في كتبهم إلا إشارات سريعة إتماماً للفائدة.

١ - أسماءهم:

أطلق على بني إسرائيل عدّة تسميات منها ما يشار بها إلى أصلهم ومنها ما كانت صفة لهم ومنها ما كان تمييزاً عن غيرهم. وقد وردت في القرآن منها عدّة تسميات، بعضها في كتبهم أو في كتب التاريخ.

فأسماءهم التي وردت في القرآن الكريم هي:

أولاً- أهل الكتاب:

فقد جاءت هذه التسمية في كثير من آيات القرآن الكريم حتى بلغت أربعاً وعشرين مرة موزعة في كثير من آيات القرآن الكريم. منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ﴾ (البقرة/١٠٩). ومنها ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا...﴾ (الروم/٦٤).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ (آل عمران/٧٠).

ويعود أصل هذه التسمية إلى أنهم قد تميزوا بها عن باقي الأمم والشعوب بأنهم كانوا أهل كتاب منزل عليهم من الله سبحانه عن طريق أنبيائهم.

وتطلق هذه التسمية على اليهود والنصارى ولا تخص أحدهما على انفراد.

ثانياً- بنو إسرائيل:

وهي تسمية أطلقها القرآن الكريم عليهم في كثير من آياته الكريمة. ويعود أصل

هذه التسمية «نسبة إلى أبيهم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام».

و«إسرائيل» كلمة عبرانية مركبة من «إسرا» بمعنى عبد أو صفوة، ومن «إيل» وهو الله، فيكون معنى الكلمة «عبد الله» أو «صفوة الله»^(١).

وقد صرح القرآن في كثير من آياته باسم يعقوب منها أنه سبحانه قد وهب لإبراهيم إسحاق ويعقوب فقال: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ (العنكبوت/٢٨). ومنها ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ (البقرة/١٣٤).

ومنها ما يثبت أن تسمية يعقوب بـ «إسرائيل» في موضعين من كتاب الله. الأول: قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ (آل عمران/٩٣).

الثاني: قوله تعالى: ﴿وومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبینا﴾ (مريم/٥٨). وقد أجمع المفسرون أن المقصود بـ «إسرائيل» هو يعقوب^(٢). أما لفظة «بني إسرائيل» فقد وردت في القرآن الكريم في واحد وأربعين موضعاً موزعة على سور القرآن منها على سبيل المثال: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ (البقرة/٤٠) ومنها:

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ (آل عمران/٤٩).

ومنها قوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ (الإسراء/٤).

وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب المذكور الإثنا عشر ولداً وذلك أنه أعقب عن زوجته «ليئة» ستة أولاد هم: «رأوين - شمعون - لاوي - يهوذا - يذاكر - زبولون» وأعقب عن زوجته «راحيل» إثنين هما «يوسف - بنيامين» وأعقب من «زلفا» جارية «ليئة» إثنين هما «جاد - أشير» وأعقب من: بلها «جارية راحيل» إثنين هما «دان - نفتالي».

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة - محمد سيد طنطاوي ١/٦٦ ط ٢ - ١٩٧٣ م.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للأمام القرطبي ١١/١٢٠ ط ٢/١٩٥٤ مكتبة الأندلس ليبيا مصر.

ومن أبناء يعقوب عليه السلام وذرياتهم من بعدهم تكونت أمة بني إسرائيل ونسبت إليه^(١).

ثالثاً - يهود:

كذلك استعمل القرآن هذه التسمية وقصد بها «بني إسرائيل» في ثمانية مواضع موزعة في سورة البقرة والمائدة والتوبة منها قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ (البقرة/١١٠). ومنها: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة/٨٢). ومنها: ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ (التوبة/٣٠).

وجاء هذا اللفظ في سورة آل عمران ولكن في معرض الحديث عن نفي صفة اليهودية عن إبراهيم فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ (آل عمران/٦٧).

وأصل هذه التسمية مأخوذة من هاد يهود إذا تاب ورجع.

قال صاحب لسان العرب: «الهود.. التوبة، هاد - يهود - هوداً» تاب ورجع إلى الحق فهو هائد.. قال تعالى: ﴿وَإِنَّا هَدَيْنَاكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هِدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير^(٢).

وقال الراغب «هُودٌ.. الْهُودُ، الرجوعُ برفقٍ ومنه التَّهْوِيدُ» وهو مشي كالديب وصار «الهُودُ» في المتعارف «التوبة» قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْكَ﴾ أي «تبنا» (الأعراف/٥٦).

قال بعضهم: يهودٌ في الأصل من قولهم هُدنَا إِلَيْكَ، وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم. وإن لم يكن فيه معنى المدح. كما أن النصاري في الأصل من قوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ (الصف/١٤). ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم. ويقال: هاد فلان إذا تحرّى طريقة اليهود في الدين. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ (البقرة/٦٢).

(١) بنو إسرائيل - طنطاوي ٧/١.

(٢) لسان العرب لأبن منظور ١٥-٤٣٩ بتصرف - بيروت.

ويقال: قهود في مشيه، إذا مشى مشياً رفيقاً تشبيهاً باليهود في حركتهم عند القراءة. وهود في الأصل جمع هائد أي تائب. «وهو اسم نبي»^(١) أرسل لعاد قال تعالى: ﴿والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله﴾ (هود/٥٠).

وقد وردت هذه اللفظة «هود» اسماً لهذا النبي الكريم في القرآن في سبعة مواضع منها: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ (هود/٨٩).

ووردت في القرآن "علماً لليهود" في ثلاثة مواضع منها قوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ (البقرة/١٣).

ومن ثم جاءت لفظة «هادوا» علماً وصفة لليهود في عشرة مواضع في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ (النساء/١٦٠). وقوله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى﴾ (الحج/١٧). أي الذي دخلوا اليهودية. وهاد يهود إذا صار يهودياً.

قال سيبويه: وفي الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه». معناه أنهما يعلمانه اليهودية أو النصرانية ويدخلانه فيه^(٢).

«وقيل إنهم سُموا بذلك لأنهم يتهودون، أي يتحركون عند قراءة التوراة». وقيل إنهم سُموا يهوداً نسبة إلى «يهوذا» الابن الرابع ليعقوب عليه السلام وقد رجّح بعض العلماء هذا القول واقتصر عليه.

قال الإمام البيروني مؤيداً هذا القول «وإنما سُموا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الأسباط فان الملك استقر في ذريته، وأبدلت الذال المعجمة دالاً مهملة، لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيّروا بعض حروفها»^(٣).

(١) انظر المفردات للراغب ص ٥٤٦ - طبعة دار المعرفة.

(٢) راجع لسان العرب لأبن منظور - ٤٣٩/١٥ والحديث رواه البخاري كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وأخرجه مسلم واللفظ له كتاب القدر باب معنى كل مولود /٤/ ٢٠٤٧ رقم الحديث ٢٦٥٨.

(٣) أنظر بنو إسرائيل - ٨/١ وقد نقل السيد طنطاوي هذا الرأي عن تأريخ الملل والنحل ٤/٢ لأمين الخولي.

قال الساموك: «وأطلقت تسمية «اليهود» على بقايا جماعة يهوذا الذين رحلهم نبوخذ نصر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد إلى مملكة يهوذا المنقرضة»^(١).
غير أننا نميل إلى أن السبب في تسمية بني إسرائيل بـ«اليهود» هو ما أخبر عنهم القرآن في قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ الأعراف/١٥٦. من أنهم تابوا ورجعوا إلى الله من عبادة العجل. وبقيت هذه التسمية لازمة لهم حتى بعد نسخ شريعتهم بشريعة الإسلام. ولعلّ هذا مما يحرص عليه «يهود» في أن يكون اسمهم رمزاً وإشارة لمعنى يريدون أن يوهّموا الناس بأنهم أصحاب فضل في كونهم عائددين وتائبين ويهود راجعين إلى الله. بينما رأى أصحاب الحق أن هذه التسمية كالتسخرية بهم.

فكلمة «هادوا» وإن كانت تعني عادوا ورجعوا فان عودتهم عن عبادة العجل لم تدم فسرعان ما عصوا موسى وتمردوا عليه وعبدوا من دون الله آلهة شتى مادية وذهبية وخرافية. والقرآن والتأريخ يشهدان بهذا ويصدق أحدهما الآخر في ذلك.

ولو كان السبب في تسميتهم بـ«يهود» نسبة إلى «يهوذا» لنسبهم القرآن إليه كما نسب الأقوام إلى أنبيائهم «قوم نوح» و«قوم صالح» ولقال «قوم هوذا» ولكنه قال «وعلى الذين هادوا» نسبة إلى فعل الرجوع منهم. قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء/٤٦). أي من الذين عادوا يحرفون الكلم عن مواضعه. وقال تعالى: ﴿يُحْكِمُ بِاللَّيْنِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (المائدة/٤٤). أي للذين رجعوا وتابوا وقد أجمع المفسرون على هذا وانتصر لهم كثير من العلماء منهم الدكتور عفيف عبد الفتاح طيّارة الذي نهج نهج المفسرين القدماء وأعاد كلمة «يهود» إلى الفعل «هاد ويهود» وهو يأتي بهذه النتيجة من الدراسات المتعلقة بالعهد القديم والجديد يدعونه اثباتاً لما يقول القرآن^(٢).

(١) تأريخ الديانتين اليهودية والمسيحية - الساموك - عليان ١٦. ط/٨٨ جامعة بغداد.

(٢) الرؤية العربية اليهودية - الحداد/٣٥، وانظر اليهود في القرآن - عفيف طيّارة ٦١ وانظر ينو إسرائيل - طنطاوي ٤/١-٥.

قلت: هذه هي الأسماء الثلاثة التي أطلقها القرآن على بني إسرائيل، أما الأسماء التي وردت في كتبهم كالعبرانيين^(١) والموسويين^(٢) لم أتناولها بشيء من التفصيل هنا حيث لا

(١) «العبرانيون» جاءت هذه التسمية في الكتب المقدسة وعلى لسان العلماء وكتاب التاريخ ويعتدونها أقدم تسمية أطلقت على بني إسرائيل - بزعمهم - وان كانوا قد اختلفوا في سبب إطلاقها عليهم على أقوال، نردها باختصار:

الأول - «أنهم سُموا بالعبرانية نسبة إلى إبراهيم نفسه، فقد ذكر في سفر التكوين - إبراهيم العبراني - لانه عبر نهر الفرات وأنهاراً أخرى» انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة - سيد طنطاوي ٤/٣.

الثاني - «أنهم سُموا بالعبرانية نسبة إلى «عبر» وهو الجلد الخامس لإبراهيم المصدر السابق.

الثالث - قيل أن سبب التسمية «إن كلمة عبري ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أنهم كانوا في الأصل من الامم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى يابلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى. وكلمة «عبري» في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي «عبر» بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو الوادي أو النهر من «عبرة إلى عبرة»، أو عبر السبيل: شقها. وكل هذه المعاني موجودة في الفعل سواء في العربية أو العبرية" انظر تأريخ اللغات السامية - إسرائيل ولفنسون ص ٧٧ - وانظر اليهودية - أحمد شلبي ص ٤٧.

الرابع - يرجع سبب هذه التسمية إلى ان هناك قبائل كانت تنتقل في شمال الجزيرة وأرض كنعان كانت تسمى بقبائل «العبيروا أو الهبيروا» وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضاً. وقد انضمت إلى القبائل الآرامية. وصارت هذه الكلمة بعد ان صحفت إلى عبري وعبراني تطلق على اتباع موسى. انظر العرب واليهود في التأريخ - أحمد سوسة ص ١٦١.

(٢) مصطلح اطلق على اتباع موسى عليه السلام بعدما جاءهم منقذاً لهم ومخلصاً من ظلم فراعنة مصر الذين كانوا يسومون بني إسرائيل سوء العذاب. والظاهر ان هذه التسمية قد اطلقت عليهم بعد ايمان السحرة وبعض بني إسرائيل بما جاء به موسى من الايات وخروجهم معه. وقد كانوا قبل ذلك يسمون - بسني إسرائيل - فلما تبعوه وخرجوا معه اطلقت عليهم هذه التسمية «الموسويون» وبقيت هذه التسمية تطلق عليهم إلى ان ابدلت بتسمية «اليهود» عندما تابوا وهادوا وعادوا عن عبادة العجل. وينوه الدكتور أحمد سوسة بهذه التسمية ويعدها "مصطلحاً يمكن إطلاقه على جماعات خليطة من احفاد بني إسرائيل ومن بقايا الهكسوس وهؤلاء كانوا يدينون قبل موسى عليه السلام بدين التوحيد الذي ورثوه عن إبراهيم عليه السلام أو الذي دعا إليه - اخناتون - فرعون مصر الموحد، ولعل اخناتون قد تأثر بدعوة يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام، بعدما نشر عقيدة التوحيد في مصر. وقد آمنوا برسالة موسى عليه السلام" انظر تأريخ الديانتين: الساموك وعليان ١٥-١٦.

يتسع المجال لها أولاً ولأن الموضوع يخص بني إسرائيل في سورة الإسراء ثانياً. ويمكن الرجوع إلى الكتب التي تناولتها كاليهودية لأحمد شلبي وتأريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون.

مصادقية أسمائهم:

بعد ذلك نقول ما مصادقية هذه الأسماء لمن تسموا بها أو أطلقت عليهم؟ ماذا (تغني) الأسماء عن قوم فقدوا مصادقيتها ومعناها. فماذا ينفع ظالماً سُمِّيَ عادلاً، وماذا يفيد رجلاً ذليلاً اسمه أمير.

إن تسمية «بني إسرائيل» التي سماهم القرآن بها كان ينبغي أن يعتزوا بها ويعتزوا بالقرآن الذي شرفهم بها وأراد أن يرفعهم من وهدهم التي نزلوا إليها. وذلك شرف عظيم أن ينسبهم إلى رجل اسمه «إسرائيل» أي «عبد الله أو صفوة الله» لكنهم أبوا أن يتقبلوا هذا الشرف الشريف وقطعوا هذه الصلة يوم أن قطعوا صلة العقيدة - عقيدة التوحيد - التي جاء بها الأنبياء والتي جعل الحق سبحانه لها القيمة الحقيقية في الارتباط والقربى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات/ ١٠). و: ﴿إِن ابْنِي مِنْ أَهْلِي... إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود/ ٤٥)^(١) لا قيمة لصلة النسب والقربى أمام صلة العقيدة والإيمان؟ فهل راعى اليهود صلة النسب الإيماني بأبيهم يعقوب «إسرائيل» حتى يفتخروا بصلتهم به عن طريق النسب؟ لقد فقدوا صلة الإيمان من يوم أن قطعوا رحمهم وغدروا بأخيهم وألقوه في غياهب الحب حتى ابيضت عين أبيهم عليه من الحزن وهو كظيم.

ليس لهم من تسمية «بني إسرائيل» إلا الاسم الذي ينبغي لهم أن ينجلوا من أنفسهم حين يطلق عليهم، أن لا يكونوا على دينه وبقينه وإيمانه بالله وهم قد وصفوه بما لم يصفه به غيرهم فقالوا: ﴿إِن أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يوسف/ ٨.

أما تسمية «يهود» التي أطلقت عليهم حين عادوا ورجعوا تائبين إلى الله من عبادتهم لعجل ذهبي لم ينصر نفسه ولم ينصره من عبدوه وقد حرقه موسى وألقاه في

(١) انظر تفسير هذه الآية في ظلال القرآن ٥٥١/٤ فقد تكلم فيها وأجاد.

اليوم. رجعوا فقالوا: ﴿إنا هدنا إليك﴾. فإلى كم بقوا على توبتهم وعودتهم إلى الله. إنهم عبدوا غير الله آلهة أخرى - شتى - ما أنزل الله بها من سلطان، إن تسمية - اليهود - أطلقت عليهم يوم أن عادوا ورجعوا عن عبادة العجل وغيره من دون الله وكان ينبغي أن تُطلق عليهم يوم عادوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام التي وجدوها في الطريق وفاقوا أصحاب القرى التي قاتلوا أهلها واحتلوها حتى نافسوهم فيها.

أما «أهل الكتاب» التسمية التي لم تطلق على أمة قبلهم والتي كان عليهم - بمقتضاها - أن يحرصوا حرصاً شديداً على الالتزام بكل ما جاءهم فيه وإن لا يسمحوا لأحد منهم أن يكسر شيئاً من تعاليم الكتاب أو يترك العمل به بعدما نزلت في ألواح من الله لنبيهم موسى ف قيل له: ﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين﴾ (الأعراف/١٤٥). لكن الذي حدث لا يصدق:

أ - حرفوا كتابهم من بعد ما عقلوه كما قال تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كتاب الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ (البقرة/٧٥).

ب - نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً: ﴿واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ (آل عمران/١٨٧).

ج - أنكروا كل ما أنزل الله: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ (الأنعام/٩١).

سقطت كل الأسماء بعد ما بان زيف كل المسميات إلا تسمية واحدة أثبتتها الكتاب الحق جعلها صفة لهم وينبغي أن تكون لهم تسمية دائمة ما دامت هذه الصفة فيهم هي: «المغضوب عليهم» فلقد أطلق القرآن عليهم هذه التسمية وجعلها ثابتة عليهم وخاصة بهم يعرفون بها بداهة وعلى ذلك جمهور المفسرين.

قال القرطبي: (اختلف «في المغضوب عليهم» من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين والنصارى، وجاء ذلك مفسراً عن النبي ﷺ من حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه^(١). وقد أخرجه ابن كثير في تفسيره فقال: روي عن عدي بن حاتم أنه قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال هم اليهود ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ «قال النصارى»^(٢).

ويؤكد الألوسي ذلك بقوله (والمراد بالمغضوب عليهم - اليهود - وبالضالين - النصارى - .. واستدل بعضهم على أن المغضوب عليهم بقوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ (المائدة/٦٠) وعلى أن الضالين النصارى بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة/٧٧). ثم قال: والأولى الاستدلال بالحديث لأن الغضب والضلال وردا جميعاً في القرآن لجميع الكفار على العموم فقد قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرِّ مَا يَلْفُظُونَ مِنْ كُفَرٍ صَدْرًا فَاعْلَمُوا مِنْ اللَّهِ﴾ (النحل/١٠٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء/١٦٧) ووردا لليهود والنصارى جميعاً على الخصوص - كما في آية «مَنْ لَعَنَهُ» وآية «وَلَا تَتَّبِعُوا» وإنما قدّم سبحانه المغضوب عليهم على الضالين.. لتقدم زمان المغضوب عليهم وهم اليهود على زمان.. الضالين وهم النصارى)^(٣).

غير إن ابن عاشور يتوسع في المراد فيقول: (فالمغضوب عليهم - جنس - للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو تأويل بعيداً جداً، والضالون - جنس - للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم و قلة إصغاء وكلا الفريقين مذموم.. ويقول في

(١) انظر تفسير القرطبي ١/١٤٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٢٩ والحديث قال عنه الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديث سمال بن حرب انظر تحفة الأحوذى ٢/٢٩٠ رقم الحديث ٤٠٢٩.

(٣) انظر ما قاله الامام ابن جرير الطبري في تفسيره للمغضوب عليهم وما أورده من روايات ١/١٨٠ - ١٨٩، في الطبعة المنقحة من محمود وأحمد شاكر. وانظر روح المعاني للألوسي ١/٩٦.

موضع آخر (فالمراد المغضوب عليهم غضباً شديداً لان ضلالهم شنيع، فاليهود مثل للفريق الأول والنصارى من جملة الفريق الثاني.. فاليهود تمردوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة وبدلوا الشريعة عمداً فلزمهم وصف المغضوب عليهم والنصارى ضلوا بعد الحوارين وأساءوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة. وما ورد في الأثر مما ظاهره تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو إشارة إلى أن في الآية تعريضاً بهاذين الفريقين اللذين حق عليهما هذان الوصفان لان كلا منهما صار علماً فيما أريد التعريض به فيه..^(١)).

وهكذا صار هذا الوصف علماً لمن استحق هذه التسمية من غير ظلم إذ كانوا له أهلاً...

المطلب الثالث

كتب بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾، قال ابن عاشور: عطف على جملة: ﴿سبحان الذي أسرى﴾ الخ فهي ابتدائية.. والتقدير: الله أسرى بعبيده محمد وآتى موسى الكتاب، فهما منتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر، وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى... - وكذلك - لمناسبة قوله ﴿لنريه من آياتنا﴾ فإن من آيات الله التي أوتيتها النبي ﷺ آية القرآن، فكان ذلك في قوة أن يقال: وآتيناه القرآن وآتيناه موسى الكتاب (أي التوراة)...

والكتاب: هو المعهود إيتاؤه موسى ﷺ وهو التوراة... وضمير الغائب في (جعلناه) للكتاب... وخص بني إسرائيل لأنهم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم^(٢)...

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١/١٩٦-٢٠٠ بتصرف.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٥/٢٤ بتصرف.

ثم إن لبني إسرائيل عدّة كتب «مقدسة» يؤمنون بها ويكفرون بما وراءها ولو كان ما وراءها هو الحق من ربهم مصداقاً لما بين أيديهم - وهي تقسم إلى قسمين الأول - التوراة والثاني - التلمود.

أولاً: (العهد القديم)

«هو الكتاب المعروف بالتوراة، وقد ترجم إلى أكثر اللغات الحية».

وقيل «العهد القديم» هو التسمية العلمية لأسفار اليهود وليست التوراة إلا جزءاً من العهد القديم، وقد تطلق «التوراة على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة. نسبتها إلى موسى»^(١).

وقيل إن «العهد القديم» - تناخ -^(٢) هو مجموعة الأسفار التي جمعها رجال السهندرين الذي تأسس عقب رحلة أحفاد المرحلين إلى بابل الذين رغبوا في الهجرة إلى أورشليم بعد سقوط بابل على يد كورش الملك الفارسي سنة ٥٣٨ ق.م. وكان السهندرين مؤلفاً من مائة وعشرين عضواً^(٣).. وأول من أطلق لفظ العهد القديم هو بولس الرسول في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس^(٤) والعهد القديم مقدس لدى اليهود ولدى المسيحيين^(٥) وهو يتكون من ثلاثة أقسام:

القسم الأول - التوراة^(٦).

وتعرف في العبرانية بـ ((تورا)) وهو علم يدل على الوحي الذي نزل على موسى - عليه السلام - وهو قول الشافعي رحمه الله، ومنهم من قال من الوري أي الزند يرى

(١) انظر اليهودية - شلي ص ٢٣٠.

(٢) مصطلح تناخ مأخوذ من الحروف الأولى لأقسام الكتاب الثلاثة - وهي التوراة - الأنبياء - الكتب المقدسة - الأخبار.

(٣) تأريخ الديانتين - الساموك ص ٣٥. نقلاً عن عرفان عبد الحميد.

(٤) انظر التوراة الهيروغليفية - اصحاح ١٤/٣.

(٥) انظر اليهودية - شلي ص ٢٣٠.

(٦) انظر بنو إسرائيل - طنطاوي ١/٨٣-٨٤.

وريا إذا خرجت ناره أي ان التوراة ضياء ونور معتمدا على قوله تعالى ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ وهذا رأي الفراء. أما القاسمي في تفسيره ٧٤٩/٤ فقد قال بان التوراة اسم عبراني بمعنى «الشرعة» وهذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابين في مصنفاتهم^(١) وهي تشمل خمسة أسفار هي:

أولاً: سفر التكوين او الخليقة Genese - ففيه قصة تاريخ العالم منذ تكوين السموات والأرض وحتى إستقرار أولاد يعقوب أو إسرائيل في أرض مصر.

ثانياً: سفر الخروج Exode - فيعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر ثم خروج موسى مع قومه إلى سيناء ورحلة التيه التي قضوها في الصحراء والتي استغرقت أربعين عاماً والتي ذكرها القرآن^(٢).

ثالثاً: سفر اللاويين Kevltyues - فيتناول شؤون العبادات ولا سيما ما تعلق منها بالأضحية والقرايين والمحرمات من الحيوانات والطيور.

رابعاً: سفر العدد Nombres - ومعظمه إحصائيات لقبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم وكثير مما يمكن إحصاؤه من شؤونهم من العبادات والمعاملات وغيرها.

خامساً: سفر التثنية Deuteronomie - ويضم أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشؤون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات وغيرها^(٣).

القسم الثاني - الأنبياء:

وهي نوعان:

الأول - أسفار الأنبياء المتقدمين وتشمل الأسفار الآتية:

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| (١) - سفر يشوع. | (٢) - سفر القضاة. |
| (٣) - سفر صموئيل الأول | (٤) - سفر صموئيل الثاني. |
| (٥) - سفر الملوك الأول. | (٦) - سفر الملوك الثاني. |

(١) انظر تاريخ الديانتين - الساموك وعليان ص ٣٦.

(٢) قال تعالى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ المائدة/٢٦.

(٣) تاريخ الديانتين - الساموك وعليان ص ٣٦.

الثاني - أسفار الأنبياء المتأخرين - وتشمل الأسفار الآتية:

(سفر أشعيا - أرميا - حزقيال - هوشع - يوشع - عاموس - عوبديا - يونا)

- ميخا - ناحوم - حيقوق - صفنيا - حجّي - زكريا - ملاخي^(١).

القسم الثالث - الكتابات:

وهو على ثلاثة أنواع:

الأول - الكتب العظيمة - وتشمل الأسفار الآتية:

١- المزامير: الزبور. ٢- الأمثال (مثال سليمان). ٣- أيوب.

الثاني - المجلات الخمس - وتشمل الأسفار الآتية:

الأناشيد - راعوث - المراثي (مراثي أرميا) - الجامعة - أستير.

الثالث - الكتب - ويشمل الأسفار الآتية:

دانيال - عزرا - نحميا - أخبار الأيام الأول - أخبار الأيام الثاني^(٢).

وتجمع المصادر على إن اليهود أعادوا كتابة التوراة على النحو الذي هو قائم الآن

في منفى بابل بين ٥٨٦-٥٣٨ قبل الميلاد حيث فجرّت العنصرية على الحقد والكراهية للعالم وانبعثت منها الصهيونية بمعنى التطلع السياسي الديني إلى العودة إلى أرض الميعاد وتأسيس دولة داود فيها جغرافياً وسياسياً ومادياً.

لقد أعاد اليهود كتابة التوراة على النحو الذي رسموه في منهجهم وأخلاقهم

وجعلوها منطلقاً لهذا الهدف.. معارضا أساساً للتوراة الموحى بها - إلى موسى - على

أساس تزيه بني إسرائيل من العيوب، وجعلوا وجهة نظر اليهود للانسانية، كلها على

أساس العنصرية بحيث تأخذ موقف العداء لكل من يخالفهم في اعتقادهم^(٣).

(١) اليهودية - أحمد شلي ص ٢٣٠.

(٢) اليهودية - شلي ص ٢٣١.

(٣) المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزوا الفكر الاسلامي - انور الجندي ص ١٩ - دار الاعتصام الطبعة الثانية ١٩٧٧.

وتقول المصادر الحديثة للدراسات الخاصة بالتوراة.. إن التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون بحيث صار من المحتمل أن يكون نصفها الذي كتبه عزرا (عزير عند العرب) مختلفاً جداً عما نزل على موسى، فبين الرجلين ما يقرب ألف سنة من الزمان.

بل إن الأغلب إن العبريين بعد موسى لم يحتفظوا من ذكره بشيء فأضاعوا الرجل واضاعوا موارثه بحيث مرت أجيال لا يذكره منهم أحد ولا يعرفون حتى مكان قبره. هذا فضلاً عن أن اللغة العبرية لموسى تختلف عن نصوص العهد القديم الذي كتبه عزرا. وتشير الأبحاث إلى أن القسيس الفرنسي «رتشارد سيمون» وضع عام ١٦٧٨ مؤلفاً مبتكراً في نقد التوراة عنوانه (تاريخ انتقادي للعهد القديم) أشار إلى أن العهد القديم كما هو متداول معروف يعتمد على مخطوطات ترجع إلى القرون الوسطى وإن كثيراً منها ذات مصدر مجهول أو مشكوك فيه. وإن النساخ من الرهبان قد أدخلوا فيها كثيراً من الأخطاء والتحريفات.

وأشار الباحثون كذلك إلى إن النتائج التي حققتها العلوم الحديثة والعلوم الطبيعية قد أثبتت خطأ وزيف كل ما أوردته التوراة من معلومات عن عمر الأرض وفلك الشمس والجنس البشري وأصل الإنسان وإن التوراة في نظر هؤلاء الباحثين لم تعد أكثر من أثر أدبي وليس من كلام الله المنزل وإنما كتبت وفق أهواء اليهود ومطامعهم ورسمت طريقتهم في الحياة إلى آخر الدهر^(١).

وبعد.. فإن التوراة تقع في ١١٢٨ صفحة، وحجمها يقارب أربعة أضعاف حجم القرآن الكريم وإن من يقرأها يجد ثلاثة أرباعها حروباً ومعارك دامية وسفك دماء ومجازر رهيبية من حرق وإبادة وتمثيل وقتل بالفؤوس ونشر الخصوم بالمناشير وهتك للأعراض.

يتعرض لذلك خصومهم الغرباء واليهود أنفسهم في حروب الإبادة مع بعضهم البعض. ولو أحصي مجموع القتلى في توراتهم لبلغت الملايين. قتل إبادة واستئصال. أما

(١) المصدر السابق ص ٢٣-٢٤.

الرّبع الآخر من التّوراة فنصفه مجنون واستهتار وغزل وتحدث بالزّنا والدّعارة ووصف لجسد المرأة والرجل وقصص أقرب إلى الخيال منه إلى التصديق عن الزّنا بالمحارم. ودور الأنبياء ورجالهم المقربين إلى الله في ذلك. أمّا ثُمن التّوراة وهو النصف الثاني من الرّبع، فيتحدث عن الخليقة والتكوين وقصص مقبولة عن الأنبياء والملوك ووصايا خليقة ولكنها موجزة ومتناثرة وتتضاءل وتفقد قيمتها إزاء الإباحية وحروب الإبادة ومواقف أنبيائهم المخجلة كذباً عليهم وكفر بني إسرائيل وطرد الله إياهم من رحمته^(١).

الإسلام والعهد القديم:

يعترف الإسلام بالتّوراة التي أنزلها الله على موسى ولا يعترف بسواها من أسفار العهد القديم. قال تعالى ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التّوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾ (آل عمران/ ٢-٣). وقال تعالى ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ (هود/ ١٧).

وفيما عدى ما أنزله الله على موسى فإن الإسلام لا يعترف به. فسفر يشوع والقضاة والملوك، ليست من الكتب المقدسة في نظر الإسلام والأنبياء السبعة عشر الذين لم يرد ذكرهم في القرآن هم أنبياء في نظر اليهود وزعمهم الذي ما أنزل الله به سلطاناً^(٢).

وسؤال يطرح نفسه: يا ترى أين هي التّوراة التي أنزلها الله على موسى؟ ويجيبنا القرآن الكريم على هذا التساؤل بأن اليهود أهملوا بعضها فضاع وحرفوا بعضاً على نحو ما أرادوا. قال تعالى ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكّروا به﴾ (المائدة/ ١٣).

وقال تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ (البقرة/ ٧٥).

(١) الوعي الاسلامي من مقالة للاستاذ عابد توفيق الهاشمي - بعنوان الفضائح الكامنة بين دفتي التوراة ص

٥٢ من العدد ٣٢ السنة ٣ عام ١٩٦٧.

(٢) اليهودية - شلي ص ٢٤٨ بتصرف.

وفي الذكر الحكيم ما يوضح أن القرآن الكريم حوى الأصول الصحيحة التي جاءت بها الأديان السابقة. قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى/١٣). يقول المفسرون (إن الله شرع للمسلمين ديناً يحوي ما جاء به الأنبياء من نوح وعيسى^(١)).

وقال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة/٤٨).

وقالوا في تفسير هذه الآية «إن القرآن هو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد.. الأصل والوجهة، المسائر لحاجات البشر، حتى إذا كشف الناس عن الحقائق الكبرى التي تقوم عليها أسس الحياة، انقطع الوحي ليتصرف العقل البشري في حدود تلك الحقائق الكبرى بلا خوف من الزلل ما دام يرعى تلك الحدود، ومن ثم فكل الحكم يجب - أن يرجع إلى هذا الكتاب الأخير الذي يتضمن الباقي من شريعة الله كلها في كل الكتاب - ويضعها في الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة»^(٢).

أما عن كتاب العهد القديم الذين تنسب إليه أسفاره فيقرر الأستاذ أحمد شلي أن «الحقيقة في هذه التسمية غير صحيحة، وإن الذين نسبت إليهم الأسفار أو أكثرهم لم يكتبوها ولم يكتبوا حرفاً منها، بل إن بعض من نسبت إليهم الأسفار ليس لهم وجود في التاريخ، وإنما وضعت قصصهم وضعاً، ولهدف معين، وبعض الأسفار ليست في الحقيقة إلا أساطير وأغنيات شعبية لصقتها الكتاب ببعض الأنبياء من اليهود» وقال «وحقيقة القول إن اليهود بعد أن انحرفت اعتقاداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية لأنها كانت تختلف عما باشروا من طباع وخلق، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ ومن عقيدة»^(٣).

(١) انظر الكشف - للزمخشري / ٤٨٥.

(٢) في ظلال القرآن - سيد / ٦-٦٦.

(٣) اليهودية - أحمد شلي ص ٢٥١ وما يليها وقد أورد أدلة على ذلك.

ويقرر الباحث العلامة «ول يورانت» أنه لم يبق لدينا من شريعة موسى سوى الوصايا العشر..^(١).

أما عن مصادر العهد القديم فسوف لا نتحدث عنها لعدم الحاجة إليها، ولكن لا بأس هنا من التنويه باختصار إلى إن (الوحي ليس هو المصدر الحقيقي لأسفار العهد القديم، وإنما هو أولاً ما سمعه وتلقاه كهنة اليهود من أخبار وأساطير وأقوال وما كان يجيش في صدورهم وعقولهم من خيالات وأوهام يتخذ صور الحقائق المقررة كما جاء مثل هذا في سفر صموئيل الإصحاح الثامن الفقرة الثالثة من أن داود قد ذهب ليسترد سلطته عند نهر الفرات)^(٢).

ومنها ثانياً (أساطير الجزيرة العربية التي كانت معينا غزيراً لأسفار العهد القديم)^(٣). ومنها ثالثاً تشريع حمورابي الذي نجد فيه شبيهاً شديداً بينه وبين القوانين اليهودية ومنها رابعاً المأثورات الفارسية التي أخذت من الفكر البابلي كما يؤكد هذا الدكتور العقاد)^(٤).

ومن المصادر المهمة خامساً للأسفار قرارات المحافل الماسونية فعلى مرّ التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم لتصير جزءاً من الأسفار المقدسة^(٥). وبعد.. لقد كان هدفهم من كتابة التوراة تحقيق غرضين رئيسيين..

أولهما.. تمجيدهم لأنفسهم ليكونوا صفوة الأقاليم البشرية والشعب المختار الذي اصطفاه الرب من دون بقية الشعوب، ولتحقيق ذلك كان لا بد من إرجاع أصلهم إلى أقدم شخصية قديمة، أي شخصية إبراهيم الخليل عليه السلام وقد حالفهم الحظ في سرد تاريخهم حسب أهوائهم مسبغين عليه صبغة دينية ليضمنوا قبوله من اتباعهم فأرجعوا تاريخهم إلى إبراهيم الخليل وإلى حفيده يعقوب إسرائيل.

(١) قصة الحضارة - ول يورانت ٢/٢٧١.

(٢) اليهودية - شلي ص ٢٥٦.

(٣) قصة الحضارة ٢/٣٦٨.

(٤) كتاب الله - عباس العقاد ص ١١٧.

(٥) انظر الصهيونية والماسونية - عبد الرحمن سامي ص ٦١.

وابتدعوا فكرة الشعب المختار والتي أصبحت عقيدة المسيحيين فيما بعد يقول العهد القديم (أما انتم فجنس مختار، أمة مقدسة شعب اقتناء.. الذين قبلاً لم يكونوا شعباً وأما الآن فانتم شعب الله)^(١)..

وجعل اليهود من تاريخهم الموضوع الرئيس الذي تدور حوله جميع الحوادث الواردة في التوراة فعدّتهم التوراة موجودين في كل الادوار التي سبقت ظهور يعقوب عليه السلام إلى عالم الوجود أو الأدوار التي حدثت بعد أربعمئة وخمسين عاماً ونسبت كل الذين دخلوا إلى ديانة موسى عليه السلام في عهد الملوك والانقسام وزمن الترحيل البابلي إلى بني إسرائيل^(٢).

أما الهدف الثاني.. فهو جعل فلسطين وطناً لهم لتكون مطالبتهم بها صيغة دينية شرعية فجعلوا من ميثاق منح الرب أرض كنعان إلى إبراهيم (عليه السلام) وذريته إذناً لهم بإبادة الكنعانيين هم وأطفالهم وشيوخهم ونسائهم ليحلوا محلهم وكذلك إبادة جميع أعدائهم على مرّ الزمان.. ولقد كان إسماعيل من ذرية إبراهيم أيضاً فلماذا تقتصر التوراة على عقيدة منح الأرض إلى إسحاق وأولاده دون إسماعيل (عليه السلام)؟.. أليس ذلك دليلاً على إن كتبة التوراة قد اخترعوا هذا الوعد ليجعلوا من أرض فلسطين.. موطناً لهم؟^(٣).

(١) انظر رسالة بطرس الرسول ١١-٩/٢.

(٢) انظر تاريخ العرب واليهود في التاريخ - لأحمد سوسة ص ٩٠.

(٣) تاريخ الديانتين - رشدي عليان والساموك ص ١٧-١٨ بتصرف - قلت لم أتعرض للقسم الثاني من الكتاب المقدس والذي هو العهد الجديد - باعتباره ليس من كتب اليهود وإنما هو اناجيل النصارى التي حوت ما له علاقة بما جاء به عيسى عليه السلام وينقسم العهد الجديد إلى اناجيل اربعة قانونية وشرعية معترف بها من قبل كل المسيحيين والاناجيل هي انجيل متي - ومرقس - ولوقا - ويوحنا. وكان مؤتمر نيقية المنعقد سنة ٣٢٥م - قد أقر هذه الاناجيل وحرّم ما يربو على الثلاثمائة انجيل آخر - كان من أهمها انجيل برنابا الذي بشر برسول الله ﷺ باسمه وصفاته ومخرجه.

ثم أقرت الكنيسة عام ٣٦٤م - مجموعة من رسائل الحوارين لتطلق عليها اسم رسائل الرسل وتضمها إلى الاناجيل الاربعة ليتشكل منها العهد الجديد من الكتاب المقدس - انظر المسيح في مصادر العقائد المسيحية ١٥/١.

وهناك ما يسمى رؤى يوحنا اللاهوتي التي تتألف من اثنين وعشرين اصحاحاً وقد جعل آخر قسم من اقسام العهد القديم - انظر تاريخ الديانتين الساموك وعليان ص ٢٥.

ثانياً: (التلمود):

وهو المصدر الثاني من مصادر الفكر والاعتقاد اليهودي وهو «عبارة عن الوصايا التي كتبها الأحرار.. ويعتقد اليهود إن العهد القديم أي «الناموس المكتوب» ناقص ومبهم في كثير من المواضع ولا يكون اليهودي عندهم مؤمناً كاملاً إذا صدق بالتلمود»^(١).
ويوجد مؤلف في تفسير التلمود اسمه «الكثر المرصود في قواعد التلمود» للدكتور «روهلنج» وهناك مرجع آخر وثيق الصلة به وهو «التلمود شريعة إسرائيل»^(٢).

ما هو التلمود؟

قلنا إن التوراة ليست إلا جزءاً من الكتاب المقدس. وإن هناك روايات شفوية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل وتلك الروايات هي التي تعرف بـ«التلمود».. وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى «يوضاس» أن تلعب أيدي الضياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة فجمعها في كتاب سماه «المشنا» ومعنى كلمة «المشنا» الشريعة المكررة لأن المشنا تكرر لما ورد في توراة موسى، وليس المشنا ايضاحاً وتفسيراً وتكميلاً لهذه الشريعة.

واستعصت المشنا على بعض القراء فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشي كثيرة وشروحا مسهبة، سميت هذه الحواشي وتلك الشروح باسم «جمارا».. ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود، فالتلمود تعليم ديانة اليهود وآدابهم.. ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً ويضعونه في منزلة التوراة ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً..

ويعتقد اليهود «إن التلمود التي هي أقوال الحاخامات هي قول الله الحي، وأن الله يستشير الحاخامات عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء، وإذا خالف أحد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشد العقاب، لأن الذي يخالف شريعة موسى

(١) راجع المخططات التلمودية - انور الجندي ص ٢٥ وما بعدها بتوسع - فإن فيها احاطة.

(٢) انظر اليهودية - أحمد شلي ص ٢٥٦. وانظر الكثر المرصود ص ٢٩.

خطيئته قد تغتفر، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل»^(١).

(١) انظر بتوسع كتاب اليهودية - أحمد شلي ص ٢٦٦ للاستزادة في شأن التلمود وكذلك خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية - لعبد الله التل ص ٦٩-٧٦.. قلت ان البعض يعدُّ بروتوكولات حكماء صهيون من كتبهم غير انها ليست كذلك..

«..فان البروتوكولات معناها محاضر جلسات ويسميتها بعض الباحثين «قرارات».. وتدل الظواهر على وجود علاقة زمنية بين هذه البروتوكولات وبين نهاية القرن التاسع عشر وعلى ارتباط بين هذه البروتوكولات وبين مؤتمر «بال الذي عقد سنة ١٨٩٧». حيث يرى بعض الباحثين أن هذه البروتوكولات كانت القرارات السرية لمؤتمر بال، أما القرارات العلمية فهي التي أعلنت عن ضرورة قيام دولة لليهود في فلسطين.

ومرجع هذا الفهم ان هذه البروتوكولات عبارة عن مؤامرة شريرة ضد البشرية.. «فالبروتوكولات تقرير بالنسبة لراضعيها، ومحاضر بالنسبة لعرضها على المؤتمرين في جلساتهم، وقراراتهم بالنسبة لقبولها وتأييدها». وكانت هذه البروتوكولات مودعة في مخابئ سرية لا يعرف محتوياتها الا الخاصة من اليهود والذي يعملون على تنفيذ ما جاء بها همدوء وحسب تخطيط منظم.. وفي سنة - ١٩٠١ - استطاعت سيدة فرنسية مسيحية كانت تربطها علاقة بزعيم صهيوني كبير وفي اجتماع في وكر الماسونية بباريس دعرت هذه السيدة عندما وجدت هذه القرارات واستطاعت ان تحتلس بعضها وتخرج بها من هذا الوكر.. وقد وصلت هذه الوثائق إلى رجل يهيم أمرها هو «اليكس نيقولا نيفتس» كبير أعيان روسيا القيصرية، فسلمها إلى صديقه الاستاذ «سرجي نيلوس» الذي نشرها في عام - ١٩٠٢ باللغة الروسية. وعدد هذه البروتوكولات أربعة وعشرون بروتوكولاً غير دقيقة التأليف وبها كثير من التكرار حتى لكأنها محاضر جلسات، وليست نص تقرير قدم لهذه الجلسات ولا محاضر الجلسات.

وهدف هذه البروتوكولات «إقامة وحدة عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة يهودية». ومن أجل ذلك يمكن تقسيم البروتوكولات إلى قسمين كبيرين هما:

(١) القسم الأول - في موقف اليهود من العالم قبل تحقيق هدفهم.

(٢) القسم الثاني - في موقف اليهود من العالم بعد ان يصبحوا اصحاب السلطان عليه.

وبناء على هذه العقيدة يرى اليهود أن العالم لم يخلق إلا لهم ومن حقهم استعباده وتسخير، وليس لغيرهم إلا السمع والطاعة والرضا والقناعة بما يجود به عليهم.

ويرى اليهود في المرحلة الأولى ضرورة تمزيق الأوطان، والقضاء على القوميات والأديان، وإفساد نظم الحكم في كل الأقطار بإغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد على السلطة ونصوص القانون.. وترسم البروتوكولات لليهود أن يهتموا في هذه المرحلة بنشر المذاهب المختلفة، وأن يختلف اتجاه الناس في مكان آخر وفي زمان غيره فهم يعملون على نشر الشيوعية أحياناً والرأسمالية أحياناً أخرى ويحرصون على أن ينشروا الإباحية والفوضوية ويعملون على تقويض صلات السود، ويدفعون الناس للشهوات والانحلال والبعد عن كل القيم الإنسانية..» يراجع كتاب اليهودية لأحمد شلي ص ٢٧٢-٢٧٤ للاستزادة.

الفصل الثاني

سورة الإسراء

بين الحقائق والقواعد والأصول التفسيرية

المبحث الأول

سورة الإسراء

بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية

المطلب الأول:

ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء

المطلب الثاني:

ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف

المبحث الأول

سورة الإسراء

بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية

... تنبيه...

لاحظت من خلال دراستي لهذه الآيات من سورة الإسراء اختلالاً في تطبيق بعض القواعد التفسيرية التي قعدها المتقدمون من علماء اللغة والتفسير.. وقد أدى هذا الخلل فيما أرى إلى عدم إعطاء تصور واضح عن مرامي وأهداف النص القرآني عند كثير من المفسرين مما أدى بالنتيجة إلى عدم الوصول إلى فهم صحيح لكثير من الآيات القرآنية وعدم الوقوف على تفسيرها التفسير المقنع والمرضي والذي جاءت - وتجيء - الوقائع التاريخية مؤيدة له من قريب أو بعيد وتلك قضية لها علاقة وثيقة بإعجاز القرآن فكل ما أخبر عنه وما أنبأ فيه قد جاء ويحيى دائماً كما أخبر وأنبأ مما يدل دلالة واضحة أنه من عند الله الذي يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن عالم الغيب والشهادة.

وعليه فسأحاول هنا في هذا المبحث التمهيدي أن أبين هذا الخلل وأعرض بالذكر لأهم القواعد التفسيرية التي ينبغي للباحثين والدارسين الالتزام بها من أجل الوصول إلى فهم أمثل وتصور أكمل لمعطيات النص القرآني المتعلق بإفسادي بني إسرائيل الوارد في سورة الإسراء.

وعليه فسيكون هذا المبحث من مطلبين اثنين:

المطلب الأول: ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء.

المطلب الثاني: ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف.

المطلب الأول

ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء

الحقيقة الأولى:

التعامل مع النسب في الطرح القرآني:

هناك حقيقة هي من الأهمية بمكان.. هي قضية التعامل مع النسب في القرآن الكريم، لأن هذه النسب على درجة عالية من التوازن والتوقيت سواء أكان ذلك على مستوى الناس أم على مستوى العصر أم على مستوى الفكرة التي تطرح على الناس في عصر أو مكان ما...

هذه قضية كان ينبغي أن تكون بديهية واضحة غير أنها ليست كذلك.. فإذا ما أتينا إلى ما نحن بصددده من إفساد بني إسرائيل وحققناه وجدنا أن النسبة - العالية - من إفسادهم في السور المكية هي الحديث عن الإفساد الماضي بكل ميادينه ومراحله.. إذ كانت الآيات تنزل لتخبر النبي ﷺ بما كان من فسادهم في ماضي الزمان وغابره.. ولتقول لرسول الله ﷺ لقد فعل بنو إسرائيل كذا.. لقد كفروا بالله وعبدوا العجل، وقتلوا الأنبياء، وحرفوا التوراة، واشتروا بما ثمنوا قليلاً.. وو... وكأنها كانت تريد أن تقول لرسول الله وللأمة (اعرف عدوك واحذره فإنك ستجاهمه) وكان كل هذا قبل أن يهاجر... وقبل أن يتصل بهم أو يعايشهم أو يتعرض لهم...

لكن... لما هاجر ﷺ إلى المدينة وبدأت السور المدنية تنزل عليه.. تغيرت نسبة الحديث عن إفساد بني إسرائيل^(١).. فلم تعد الآيات تنزل لتخبر النبي ﷺ عن فسادهم

(١) مثلاً - إن النسبة العالية في السور المكية في تلك الفترة التي عاشها المسلمون في مكة كانت قضية توحيد الله سبحانه وإفراده بالربوبية والألوهية والإيمان به وبرسوله ﷺ والكفر بما سواه من الالهة المزعومة.. فكانت لهذه القضية الثقل الغالب في السور المكية بينما نجد بعد الهجرة وبعد ما شرع القتال والجهاد كانت النسبة العالية في حديث القرآن هي قضية الجهاد.. عشرات الآيات تنزل لتتحدث عن معركة بدر وأخرى عن معركة أحد حتى في حالة الهزيمة.. لماذا ؟ لأن النسبة التي كان ينبغي لها أن تكون عالية في تلك الفترة أو المرحلة إنما هي نسبة الحديث عن الجهاد... وهكذا...

الماضي إلا إذا اقتضى الأمر من باب التذكير والتحذير.. وإنما كانت تنزل لتوجه النبي ﷺ كيف يعمل وكيف يواجه إفسادهم الذي تولوا كبره في المدينة وكيف يتصدى لهم ويرد على تشكيكهم ويفضح ما كتموه من التوراة سواء في الإقرار بالحق الذي ألبسوه بالباطل أو بالاعتراف به رسولا بشرت به كتبهم..

إن الآيات في السور المدنية كانت تخوض مع النبي ﷺ ضد بني إسرائيل وغيرهم معركة حامية الوطيس سواء في عالم السلوك والواقع..

كانت الآيات تقول للنبي ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله...؟﴾

آل عمران / ٧٠.

وكانت تقول له: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها

عوجاً﴾ آل عمران / ٩٩.

وكانت تقول له: ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ البقرة / ٢١١.

وتقول له قل لهم: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وأنتم تعلمون﴾

آل عمران / ٧١.

بل كانت تنزل بالأجوبة الدامغة والقاطعة لكل ما كان يصدر منهم من أسئلة^(١) وشبهات^(٢) وتصفهم بصفات لا يستطيعون ردها كقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء من

الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ البقرة / ١٤٢.

إنها مجاهدة لما كان منهم من إفساد أحدثوه مع رسول الله ﷺ وفي عصر الرسالة زادوه إلى رصيدهم السابق من إفساد الماضي حتى تبين لكل ذي علم أنه امتداد لفسادهم القديم دون أدنى شك، ولعل هذا ما يوضح سرّ خطاب القرآن لهم بصيغة المخاطب

(١) كسؤال عن الروح لإخراج النبي ﷺ فنزل قوله (ويسألونك عن الروح.. الآية) انظر القرطبي

(١٠/٣٢٣) وانظر فتح الباري / ٨/ ٥١١.

(٢) كبثهم شبهة تحريم بعض الطعام فنزل قوله (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل) ولشبهتهم في جماع

الرجل لزوجته من الخلف في موضع الزرع قال تعالى (نساءكم حرث لكم) البقرة / ٢٢٣ انظر فتح

الباري (٨/٢٤٢).

الحاضر وهو يعنفهم على إفساد ماضي كان من أجدادهم كقوله تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ﴾ البقرة/ ٧٢.

﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ البقرة/ ٩٣.

فلا جرم أن تنزل الآيات توجه الأمة إلى حقيقة ما عليه اليهود والنصارى فلا تُخدع بما يظهرونه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ البقرة/ ١٠٩. وتدعوها إلى المقاطعة والمفاصلة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ المائدة/ ٥١.

إذن فالنسبة عالية في حديث السور المدنية عن إفساد بني إسرائيل هو الحديث عن إفسادهم الحاضر.. المعاصر للنبي ﷺ في الوقت الذي كان الحديث في السور المكية هو الأخبار عن فسادهم الماضي.

بينما لم تتحدث عن مستقبل إفسادهم إلا سورة واحدة - مكية - هي سورة بني إسرائيل - كما سيأتي إثبات ذلك - والتي كان ترتيبها الخمسين على ما أورده الزركشي في البرهان^(١)..

الحقيقة الثانية:

المفهوم القرآني بين الماضي والمستقبل:

إن هذا القرآن (لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ولا كتاب أدب وفن.. ولا كتاب قصة وتاريخ.. وإن كان هذا كله من محتوياته وإنما جاء ليكون منهاج حياة.. منهاجاً إلهياً خالصاً.. وكان الله سبحانه وتعالى يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضاً.. ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ الاسراء/ ١٠٦. لم ينزل هذا القرآن جملة.. وإنما نزل وفق الحاجات المتجددة ووفق النمو المطرد في الأفكار والتصورات... والنمو المطرد في المجتمع والحياة.. ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية.. وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة

(١) انظر البرهان في علوم القرآن - للزركشي (١/ ١٩٣ - ١٩٤).

الخاصة والحادثة المعينة تُحدث الناس عما في نفوسهم.. وتصور لهم ما هم فيه من الأمر.. وترسم لهم منهج العمل في الموقف.. وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك.. وتربطهم في هذا كله بالله ربهم.. وتعرفه لهم بصفاته المؤثرة في الكون.. فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملائة الأعلى.. تحت عين الله.. في رحاب القدرة ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم، وفق ذلك المنهج الإلهي القويم^(١).

فليس عبثاً إذن أن يتزل القرآن على ترتيب معين.. وحاشاه وهو كلام الله.. وإنما وفق منهج مرسوم وحكمة يعلمها الله.. وربما تكشف لنا بعض آثارها..

ومن آثارها أنك تجد أن هذه القلة من الأولين كانوا قبل إسلامهم — أميين — ما درسوا.. ما كانوا يدرون ما الكتاب وما الحكمة.. بل إنهم كانوا في ضلال وصفه القرآن بأنه — مبین — فقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة/٢.

لم تكن لهم ثقافات ولا حضارات على الرغم من إحاطتها بهم.. بل إنهم كانوا متفرقين هنا وهناك بين شعاب الجبال ومفازات الصحراء بحيث أنهم لم يصلوا إلى حالة يطمع فيهم من سواهم ممن أحاط بهم.. ومن ثم لم يحسب لهم أي حساب.

نزل القرآن على هذه الأمة ليزكيها ويربيها ويرفعها ويجمعها.. وينطلق بها ليعترض مسار التاريخ.. وليتصدى للأمبراطوريات ذات الحضارات.. فيأمرها وينهاها.. فإذا لم تستجب يسحق كبريائها بأقدام حافية قد عفرها التراب... جهاداً في سبيل الله.. وبجباه عزيزة بالحق الذي حملوا لواءه خلف النبي ﷺ.

فكان القرآن يضرب الأمثلة لهم من الماضي ليقول لهم وللدنيا من حولهم.. انظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلكم لما كفروا وظلموا...!!!

وانظروا كيف نصرنا الذين آمنوا ونجيناهم من عدوهم ومن كل سوء.. ﴿وكذلك

ننجي المؤمنين﴾ الأنبياء/٨٨.

(١) معالم في الطريق، سيد قطب (ص/١٩) الكتاب الإسلامي/١٩٨٣.

وكان يضرب الأمثلة لمشركي مكة بعبدة الأصنام من قوم إبراهيم وعاد وثمود ويهود..
وكان يقول لليهود اذكروا.. ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذَّبُونَ
أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ فِي ذَلِكَ بِرَبِّكَ عَظِيمٌ﴾ البقرة/٤٩.

كان في كلّ مرّة يوجه الأنظار إلى قضية معيّنة أو يعرض لهم صورة من صور ذلك
التاريخ الذي أريد له أن يكون مادة حيّة للتربية والتوجيه.. والذي سنضرب له الأمثلة
والصور للدلالة على أن الماضي لم يغفل وإن المستقبل لن يترك.. وأن الحاضر كان له
أساس بني على عين الله..

إن كلّ ما أشارت إليه السور المكيّة - إلّا ما ندر منها^(١) - إنما كان إخباراً عن
إفساد بني إسرائيل الماضي والذي لم ينفكوا عنه حتى بعد مجيء الرسول الذي كانوا
ينتظرونه والذي بشرت به كتبهم وقد علموا صفته ومخرجه، وعلى الرغم من كلّ ما
جاءهم من بينات وعلم، وصدق الله حيث قال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ^(٢) حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ - والبيّنة هي - ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو
صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ البينة/١.

فليستهم آمنوا واهتدوا وانتظروا تحت لواء التوحيد فكانوا أمة واحدة ولم يتفرقوا..
والعجيب أنهم ما تفرقوا ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ البينة/٤.
وكذلك فإن ما جاءت به السور المدنية إنما كان مواجهة - في الأغلب الأعم -
لإفساد بني إسرائيل وانحرافهم عن هدى الله وهدى النبي ﷺ الذي كانوا قد أيقنوا بأنه
هو النبي الذي وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.
بينما لم تتحدث عن مستقبل إفسادهم - كما سنرى - إلّا سورة بني إسرائيل..
فإنها السورة الوحيدة التي اختصت بالحديث عما سيؤول إليه إفسادهم في الأرض،

(١) كسورة المدثر والانعام والنمل - كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى.

(٢) منفكين - قال مجاهد - متّهمين حتى يتبين لهم الحق.. والبيّنة هي القرآن وقيل هي رسول الله ﷺ انظر
مختصر ابن كثير (٦٦٣/٣).

وكيف سَيُتَبَرَّ علوهم فيها تنبيهاً على أيدي من سيكونون عباداً لله وحده دون سواه.. وأولي بأس شديد.

وعلى هذا فإن أصحاب القول الأول - أي القائلون بالتفسير بالمأثور - يحصرون هذه القضية في التاريخ القديم.. ويقولون أن الآيات جاءت لتخبر عن فترة تاريخية مضت كان لبني إسرائيل فيها عدّة أدوار محصورة بين مبعث موسى ومبعث عيسى (عليهم السلام) وهذا ما تجده عن أغلب المفسرين.. رحمهم الله تعالى - حين فسروا هذه الآيات التي جاءت تبين وتحدد إفسادي بني إسرائيل في الأرض مرتين.. ولم يشيروا ولو من بعيد إلى أنها ربما كان لها علاقة بالواقع الذي كان يعيشه النبي ﷺ ولو حتى من باب قيل ويقال.. ولا حتى من قبيل الإخبار بالمستقبل في مجال الإعجاز القرآني وكأن القرآن ليس من أساليب إعجازه أنه يتحدث عن المستقبل بلغة الماضي.. أو عن الحاضر بلغة المستقبل.. وكأن الله تعالى لم يحدثنا - في القرآن - عن شيء سيقع في المستقبل وربما بعد أن تنقضي الدنيا.. وكأنه قد وقع فأصبح من الماضي في حيز الذكرى.. فإن المستقبل وما سيحدث فيه إنما هو عند الله كائن وواقع وإن لم يكن قد وقع بعد^(١).. وليست القضية أكثر من زمن يحكم البشر بناموسه والله لا يحكمه ناموس الزمن ولا غيره..

وإنك لتجد أمثال هذا كثيراً في القرآن كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النحل/١.

فكيف يقول لشيء «أتى» ثم يقول بعد ذلك «فلا تستعجلوه» أي لم يأت بعد ولكن سيأتي.. وقوله تعالى ﴿وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا..﴾ الزخرف/٤٥. فكيف يسأل النبي رسلاً مضوا وقد كانوا قبله وهو خاتمهم وبينه وبينهم أمدٌ بعيد؟! ولعل من أروع ما أورده القرآن في مجال الإخبار عن المستقبل وما سيحدث فيه حكاية القوم الذين كانوا في الجنة يتذاكرون ما كانوا فيه من أمر الدنيا وما كان موقف أصحابهم من قضية الإيمان ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وهم في الجنة «إني كان لي قرين» في الدنيا «يقول

(١) يراجع ما جاء في ظلال القرآن (١٥/١٦٩). فيما يخص هذا المعنى...

إنك لمن المصدقين؟».. ويحكي قصة إنكاره للآخرة والجنة التي يتنعمون فيها.. ثم يطلب منهم أن يساعدوه في البحث عنه «قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم» فناداه «قال تالله إن كدت لتردين.. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين» معك ﴿أفما نحن بميتين؟ إلا موتتنا الأولى؟ وما نحن بمعذبين؟﴾ الصافات/٥١-٥٩.

نقلة واسعة عبر حدود الزمان والمكان بل عبر الدنيا الى الآخرة وهم لا يزالون في حيز الدنيا بعد.. فنقل صورة من صور المستقبل وهم لا يزال بعد في عالم الحاضر. إن المفسرين - رحمهم الله - لما لم يجدوا شيئاً صحيحاً ولا ضعيفاً عن رسول ﷺ إلا حديثاً موضوعاً - كما رأينا^(١) سابقاً - وأسندوه الى حذيفة بن اليمان به مرفوعاً الى رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآيات.. ثم جعلوا التاريخ الماضي لبني اسرائيل هو الأصل الذي اعتمدوا عليه في تفسير هذه الآيات.

أقول إن أصحاب التفسير بالمأثور قد حصروا القضية-قضية إفساد بني اسرائيل بالتاريخ القديم وهذا مالا يوافقهم عليه أصحاب القول الثاني على اعتبار أن وحي القرآن الكريم لا يجوز حصره وحجره في زاوية ضيقة من التاريخ ولا سيما إذا كان في غير الأمور الاعتقادية أي أنهم- بعبارة أوضح- قد حملوا النص القرآني على الأحداث التاريخية المنقولة عن بني اسرائيل بينما كان المفروض بهم أن يحملوا التاريخ عليه.. فالقرآن ينبغي أن يكون متبوعاً لا تابعاً فما وافق معطيات القرآن من حقائق التاريخ كان صحيحاً وإلا فمردود..

ولقد حاولت بكل الجهد أن احصر نفسي وفكري في الخبر التاريخي الذي اتجهت إليه أنظار المفسرين الكرام حينما كانوا يعيشون في أفياء كتاب الله ويحاولون كشف معاني آياته وما ترمي إليه بما روي عن الصحابة رضي الله عنهم وعن التابعين في الوقت الذي كان فيه اليهود لا تراهم إلا في جحور الأرض وزوايا التاريخ المظلمة بكل الذلة والمهانة يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.. فحين تعرضوا للآيات التي وردت في شان بني

(١) انظر تفسير الطبري (٢٢/١٥) وانظر ما قاله ابن كثير حول هذا الحديث (٢٥/٣).

إسرائيل في سورة الإسراء نظروا لها كما نظروا إلى الآيات التي أخبرت عن إفساد بني إسرائيل في غيرها من السور ولا سيما المكية منها التي أخبرت عن فسادهم الماضي كما اثبتنا فقالوا إن الآيات في سورة الاسراء أخبرت عن اظهر مرتين فسد فيهما بنو اسرائيل في ذلك الماضي السحيق، ولان الشواهد كلها كانت تدل على أن لا مستقبل لهم في حياة بلا ذلة ولا يعطون الجزية فيها عن يدٍ وهم صاغرون بله أن يتصور أحد أن بني اسرائيل سيعلون يوماً في الأرض علواً كبيراً وسيفسدون فيها مرتين وليس مرة واحدة.

فعجبت والتمست لهم عذراً فوجدت أن لهم أعذاراً في هذا تُبرر ما ذهبوا اليه غير معيبٍ عليهم ولا طاعن فيهم وحاشاهم فهم أعلى من ذلك واجل.. فأعطيتهم الحق وقلت لو قدر الله لاحدهم ان يعود الى الدنيا ويرى واقع بني اسرائيل اليوم ويقارنه بما كان عليه حالهم في زمانه لقال غير ما قال ولاعتقد غير ما ظن...

الحقيقة الثالثة:

ما قاله المفسرون يعذرون فيه ويثابون عليه.

وهذه الأعذار أجملتها فيما يأتي:

- (١) عدم وجود شيء صحيح مأثور عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة فيما يخص تفسير هذه الآيات وإلا لما كان هناك قيل ويقال ولحسم عند المفسرين الأمر وقضي..
- (٢) وتبعاً لما تقدم فان المفسرين بالمأثور قد وقفوا دون شك أمام تلكم الآيات في حيرة لمعرفه هذين الإفسادين وهوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد ولما لم يجدوا شيئاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة يقطع عليهم هذه الحيرة ويشفي الغليل فكيف يصنعون والقرآن يقول ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ فسألوا من ظنوا أنه عنده علم من أهل الكتاب بهذين الإفسادين من باب الحرص على معرفة معنى الآيات وحب الاطلاع^(١) على ما عند الغير ووافق ذلك دخول كثير من أهل الكتاب وإسلامهم ممن كان لهم سابق علم في أحداث ملتهم وما جرى على أبناء جلدتهم مما تناقلته

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي (١/١٦٩-١٧٧).

الأخبار والرهبان والقصاصون فكانوا يجيئهم بما سمعوا عن أحداث ذلك التاريخ وما كان فيه من وعلى بني إسرائيل. فكان ان سوّدت صحائف كثيرة كانت فيما بعد كتباً كبيرة تتحدث عما جرى وكان في ماضي الزمان مما صح أو كان ظاهر البطلان. هذا من جهة.

(٣) ومن جهة أخرى ان تلك الكتب قد كتبت في فترة زمنية^(١) لم يكن لبني إسرائيل فيها أثرٌ في الحياة ذو بال.

فمن يبحث في كتب التاريخ عن أثر بني إسرائيل وعن قيمة وجودهم كأمة في الزمن الذي كتبت فيه تلك الكتب لا يجد فيها شيئاً يخبر عن حاضر بني إسرائيل ولا عن مستقبلهم في تلك الكتب نفسها. يعني - بعبارة أخرى - إن كتب التاريخ المشهورة حين كتبها أصحابها لم يكتبوا عنهم شيئاً في حاضرهم وإنما كل ما كتبوه هو اخبار عن ماضيهم وما كان فيه.

ولقد بحثتُ ذلك بنفسي وسألت فلم أجد شيئاً يذكر ولعل هذه سنة الله في الذين خلّو من قبل، من الذين غضب الله عليهم فلم يبق منهم شيئاً إلا ما يكون عبرة لغيره من باب ﴿لَتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ آيَةً﴾ يونس/٩٢ - أو ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَنَاهُمْ كُلٌّ مِّمَّنْ﴾ سبأ/١٩.

لم يبق منهم إلا من أختبأ في ظل الزمن الذي أكثروا فيه الفساد والإفساد.. وإلا من أختبأ في زوايا التاريخ الذي ضاق بهم ذرعاً..

وإلا من كان على هامش الأحداث لا يبين وإذا بان فمُهان، وهذه حقيقة لا ينكرها عاقل للأحداث او عالم بالتاريخ.. التاريخ الذي كان مشغولاً عنهم بمن صححوا مساره والأحداث العظام لا تبالي بالمتساقطين والمختبئين في الجحور.. بلا عزة ولا نور.. وهي حالة من التقوقع اليهودي والنصراني في زوايا المعابد والكنائس يمرون بها كلما ظهر عليهم الحق.

(١) كتبت أهم كتب التاريخ في القرن الثاني والثالث كتاريخ الأمم والملوك للطبري المتوفي / ٣١٠.

(٤) ما ذكرناه كان وجهها لحقيقة تاريخية ثابتة تكمن أهميتها في بيان الوجه الثاني لها، وهو أن المسلمين بعد نصر الله لهم وانتشار ألوية والهدى في المشرق والمغرب بعد ذلك الانفجار الإسلامي الذي هز الدنيا وأيقظ الناس فدخلوا في دين الله أفواجا.. وأصبحوا يرون أن الإسلام له الصولة والدولة يأمر وينهي أنى اتجه وحيثما سار. بينما ظاهر حال اليهود، يوحى ولو على سبيل الافتراض، بأنهم لن تقوم لهم قائمة حتى يلج الجمل في سم الخياط.

وقد أمسوا أذلاء مبعثرين، قطعت أوصالهم وسحقت جماعاتهم، ومن بقي منهم فلكي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ثم بدا لهم من بعد ما رأوا أن الآيات في سورة الإسراء قد أخبرت عن ماضي بني إسرائيل ولم يخطر على بال أحدهم أنه كان المقصود هو الإخبار عن المستقبل وما سيكون فيه.

ولربما كان أحدهم حين يرتقي صهوة المجد وينظر عبر الآفاق فلا يجد غير أعلام النصر للإيمان ترفرف فوق كل الدنيا التي اقتحم فيها المد الإسلامي لكل من خالفه ومن عاداه.. وبسط نفوذه على جوانب الأرض وبقايا الأديان فكان الناظر في الآفاق يجد الثقة واليقين بأن الله مكّن لهذا الدين في الأرض فلا أمل أن تقوم لأعداء الله بعده قائمة أبداً.. كيف؟ وقد أورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم...

(٥) إن بداية كتابة التفسير وتدوينه كانت^(١) - ربما - مصاحبة لكتابة التاريخ تقريبا فالذين فسروا الآيات المتعلقة بـماضي بني إسرائيل اعتمدوا على ما كتبه كتاب التاريخ في فترة تكاد تكون متقاربة فالمسعودي في مروج الذهب وابن جرير الطبري في تاريخه للأمم والملوك وابن الأثير في الكامل في التاريخ وغيرهم كانت كتبهم المصادر الأولية لمن فسر الآيات التي لها علاقة بإفساد بني إسرائيل وأخبارهم في ماضي الزمان.. وعن هذه القضية.. قضية إسناد القصص القرآني لكتب التاريخ يقول سيد قطب (أنه لا بد من الإقرار بعدم جواز محاكمة القرآن إلى التاريخ وذلك لسببين:

(١) انظر مراحل تدوين التفسير في كتاب التفسير والمفسرون للذهبي (١٣٠/١) ومما بعدها وانظر الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (١٩٠/٢).

الأول: أن التاريخ مولود حديث العهد فاتته أحداث لا تخص في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها - قبل تدوينه لبعضها..

الثاني: إن التاريخ.. وإن وعي بعض هذه الأحداث هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف، ونحن نشهد في زماننا هذا الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة.. ومن مثل هذا الكلام يصنع التاريخ.. مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق^(١).

ويقول في موضع آخر معللاً عجز البحث التاريخي على تغطية أحداث التاريخ (إن البحث التاريخي لا يملك القدرة المطلقة على سبر غور التاريخ البشري أو تغطيته الدقيقة الشاملة على امتداده في الزمان والمكان.. فالتاريخ مولود حديث جداً بالقياس إلى عمر البشرية وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً فليس هو الذي يستغنى فيها)^(٢).

وفي رده على مدى الاعتماد على أخبار أهل الكتاب عن أحداث جرت واحتمال كونها مستقاة من التوراة قال (كان يمكن للتوراة كمصدر ديني - أن تكون مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث لو أن التوراة سلمت من التحريف والزيادات.. ولكنها أحيطت بالأساطير التي لاشك في كونها أساطير.. وشحنت كذلك بالروايات التي لاشك في أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله، فلم تعد التوراة - بذلك - مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص القرآني وإذا فلم يبق إلا القرآن الذي حفظ من التحريف والتبديل هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي)^(٣).

(١) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - عماد الدين خليل (ص/٨٥).

(٢) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب (٤٠٧/٥).

(٣) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب (٤٠٧/٥).

إن الله سبحانه قد أنزل هذا القرآن لكي يكون هو المصدر الذي تستقي منه البشرية العلم والمعرفة والهداية وجعل فيه تفصيل كل شيء من أخبار الأولين والآخرين ولو وجد من يبحث فيه بين ثنايا آياته وفواصل كلماته ويتدبره حق تدبره.. لأغناه عن أن يستفتي التاريخ فيما جاء في القرآن.. (إن مجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل.. وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن.. ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء.. إنما هو مرأى^(١)).

هذا عن كتب التاريخ.. (أما تفسير القرآن فقد وردت فيها أقوال كثيرة ولكنها فيما يؤكد سيد قطب (لا تعتمد على يقين) كما إنها (ينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليّات وأساطير)^(٢).

(وكم من آية من آيات التزييل وحديث من أحاديث الرسول، قد ضيم وسيم الخسف، بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة)^(٣) حين ينسب معناها إلى تاريخ مضى قيل عنه أنه من علم أهل الكتاب بلا تدبر لكتاب الله وكأن الله سبحانه ما دعا لقراءة كتابه ولا حث على تدبر آياته ودراستها حتى يتبين هداها ويتلقى وحيها لكي تتوضح للامة معالم الطريق.. وليستين سبيل المحرمين...

وإذا سألتهم عن سبب حصر مثل هذه الآيات في ماضي الزمان.. وما الغاية من أخبار الله عما جرى وكان.. قالوا لكي يكون للامة موعظة وعبرة.. وما علموا وما أظنهم جهلوا أن أمة محمد ﷺ ليست كأى أمة في التاريخ ممن كان قبلها.. فهي لم تسجد لصنم من ذهب ثم قامت ترقص حوله.. وهي لم تحرف كتابها كما حرفته غيرها.. ولم تقتل نبيها كما قتلت بنو إسرائيل أنبيائها.. ولم يجعل الله للكافرين عليها

(١) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - (ص/٨٧) وانظر الظلال (٤٠٨/٥).

(٢) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - (ص/٨٧) وانظر الظلال (٤٠٨/٥).

(٣) تفسير ابن عاشور (١٩/١).

سبيلاً حين عهد الله لنبيه أن لا يسلط عليها عدوا من سواها^(١) كما كانت الأمم قبلها تسلط عليها أعداؤها كل حين..

وليت شعري إذا كان هذا القرآن (يقص على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه يختلفون) أفيعجز عن أن يبين لبني إسرائيل اقل ما كانوا فيه مختلفين؟.

وليت شعري هل يمكن ان تكون التوراة فيها تفصيل لكل شيء حين كانت هدى ونورا.. وقد أنزلت لكي يحكم بها النبيون للذين اسلموا من بني إسرائيل.. ولا نجد في القرآن تفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون...؟

ولئن سألتهم ليحلفن ما قالوا ولقد قالوا أن (قضيئنا.. ولتفسدن.. وبعثنا.. وكان وعدا مفعولاً) إنما هي أخبار لبني إسرائيل في التوراة لما سيكون منهم من إفساد في المستقبل^(٢) ويحرم القرآن الذي هو الكتاب المهيمن على ما كان قبله من حق الإيفاء والأخبار بالمستقبل...

ألا فلترفع عنه ستور أخبار الأولين.. وليتركوه - كما نزل - يشع بوحيه لمن يريد ان يهتدي بهديه طامعاً في أن يزداد له في علمه وليؤدي مهمته في واقع الحياة اليوم - فلعله يرى آياته - حية - متحركة في الآفاق وفي أنفسنا حتى يتبين - لنا - أنه الحق كما كان في الماضي يوم نزل.. وكما سيكون في المستقبل.. بإذن الله.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه حيث يقول النبي ﷺ (سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة.. سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) انظر صحيح مسلم (٤/٢٢٢٥/برقم/٢٨٨٩) في كتاب الفتن.

(٢) أي بعد نزول التوراة.

المطلب الثاني

ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف

من القواعد المهمة في تفسير القرآن ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى.. تعدد المعنى في لفظ واحد يعد إعجازاً قرآنياً:

تتعلق بإيراد المفسرين عدة معان للفظ الواحد «الاشتراك اللفظي» وقد يظنها بعض الناس اختلافاً بينهم بينما هي ليست كذلك وقد أوضح الإمام ابن تيمية (رحمه الله) في مقدمته في أصول التفسير هذه المسألة فقال: أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف في اللغة قليل وأما في ألفاظ القرآن فأما نادر أو معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون في تقريب لمعناه وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ الطور ٩ - إن المور^(١) هو الحركة تقريباً.. إذ المور حركة خفيفة سريعة.. وكذلك إذا قال: الوحي - الإعلام أو قيل: أوحينا إليك.. أو قيل ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ الإسراء/٤، أي أعلمنا وأمثال ذلك.. فهذا كله تقريب لا تحقيق فان الوحي هو إعلام سريع خفي.. والقضاء إليهم أخص من الإعلام فإن فيه إنزالاً وإيماءً إليهم!!.

والعرب تضمن الفعل معنى الفعل، وتعديه تعديته.. ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله تعالى ﴿لقد ضلّك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ ص/٢٤، وقوله ﴿من أنصاري إلى الله﴾ آل عمران/٥٢، أي مع الله.

والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمن^(٢)، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ الإسراء/٧٣. ضمن المعنى «يزيغونك ويصدونك». ومن قال «لا ريب» لا شك فهذا تقريب.

(١) التفسير الذي أشار إليه ابن تيمية قال به بعضهم وفي القاموس المحيط «المور هو الموج والاضطراب» ١٣٦/٢.

(٢) التضمن أن يضمن اللفظ مع المعنى المتبادر معنى آخر يحتمله اللفظ نفسه كما سيبين ذلك ابن تيمية

وكذلك إذا قيل **«ذلك الكتاب»**: هذا القرآن، فهذا تقريب لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة، ولفظ «الكتاب» يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً مالا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً فهذه الفروق موجودة في القرآن...

ثم قال.. «وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتین»^(١).

القاعدة الثانية: اختيار معنى لا يعني ترك غيره من المعاني:

وهذه مسألة بينها وأكد عليها ابن عاشور في مقدمة تفسيره القيم بقوله: «لابد من التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الأغراض المرادة منه، وبين من يفصل معانيه تفصيلاً... فمراد الله من كتابه هو بيان تصارييف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين.. وقد أودع ذلك ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتعبداً بمعرفة مراده..»^(٢).

وقريباً منه ما قصده الزركشي حين قال: «إن القرآن كتاب الله وكلامه.. وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كتابه إنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه..»^(٣).

فما دام وحياً من الله فلا نهاية لهذا الوحي لا في زمان الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل.. يتفجر كل حين عن إعجاز يتعاضم وعن معان جديدة لكل جيل.. فلغته التي نزل بها حمالة من المعاني مالا يحيط بها إلا الله سبحانه^(٤)... فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانٍ من المعاني المعتادة يودعها البلغاء في كلامهم.. وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر مما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها..

(١) مقدمة ابن تيمية في التفسير «ص/٥١/٥٤» وانظر مقدمة تفسير ابن عاشور بتوسع..

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٨/١.

(٣) البرهان في علوم القرآن - للزركشي ٨/١.

(٤) وعلى هذا يصح أن يقال: «أن القرآن ألفاظه متناهية ومعانيه غير متناهية».

فمعتاد البلغاء، إيداع المتكلم معنى يدعوهُ إليه غرض كلامه وترك غيره.. والقرآن ينبغي ان يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ماله حظ في البلاغة.. سواء كانت متساوية أم متفارقة في البلاغة إذا كان المعنى إلا على مقصود.. وكان ما هو أدنى منه مراداً معه لا مراداً دونه.. سواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهور أم كانت متفاوتة بعضها اظهر من بعض ولو أن تبلغ حدَّ التأويل وهو - حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح.. أما إذا تساوى المعنيان فالأمر اظهر مثل قوله ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ يوسف/٤٢. ففي كل من كلمة «ذكر» و «ربه» معنيان^(١)...

وقال: «ويدلُّ لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات.. فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب، ولكننا بالتأمل نعلم أن الرسول ﷺ اخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن. مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المعلى قال: رسول الله ﷺ وأنا في الصلاة فلم اجبه فلما فرغت أقبلتُ إليه فقال: ما منعك أن تجيبني؟ فقلت: يا رسول الله كنت أصلي.. فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم؟﴾ فلا شك إن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال والرسول حمّله على استجابة النداء وأمثال^(٢). هذا كثير كاستغفار النبي لمن قال الله فيهم ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فقال النبي ﷺ خيرني ربي وسأزيد على السبعين.... ولعلّ من أدق ذلك وأجدره بأن ننبه عليه في هذه المقدمة «هو استعمال اللفظ المشترك في معنياه أو معانيه دفعةً واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي ومعناه المجازي معاً» وإن كان ذلك غير وارد في استعمال العرب إلا قليلاً وإن كان بعض العلماء قد عدّ ذلك خطباً عظيماً لكن كثيراً من العلماء الأعلام قد جوز هذا الكلام كالإمام الغزالي وأبي الحسن البصري إذ قالوا: «يصح أن يراد بالمشارك عدة معاني لكن بإرادة المتكلم وليس بدلالة اللغة».

ونسب إلى الإمام الشافعي والباقلاني قولهم «يصح أن يطلق المشترك على عدة من معانيه إطلاقاً لغوياً فقالوا هو من قبيل الحقيقة».

(١) انظر ابن عاشور ٩٤/١ وقد ضرب امثلة من القرآن توضح هذا الذي نحن بصددده.

(٢) انظر الأمثلة التي أوردها ابن عاشور في تفسيره ٩٤/١.

وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله «والذي يجب اعتماده ان يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ "المفرد المشترك" و "التركيب المشترك" بين مختلف الاستعمالات سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية محضة أو مختلفة»^(١).

ويقرر ابن عاشور هذه القضية مبيناً الطريق الذي ينبغي ان يسلكه المفسرون لمعالجة مثل هذه النصوص فيقول: «وعلى هذا القانون يكون طريق الجمع بين المعاني التي يذكرها المفسرون أو ترجيح بعضها على بعض، وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل، فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن، يجعل غير ذلك المعنى ملقى ونحن لا نتابعهم على ذلك بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ بدون خروج عن مهيبة الكلام العربي البليغ، معاني في تفسير الآية فنحن في تفسيرنا هذا إذا ذكرنا معنيين فصاعداً فذلك على هذا القانون.. وإذا تركنا معنى مما حمل بعض المفسرين عليه في آيات من القرآن فليس تركنا إياه دالاً على إبطاله.. ولكن قد يكون ذلك لترجيح غيره، وقد يكون اكتفاء بذكره في تفاسير أخرى تجنباً للإطالة»^(٢).

القاعدة الثالثة: رد المعنى إلى أقرب المذكورين:

والقضية الثالثة التي أعتمدها أصحاب الفريق الثاني تتعلق بقاعدة «رد المعنى إلى أقرب مذكورين» والتي اختلفت أقوال المفسرين فيها فمن بين ملتزم بها وجعلها من أساسيات منهجه في التفسير ومن غير ملتزم بها مراعيًا لضرورة النص وسلامة التعبير القرآني.. وعلى رأس من التزم بها ابن جرير الطبري في تفسيره وتبعه بعض المفسرين كالرازي^(٣) على الرغم من اختلافهم في المنهج والقرطبي في قول له^(٤).

وقد خالف الطبري في إقرار هذه القاعدة أو الالتزام بها كثير من المفسرين ممن سار على منهجه في التفسير تقريباً كابن كثير مثلاً ومن لم يكن على أسلوبه ومنهجه

(١) ابن عاشور ١٠٠/١ نقلاً عن مقدمة التفسير لابن تيمية - بتصرف.

(٢) انظر المصدر السابق ٩٠/١ - ١٠٠ بتوسع.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٧/١٤٤.

(٤) وانظر القرطبي ٣٦٩/٨.

كالألوسي والجلالين وأبن عطية الأندلسي وابن عاشور.. ولتوضيح هذه المسألة سأضرب مثلاً واحداً أوضح به ما قلت آنفاً.

* ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم.. الآية﴾ يونس/٨٣.

ثلاثة أقوال.. اثنان منهما عن ابن عباس وثالث عن مجاهد.. فقال: «يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات.. إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردهم إلى ما كانوا عليه من الكفر.. قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن إلى فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه».

ثم أورد القول الثاني عن ابن عباس قائلاً: «وعنه - آمن لموسى إلا ذرية من قومه» يقول من بني إسرائيل...

ثم يورد القول الثالث فيقول: «وقال مجاهد في قوله (إلا ذرية من قومه) هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم» ويبين "واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية إنها من بني إسرائيل من قوم فرعون - لعود الضمير على أقرب المذكورين» ثم قال - وفي هذا نظر - فكان ابن كثير يرى إن هذا لا يستقيم حيث علق على ما ذهب إليه ابن جرير قول مجاهد بقوله: والمعروف إن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبشارة به من كتبه المتقدمة.

وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى ﴿قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ الأعراف/١٢٩.

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل «على خوف من فرعون وملتهم» أي وأشراف قومهم أن يفتنهم ولم يكن في بني إسرائيل ممن يخاف منه أن يفتنهم عن الإيمان؟

ثم يستدل على هذا فيقول ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، فقالوا

على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين»^(١)
يونس/٨٦.

هذا وقد ذهب الإمام الرازي إلى ما ذهب إليه ابن جرير فقال: «وأما الضمير في قوله تعالى: ﴿من قومه﴾ فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون؟، لأن ذكرهما جميعاً قد تقدم، وإلا إنه عائد إلى موسى لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل^(٢) إن الذين آمنوا كانوا من بني إسرائيل»^(٣).

أما القاضي أبو محمد ابن عطية الذي أثنى عليه وعلى تفسيره ابن تيمية رحمه الله فقال: «تفسير ابن عطية وأمثاله اتباع للسنة والجماعة واسلم من البدعة من تفسير الزمخشري» وقال في موضع آخر «تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد من البدع، بل هو خير منه كثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير»^(٤).

وقال عنه ابن خلدون: «لما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد عبد الحق ابن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها»^(٥).

أقول حين تعرض هذا الرجل الجهد إلى هذه المسألة فقد أثبت جواز مخالفة هذه القاعدة في رد المعنى إلى آخرين مذكورين بأدلة قوية تدل على رسوخه في العلم ومدى سعة فهمه لكتاب الله فقال: يقول في تفسيره هذه القضية: «واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قومه﴾..

فقلت فرقة: هو عائد على موسى عليه السلام.

وقالت فرقة: هو عائد على فرعون.

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٠٣.

(٢) يشير إلى أحد قولي ابن عباس - انظر ما نقلناه عن ابن كثير آنفاً.

(٣) تفسير الامام الرازي ١٧/١٤٤.

(٤) مقدمة ابن تيمية في التفسير ص/٩٠.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص/٣٢٩ مطبعة الحاج عبد السلام بن محمد - القاهرة.

ويرد ابن عطية على من قال بان الضمير عائد على موسى في أحد قولي ابن عباس السابقين بقوله: «فمن قال ان العود على موسى قال: معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتیان وشباب أكثرهم أولوا آباء كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملأ بني إسرائيل»..

وكذلك يرد على من اعتمد قول مجاهد: «وقال بعض القائلين يعود الضمير على موسى إن معنى الآية إن قوماً أدركهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا به وإنما آمن من ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان»، قال مجاهد والأعمش ثم قال.. وهذا قول غير صحيح وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى بتخصيصهم باسم الذرية، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا...^(١).

ثم يضيف رحمه الله: «وهيئة قوله (فما آمن) تعطي تقليل المؤمنين به، لأنه نفي الإيمان ثم أوجبه للبعض، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس عليه السلام في الذرية أنه القليل».

ثم يفسد ما ذهب إليه ابن جرير عن مجاهد فيقول: «ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام إن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذلٌّ مفرط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم نبياً، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا^(٢) عليه واتبعوه، ولم يحفظ قط إن طائفة من بني إسرائيل كفرت به، فكيف تعطي هذه الآية إن الأقل منهم كان الذي آمن؟..

فالذي يترجح - بحسب هذا - ان الضمير عائد على فرعون، ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاوراة موسى عليه السلام وردّه عليهم وتوبيخهم على قولهم: «هذا سحر» فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أقوالهم. ثم يقول: «ولإعتقاد الفراء وغيره على عود الضمير على موسى عليه السلام - تحبطوا - كذا قال - في عود الضمير في (ملتهم) - قال: قال الفراء: المعنى: «على خوف من آل

(١) تفسير ابن عطية ١٩٧/٧.

(٢) اصفقوا - اطبقوا عليه واجتمعوا.

فرعون وملتهم» وهو من باب «وأسأل القرية» فيرد عليه ابن عطية إن «هذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله «وأسأل القرية» هو سائغ بسبب ما يعقل من أن القرية لا تسأل، ففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما هاهنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج إلى إضمار»^(١).

ونجد أن الألوسي قد أورد عن ابن عباس رضي الله عنه (ويذكر ابن جرير أنه أخرج عن ابن عباس أن الضمير لفرعون ربه قال به جمع)^(٢).

ويورد ترجيحين يختار الثاني منهما عن ابن عطية فيقول..

«ورجح بعضهم إرجاع الضمير لموسى عليه السلام بأنه المحدث عنه وبأن المناسب على القول الآخر الإضمار فيما بعد.. ورجح ابن عطية إرجاع الضمير لفرعون بأن المعروف من القصص إن بني إسرائيل كانوا في قهر فرعون وكانوا قد بشروا بخلاصهم على يد مولود يكون نبياً صفته كذا وكذا فلما ظهر موسى عليه السلام إتبعوه ولم يعرف أن أحداً منهم خالفه - ثم قال - فالظاهر القول الثاني»^(٣).

وبهذا أيضاً قال القرطبي في أحد قوليه^(٤).

وصرح به الجلالان في تفسيرهما^(٥) مخالفين بذلك القاعدة في «رد المعنى إلى أقرب المذكورين».

قلت: ومما تقدم يظهر إن هذه القاعدة ليست مطردة في كل موقع كما قد يظن وإنما يمكن العمل بها في حالة عدم وجود تعارض في معنى النص ودلالة اللفظ معها..

(١) تفسير ابن عطية ١٩٧/٧-١٩٩ وانظر الهامش ص/١٩٩ إذ يقول المحقق: «يظهر من كلام ابن عطية أنه يؤيد الرأي القائل بأن الضمير في «قومه» يعود على فرعون وإن القول بعوده على موسى ضعيف وهو يخالف الطبري ومن وافقه في عود الضمير على أقرب مذكور ويمكن الرجوع إلى تفسيره في موضع آخر للتأكد مما قلناه عند قوله تعالى: ((فمن كان على بينة من ربه)) هود/١٧-٢٥٦/٧ وما بعدها.

(٢) أي جمع من المفسرين.

(٣) انظر روح المعاني للألوسي ١٦٨/١١.

(٤) وانظر القرطبي ٢٦٩/٨.

(٥) تفسير الجلالين ص/٢٨٦.

فلذلك ومن هذا المنطلق... منطلق جمع عبارات السلف وجمع المعاني التي يذكرها المفسرون وعدم إلغاء المعنى المرجوح في حالة اختيار غيره للوصول إلى الغرض المقصود أولاً.. والأخذ بنظر الاعتبار المعاني العديدة التي يحتملها اللفظ سواء كان مشتركاً أم لا وعدم حصر اللفظ على معنى تقريبي يشاركه فيه معنى آخر.. ثانياً.. والنظر إلى معنى الآية نظرة فيها تركيز وشمولية أكثر وعدم حصرها في مجال ضيق من التأريخ أو في قاعدة تفسيرية لا يشكل الخروج عنها أي بأس بل ربما كان في الخروج منها انطلاقاً في آفاق وحي القرآن لفهم أكثر وأكمل وأشمل لآياته.. ثالثاً وخلاصة ما تقدم: أقول...

ومن هذا المنطلق سنعيد النظر في الآيات التي تعرضت لإفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين وفق: «مرونة القواعد التفسيرية» إن صح التعبير. وتخليص النصوص من حدود الماضي وإطلاقها في رحاب الحاضر والمستقبل... مع الأخذ بنظر الاعتبار ضرورة جمع أقوال السلف في هذه الآيات للوصول إلى معانيها وما ترمي إليه.. ولعل ذلك بعض ما قصده ابن تيمية رحمه الله بقوله: "ومثل هذا نافع جداً في الدلالة على المقصود من عبارة القرآن..."^(١).

(١) راجع ما نقلناه من كلام ابن تيمية رحمه الله في القاعدة الثانية من هذا المطلب.

المبحث الثاني

في بعض أصول التفسير وقواعده

أولاً- المنقول والمعقول في التفسير.

ثانياً- الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأسبابه.

ثالثاً- مصادر تفسير القرآن وقواعده.

رابعاً- الإختلاف في التفسير

خامساً- أهم ما تميز به التفسير المأثور في هذه المرحلة.

المبحث الثاني

في بعض أصول التفسير وقواعده

أولاً: المنقول والمعقول:

إن كل تفسير نقل عن السلف إلى الخلف يطلق عليه - المنقول أو المأثور - وليس التفسير المنقول مقصوراً على الرسول ﷺ والصحابة والتابعين. وليست هذه الكلمة ضد المعقول في كل حال فإن كثيراً من التفسير المنقول كان في أول الأمر من آراء العلماء. ونتيجة اجتهادهم، وتدبرهم، وخلاصة علمهم، وفهمهم، وزبدة تحصيلهم وفقههم، فمن الممكن أن نقول: إن التفسير منقول من جهة، ومعقول من جهة. ولو قلنا إن كل تفسير قديم كان في البدء مبنياً على الرأي والاجتهاد حسب ما كان عند المتقدمين من العلم والفقه لما قلنا شططاً.

واختلاف آرائهم وآثارهم حجة لنا. ثم إن تفسير الأقدمين صار لمن بعدهم منقولاً.. وحب القدامة ألبسها شعار القداسة. وما دام هذا من عادة الناس، فانتظر اليوم الذي تصير فيه آراؤنا لمن جاء بعدنا منقولة.

قال الشيخ رشيد رضا: «إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية، المزكية للأنفس، المنورة للعقول»^(١). وهذا القول يخالف قول بعض الناس. إن السلف لم يغادروا لنا شيئاً من تفسير القرآن. فليس علينا إلا أن ننظر في كتبهم وأقوالهم وآثارهم ونستغني بها. ثم إن عمل الخلف يخالف قولهم، لأن كل خلف يفسر أكثر من السلف، ومع ذلك فإن كثيراً من حكمه ومعارفه لم يكشف عنه اللثام بعد.

وذلك ما يدعونا إلى فهم القرآن وتدبره والاعتبار بآياته والاستنباط منه^(٢).

(١) تفسير مجاهد بن جبر ١٦/١ نقلاً عن تفسير المنار ١٠/١.

(٢) تفسير مجاهد بن جبر ١٦/١.

إن التفسير يتطور بتطور العلوم ويتدرج إلى قبول الأفكار العلمية والفلسفية. وفي تفسير السلف ما يدل على تقدمه بالتدريج وإن باب التفسير مفتوح لمن يتدبر آيات القرآن تزداد يوماً فيوماً، وإن رقي العلم وازدياده يرفع مستوى التفسير...

يقول أبو حيان الأندلسي: «وقد جربنا الكلام يوماً مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم أن علم التفسير مضطرب إلى النقل في فهم معاني تراكيبه بالإسناد إلى مجاهد وطاووس وعكرمة وإضرابهم. إن فهم الآيات متوقف على ذلك. والعجب أنه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف، متباينة الأوصاف متعارضة ينقض بعضها بعضاً».

ونظير ما ذكره هذا المعاصر أنه لو تعلم أحدنا مثلاً لغة الترك أفراداً وتركيباً.. وكان هذا المعاصر يزعم أن كل آية نقل فيها التفسير خلف عن سلف بالسند إلى أن وصل ذلك إلى الصحابة رضي الله عنهم ومن كلامه أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن تفسيرها هذا وهم العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلسانهم.

وعلى قول هذا المعاصر يكون ما استخرجه الناس بعد التابعين من علوم التفسير ومعانيه ووقائعه وإظهار ما احتوى عليه من علم الفصاحة والبيان والإعجاز لا يكون تفسيراً حتى يُنقل بالسند إلى مجاهد ونحوه، وهذا كلام ساقط^(١)

وانظر إلى القرطبي كيف يبين لنا هذا المعنى: «أما قول بعض العلماء أن التفسير موقوف على السماع لقوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ النساء/٥٩. وهذا فاسد لأن النهي عن التفسير لا يخلوا إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط أو المراد به أمر آخر، وباطل أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه عن النبي ﷺ. فإن النبي دعا لابن عباس وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» - فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك؟»^(٢).

(١) تفسير مجاهد ١٨/١ نقلاً عن البحر المحيط لي حيان الأندلسي ٥/١.

(٢) تفسير مجاهد ١٩/١ عن تفسير القرطبي ٣٣/١.

نعم هناك بعض العلماء من الصحابة ومن تبعهم، كره أن يقول في التفسير، وكان سبب خوفه أنه يقول في القرآن ما لا يريد الله. أو أن يقول فيه بغير علم ولا بصيرة. ومع ذلك فإنهم كلهم كانوا يخافون أن يكتموا العلم لاسيما علم التفسير الذي يتعلق بالقرآن وبيانه وقد أوعدهم الرسول ﷺ أنه من كتم علماً أُلجم يوم القيامة بلجام من نار.^(١)

وهناك متسع في التفسير لما نرى من الآثار المختلفة عن الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم. وقول المفسرين في تفسير آية: جائز أن يكون كذا وجائز أن يكون كذا وقولهم ذلك ما ذكره فلان وجائز غير ذلك^(٢). وكل هذا يفتح لنا باب التدبر والاجتهاد وأن نقول مع العلم أقوالاً أخرى في تفسير القرآن.

وهناك أمثلة كثيرة في تفسير الطبري: أن الرسول ﷺ يفسر الآية ويشرح بعض كلماتها ثم يفسر الصحابة أو التابعين فيها تفسيراً غيره. وذلك له وجوه:

- إما أنهم لم يبلغهم الرسول ﷺ وتفسيره.

- وإما أنهم لم يروه صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ بطريق يعتمد عليها.

- وإما أنهم كانوا يوسعون فيه ويرون لهم الحق أيضاً في تفسير الآية على غير الوجه الذي روه عن الرسول ﷺ.

- وإما أنهم كانوا يعدون تفسير القرآن أمراً اجتهدياً^(٣).

- ولقد قال الإمام أحمد بن حنبل «ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي»^(٤).

- وقد شاع بين العلماء قول شعبة بن الحجاج: «إن أقوال التابعين في الفروع ليست بحجة فكيف تكون حجة في التفسير؟»^(٥). قال ابن تيمية: إنها لا تكون حجة على

غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح.

(١) جامع الإمام الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذى ٣٧٠/٢ بيروت.

(٢) انظر تفسير الطبري ٨٨/١٥.

(٣) انظر تفسير الطبري لسورة البروج والكوثر وموضع «طوبى لهم» من سورة الرعد.

(٤) مقدمة مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ١٥.

(٥) تفسير مجاهد نقلاً عن تاريخ التفسير للشيخ قاسم النقيب ص ١٣٦. وانظر مقدمة ابن تيمية في أصول

التفسير ص ١٠٥.

• وقد روي عن الإمام أبي حنيفة، قوله: «ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس. وما جاءنا عن الصحابة - رضي الله عنهم - تخيرنا من أقوالهم. ولم نخرج عنهم. وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال»^(١).

قلت: وهذه القضية من الأهمية بمكان بحيث تجعلنا نحاول جاهدين فهم كتاب الله تعالى فهماً، أشمل وأعمق امتثالاً لأمر الله بتدبر هذا القرآن أولاً، وطاعة له سبحانه برّد كل ما اختلفنا فيه إلى كتاب الله ثانياً، واتباعاً لرسول الله ﷺ ثالثاً، وفي الاقتداء به عليه الصلاة والسلام في منهجه الذي علمه الصحابة في فهم كتاب الله وكيفية التعامل معه في واقع الحياة ومن ثم بيانه للناس الذين هم أحوج ما يكونون إليه في هذا الزمان رابعاً.. أما الاعتماد على المأثور والمنقول فقط دون التدبر والتبحر، والاقتصار على الآثار المروية وحصر المعنى في أسباب التزلزل وعدم الأخذ بنظر الاعتبار كلّ القضايا التي لها دخل في التفسير مباشرة من التي عددها ابن عاشور إذ قال منبهاً عليها: «اعلم انه لا يعد من استمرار علم التفسير الآثار المروية عن النبي ﷺ في تفسير آيات ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك لأن ذلك من التفسير لا من مدده ولا يعد أيضاً من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضاً آخر منها، لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض، وكتخصيص العموم، وتقييد المطلق، وبيان المجمل، وتأويل الظاهر، ودلالة الاقتضاء، وفحوى الخطاب، ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة»^(٢).

وهو يعني هنا من غير شك أن كل ما ورد في الآثار المروية لا يجوز الاكتفاء به والاعتماد عليه فقط في استمداد علم التفسير منه، وإنما هي من التفسير ذاته لهذه الآيات في ذلك الزمن وفي تلك الظروف لا يمنع أن ننظر إلى الآيات نظرة أخرى أعمق وأشمل وفقاً للضوابط وعملاً بهذه القضايا التي عددها في إطار القانون العام لتفسير القرآن. ولذلك نجد يقول بصحة التفسير بغير المأثور كالتفسير بالرأي والنظر والاجتهاد ونحوه

(١) انظر الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٨٨/٤ طبع القاهرة.

(٢) انظر بتوسع المقدمة الثانية لتفسير ابن عاشور ٢٧/١.

إذ يقول: «وهل اتسعت التفاسير وتفتنت مستنبطات معاني القرآن إلا بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم كتاب الله، وهل يتحقق قول علمائنا: «إن القرآن لا تنقضي عجائبه»^(١) إلا بازدياد المعاني باتساع التفسير»؟.

ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصراً في ورقات قليلة، وقد قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها -: «ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه إياهن جبريل».

أقول وفي هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «وذلك تفصيل جُمِلَ ما في آية من أمر الله ونهيهِ، وحلالهِ وحرامهِ وحدوده وفرائضهِ، وسائر معاني شرائع دينهِ، الذي هو جُمِلَ في ظاهر التزويل، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة»^(٢).

وقد سبق أن بين هذا ابن عاشور في المقدمة الثانية من تفسيره ونقل قول ابن عطية في بيان معنى الحديث فقال: «قال ابن عطية معناه في مغيبات القرآن وتفسير مجمله مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف»^(٣).

ثم قال: لو كان التفسير مقصوراً على بيان معاني القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرأً، ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم.

(١) الحديث أخرجه الترمذي بمسنده عن علي به مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم». قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله تبارك وتعالى، فيه لباً من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» سبق إirاده وتخرجه. انظر مقدمة الفصل الأول.

وقد ذكره ابن تيمية في مقدمته القيمة ص ٣٤ هامش ٢ وقال المحقق أخرجه الدارمي في سننه ٤٣٥/٢ وجامع الترمذي ١١٢/٨ وقال عنه إسناده مجهول وفي الحارث مقال وقال: والكلام بغض النظر عن السند - جميل وصحيح المعنى.

(٢) مقدمة ابن تيمية في التفسير ص ١٧ من كلام المحقق عدنان زرور. وانظر تفصيل ذلك في الفصل الأول من المقدمة ذاتها ص ٣٥.

(٣) انظر تفسير ابن عاشور في تفصيل هذه القضية ٢٣/١.

قال الغزالي والقرطبي: «لا يصح أن يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعاً من النبي ﷺ، لوجهين:

أحدهما: أن النبي ﷺ لم يثبت عنه من التفسير إلا تفسير آيات قليلة وهي ما تقدم عن عائشة - رضي الله عنها -.

الثاني: أنهم اختلفوا في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينهما. وسماع جميعها من رسول الله محال. ولو كان بعضها مسموعاً لترك الآخر، أي لو كان بعضها مسموعاً لقال قائله إنه سمعه من رسول الله ﷺ فرجع إليه من خالفه.

فتبين على القطع أن كل مفسر قال في معنى الآية بما ظهر له باستنباطه.

روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال: قلت لعليّ ﷺ: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن».. الخ^(١).

● وقد دعا رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» واتفق العلماء على أن المراد بالتأويل - تأويل القرآن.

● وقد ذكر فقهاؤنا في آداب قراءة القرآن أن «التفهم مع قلة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا تفهم».

● قال الغزالي في الإحياء: «التدبر في قراءته إعادة لنظر في الآية، والتفهم - أن يستوضح من كل آية ما يليق بها كي تتكشف له من الأسرار معان مكنونة لا تتكشف إلا للموفقين».

● قال: «ومن موانع الفهم أن يكون قد قرأ تفسيراً وأعتقد أن لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد، وإن ما وراء ذلك تفسير بالرأي فهذا من الحجب العظيمة»^(٢).

(١) انظر فتح الباري

(٢) قلت: وما أكثر ما كان من هذا في تفسير الآيات الواردة في إفساد بني إسرائيل في سورة الإسراء.

● وقال فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ في سورة النساء/١٩: «قد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجهاً في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة، وذلك لا يقوله إلا مقلد خُلف - بضم الخاء -».

● وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ إبراهيم/٤٢: «هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم» ف قيل له من قال هذا؟ فغضب وقال: قال هذا من علمه يريد نفسه.

● وقال أبو بكر ابن العربي في العواصم إنه أملى على سورة نوح خمسمائة مسألة، وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة" يعني - استنباطاً - ثم يتابع فيقول: «وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم تفسّر به قبل ذلك»؟^(١).

جاء في تفسير مجاهد فيما يخص هذا الشأن عند الحديث عن تفرع التفسير «فالمحدث يفسر بالرواية، والفقيه يفسر ما فيه الأحكام والمسائل الفقهية، واللغوي يقول في غريبه ومشكله والفلسفي يتكلم في فلسفته.. فان لكل ذي علم فيه مقالاً، ولكل ذي فهم رأياً..»^(٢).

● وقال الإمام الألوسي: «والعجب كل العجب مما يزعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني التراكيب ولم ينظر إلى اختلاف التفاسير وتنوعها، ولم يعلم أن ما ورد عنه ﷺ كالكبريت الأحمر»^(٣).

(١) تفسير ابن عاشور ٢٨/١-٢٩.

(٢) تفسير مجاهد بن جبر ٩/١.

(٣) روح المعاني - للألوسي ٦/١.

- قال الإمام الغزالي - رحمه الله - : «تحریم التكلم بغير المسموع باطل» إذ لا يصادف السماع من رسول الله ﷺ، إلا بعض الآيات والصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم اختلفوا اختلافاً لا يمكن فيه الجمع، ويمتنع سماع الجميع من رسول الله ﷺ والأخبار والآثار تدل على اتساع معانيه. قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» - فلو كان مسموعاً فلا وجه للتخصيص. وقال عز وجل ﴿لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ النساء/ ٨٣^(١).
- وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً».
- وقال علي رضي الله عنه: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»^(٢).
- وهذا الإمام الشافعي يقول: تطلبت دليلاً على حجية الإجماع فظفرت به في قوله تعالى ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ النساء/ ١١٥.
- قال شرف الدين الطيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء: «شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال، سليماً من التكليف، عرياً من التعسف».
- وصاحب الكشاف يسمي ما كان على خلاف ذلك: «بدع التفسير»^(٣).
- والحق إن الله تعالى ما كلفنا في غير أصول الاعتقاد بأكثر من حصول الظن المستند إلى الأدلة. والأدلة متنوعة على حسب أنواع المستند فيه. وأدلة فهم الكلام معروفة وقد بينها.
- أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب أن لا يعدوا ما هو مأثور فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها ولم يضبطوا مرادهم من المأثور عمن يؤثر.
- فإن أرادوا به ما روي عن النبي ﷺ من تفسير بعض آيات إن كان مروياً بسند مقبول من صحيح أو حسن، فإذا التزموا هذا الظن بهم فقد ضيقوا سعة معاني القرآن وينابيع ما يستنبط من علومه، وناقضوا أنفسهم فيما دون من التفاسير، وغلظوا

(١) تفسير مجاهد ٩/١.

(٢) المصدر السابق نقلاً عن تبصير الرحمن وتيسير المنان - لعلي بن أحمد الهائمي ص/٥.

(٣) تفسير ابن عاشور ٣/١.

سلفهم فيما تأولوه، إذ لا ملجأ لهم من الاعتراف بأن أئمة المسلمين من الصحابة فمن بعدهم لم يقصروا أنفسهم على أن يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبي ﷺ. وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل العلم عن معاني آيات كثيرة ولم يشترط عليهم أن يرووا له ما بلغهم في تفسيرها عن النبي ﷺ.

● وإن أرادوا بالمأثور ما روي عن النبي ﷺ وعن أصحابه خاصة ما يظهر من صنيع السيوطي في تفسيره الدر المنثور لم يتسع ذلك المضيق إلا قليلاً ولم يغن عن أهل التفسير قليلاً لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم في التفسير إلا شيء قليل سوى ما يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ما فيه من صحيح وضعيف وموضوع وقد ثبت عنه أنه قال: ما عندي مما ليس في كتاب الله شيء إلا فهماً يؤتيه الله.. وما يروى عن ابن مسعود وعبد الله بن عمر وأنس وأبي هريرة، وأما ابن عباس فكان أكثر ما يروى عنه قولاً برأيه على تفاوت بين رواته.

● وإن أرادوا بالمأثور ما كان مروياً قبل تدوين التفاسير الأول، مثل ما يروى عن أصحاب ابن عباس، وأصحاب ابن مسعود، فقد أخذوا يفتحون الباب من شقه، ويقربون ما بعد من الشقة، إذ لا محيص لهم من الاعتراف بأن التابعين قالوا أقوالاً في معاني القرآن لم يسندوها ولا ادعوا أنها محذوفة الأسانيد، وقد اختلفت أقوالهم في معاني آيات كثيرة اختلافاً يُنبئ إنباءً واضحاً بأنهم تأولوا تلك الآيات من أفهامهم كما يعلمه من له علم بأقوالهم، وهي ثابتة في تفسير الطبري ونظرائه، وقد التزم الطبري في تفسيره أن يقتصر على ما هو مروي عن الصحابة والتابعين.

ولكنه لا يلبث في كل آية أن يتخطى ذلك إلى اختياره منها، وترجيح بعضها على بعض بشواهد من كلام العرب، وحسبه بذلك تجاوزاً لما حدده من الاقتصار على التفسير بالمأثور^(١). وذلك طريق ليس بنهج، وقد سبقه إليه «بقي ابن مخلد» ولم نقف

(١) طالما عجت حين وجدت ذلك عند مراجعتي لتفسيره - رحمه الله - فاعتقدت أن ذلك من طبيعة القرآن البيانية - التي تأتي على من تصدى لتفسير القرآن بقصد تبينه وبيانه للناس أن لا ينطلق من حدود المنقول إلى المعقول ومن ثم إلى أفق المفهوم من وحي القرآن الذي يزيد في العلم.

على تفسيره. وشاكل الطبري فيه معاصروه مثل: «ابن أبي»^(١) حاتم» و«ابن مردويه» و«الحاكم»^(٢). لكن هذا التخطي منهم لما التزموا به بدءاً لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذي يجعله في عداد ما درس وذهب، بل وجد من العلماء في عصور مختلفة من استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان، ففسر القرآن تفسيراً نقلياً بحثاً، على توسع منهم في النقل وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطي في كتابه «الدر المنثور»^(٣). فلله در الذين يحبسوا لم أنفسهم في تفسير القرآن على ما هو مأثور مثل «الفراء وأبي عبيد» من الأولين، و«الزجاجي والرماني» ممن بعدهم، ثم الذين سلكوا طرقهم مثل «الزنجشيري وابن عطية»^(٤).

وهذا الذي يقوله ابن عاشور من كلام أصيل حتى لكأنه من وحي التنزيل وجدته كالصدي لما في نفسي وما استقر فيها وقد جرى على لسانه حين قال: «هذا وإن واجب النصح في الدين والتنبيه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم».

(١) ساقطة في الأصل فأثبتها.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٢/١-٣٣.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١٤٨/١.

(٤) تفسير ابن عاشور ٣٢/١-٣٣.. قلت ومنهم ابو الليث السمرقندي حيث يقول عنه عبد الرحيم الزقة: «إن تفسير السمرقندي جمع بين المأثور والرأي فتضمن قدراً وفيراً من المنقول عن النبي ﷺ وعن أصحابه والتابعين. كما ضم نقول علماء اللغة واقوال المدارس التفسيرية المختلف. فجمع بين المأثور والرأي أو بين الرواية والدراية». وكذلك فقد عد السمرقندي «اللغة ركيزة أساسية لتفسير كلام الله سبحانه وتعالى وفهم معاني التزيل في ضوئها حتى يتمكن المفسر من استيعاب معاني المأثور في التفسير بعدها، وازدادة ما يمكن اضافته إلى رصيد المأثور لدخول مجال التفسير بالرأي وترجيح الراجح من النتائج التفسيرية، وردّ التهافت، فباللغة يستطيع المفسر استيعاب المنقول وفهم علوم التزيل» وهذا يعني ان السمرقندي أجاز التفسير بالرأي حيث انه قد أقر قاعدة من قواعد التفسير يقول فيها: «ولا يجوز لاحد ان يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه ما لم يتعلم وجوه اللغة وأحوال التزيل» [من مقال للدكتور عبد الرحيم الزقة بعنوان «السمرقندي ومنهجه في التفسير» مجلة كلية الشريعة /العدد/ ٥ لسنة ١٩٧٩ ص ٣٧٩ وانظر تفسير السمرقندي ص ٢. والتفسير والمفسرون للذهبي ٢٢٤/١.

قضي عليّ أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلالة في العلوم التي سبق ذكرها.....

فقد رأينا قهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات إلى طريقة كتب التفسير، ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركاً معنى الآية جانباً، جالباً من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالباً. وقد جلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض^(١) لهذا العمل العلمي الجليل.. فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره. وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد، ولا يكون في حالك سواد.

وان سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل الغلطة، فمن يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أجاجه^(٢).

ثانياً: الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأسبابه:

ولعل من تمام القول أن أعرج على موضوع الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأسبابه فقد قال الإمام الذهبي: «إن التفسير بالمأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروي عن التابعين».

(١) لعله قصد أولئك الذين قالوا شططا في تفسيرهم لآيات القرآن دون ان يكون لهم مستند لشروط وأصول التفسير كأصحاب التفسير الباطني من غلاة الشيعة والتفسير الاشاري من غلاة الصوفية ومن اعتمدوا على ما بلغهم عن أهل الكتاب وحصرُوا تفسير كتاب الله في زاوية الماضي من التاريخ أو الزائغ من الفكرة أو ما انحرف من الاعتقاد كتفاسير المعتزلة والفلاسفة والروافض وأشباههم. انظر تفسير ابن عاشور ٣٢/١-٣٦.

وانظر التفسير والمفسرون الجزء الثاني والثالث بتوسع - لمحمد حسين الذهبي.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٧/١.

● أما تفسير القرآن بالقرآن أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف في قبوله، لأنه لا يتطرق إليه الضعف ولا يجد الشك إليه سبيلاً.

● وأما ما أضيف إلى النبي ﷺ وهو ضعيف في سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبي ﷺ.

● وأما تفسير القرآن بما روي عن الصحابة أو التابعين فقد تسرب إليه الخلل، وتطرق إليه الضعف إلى حدٍ كاد يفقدنا الثقة بكل ما روي من ذلك. لولا أن قيض الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك، فسلم لنا منه كمية لا يستهان بها، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطاً في كثير من الكتب التي عني أصحابنا بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروي من ذلك جاوزت الحد، وبخاصة عن ابن عباس.. وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهما أكبر عامل في صرف هممة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح.

حتى لقد نقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهاً بمائة حديث»^(١).

قال الذهبي: «وهذا العدد الذي ذكره الشافعي، لا يكاد يذكر بجوار ما روي عن ابن عباس من التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير النقلي من الروايات المكذوبة المصنوعة»^(٢).

هذا وقد حدد الذهبي أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور بثلاثة أمور:

أولها - كثرة الوضع في التفسير.

ثانيها - دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها - حذف الأسانيد^(٣).

(١) انظر الإتيان للسيوطي ١٨٩/٢ وانظر التفسير والمفسرون ٧٧/١ و ٨٢/١.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١٥٦/١-١٥٧.

(٣) انظر التفسير والمفسرون ١٥٧/١ و ١٦٥/١ و ٢٠١/١.

ثالثاً: مصادر تفسير القرآن وقواعده:

إن الدعوة إلى دراسة القرآن وتدبره باقية لا تنقطع وقد يسّر الله كتابه للذكر والعلم ومعرفة ما فيه من حقائق وعبر، فإن صعب الوصول إلى المراد فسؤال أهل الذكر أمرٌ مفتوح إلى يوم القيامة لقومٍ لا يعلمون.

كل ذلك يوحى بأن هذا القرآن كان ولا يزال وسيبقى حياً متجدداً. ونوراً متفجراً لا يقتصر نوره على مكان. ولا وحيه لزمان ولم يستأثر الله علمه على إنسان كائناً من كان^(١).

ولو فسر النبي ﷺ كل القرآن إذاً لحمد على ما فسّره النبي، إذ لا يمكن أن يقول أحد من الناس على ما قاله النبي ﷺ.

ولذلك نجد أن تفسير النبي ﷺ للقرآن كان هو المصدر الأول للتفسير في عهد النبوة وإنما كان هو المصدر الثاني بعد تفسير القرآن بالقرآن في عهد الصحابة.

● قال الإمام الذهبي في معرض حديثه عن مصادر التفسير في عهد النبي والصحابة ما نصه: «كان الصحابة في هذا العصر يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

الأول: القرآن الكريم.

الثاني: النبي ﷺ.

الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الرابع: أهل الكتاب من اليهود والنصارى»^(٢).

فعلى ما قلناه وقرره الذهبي تبني عدة مسائل أجده من الضروري جداً أن أقدم بها لموضوع هذا المبحث الذي سنعرض فيه لخلاف المفسرين - رحمهم الله تعالى - حول

(١) قال الراغب: «وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجَمِّ وبحيث تقصر

الألباب البشرية عن احصائه والآلات الدنيوية عن اسيفائه كما نبه عليه بقوله: ((ولو ان ما في

الارض...عزير حكيم)) الآية. انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص/٥.

(٢) انظر التفسير والمفسرون ٣٧/١ وما بعدها.

هذه الآيات من سورة بني إسرائيل ربما أجمل فيها الوحي ويحتاج إلى تفسير وقد أشكل معناها ويحتاج إلى بيان.

القاعدة الأولى: «منهج النبي ﷺ في تفسير القرآن».

أنه لا بد من التزام المنهج الذي رسمه النبي ﷺ من رد كل ما اختلف فيه إلى كتاب الله فإن لم نجد فبسنة رسول الله، فإن لم نجد فبالاجتهاد كما ورد من قول معاذ رضي الله عنه وقد أرسله النبي إلى اليمن^(١).

وهذه إنما تمثل الخطوة الأولى لتفسير القرآن بالقرآن للوصول إلى فهم معانيه وحصول العلم الشرعي المراد من آياته عن طريق الدراسة والتدبر والاستنباط حيث: «إن هذا العلم إن أخذ من حيث أنه بيان وتفسير لمراد الله كان معدوداً من أصول العلوم الشرعية وهي التي ذكرها الغزالي في الضرب الأول من العلوم الشرعية المحمود من كتاب الإحياء لأنه عدّ أولها، الكتاب والسنة، ولا شك أنه لا يعني بعلم الكتاب حفظ ألفاظه بل فهم معانيها»^(٢).

ولقد ذكر فقهاؤنا في آداب قراءة القرآن أن «التفهم مع قلة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا فهم». لذلك قال الإمام الغزالي في الإحياء: «التدبر في قراءته - إعادة النظر في الآية والتفهم - أن يستوضح من كل آية ما يليق بها. كي تنكشف له من الأسرار معان مكنونة لا تنكشف إلا للموفقين»^(٣).

وبما أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فلا بد أن نجد في كتاب الله شيئاً يفسر هذه الآيات إما أن يكون نصاً صريحاً أو قولاً مجملاً أو إشارة ما أو لفظاً إشتمل معنى من معان هذه اللغة التي نزل بها هذا القرآن.

(١) أخرج الترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن «بم تحكم» ؟ قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد» ؟ قال: بسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد» ؟ قال: اجتهد رأيي قال: فضرب رسول الله في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»، وهذا الحديث في المساند والسنن باسناد جيد، أخرجه الترمذي وأبو داود ٢١٢/٥ وسنن الدارمي ٦٠/١.

(٢) تفسير ابن عاشور ١٤/١.

(٣) المصدر السابق ٢٩/١.

القاعدة الثانية: لا بد من التسليم بأنه لم يرد إلينا حديث صحيح أو ضعيف عن رسول الله ﷺ باعتبار المصدر الثاني للتفسير كما أسلفنا، يبين لنا فيه مرتي إفساد بني إسرائيل ولا حتى بيان المراد من العباد الذين بعثهم الله عليهم عقب كل إفساد وإلا لذكره المفسرون حين تعرضوا لتفسير هذه الآيات وإنما الذي روي حديثاً واحداً أورده الطبري في تفسيره وقد رده ابن كثير قائلاً: «وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب. وكتب ذلك على حاشية كتابه»^(١). وكل الذي ورد من الآثار في تفسير هذه الآيات هو من الصحابة والتابعين وأغلبها ضعيف مضطرب إلا ما ندر كما سنبينه في حينه ان شاء الله تعالى.

القاعدة الثالثة: وهي تتعلق بالمصدر الثالث لتفسير القرآن وهي قضية الاجتهاد وقوة الاستنباط حيث كان الصحابة - رضي الله عنهم - إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واستدلال. وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آي القرآن بهذا الطريق، أعني طريق الرأي والاجتهاد، مستعيناً على ذلك بما يأتي:

أولاً - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً - معرفة عادات العرب.

ثالثاً - معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً - قوة الفهم وسعة الإدراك^(٢).

وسأتناول كل فقرة بشرح مختصر.

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٢/٣.

(٢) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ٥٨/١.

١ - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها:

إذ إنها تعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب.. يقول ابن عاشور: روى أئمة الأدب إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخُوفٍ﴾ النحل/٤٧ ثم قال ما تقولون فيها..؟ أي في معنى التخوف، فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا، والتخوف: التنقص، فقال عمر، وهل تعرف العرب ذلك من كلامها؟ قال نعم. قال أبو كبير الهذلي:

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن^(١)

فقال عمر: «عليكم يديوانكم لا تضلوا، وهو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم».

وعن ابن عباس: «الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغتهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه» وكان كثيراً ما ينشد الشعر إذا سئل عن بعض حروف القرآن.

قال القرطبي سئل ابن عباس رضي الله عنه، عن السِّنة في قوله تعالى ﴿لَا تَأْخُذْ سِنَةً وَلَا نَوْمٌ﴾ فقال: النعاس، وأنشد قول زهير:

لا سِنَةٍ فِي طَوَالِ اللَّيْلِ تَأْخُذُهُ وَلَا يَنَامُ وَلَا فِي أَمْرِهِ فَنَدُ^(٢)

٢ - معرفة عادات العرب:

لأنها تعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ التوبة/٣٧. لا يمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن^(٣).

(١) الرجل: الحمل. التامك: السنام - القرد: الشعر المقتل - النبعة: العود - السفن: المبرد - انظر دراسات في التفسير ورجاله - أبو اليقظان ص/٢٦.

(٢) تفسير ابن عاشور ٢٢/١.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ٥٨/١.

وكما روى الإمام مالك في الموطأ عن عروة ابن الزبير قال: «قلت لعائشة، وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ البقرة/١٥٨. فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة كلا لو كانت كما تقول، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما. إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهلون لمناة الطاغية، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ان الصفا والمروة.. الآية. فبينت له ابتداء طريقة استعمال العرب لو كان المعنى كما وهمه عروة ثم بينت له مثار شبهته الناشئة عن قوله تعالى ﴿فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ﴾ الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يصدق بالإباحة دون الوجوب^(١). فإخبار العرب كانت من جملة أدهم. يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سوقها لان القرآن إنما يذكر القصص والإخبار للموعظة والاعتبار، لا لأن يتحدث الناس بها في الأسفار، فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت له الآيات من دقائق المعاني، كقصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾^(٢).

٣- معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

كذلك من الأمور التي اعتمدها المفسرون من الصحابة والتابعين باعتبارها تعين على فهم الآيات فيها إشارة إلى أعمالهم والرد عليهم^(٣) وقد أطلق على هذا المصدر - فيما بعد - مصطلح «الإسرائيليات» حيث أطلق على كل ما روي من القضايا والمسائل والقصص والمواظ التي تدور حول التراث الثقافي اليهودي والنصراني. ولكثرة ما ورد عن اليهود تغلب على هذا الاتجاه مصطلح «الإسرائيليات»^(٤). قال الذهبي: «ولفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير وما

(١) تفسير ابن عاشور ٢٣/١.

(٢) المصدر السابق ٢٥/١.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ٥٨/١.

(٤) راجع تطور تفسير القرآن: محسن عبد الحميد ص/٢٩.

كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير اليهودي على الجانب النصراني، فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثرت النقل عنه، وذلك لكثرة أهله وظهور أمره وشدة اختلاطهم بالمسلمين».

كان لليهود ثقافة دينية وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك، وكلتا الثقافتين كان لها أثر في التفسير إلى حد ما.. وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى عليه السلام بطريق الكتابة وإنما حملوها ونقلوها بطريق المشافهة، ثم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال.. ووجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودي، والقصص، والتاريخ، والتشريع، والأساطير..

وكان طبيعياً أن يشرح الإنجيل - كذلك - بشروح مختلفة، كانت فيما بعد منبعاً من منابع الثقافة النصرانية، كما وجد بجوار ذلك ما زاده النصارى من القصص والأخبار والتعاليم التي زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام..^(١).

«وإذا نحن أجلنا النظر في التوراة والإنجيل نجد أنهما اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام وذلك على اختلاف في الإجمال والتفصيل، فالقرآن إذا عرض لقصة من قصص الأنبياء - مثلاً - فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها التوراة والإنجيل فتراه يقتصر على مواضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فلا يذكر تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها كما ناه في الغالب لا يذكر أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث، ولا يدخل في تفاصيل الجزئيات، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع وما يتعلق بموضع العبرة»^(٢).

إن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٥-١٦٦.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٧.

إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين، قال تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ هود/٤٩^(١).

«وبعد.. فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز في كتابهم، ويجدون بجانب ذلك تفصيلاً لهذا الإيجاز في كتب الديانات الأخرى، ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارحٌ لهذا الإيجاز وموضح لما فيه من غموض..»^(٢) هذه هي القضية التي كانت السبب الأهم في دخول الإسرائيليات والى تأثر التفسير بها.

يقول الذهبي موضحاً هذه القضية: نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيليات في التفسير، أمر يرجع إلى عهد الصحابة - رضي الله عنهم - وذلك نظراً لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل - كما تقدم - مع فارق واحد هو الإيجاز في القرآن والبسط والإطناب في التوراة والإنجيل..

وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مرَّ على قصةٍ من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه إلى سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام، وحملوا إلى أهلهم ما معهم من ثقافة دينية فالتقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الديني^(٣).

والحق إن رسول الله ﷺ قد وجه الصحابة في أحاديثه إلى كيفية التعامل السليم مع أهل الكتاب.. ففي بداية الاتصال مع اليهود في المدينة حرّم عليهم أن يقرأوا التوراة.. لاسيما إن الإسلام يومئذ كان في بداية صياغته لمسلمي المدينة، فكان الخوف من الخلط والتشويه والتشكيك قائماً.. وكان كبار الصحابة يخافون على عامة المسلمين من ذلك التأثير.

(١) انظر تفسير ابن عاشور ٦٥/١.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١٦٨/١.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ١٦٩/١.

أخرج الإمام أحمد وغيره من حديث جابر بن عبد الله أن عمر ابن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه.. فغضب فقال: امتهوكون^(١) فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفس محمد بيده لو أن موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني^(٢).

ولما رسخ الإسلام في المدينة، وتوضحت أمام المسلمين الجدد جميعاً عقائده ومبادئه وأخلاقه، لم يعد رسول الله ﷺ يخاف عليهم من الاطلاع على ما عندهم فوجههم بقوله الصادق الكريم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالله وما أنزل إلينا..»^(٣).. أي إن الأصل أننا نؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً، فما وافقه مما عند أهل الكتاب، لنا أن نصدقه وما خالفه نكذبه، ونعتقد أنه تحريف وكذب على موسى وعيسى عليهم السلام.. وعندما غدا الأمر واضحاً، وتكامل نزول الآيات في الحكم على أهل الكتاب بالتحريف، لم يبق حرج في الاطلاع، فحينئذ وضع رسول الله ﷺ قاعدة عامة سارية إلى يوم القيامة بقوله: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).. غير أن رجوع الصحابة إلى أهل الكتب - كان - في مجال ضيق جداً في بعض الأخبار والروايات التاريخية من منطلق غريزة الاستطلاع على ما عند الغير^(٥)..

غير إن هذه المرويات قد كثرت في أواخر عهد الصحابة وفي عصر التابعين حتى طغت عند بعض المفسرين بقصد بيان ما أشكل مراده من بعض الآيات وبنية حسنة وفي

(١) متهوكون: متحيرون.

(٢) أورده الإمام أحمد في مسنده ٣/٣٨٧.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني ٨/١٢٠.

(٤) المصدر السابق ٦/٣٢٩.

(٥) انظر تطور تفسير القرآن - محسن عبد الحميد ص ٣١-٣٢. وانظر التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٩

وما بعدها. وانظر مقدمة ابن خلدون ٣/٩٩٧.

هذا يقول الذهبي بعد حديثه عن أخذ بعض الصحابة كابن عباس وغيره: «هذا هو مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم، أما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فظهرت في هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة في التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى، فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء مقاتل ابن سليمان المتوفى سنة (١٥٠هـ) الذي نسبته أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم^(١).. ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالاسرائيليات، وأفرط في الأخذ منه إلى درجة جعلهم لا يردون قولاً، ولا يمحون عن أن يلصقون بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان مما لا يتصوره العقل^(٢).. واستمر هذا الشغف بالاسرائيليات والولع بنقل هذه الأخبار التي أصبح الكثير منها نوعاً من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها.. ولقد كان لهذه الاسرائيليات التي أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيء في التفسير؛ ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان في عهد الصحابة رضي الله عنهم بل ازدادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقاً وإن كذباً، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترع، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها، لاعتقاده أن الكل من واد واحد، وفي الحق إن الكثيرين من هذه الاسرائيليات وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما روه من قصص

(١) انظر وفيات الاعيان ٥٦٨/٢.

(٢) انظر رواية ابن اسحاق التي ساقها الطبري ٢٣/١٥ وفيها سنحاريب غزا بني اسرائيل بستمائة الف راية.. وغيرها كثير.

مكذوب وأخبار لا تصح، كما ان نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، وجعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة»^(١).
* قلت وعلى هذا فنحن أمام ما نقل إلينا من المأثورات عن النبي ﷺ نقلاً صحيحاً موثقاً لا شائبة فيه ولا مغمز ليس لنا إلا التسليم بقبوله والرضا به على العين والرأس ما دامت قد علمت صحته.

* أما ما نقل وقد علم كذبه على رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو قد بان ضعف سنده وأنه يتناقض مع ما عرفناه من شرعنا أو كان لا يتفق مع العقل فهذا لا يصح قبوله ولا روايته.

* وأما ما جاء منقولاً عن الصحابة - مما سكت عنه الشرع - بطريق صحيح فإن كان قد جُزم به فهو من النوع الأول يقبل ولا يرد لاحتمال سماعه من النبي ﷺ أو ممن سمعه عنه أقوى من احتمال سماعه من أهل الكتاب.

* وأما ما جاء منقولاً - من هذا - عن التابعين فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا كذب، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله ﷺ وخاصة إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير فيه^(٢).

٤- قوة الفهم وسعة الإدراك:

قلنا إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتعاونون في معرفة تفسير القرآن لأنهم لم يكونوا جميعاً على معرفة واحدة بمعاني الألفاظ جميعها.. وكذلك لم يكونوا جميعاً على مستوى عقلي واحد.. فبعضهم آتاه الله تعالى قوة الاستنباط العقلي دون البعض الآخر.. قال الذهبي: «وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، إنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ١٧٦/١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ١٧٩/١ بتصرف.

التي وضعت لها المفردات.. فمن مفردات القرآن ما نخفي على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها..

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن أنس «إن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأباً) فقال هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو التكلف يا عمر».. وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتهما يقول: أنا ابتدأتهما».

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفي عليه معنى الأب ومعنى التخوف، ويسأل عنها غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية، فيكفيهم - مثلاً - أن يعلموا من قوله تعالى ﴿وفاكهة وأباً﴾ أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلاً ما دام المراد واضحاً جلياً^(١).

والحق إن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدم - إلى اختلافهم في أدوات الفهم، فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملماً بغريبها، ومنهم من كان يلزم النبي ﷺ فيعرف من أسباب التزول ما لا يعرفه غيره وأضف إلى هذا وذاك إن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً..

قال مسروق: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالآخاذ^(٢) فلاخاذا يروي الرجل، والأخاذا يروي الرجلين، والأخاذا يروي العشرة، والالاخاذا يروي المائة، والأخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم».

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ٣٥/١.

(٢) الآخاذ: يعني الغدير أو الجدول.

هذا وقد قال ابن قتيبة: «إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض».

ويظهر إن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرح به فيما أورده - في مقدمته - حيث قال: «وكان النبي ﷺ يبين الجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه»^(١).

«وهذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم في معرفة معاني القرآن معرفتهم بلغته، بل كانوا في كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول ﷺ»^(٢).

القاعدة الرابعة: تتعلق باختلاف المفسرين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وضرورة جمع أقوال السلف وتوحيدها. وفي هذا المقام يقول الإمام أحمد ابن تيمية - رحمه الله -: «يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، ف قوله تعالى ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ النحل/٤٤ يتناول هذا وهذا. وكذلك قال تعالى ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ يوسف/٢. وعقل الكلام متضمن لفهمه. ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل إلى ما بعدهم، وكلما كان العصر اشرف كان الاجتماع والاتلاف والعلم والبيان فيه أكثر».

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها^(٣).

والمقصود إن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بلا استنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السنن

(١) مقدمة ابن خلدون ص/٤٨٩.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٣٥-٣٦ بتصرف.

(٣) انظر تفسير الطبري ١/٩٠.

بالاستنباط والاستدلال. ولكننا نجد على الرغم من ذلك أن «الخلاف بين السلف في التفسير قليلٌ وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير. وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد»^(١).

والاختلاف قد يكون لخباء الدليل والذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون للغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح.

رابعاً: الإختلاف في التفسير:

والاختلاف في التفسير على نوعين:

الأول: منه ما يستند النقل فقط.

الثاني: ما يعلم بغير ذلك. إذ العلم إما نقل مُصدق وإما استدلال محقق. والمنقول

إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم.

«الخلاف الواقع في التفسير من جهة النقل».

والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم - وهذا هو

الأول - فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه.

وهذا القسم الثاني من المنقول. وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه^(٢) عامته مما لا فائدة فيه، والكلام فيه فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله تعالى نصب على الحق فيه دليلاً.

فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في «لون كلب أصحاب

الكهف» وفي البعض الذي ضرب به موسى البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وكان

خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك^(٣) فهذه الأمور طريق العلم بها

(١) مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية ص/٣٨ وانظر انواع الاختلافات التي عدها في مقدمته ص/٣٨

وما بعدها وفي اقتضاء الصراط المستقيم ص/٣٧ فما بعدها أيضاً.

(٢) أي بالصحيح منه.

(٣) وهذا الذي يتحدث عنه ابن تيمية رحمه الله مما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه، سودت به

صفحات كثيرة من كتب التفسير «انظر المقدمة» ص/٥٦ - الحاشية ٣/.

النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه «الخضر»^(١) فهذا معلوم.

وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب - كالمنقول عن كعب، وهب، ومحمد ابن إسحاق، وغيرهم^(٢) ممن يأخذ عن أهل الكتاب - فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه»^(٣). وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وأن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب. فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين. لأن احتمال أن يكون سمعه النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال أنه أخذه عن أهل الكتاب وقد فهموا عن تصديقهم^(٤).

أما عن قضية ما نقل عن التابعين في التفسير فانه قد "نقل عن الإمام أحمد روايتان في ذلك، رواية بالقبول ورواية بعدم القبول.

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي، واختاره ابن عقيل، ووحكي عن شعبة.

(١) أورد ذلك الامام البخاري في صحيحه من حديث ابي بن كعب. انظر فتح الباري ١/١٣٧.

(٢) هؤلاء الثلاثة هم عمد الرواية الاسرائيلية ولم يتعرض شيخ الاسلام في كلامه على هؤلاء الاعلام إلى موضوع تعديلهم أو الطعن في روايتهم ولكنه أشار إلى ضرورة التوقف فيما ينقلونه وليس في هذا التوقف طعن في صحة نقلهم ولكن في مضمون ما ينقلونه اذ اختلفت فيه بعض الشروط. انظر مقدمة التفسير (ص/٥٧) وانظر تهذيب التهذيب ٨/٤٣٨ وميزان الاعتدال ٤/٣٤٢.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٣٦ وأبو داود في سننه ٣/٤٣٣ وفتح الباري ٥/٣٢٣ بالفاظ متقاربة.

(٤) انظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/٥٧-٥٨.

واستدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي أنه محمول على سماع النبي ﷺ وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن. فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلاً.

ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة. نقل عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة قال الذهبي: «والذي تميل إليه النفس: هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان ممالا مجال للرأي فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريية، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه»^(١).

قال ابن تيمية: «قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟. يعني إنما لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم.

وهذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»^(٢).

ويزيد شيخ الإسلام هذا الأمر توضيحاً فيقول: «إن الاختلاف الذي لا يعلم صحاحه، ولا يفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك. ثم يضيف:

وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه والله الحمد، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٢٨.

(٢) مقدمة التفسير لابن تيمية ص/١٠٥ وانظر الإتقان ٢/١٧٩.

من الأنبياء (عليهم السلام) والنقل الصحيح يؤكد هذا وبينه، بل هذا موجود فيما مستنده النقل وفيما يعرف بأمر أخرى غير النقل.

والمقصود: أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره.

ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: «التفسير والملاحم والمغازي». ويروى «ليس لها أصل»^(١) أي إسناد لأن الغالب عليها «المراسيل»^(٢).

خامساً - أهم ما تميز به التفسير المأثور في هذه المرحلة.

قال الإمام الذهبي: «يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالميزات الآتية:

أولاً - دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية.. وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فتساهل التابعون فزجوا في التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحرٍ ونقد. ولا شك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات في التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم^(٣).

ثانياً - ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي ﷺ وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليها طابع الاختصاص. فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبي، والعراقيون عن ابن مسعود وهكذا.

(١) قال محقق ابن تيمية في التفسير (في الهامش رقم ٢ ص/٥٩) وذكر السيوطي أن المحققين من أصحاب الإمام أحمد قالوا: مراده أن الغالب ليس لها إسناد صحاح متصلة، انظر ص/٥٩ وراجع الإتيان للسيوطي ٣٠٤/٢.

(٢) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/٥٨-٥٩ وانظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١٤١/٢.

(٣) انظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص/٥٦ وما بعدها وانظر فجر الإسلام ص/٢٥٢، وانظر منهج الفرقان ٢٠/٢.

ثالثاً- ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب.

رابعاً - كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة وان كان الخلاف قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين^(١).

وعلى قدر التعامل مع هذه القواعد من الأخذ بها أو ببعضها يتحقق الوصول إلى الحقائق التي يتضمنها النص القرآني من علم رباني وعبر وإيحاءات تصلح ان تكون معالم بارزة ودالة على الطريق الذي ينبغي على الأمة أن تسلكه للوصول إلى الغاية التي تاهت عنها بعد ما شغلت عنها...

ولذلك تجد المفسرين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم.. كل قد اجتهد ولم يأل وقد تحرى الحق من روايته التي كان فيها والشعر الذي رابط فيه فكانوا كقومٍ وردوا بحراً فمنهم من غاص في بحر القرآن يبحث عن لآله وأصدافه ومنهم من تردد بين العمق والسطح ومن سبح على الشاطئ ومنهم من أغترف غرفة بيده، وكلهم أراد الحق وأبتغى الصواب وبذل الجهود وقد اختلفت أقوالهم وما توصلوا إليه تبعاً لاختلاف أدواتهم ووسائل استنباطهم للمعنى المقصود من النص، وما توصلوا إليه من تفسير هذه الآيات التي وردت فيما يخص إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين..

وأن من المسلم به إن إفساد بني إسرائيل لم يكن في الأرض مرتين فحسب انه لم ينقطع يوماً على مر الزمن من يوم أن قتل أحد ابني آدم أخاه حقداً وحسداً وظلماً وفساداً^(٢). واستمر وما كان له من فتور على الرغم من بعث الله الأنبياء والمرسلين. فقتلوا الأنبياء المرسلين واستعلوا على الله وكتبه واستكبروا في الأرض بغير الحق وعصوا

(١) راجع التفسير والمفسرون للذهبي ١٣٠/١-١٣١ للاستزادة.

(٢) اشارة إلى قوله تعالى: ﴿اتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ المائدة/٢٧ إلى آخر الآيات التي ربط القرآن بينها وبين قتل بني اسرائيل الناس فساداً في الأرض فيقول تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾.

أنبياء الله ورسله رغم أخذ الميثاق منهم بعد ما شفع لهم نبيهم موسى^(١). بأن يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ ويتبعوه والله أعلم حيث يجعل رسالته.. والله عليم بالمفسدين الذين شاءت إرادة الله أن يكون لهم بسبب إفسادهم - عقوبتان^(٢) في قضاء الله تعالى وفي قدره..

أحدهما: هذه عندما يفسدون في الأرض مرتين فيبعث الله عليهم - عقب كل مرة - من يجوس خلال الديار ويدخل عليهم المسجد ويسوء وجوههم ويتبر كل ما علوه تنبيراً.

والثانية: دائمة ممتدة إلى يوم القيامة فيبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب. فان الله تعالى قدر ان يجعل على بني إسرائيل قانونين للعقوبة^(٣)..

الأول - على يد عباد له صالحين، والآخر: على يد غيرهم، فالأولون يبعثهم عقب أكبر افسادين، والآخرين يبعثهم عليهم كل حين، يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة. فقانون عقابهم موجود وحتمية وقوعه كائنة ولذلك عبر القرآن عن هذه القضية بأدقّ تعبير فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأْذَنُ رَبُّكَ لِيُبعِثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف/١٦٧.

وفي هذه الآية وما فيها من الإعجاز. والذي يهمننا هنا هي كلمة «تأذن» والتي تعني الإعلام والإعلان بحتمية البعث عليهم، فإذا كان ربك هو الذي تعهد بان يبعث عليهم - إلى يوم القيامة - من يسومهم سوء العذاب فمن يملك لهم من دون الله ولياً أو نصيراً، وتلك سنة الله لن تجد لها تبديلاً. بل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ الإسراء/٧٧. ولعل سؤالاً يلوح يحتاج إلى إجابة بوضوح فيما يخص إختلاف المفسرين حول إفساد بني إسرائيل المذكور في سورة الإسراء والتي نزلت بمكة.

لماذا لم يبين النبي ﷺ هذين الإفسادين ومن هم المبعوثون عليهم؟ ولماذا لم تتفق أقوال الصحابة في هذه القضية؟. وقد زادت شقة الخلاف عند التابعين وقد سألوا أهل

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

(٢) انظر المطلب الثاني من المبحث الأول في الفصل الرابع «بعثنا وليبعثن قانوني عقوبة».

(٣) انظر الكلام عن هذين القانونين في الفصول القادمة.

الكتاب عن أخبارهم؟ ولماذا تضاربت الأقوال واختلفت إختلافاً كثيراً عند من جاء بعدهم وذي كتب التفسير والتاريخ تعج بالأخبار المتناقضة عن هذين الإفسادين حتى لا يصدر عنها القاريء لها إلا وقد إختلط الأمر عليه وزيد في حيرته.

لماذا هذا الإختلاف؟ أهى قضية في القرآن من القضايا التي استأثر الله بعلمها كقضية الروح مثلاً. فلا ينالنا من العلم فيها الا قليلاً؟..

أم أنها قضية لم يبينها النبي ﷺ وهو الذي كان يأخذ الشهادة من الناس أمام الله في كل وقت بقوله: (ألا هل بلغت) فيقول الناس (بلى) فيقول (اللهم فاشهد). أم أن العربية لم تسعف أساطينها؟ وقد نزل القرآن بها فقال تعالى ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ يوسف/٣.

أم قعد بهم الاجتهاد والسعي عن إدراك وبلوغ المرام وهم الذين نشروا هدي هذا الدين في الأرض حتى اجتاز المشرقين، وأوصلوه الى من سكن الآفاق. وأودعوا مكاتب التاريخ بالذخائر والنفائس حتى لم يجد الحاقدون شيئاً يظهرون به سواد قلوبهم إلا أن يصبغوا مياه الأنهار بمداها^(١).

أم أن التاريخ وقف عاجزاً عن أن يخبرهم عن إفساد بني إسرائيل في الأرض؟. التاريخ الذي يكاد لم يخبر عن شيء كما أخبر عن إفساد بني إسرائيل في الأرض على مدار فصوله؟.

نعم إنه الباب الذي دخله المفسرون وهم يطلبون فهم هذه الآيات التي أخبرهم عن مرحلة فريدة من مراحل إفساد بني إسرائيل. فسألوا من أسلم منهم فأخبروهم عمن كفر وأفسد من أسلافهم.

ومهما يكن من أمر فإن إختلاف المفسرين ينحصر في قضيتين:

الأولى: هي تحديد هذين الإفسادين ووقت وقوعهما.

الثانية: هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد منهما.

(١) إشارة إلى ما فعله التتار حينما غزو بغداد فألقوا الكتب في نهر دجله وقد تغير لون الماء بمداها.

أما عن القضية الأولى فقد اختلف المفسرون في تحديد هذين الإفسادين غير أنهم إتفقوا على أنهما وقعا قبل الإسلام وقبل نزول القرآن.. وأما عن القضية الثانية فقد اختلفوا في هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد إختلافاً كبيراً.. قلت..

إنه إن كان ولا بد من حصر هذا الإختلاف، فبعد الدراسة المستفيضة والمتابعة الكثيرة وجدت بفضل الله تعالى إن المسألة لاتعدو أكثر من إنقسام العلماء إلى فريقين ولكل فريق قول أعتمده على ما ترجح عنده من أدلة توصل بها إلى ما قال..

الفريق الأول:

قالوا أن هذين الإفسادين اللذين ذكرتهما سورة بني إسرائيل إنما وقعا منهم قبل الإسلام وقبل نزول القرآن.. وهو ما قال به أكثر المفسرين - رحمهم الله -. غير أنهم اختلفوا في تحديد هذين الإفسادين وفي هوية المبعوثين عليهم عقب كل إفساد إختلافاً كبيراً.. وسنعرض تفاصيل هذا القول وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها ونسقط ما ضعف وبأن شذوذه من أدلتهم..

الفريق الثاني:

قالوا إن هذين الإفسادين إنما وقعت العقوبة على الأول منهما في الإسلام وعلى يد النبي ﷺ وأصحابه الذين إستحقوا شرف الإنتساب إليه في - عباداً لنا -.. والإفساد الثاني سيكون منهم مستقبلاً وستكون العقوبة أيضاً على يد عباد يبعثهم الله ليسووا وجوه اليهود وليدخلوا المسجد كما دخله سلفهم أول مرة.. ولكن لن يكتفوا هذه المرة بالجوس وإنما سيتبروا ما علاه اليهود.. تبيراً.. وبهذا قال بعض العلماء المحدثين الذين تعرضوا لتفسير هذه الآيات.. وسنعرض تفاصيل هذا القول أيضاً وأصحابه الذين قالوا به وأدلتهم وما ترجح منها عندهم..



الفصل الثالث

إفسادا بني إسرائيل عند المفسرين

المبحث الأول

القضاء إلى بني إسرائيل في الكتاب بالإفساد والعلو

المطلب الأول:

معنى القضاء والكتاب في قوله تعالى:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾

عند علماء اللغة والتفسير

المطلب الثاني:

معنى الإفساد في قوله تعالى:

﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾

عند علماء اللغة والتفسير

المطلب الثالث:

معنى العلو في قوله تعالى:

﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾

عند علماء اللغة والتفسير

المبحث الأول

القضاء إلى بني إسرائيل في الكتاب بالإفساد والعلو

المطلب الأول

معنى القضاء والكتاب في قوله تعالى:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾

عند علماء اللغة والتفسير

إن عدم الارتقاء إلى المستوى المطلوب في التعامل مع التعبير القرآني سواء من خلال تدبره أو دراسته أو - ربما - معاشته كذلك يؤدي إلى عدم إعطاء تصور واضح عن مرامي وأهداف العبارة القرآنية والتي أريد لها أن تكون مادة حية للأجيال سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾... تبعث من كان ميتاً.. ﴿أفمن كان ميتاً فأحييناه﴾.

وإن فيها وحيأ يهدي ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾.

لا ينفع معه إلا المكث بقراءته ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾. على مهل^(١) ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ من أجل الوصول إلى فهم أعمق وامتثال أشمل وعمل أكمل..

لذا آثرت أن أسير مع النص القرآني خطوة خطوة.. لكي أكشف عنه الستائر التي ألقيت عليه في القرون الأولى. من أخبار أهل الكتاب.. ولأجرد النص منها كي يبدو هكذا كما (أنزل)..

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٨/٣.

ولنتعامل معه اليوم وكأنه اليوم (نزل)..

وذلك - حسب ظني - من الضرورة بمكان.. لأن ألفاظ التعبير القرآني لم تعد تؤثر معانيها ذلك التأثير المرجو منها بسبب انكماش المعنى في حيز الماضي وفقدان أبعاد إيحائها لكثرة ما تجاذبتها الأقاويل وما تراكم عليها من تأويل بعيد عن الواقع.. فسأمر على كل لفظ أفسره تفسيراً مجرداً أولاً.. ومستقصياً أقوال المفسرين فيه ثانياً... حتى يتبين لنا ما فيه من الحق والعلم والفهم جامعاً تلك المعطيات القرآنية لأجعلها مشاعل على الطريق...

أولاً - معنى القضاء الوارد في قوله تعالى:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾

* القضاء عند أهل اللغة:

جاء في لسان العرب إن أصل «قضينا - قضى» والقضاء - الحكم وقضى عليه، يقضي قضاء وقضية..

* قال أبو بكر: قال أهل الحجاز - القاضي معناه في اللغة.. القاطع للأمور.. المحكمُ بها، يقال قضى يقضي قضاء.. فهو قاضٍ.. إذا حكم وفصل.. وقضاء الشيء.. إحكامه وإمضاؤه.. والفراغ منه.. فيكون بمعنى الخلق.. * ومنه القضاء المقرون بالقدر..

والمراد بالقدر: التقدير..

وبالقضاء: الخلق.. كقوله تعالى: ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ فصلت/ ١٢ أي خلقهن.. فالقضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر لان أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر. والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء.. فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه..

* وقضى الشيء قضاء.. فقد صنعه وقدره ومنه قوله: ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ أي خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعن وأحكم خلقهن - في يومين..

* وكذلك القضاء بمعنى العمل.. كقوله تعالى: ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ طه/٧٢ -
أي فاعمل ما أنت عامل..

* والقضاء بمعنى - الحتم - كقوله تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾
الإسراء/٢٣ - أي أمر ربك وحتم وهو أمر قاطع حتم^(١).
يقول الراغب الأصفهاني: «قضينا - في اللغة من القضاء». وهو «فصل الأمر قولاً
كان أو فعلاً».

وكل واحد منهما على وجهين.. إما إلهي أو بشري..

أ - فصل الأمر الإلهي - قولاً وفعلاً:

(١) قولاً.. كقوله تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ الإسراء/٢٣.
أي أمر بذلك.

(٢) فعلاً.. كقوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون
بشيء﴾ غافر/٢٠ أي يجعل الحق واقعاً بالفعل. بينما آلهتهم لا يمكنون هذا..
ب - فصل الأمر البشري = قولاً وفعلاً:

(١) قولاً.. نحو «قضى القاضي بكذا» - أي حكم القاضي لأن حكمه بالقول.
(٢) فعلاً.. كقوله تعالى: ﴿فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله﴾ البقرة/٢٠٠ -
أي إذا فعلتم شعائركم وانتهيتم - فاذكروا الله..

* قيل... ويحتل القضاء بالقول والفعل جميعاً.. كقوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى
نحبه ومنهم من ينتظر﴾ الأحزاب/٢٣. أي كأنه فصل أمره المختص به من دنياه.. فقال
وفعل ثم قال.. «والقضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقديرين..».
فالقدر.. هو التقدير.

والقضاء.. هو الفصل والقطع^(٢).

(١) لسان العرب لابن منظور ١١٢/٣ بيروت.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني ص ٤٠٦، ط/دار المعرفة - بيروت.

ثم يضيف «وقد ذكر العلماء أن القدر بمنزلة المعد»^(١) للكيل والقضاء بمنزلة الكيل..

* وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنه لما أراد الفرار من الطاعون بالشام.. أتفرُّ من القضاء؟ قال عمر: أفرُّ من قضاء الله إلى قدر الله.. تنبيهاً إلى أن القدر ما لم يكن قضاءً فمرجواً أن يدفعه الله سبحانه.. فإذا قضى فلا مدفع له..

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ مريم/٢١.. وقوله: ﴿وَكَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ مريم/٧١ و: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ هود/٤٤ - أي فصل - تنبيهاً إلى أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه..

* وقوله: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ أي إذا قطع بأمر فلا بد أن يكون كما قطع.. أي كما قضى..^(٢) وذكر ابن قتيبة أن «أصل قضى.. حتم» كقوله تعالى: ﴿فِيْمَسْكَ الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ الزمر/٤٢.. أي حتمه عليها..

ثم يصير الحتم بمعان.. كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ رَبِّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الإسراء/٢٣ - أي «أمر» لأنه لما أمر حتم الأمر.

* وقوله تعالى: ﴿وَقُضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الإسراء/٤.. أي «أعلمناهم» لأنه لما أخبرهم أنهم سيفسدون في الأرض حتم بوقوع الفعل الذي أخبرهم به... وقيل قضى قضاؤك.. أي فرغ من أمرك^(٣).

* وجاء في معنى القضاء في فتح الباري قوله: ﴿وَقُضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أخبرناهم أنهم سيفسدون ثم قال.. والقضاء على وجوه.. استوعبها إسماعيل بن أحمد النيسابوري في كتاب الوجوه والنظائر فقال:

(لفظة «قضى» في الكتاب العزيز جاءت على خمسة عشر وجهاً:

(١) المطلب المُعدّ - أي المهيأ..

(٢) مفردات الراغب ص ٤٠٧.

(٣) انظر تأويل مشكل القرآن. - لابن قتيبة ص ٤٤١ ط ٣ - بيروت.

- الفراغ ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ -
 - والأمر ﴿إذا قضى أمراً﴾ -
 - والأجل ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ -
 - والفصل ﴿لقضى الأمر بيني وبينكم﴾ -
 - والمضى ﴿ليقضى الله أمراً كان مفعولاً﴾ -
 - والهلاك ﴿لقضى إليهم أجلهم﴾ -
 - والوجوب ﴿لما قضى الأمر﴾ -
 - والإبرام ﴿في نفس يعقوب قضاها﴾ -
 - والإعلام ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ -
 - والوصية ﴿وقضى بك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ -
 - والموت ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ -
 - والنزول ﴿فلما قضينا عليه الموت﴾ -
 - والخلق ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ -
 - والفعل ﴿كلا لما يقضى ما أمره﴾ يعني - حقاً لم يفعل -
 - والعهد ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ -
- فهذه خمسة عشر وجهاً في معنى «قضى»^(١).

ثم قال: «وقال الأزهري: القضاء مرجعه إلى انقطاع الشيء وتماه.. فكل ما احكم عمله أو ختم أو أكمل أو وجب أو ألهم أو نفذ أو مضى فقد قضى.. وقال في قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي أعلمناهم علماً قاطعاً»^(٢).

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري - كتاب التفسير ٤٩٥/٨.

(٢) المصدر السابق ٤٩٧/٨ وانظر الوجوه والنظائر. هارون بن موسى ص/٣٢٦ وما بعدها.

* القضاء عند علماء التفسير

اختلف المفسرون في معنى القضاء الوارد في قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين﴾ الإسراء/٤.

إلى فريقين اثنين:-

الفريق الأول: قالوا: إن معنى القضاء في قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي أوحينا إليهم وأخبرناهم وأعلمناهم أنهم سيفسدون... وبهذا قال جمهور المفسرين.. منهم - الإمام الطبري حيث قال في تفسير هذه الآية «فتأويل الكلام في هذا الموضع: وفرغ ربك إلى بني إسرائيل فيما أنزل من كتابه على موسى - عليه السلام - بإعلامه إياهم وإخباره لهم ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾».

* وقال: وعن ابن عباس قال: وقضينا إلى بني إسرائيل.. قال هو قضاء قضى عليهم..

* وقال: وقال قتادة قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ قضاء قضاه على القوم كما تسمعون..

* ثم كان الإمام الطبري يرد على هذين القولين لابن عباس وقتادة فيقول: «وان كان الذي اخترناه من التأويل فيه أشبه بالصواب لإجماع القراء على قراءة قوله تعالى «لتفسدن» بالتاء دون الياء.. ولو كان معنى الكلام «وقضينا عليهم في الكتاب»^(١) لكانت القراءة بالياء أولى منها بالتاء، ولكن معناهما كان أعلمناهم وأخبرناهم وقلنا لهم كانت بالتاء أشبه وأولى للمخاطبة..^(٢)».

* ويقول الإمام الرازي: «فقوله ﴿وقضينا﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم.. ولفظ «إلى» صلة للإيحاء.. لأن معنى ﴿قضينا﴾ أوحينا إليهم كذا»^(٣).

(١) يعني التوراة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/١٥ قلت كأن هذا إقرار من الطبري بأن المعنيين يفسادهم المخاطبون في عصر النبي ﷺ.

(٣) التفسير الكبير - للرازي ١٥٥/١٩.

* وأورد القرطبي «ومعنى ﴿قضينا﴾ أعلمنا وأخبرنا.. قاله ابن عباس»^(١).

ويحصر الإمام ابن الجوزي معنى القضاء في قولين فيقول: «فيه قولان..

أحدهما - أخبرناهم - رواه الضحاك وابن عباس.

الثاني - قضينا عليهم - رواه العوفي عن ابن عباس - أيضاً. وبه قال قتادة.

ثم قال: فعلى الأول تكون «إلى» على أصلها وعلى الثاني تكون «إلى» بمعنى

«على» ويكون الكتاب: الذكر الأول^(٢).

* ويفصل الإمام الثعالبي القول في هذه المسألة ويزيل اللبس في هذه القضية فيقول:

قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل...﴾.

قالت فرقة.. «قضينا معناه في أم الكتاب».

وإنما يُلبس في هذا المكان «تعدية قضينا بـ إلى».

ويقول.. «وتلخيص المعنى عندي إن هذا الأمر هو ما قضاه الله عز وجل في «أم

الكتاب» على بني إسرائيل.. والزمهم إياه ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى..

فلما أراد هنا الإعلام لنا بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل ﴿قضينا﴾ دالة على النفوذ في أم

الكتاب وقرن بها «إلى» دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل..

والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ.. ولهذا فسر ابن عباس مرة بأن قال:

﴿قضينا إلى بني إسرائيل﴾ معناه «أعلمناهم» وقال مرة «قضينا عليهم»^(٣).

* ولعل من أيد ما ذهب إليه الإمام الثعالبي العلامة الآلوسي حين قال: «وصرح

غير واحد بتضمن القضاء معنى الإيحاء، ولهذا عدّي بـ «إلى».. والوحي إليهم

وإعلامهم ولو بالواسطة»^(٤).

* ويكاد الإمام الشوكاني يحصر معنى ﴿قضينا﴾ في «أوحينا» حينما يجعل - «إلى»

دلالة عليه فيقول:-

(١) الجامع لاحكام القرآن - للقرطبي ٢١٤/١٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي ٧/٥.

(٣) جواهر الحسان في تفسير القرآن - للإمام الثعالبي ٣٣٠/٢.

(٤) روح المعاني للآلوسي ١٦/١٥.

«أي أعلمنا وأخبرنا أو حكمنا وأتمننا.. وأصل القضاء الأحكام للشيء والفراغ منه.. ثم يقول - وقيل «أوحينا» ويدل عليه قوله تعالى ﴿إلى بني إسرائيل﴾. ثم يعلل ذلك بقوله.. ولو كان بمعنى - الإعلام والإخبار - لقال قضينا بني إسرائيل أي أخبرنا بني إسرائيل.

ولو كان بمعنى - حكمنا - لقال «على بني إسرائيل».
ولو كان بمعنى - أتمننا - لقال «لبنى إسرائيل»^(١).

ولكن حينما قال «إلى بني إسرائيل» يعني «أوحينا إلى بني إسرائيل»...

الفريق الثاني - يقولون: إن «قضينا» معناها «حكمنا» وقد قال بهذا الإمام الطبري على أحد قوليهِ - كما سبق - عن ابن عباس أنه قال: «هو قضاء قضى عليهم.. عن قتادة قوله ﴿قضينا إلى بني إسرائيل﴾ قضاء قضاه على القوم...»^(٢).
وهو قول للقرطبي عن قتادة قال: ﴿قضينا﴾ يعني «حكمنا» وأصل القضاء «الأحكام للشيء والفراغ منه».

ثم قال: «وعلى قول قتادة يكون «إلى» بمعنى «على» أي قضينا عليهم وحكمنا» ثم قال «وقاله ابن عباس أيضاً»^(٣).

* وإلى هذا ذهب الإمام ابن الجوزي أيضاً^(٤).

* وعلى هذا فإن المفسرين - كما رأينا - أوردوا قولين في معنى القضاء رغم أن بعضهم قد يرى القولين.. أي أنه قد يكون المقصود أن قضينا معناه أوحينا وقد يكون المقصود حكمنا.. كما قال بذلك الحبر ابن عباس وبه قال ابن الجوزي والآلوسي^(٥) وغيرهم كما أوضحنا..

(١) فتح القدير - للشوكاني ٣/٣٠١ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٦٥ وانظر ظلال القرآن - سيد قطب ١٤/١٥ وصفوة التفاسير ٢/١٥٢.

(٢) انظر جامع البيان - للإمام الطبري ١٥/١٦.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي ١٠/٢١٤.

(٤) انظر زاد المسير في علم التفسير - لابن الجوزي ٥/٧.

(٥) انظر روح المعاني ١٥/١٦.

* ولعل مما تجدر الإشارة إليه.. إن لفظ القضاء له علاقة وثيقة بأغلب المسائل الداخلة في بحثنا هذا وذلك على - ما يبدو - لشموله على عدة معان بل - ربما - لا تجد نظيراً له يحمل هذا الكم من المعاني.. وذلك ملحوظ من الوجوه التي استوعبها إسماعيل بن أحمد النيسابوري في كتابه الوجوه والنظائر والذي أورد شيئاً منها العسقلاني في فتح الباري على شرح البخاري..

ولهذا سوف يرافق لفظ القضاء تفسيرنا لأغلب المفردات القرآنية كالكتاب والإفساد والعلو والوعد.. وغيرها مما قد يظن البعض تكراراً وإنما هو زيادة في المعنى في كل موضع.. وفي هذا يقول ابن عاشور «فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانٍ من المعاني المتعددة التي يودعها البلغاء في كلامهم.. إذ انه أودع من المعاني كل ما يحتاج إليه السامعون إلى علمه وكل ماله حظ في البلاغة...»^(١).

* توحيد الأقوال وإبراز الراجح منها:

اعتماداً على ما تقدم ذكره من أقوال المفسرين وأصحاب اللغة في معنى القضاء تبرز لنا عدة مسائل...

المسألة الأولى:

إن القضاء في قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ هو قضاء الهي دون شك.. وقد أضيف إلى الضمير (نا) والذي يعود على الله سبحانه من باب التعظيم فهو إذن ليس قضاء بشرياً.

المسألة الثانية:

انطلاقاً مما قاله الراغب آنفاء، نسأل.. هل كان القضاء الوارد في قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ قضاءً بالقول أم بالفعل أم بكليهما معاً ؟ ...

* فلو كان بالقول الذي هو الأخبار لقال: «وقضينا بني إسرائيل» أي أخبرنا بني إسرائيل^(٢)..

(١) انظر ما قاله ابن عاشور في مقدمة تفسيره حول هذا المعنى ٩٣/١.

(٢) راجع كلام الشوكاني في فتح القدير ٢٠١/٣.

* ولو كان القضاء بالفعل لقال: «وقضينا على بني إسرائيل» أي حتمنا عليهم، أما حين قال «وقضينا إلى بني إسرائيل» فيكون المراد - والله اعلم - أن القضاء يشمل كلا المعنيين.. أي «فصل الأمر الإلهي قولاً وفعلاً».

فالأول - «فصل الأمر الإلهي قولاً» - إن الله تعالى أوحى إليهم عن طريق نبيهم وكتابه الذي هو التوراة وهذا هو الإعلام والإخبار الذي قال به المفسرون.

والثاني - «فصل الأمر الإلهي فعلاً» أي أنهم سيكون منهم الإفساد واقعاً حتماً كما قضى الله عليهم وقد فهم هذا من صيغة القسم التي قال عنها المفسرون من أن «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض.. ولتعلن...». قد جرت مجرى القسم.. وهو الموضع الوحيد في القرآن كله على الرغم من ورود كلمة «قضينا» كثيراً في آيات القرآن. وفي كل موضع لها معناها المناسب لكن هنا في هذه الآية فقط جاءت في معنى القسم..

* فقد جوز الزمخشري أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم في هذه الآية فيكون «قضينا» قسم و«لتفسدن» جواباً له.. كأنه قال «وأقسمنا لتفسدن»^(١).

* ويقول الخازن البغدادي واللام في «لتفسدن» لام القسم وتقديره «والله لتفسدن في الأرض»^(٢).

* وكذلك جوز أبو حيان هذا فقال: «ويجوز أن يكون «قضينا» أجري مجرى القسم و«لتفسدن» جوابه كقولهم «قضاء الله لأقوم»^(٣).

* ويزيد الإمام الألوسي هذه المسألة توضيحاً فيقول: «لتفسدن في الأرض» جواب قسم محذوف.. وحذف متعلق القضاء أيضاً للعلم به.. والتقدير «وقضينا إلى بني إسرائيل بإفسادهم وعلوهم والله لتفسدن» ثم يضيف: «ويكون هذا تأكيداً لتعلق القضاء.. ويجوز جعله جواب (قضين) بإجراء القضاء مجرى القسم فيتلقي بما يتلقى به

(١) انظر الكشاف - للزمخشري ٦٤٩/٢.

(٢) تفسير الخازن - لعلاء الدين البغدادي ١٥/.

(٣) انظر البحر المحيط - لأبي حيان ٨/٦.

نحو «قضاء الله لأفعلن كذا»^(١).

* وقال الجمل في الفتوحات: «إن - قضينا - ضمن معنى القسم ومنه قولهم قضى الله لأفعلن.. فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم.. فيتلقيان بما يتلقى به القسم»^(٢). وعلى ما تقدم نجد إن المفسرين على اختلافهم الظاهري فهم متفقون ضمناً على معنى القضاء.

فقول من قال إن «قضينا - أوحينا» بنى على أساس أن هذا من باب فصل الأمر الإلهي قولاً.. وهذا ما قال به الطبري والرازي والقرطبي وابن الجوزي في أحد قوليه من رواية ابن عباس والآلوسي^(٣) وغيرهم.

وكذلك قول من قال إن «قضينا - حكماً» على أساس فصل الأمر الإلهي فعلاً... وهذا ما قال به الطبري في قوله الثاني من رواية قتادة وما أثبتته ابن الجوزي أيضاً في قوله الثاني من رواية ابن عباس.. وما بينه الثعالبي موضحاً السبب الذي جعل ابن عباس يقول مرة «أوحينا» ومرة «حتمنا» كما قال ابن قتيبة^(٤).

وعلى هذا فلا خلاف حقيقي بين المفسرين إذ أن اللفظ مشتمل لكلا المعنيين.. والله أعلم.

ثانياً: معنى «الكتاب» في قوله تعالى: «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب».

إن مما لا خلاف فيه عند جمهور المفسرين إن «الكتاب» المذكور في قوله تعالى: «وآتينا موسى الكتاب» الإسرائي/٢ هو «التوراة» وكذلك كل الآيات التي جاءت بإيتاء موسى الكتاب في القرآن كآية «وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلمهم يهتدون» البقرة/٥٣.

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٦/١٥.

(٢) انظر الفتوحات الإلهية للجمل ٦١٤/٢.

(٣) انظر الطبري ١٦/١٥، التفسير الكبير للرازي ١٥٥/١٩، تفسير القرطبي ٢١٤/١٠، زاد المسير لابن الجوزي ٧/٥، روح المعاني للآلوسي ١٦/١٥.

(٤) تفسير الطبري ١٦/١٥، تفسير زاد المسير لابن الجوزي ٧/٥، جواهر الحسان للثعالبي ٢٣٠/٢، انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤٤١.

* وقوله: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء﴾
الأنعام/١٥٤.

* وقوله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ فصلت/٤٥.

وغيرها كثير - فإن اللام في «الكتاب» هنا هي لام العهد بلا خلاف التي تعود
على الكتاب المعهود لموسى وهو التوراة..
أما الكتاب الوارد في قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ الإسراء/٤ فقد
اختلف فيه المفسرون.

* فقال بعضهم: هو «التوراة» جرياً منهم على قاعدة (رد المعنى إلى أقرب
مذكورين)..
وقال بعضهم هو (اللوح المحفوظ) كما سيأتي بيانه..
وقال البعض الآخر هو (الذكر الأول)..
وقال آخرون هو (القرآن).

* وقال غيرهم معناه (الكتب) بصيغة الجمع استناداً لقراءة سعيد بن جبير وأبي
العالية كما أورد القرطبي ذلك -

* وقال آخرون «إن اللام للجنس» كما قال ابن عاشور^(١).

قلت ... وعلى هذا

أولاً - إذا قال بعض المفسرين إن ﴿قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ يعني
«أوحينا إلى بني إسرائيل في الكتاب» عن طريق نبيهم موسى كان المقصود بالكتاب هنا
هو «التوراة».. فهذا صحيح لا ينكره أحد، لأن هذا المعنى مما حمله اللفظ مستندي في
ذلك إلى قاعدة «رد المعنى إلى أقرب المذكورين» وإلى اعتبار معنى «قضينا - في اللغة -
أوحينا» وبذا قال الطبري والسمرقندي وابن كثير. وقول لابن الجوزي عن ابن عباس
والألوسي كذلك في أحد قوليه الذي عن ابن عباس أيضاً^(٢).

(١) انظر تفسير القرطبي ٢١٤/١٠، وانظر تفسير ابن عاشور ٢٩/١٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٠/١٥، والسمرقندي ٢٨٩، وابن كثير ٢٥/٣، وابن الجوزي ٧/٥، والألوسي ١٦/١٥.

ثانياً- وكذلك قال آخرون إن معنى «قضيّنا إلى بني إسرائيل» أي «حكّمنا وقضيّنا على بني إسرائيل» فكذلك هذا المعنى صحيح، لأنه أيضاً مما يحمله اللفظ... وهذا عند من قال إن معنى الكتاب في قوله: «وقضيّنا إلى بني إسرائيل في الكتاب» إنما هو «اللوّح المحفوظ» كالقرطبي والآلوسي في أحد أقواله وابن الجوزي في القول الثاني له عن ابن عباس وبه قال القاسمي كذلك^(١).

ثالثاً- وكذلك إذا قال المفسرون إن «قضيّنا» معناها «أخبرنا وبلغنا» باعتبار أن «الكتاب» في قوله «وقضيّنا إلى بني إسرائيل في الكتاب» إنما هو بعض كتب بني إسرائيل كما بين ذلك ابن عاشور بقوله: «ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية.. فتعريف «الكتاب» تعريف الجنس وليس تعريف العهد الذكري.. إذ ليس هو الكتاب المذكور آنفاً في قوله «وآتيناه موسى الكتاب»، لأنه لما أظهر اسم الكتاب اشعر بأنه كتاب آخر من كتبهم، وهو الأسفار الخمسة المسماة بكتب الأنبياء: أشعيا و أرميا وحزقيال و دانيال، وهي في الدرجة الثانية من التوراة وكذلك كتاب ملاخي»^(٢). وقال في موضع آخر «ويجوز أن يراد بالكتاب التوراة وكتب الأنبياء ولذلك أيضاً وقع بالإظهار دون الإظهار»^(٣).

فهذا صحيح كذلك لأن كلا المعنيين مما حملهما كلا اللفظين في القرآن.. رابعاً- وكذلك نرى أن من قال إن معنى الكتاب في قوله تعالى «وقضيّنا إلى بني إسرائيل في الكتاب» هو «الكتب»^(٤) بصيغة الجمع على قراءة سعيد بن جبير وأبي العالية... وعلى أساس أن «الكتاب أشمل من الكتب» كما روي ذلك عن ابن عباس^(٥) «الكتاب أكثر من الكتب» ويكون القرآن داخلاً فيها في الحالتين حالة ورود القراءة

(١) انظر القرطبي ٢١٤/١٠، والآلوسي ١٦/١٥، وابن الجوزي ٧/٥، وتفسير القاسمي ص ٣٩٠٣.

(٢) تفسير ابن عاشور ٢٨/١٥-٢٩، وانظر الكتاب المقدس ٨٢٤-١٠٤.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) انظر القرطبي ٢١٤/١٠.

(٥) أورده ابن عاشور في تفسيره ٢٩/١٥.

بصيغة الجمع أولاً وحالة شمول لفظ الكتاب الكتب السماوية ثانياً، فضلاً عن أن القرآن إنما هو الكتاب المهيمن على كل الكتب التي قبله والمصدق لها كذلك وقد فصل فيه كل شيء تفصيلاً..

مناقشة المفسرين:

لقد بين الإمام الثعالبي هذا المعنى حين قال في تفسيره لهذه الآية.. (قوله تعالى: وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب.. قالت فرقة: قضينا - معناه في «أم الكتاب». وإنما يلبس في هذا المكان - تعدية قضينا بـ - إلى -).

ويقول موضحاً «وتلخيص المعنى عندي أن هذا الأمر هو ما قضاه الله عز وجل في «أم الكتاب» على بني إسرائيل.. والزعم إياه قضاءً وقدرًا... ثم أخبرهم به في «التوراة» على لسان موسى - وحياً وإعلاماً - فلما أراد هنا - في القرآن - الإعلام لنا بالأمرين جميعاً [تقديره لهم بالإفساد مكتوب في اللوح المحفوظ وإخبارهم في التوراة وحياً وإعلاماً] في إيجاز جعل «قضينا» دالة على النفوذ في أم الكتاب وقرن بها - إلى - دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل [في التوراة]...»

ثم قال: «والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ.. ولهذا فسّر ابن عباس مرة بأن قال (قضينا إلى بني إسرائيل - معناه - أعلمناهم) وقال مرة (قضينا عليهم) القراءة بصيغة الجمع أولاً وحال شمول لفظ الكتاب الكتب السماوية ثانياً، فضلاً عن أن القرآن هو الكتاب»^(١).

وهو هنا رحمه الله قد أزاح الخلاف أولاً.. وجمع بين الأقوال ثانياً.. ولم يجانب الحق في بيان معنى «قضينا» وبيان المقصود من «الكتاب» ثالثاً..

ومما يقوي ما قاله الثعالبي - على قوته - قول ابن عاشور في تفسيره أنه ليس المراد بلفظ «الكتاب» كتاباً واحداً فإن المفرد المعروف بـ - لام الجنس - يراد به المتعدد وقال: وعن ابن عباس: «الكتاب أكثر من الكتب» كما سبق أن بينا..

(١) انظر جواهر الحسان - للثعالبي ٢/٣٣٠.

ثم إن الآلوسي حين أورد عن ابن عباس قوله: ﴿وقضينا إليهم﴾ يعني - أعلمناهم قال: وصرح غير واحد بتضمن القضاء معنى الإيحاء.. ولهذا عدي بـ - إلى - والوحي إليهم إعلامهم ولو بالواسطة^(١).

فمما هي هذه الوساطة يا ترى؟؟؟ التي تم عن طريقها نقل الوحي وإيصال الإعلام بها إلى - بني إسرائيل -؟.

* يقول الإمام الرازي: «ولفظ - إلى - صلة للإيحاء».. ثم بين السبب فيقول: «لأن معنى - قضينا - أوحينا إليهم كذا»^(٢).

ونجده يبين في مقدمة تفسيره لسورة الإسراء في المسألة الأولى إن من حالات «إلى» هي لانتهاء الغاية فيقول: «واعلم أن كلمة - إلى - لانتهاء الغاية، فمدلول قوله ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ أنه وصل إلى حد ذلك المسجد»^(٣).

- إذ إن - إلى - لها حالتان تكون في:

الأولى: انتهاء الغاية الزمانية كقوله: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ البقرة/١٨٧.

والثانية: انتهاء الغاية المكانية كقوله: ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ الإسراء/١^(٤)..

قلت...

فما الذي يمنع أن تكون - إلى - هنا لانتهاء الغاية الإخبارية إلى بني إسرائيل باعتبارها صلة للإيحاء بين النبي ﷺ وبين بني إسرائيل باعتباره - المكلف بتبليغ الوحي - إلى من يراد إيصال التبليغ إليهم كما هو المفهوم من قول الإمام الثعالبي والرازي والآلوسي..؟؟؟

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/١٦.

(٢) انظر تفسير الرازي ٢٠/١٥٥.

(٣) انظر تفسير الرازي ٢٠/١٤٦.

(٤) انظر مغني اللبيب لابن هشام ١/٧٤.

قلت: فعلى هذا - فحين يكون من معاني^(١) «قضينا» أوحينا وأعلمنا^(٢).. وقدرنا وقضينا عليه^(٣). وأخبرناهم وأبلغناهم^(٤) ولو بالواسطة.

وحين يكون من معاني «الكتاب» التوراة^(٥).. واللوح المحفوظ^(٦) والكتب بصيغة الجمع^(٧) وحين تجيء الصيغة الخبرية بتاء المخاطبة^(٨) في «لتفسدن» على القراءة بإجماع الجمهور أولى من ياء الغائب في «لتفسدن» تكون الواسطة كما لمح بعضهم

(١) قلت لا عجب أن يكون اللفظ القرآني - على بساطته أحياناً يحمل في ثنايا تركيبه كل هذه الأسرار وخاصة لو كان صادراً من الله العليم الذي لن تجد أحسن منه حديثاً.. لانه - أي اللفظ - يعمل آنذاك بقانونين قانون الإعجاز القرآني لأنه كلام الله، وقانون ما في هذه اللغة العربية التي نزل هو بها من إعجاز.. لكون اللفظ الواحد حملاً لعدة معان في آن واحد وهي ميزة لا تجدها في غيرها من اللغات. فكل كلمة تأتي حروفها تحمل روح معانيها أو تظهر سمات معانيها على حروفها فكان الكلمة لتأتي وهي تحمل معناها بين ثناها.. فمثلاً كلمة «صرخة» تجد حروفها من الشدة ما يناسب معناها من قوة الصوت في الصيحة العالية على العكس مما في كلمة «همسه» من حروف لينة هادئة تؤدي معنى الصوت الهادئ الخفيف.. وكلمة «حرام» تجدها حين النطق بها شديدة مملوءة رهبة على العكس من كلمة «حلال» تسيل عذوبة وهدوءاً يدعوك إليه.. وقريباً من ذلك ما تجده في المعنى الذي تحمله «إلى» و«اللام» التي تستعمل كلاهما صلة بين غايتين لكن الفارق أن «إلى» تستعمل لغاية أبعد مما تستعمل «اللام» فمثلاً حين تقول «اعط القلم لمحمد» أي لا بد أن محمداً قريب منك نسبياً.. أما إذا قلت «اعط القلم إلى محمد» فلا شك أن محمداً بعيد عنك بعداً زمانياً أو مكانياً لأن ذلك مما يدخل في معاني المفردات القرآنية التي قال عنها الراغب في مفرداته «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم» انظر المفردات (المقدمة).

(٢) انظر الطبري ٢١/١٥، والرازي ١٥٥/١٩، والقرطبي ٢١٤/١٠.

(٣) انظر تفسير الماوردي ٤٢٣/٨، وابن الجوزي ٧/٥.

(٤) ابن الجوزي ٧/٥، والرازي ١٥٥/١٩.

(٥) الطبري ٢٠/١٥، والسمرقندي ٢٨٩.

(٦) القرطبي ٢١٤/١٠، وابن الجوزي ٧/٥.

(٧) الثعالبي ٣٣٠/٢، وابن عاشور ٢٩.

(٨) كما أورد ذلك الطبري ٢١/١٥، وصرح بذلك القرطبي بقوله: «ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد ﷺ. وانظر ٢١٨/١٠.

هي النبي محمد ﷺ عن طريق كتابه المهيمن - القرآن - الذي جاء عن طريقه الخبر إلينا فيكون الحال..إننا قضينا - أوحينا - إلى بني إسرائيل في الكتاب - التوراة - بأننا «قضينا عليهم» في الكتاب «اللوح المحفوظ» حكماً حتماً بالإفساد في الأرض مرتين.. فلما أراد أخبار المخاطبين منهم وقت نزول الآيات في القرآن والأمة كلها كذلك.. استعمل - إلى - التي هي صلة للإيحاء^(١) عن طريق محمد ﷺ «لتفسدن» يا بني إسرائيل في الأرض مرتين.. «ولتعلن علواً كبيراً».

ولهذا قال الإمام الشوكاني: ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار - المباشر - لقال «قضينا بني إسرائيل» أي أخبرنا بني إسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا - لقال «على بني إسرائيل».

ولكن حينما قال.. إلى بني إسرائيل كان المعنى «أوحينا إلى بني إسرائيل»^(٢) والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ.. كما قال الثعالبي رحمه الله.

المطلب الثاني

معنى الإفساد في قوله: «لتفسدن في الأرض».

عند علماء اللغة والتفسير..

إن مجيء لفظة «قضينا» هنا على صيغة القسم كما أوضحنا سابقاً دون أي موضع آخر في القرآن كله له دلالة قوية على أن الإخبار هنا متميز حيث أكد كثير من المفسرين إن «قضينا» هنا جرت مجرى القسم و«لتفسدن» جوابه...

قال أبو حيان: «ويجوز أن يكون «قضينا» أجرى مجرى القسم ولتفسدن جوابه.. أي إن اللام جواب القسم محذوف و«لتفسدن» فعل مضارع مستمر مؤكد بنون التوكيد الثقيلة التي تدخل على الفعل حيث هي مع نون التوكيد الخفيفة يعتبران أصليين

(١) كما بين الرازي ١٥٥/٢٠.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢٠١/٣ وانظر تفسير الخازن ١٥/، وصفوة التفاسير للصابوني ١٥٢/٢.

عند البصريين^(١)...

أما عند الكوفيين فإن الثقيلة هي - أصل - ومعناها - التوكيد - .

قال الخليل: والتوكيد بالثقيلة أبلغ. وهما يختصان بالفعل.. حيث:

أولاً: يؤكد بهما صيغ الأمر مطلقاً كقولك: افعلن ما أقول لك.

ثانياً: لا يؤكد بهما على الماضي مطلقاً.

ثالثاً: وأما المضارع فإن كان:

أ - حالاً لم يؤكد بهما. ب - وإن كان مستقبلاً أكد بهما وجوباً.

كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ إِلَّا لَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ/٥٧﴾ وبصيغة القسم.

وكقوله تعالى: ﴿لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ الإسراء/٤، لأنه جرى مجرى القسم.

وجاء قريباً من الوجوب كقوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الأنفال/٥٨.

فاجتماع لام جواب القسم مع نون التوكيد الثقيلة دلّ على أن «قضى» أجرى

مجرى القسم فتلقى جوابه بما يتلقى القسم جوابه^(٢).

ولقد ذكر الإمام الألوسي هذه المسألة فأكد على أن لتفسدن في الأرض جواب

قسم محذوف. وحذف متعلق القضاء أيضاً للعلم به.. والتقدير وقضينا إلى بني إسرائيل

بإفسادهم وعلوهم والله لتفسدن، ثم قال «ويكون هذا تأكيداً لتعلق القضاء»^(٣).

ولقد أورد الشيخ أسعد التميمي في كتابه رأياً حول اللام في هذه الآية قال فيه:

«والواقع أن المتعمق في الآيات يجد إن المرتين أشارت إليهما آيات الإسراء في علو اليهود

وإفسادهم ثم تدميرهم هما بعد نزول آيات الإسراء. وذلك أن الله يقول: ﴿وقضينا إلى بني

إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾ الآية. واللام في

«لتفسدن» لام الاستقبال والتوكيد. واللام في «ولتعلن» كذلك لام الاستقبال والتوكيد»^(٤).

(١) كما جاء في مغني اللبيب انظر ٣٣٩/٢.

(٢) انظر مغني اللبيب ٣٣٩/٢.

(٣) انظر روح المعاني للألوسي ١٦/١٥.

(٤) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد بيوض التميمي ص ٣٥.

وهذا ما ذهب إليه الخازن من قبل بقوله: «واللام في لتفسدن لام القسم.. وتقديره «والله لتفسدن في الأرض»^(١) وكذلك الجمل في الفتوحات الإلهية حيث قال: «إِنَّ - قضينا - ضُمَّن معنى القسم ومنه قولهم قضى الله لأفعلن... فيجرون القضاء والقدر مجرى القسم.. فيتلقيان بما يتلقى به القسم»^(٢).

ومما تقدّم يتبين أن مجيء لفظ «القضاء» هنا بصيغة القسم التي اقتضت دخول لام جواب القسم ونون التوكيد الثقيلة التي إن دخلت - كما قال النحويون - على الفعل المضارع المستمر فإنها تفيد وقوع الفعل مستقبلاً وجوباً. وقد وردت هذه الصيغة «لتفعلن» في القرآن كثيراً وهي كلها تفيد الإخبار بالوقوع مستقبلاً حتماً،

* منها قوله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ آل عمران/١٨٦. يعني سوف تسمعون مستقبلاً حتماً على جهة التأكيد. ومنه قوله تعالى: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ ص/٨٨. وغيرها كثير.

وإلا لو أراد الإخبار عن الماضي لاستعمل صيغته والتي كثيراً ما جاءت في السور المكية والمدنية وهو يخبر سبحانه عن إفسادهم العريض عبر الزمن الطويل باتجاه الماضي السحيق كما بينا سابقاً^(٣).

معنى قوله تعالى «لتفسدن في الأرض مرتين».

الكثيرون يقرؤون هذه الآية ويعجبون لماذا قال القرآن «مرتين» فإننا لو عددنا إفساد بني إسرائيل لوجدناه لا يُعدّ ولا يحصى.. إذاً لماذا قال القرآن مرتين؟؟؟. المفسرون كلهم قالوا إن المقصود بالمرتين هما أظهر مرتين لإفساد بني إسرائيل. وحين أرادوا أن يبينوا هذين الإفسادين دخلوا في أعماق التاريخ وبحثوا في زواياه عن

(١) انظر تفسير الخازن لعلاء الدين البغدادى ١٥/.

(٢) انظر الفتوحات - للجمل ٦١٤/٢.

(٣) راجع المطلب الثالث في المبحث الأول من هذا الفصل.

أكبر إفسادين لبني إسرائيل فيه فوجدوا أن كل إفساد منهم أكبر من الآخر فحاروا واختلفوا اختلافاً كبيراً.

* - فمن قال إن إفسادهم الأول قتل أرمياء والمبعوث عليهم يختصر. والإفساد الثاني قتل يحيى والمبعوث عليهم الملك لاخت واسمه هيرودس وبهذا قال القرطبي والشوكاني^(١).
غير أن الشوكاني قال إن إفسادهم الأول حين قتلوا أشعياء وليس أرمياء.

* - ومنهم من قال إن المبعوث عليهم في المرة الأولى جالوت الجزري وجنوده وفي المرة الثانية يختصر وبهذا قال الطبري والسمرقندي والآلوسي وتابعهم الجلالان زاعمين إن إفسادهم الأول قتل زكريا وإفسادهم الثاني قتل يحيى^(٢) مع العلم أن من الثابت تاريخياً أن جالوت قبل زكريا بما يقارب تسعة قرون وإن يختصر قبل يحيى كذلك بمئات السنين.

* - أما الإمام الرازي^(٣) فقال إن المبعوث عليهم في الأولى يختصر وفي الثانية قسطنطين^(٤).

* - وابن عاشور يقول إن إفسادهم الأول ما كان مصاحباً لحوادث الأسر البابلي والمبعوث عليهم يختصر أما إفسادهم الثاني ما كان مصاحباً لغزوات الرومانيين لبلاد أورشليم والمبعوث عليهم الملك الروماني طيطوس^(٥).

* - ويصرح ابن كثير إن المبعوث عليهم في المرة الأولى جالوت بعدها ينقل عدة روايات عن ابن جرير يختار بعضها ويعرض عن كثير منها.

(١) انظر القرطبي ٢١٥/١٠ - ٢٢٣/١٠، والشوكاني ٢٠٢/٣، وقریباً منه ما قاله الزمخشري.
(٢) انظر السمرقندي ٢٨٩، والآلوسي ١٧/١٥ - ١٩، وتفسير الجلالين ص ٣٧٢، وانظر تفسير الماوردي ٤٢٣/٨.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٥٥/٢٠ - ١٥٨.

(٤) يعلن الرازي في تفسيره بقوله: «ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام؟ انظر ١٥٩/٢٠».

(٥) تفسير ابن عاشور ٢٩/١٥ - ٣٨. * من الملاحظ أن أغلب المفسرين حين يريدون أن يحددوا الإفسادين فأكثرهم ينظرون إلى أكبر عقوبتين وقعتا عليهم فمن خلال قسوة العقوبة وشدتها يحددون وقت الإفساد كما قال الطبري وابن عاشور هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن البعض منهم يحدده بقتل نبي فقط كزكريا وعيسى أو أشعياء الخ. وليس كل أنواع الإفساد الذي شمل كل جوانب الحياة.

وقد قدمنا القول عن ابن جرير الطبري وما حققناه من رواياته، وقد ترجع لدينا قول قتادة فيما ذهب إليه أن المبعوث عليهم في المرة الأولى جالوت الجزري وفي الثانية يختصر وتركنا جميع الروايات الباقية بعد ما بان ضعفها وقد فصلنا القول في ذلك فارجع إليه إن شئت^(١).

ولعل من الجدير بالذكر أن نبين أن من المفسرين من لم يعول على ما جاء في كتب التفسير في هذا الموضوع وعدّوه غير ذي شأن منهم العلامة ابن كثير في تفسيره حيث يقول: «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً ونحن في غنية عنها والله الحمد»^(٢) وقال في موضع آخر: «ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته»^(٣).

— وكذلك صاحب أضواء البيان لا ينقل شيئاً من ذلك ويقول: «وتركنا بسط قصة الذين سلطوا عليهم في المرتين لأنها أخبار إسرائيلية وهي مشهورة في كتب التفسير والتاريخ والعلم عند الله تعالى»^(٤).

* - وصاحب التفسير الفريد يقول: «وقد كثرت الأقاويل والروايات في الإفسادتين ولا علاقة للنص القرآني بها»^(٥) هكذا قال.

لكننا من خلال العطاءات القرآنية التي سنبينها - نرى غير هذا. إذ أننا ومن خلال العطاءات القرآنية لهذه الآيات وتفسير مفرداتها ودراسة واقع التاريخ نجد أن مرتي الإفساد من بني إسرائيل لم ينتهيا بعد.. لا كما قال المفسرون من أنهما كانا قبل الإسلام. ولمعرفة هذه الحقيقة لا بد من بيان عدة مسائل لا تتضح الصورة إلا ببيانها، وإلا كانت السمات متداخلة والخطوط متشابكة:

(١) سيأتي تفصيل ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣٦٥/٤.

(٤) أضواء البيان - للشنقيطي ٤٠٨/٣.

(٥) التفسير الفريد.

المسألة الأولى:

هي لابد من التفريق بين الإفسادين المقضي بهما على بني إسرائيل وبين الوعد بالعقوبة على هذين الإفسادين، أي أن هناك farkاً بين الإفساد من حيث هو عمل غير صالح متجسد في الابتعاد عن منهج الله وبين الوعد بالعقوبة^(١) وعلى هذا الوعد معلق بظهور الغيب مشروط بحدوث الإفساد فإذا وقع الإفساد منهم فقد حقت العقوبة عليه وإذا لم يكن هناك إفساد فلا عقوبة وذلك ما تقتضيه رحمة الله سبحانه: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ هود/١١٧. وقوله تعالى: ﴿و تلك القرى أهلكناهم - لما ظلموا - وجعلنا لمهلكم موعداً﴾ الكهف/٥٩.

والوعد بالهلاك لقرية أو أمة معلق بظلمها، فإذا ظلمت حق عليها قول ربها.. ولذلك يقول تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول - الوعد بالعذاب - فدمرناها تدميراً﴾ الإسراء/١٦.

فالإفساد إذاً شيء والوعد بالعقوبة شيء آخر وهذا ما تنبه إليه بعض المفسرين. فمثلاً نجد الإمام القرطبي يقول: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي أولى المرتين من إفسادكم ﴿بعثنا عليكم﴾^(٢) بينما القرآن لم يقل «إذا جاءت أولى المرتين» وإنما قال ﴿وعد أولاهما﴾، وكذلك يقول في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ من إفسادكم^(٣) التركيز على كلمة ﴿وعد الآخرة﴾ أي وعد العقوبة على الإفساد الثاني.

* - وكذلك الماوردي في تفسيره فقد قال: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ يعني أول المرتين من إفسادهم ﴿بعثنا﴾. وفي المرة الثانية يقول: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم﴾ يعني وعد المقابلة على إفسادهم في المرة الثانية..^(٤).

(١) راجع ما أوردناه عن معنى الوعد وضوابطه في الفصل الثاني المبحث الثالث المطلب الثاني.

(٢) القرطبي ٢١٥/١٠، وانظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣، وصفوة التفاسير ١٥٢/٢، وانظر زبدة التفسير - للأشقر - ص ٣٦٤.

(٣) تفسير القرطبي ٢١٨/١٠.

(٤) انظر تفسير الماوردي ٨/٤٢٣-٤٢٥.

* - بينما نجد الإمام الرازي يلمح بقوله «فإذا جاء وعد أولاهما» يعني أول المرتين «بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد» - يقول - والمعنى: أنه إذا جاء وعد الفساق في المرة الأولى أرسلنا عليكم^(١).

* - وكذلك الإمام النسفي في تفسيره يقول: «فإذا جاء وعد أولاهما» أي وعد عقاب أولاهما «بعثنا عليكم»^(٢) وبذا قال الإمام ابن الجوزي أيضاً.

* - غير أننا نجد الإمام الآلوسي يزيد المسألة توضيحاً حين يقول «فإذا جاء وعد أولاهما» أي: أول مرتي الإفساد ثم يقول موضحاً: والوعد بمعنى الموعود مراداً به العقاب - كما في البحر-^(٣) وفي الكلام تقدير، أي فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود. وقيل الوعد بمعنى الوعيد. وقيل بمعنى الوعد الذي يراد به الوقت. أي فإذا حان موعد عقاب أولاهما «بعثنا عليكم».

وكذلك في الموضع الثاني يقول: «فإذا جاء وعد» المرة «الآخرة» من مرتي إفسادكم «ليسوؤا» متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه.

«فإذا جاء» هنا مع كونه من تفصيل الجمل في قوله سبحانه «لتفسدن في الأرض مرتين» فالظاهر - فإذا جاء - للدلالة على مجيء وعد عقاب الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم واجتماعهم للدلالة على شدة شكيمتهم في كفران النعم وانهم كلما ازدادوا عدداً وعُدَّةً زادوا عدواناً وعزَّةً إلى أن تكاملت أسباب الثروة والكثرة^(٤).

ويقول ابن الجوزي «فإذا جاء وعد الآخرة» جواب «فإذا» محذوف تقديره: فإذا جاء وعد عقوبة المرة الآخرة من إفسادكم.. بعثناهم ليسوؤا وجوهكم^(٥).

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ١٥٥/٢٠، وانظر صفوة البيان - حسنين محمد مخلوف ص ٣٥٩.

(٢) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل - للنسفي - هامش تفسير الخازن ١٥٣/٣، وانظر زاد المسير لابن الجوزي أيضاً ٩/٥.

(٣) قلت وكذلك قال الراغب في مفرداته انظر ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٤) روح المعاني للآلوسي ١٥/١٦-١٩.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥-١١.

إن هناك farkاً كبيراً إذا بين «مرقي الإفساد» المذكورتين في قوله تعالى ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ وبين «الوعد بالعقوبة» على هذين الإفسادين المذكورين في قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ و﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾.

ولقد وردت إشارات وتصريحات في بعض كتب التفسير تقول إن بعضهم اعتقد بأن الأولى وقعت وأن الثانية لم تقع بعد.

* - كما جاء في «فتح القدير» حيث قال في تفسيره للمرتين: «ويقال: وقعت الأولى ولم تأت الثانية». ويقول في موضع آخر: «ويقول بعض العلماء: إن المرة الثانية هي هذه التي حصلت في هذا العصر...»^(١).

ونحن نعتقد أن ما قاله محمد سليمان الأشقر هو الصحيح والراجح حيث إن العقوبة على الإفساد الأول قد وقعت في زمن النبي ﷺ وعلى يد أصحابه الذين استحقوا شرف النسبة إليه سبحانه وتعالى في ﴿عباداً لنا﴾ كما سنين لاحقاً إن شاء الله تعالى. وإن الثانية مخبوءة لهم بظهر الغيب قد تأذن الله سبحانه وتعالى بها وربما علامتها ستظهر في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لنا ولهم أنه الحق. ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ الإسراء/١٠٨.

المسألة الثانية:

أنه لا بد كذلك من التفريق بين «الإفساد» الوارد ذكره في الآية ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ وبين «العلو» الوارد في قوله تعالى ﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾ فلا يصح الاعتقاد أنهما شيء واحد أو أنهما لا بد أن يكونا متلازمين أبداً وإنما هما مختلفان في المفهوم وإن بدا في الظاهر أنهما شيء واحد. وإلا لما ذكرهما في موضع واحد منفردين. وذلك لأسباب منها:

أولاً: لأن أحدهما أشمل وأعم من الآخر. فقد يكون الإفساد موجوداً دون أن يتخذ طابع العلو والبغي بينما لا يمكن أن يكون هناك علو في الأرض دون أن يصاحبه أو يسبقه إفساد.

(١) انظر زبدة التفسير من فتح القدير لمحمد سليمان الأشقر ص ٣٦٤-٣٦٥.

ثانياً: قد يسبق الإفساد علوً في الأرض - بغير الحق - وإنما هو طغيان وهذا ما يمكن أن يطلق عليه «إفساد فرعوني» - إن صح التعبير - أن يستعلي على الناس ثم يفسد في الأرض وهذا ما نراه واضحاً في كثير من آيات القرآن بشأن فرعون^(١) إذ أنها كثيراً ما تنسب إليه العلو أولاً ثم الإفساد كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ.. أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْطَلِينَ﴾ القصص/٤، وكقوله عن فرعون وملائه ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْإِفْسَادَ﴾ الفجر/١١، ١٢، ١٣. لجعل الإفساد بعد الطغيان.

ثالثاً: أما إذا سبق العلو إفساد في الأرض ومكر السيء فإنه يمكن أن يقال عنه إنه «إفساد يهودي» إذ أنهم دائماً يحرصون على أن ينشروا الإفساد في الأرض ليصلوا إلى حالة الاستعلاء والطغيان على الناس ولذلك نجد أن القرآن حينما أعلمنا بما قضى عليهم وما سيكون منهم قدم الإفساد على العلو فقال ﴿لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ. وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ بيد أننا نجده حين أخبر عن أصحاب الحق قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا إِفْسَادًا﴾ القصص/٨٣.

إذ أن القرآن في طرحه للقضايا والقوانين التي تحكمها تميز عن غيره ويختلف كثيراً فان كل إشارة أو تلميح له أثره في بيان وفهم المراد من النص والعبارة والقرآنية. ولبيان هذه الحقيقة نقول: إن الإفساد معناه - كما بينه علماء اللغة والتفسير - هو التغيير إذ هو من «فَسَدَ» والإفساد خروج الشيء عن الاعتدال - قليلاً كان أو كثيراً - ويزاده الصلاح ويقال «فَسَدَ. إفساداً، وأفسده غيره».

قال الله تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء/٢٢، وقال ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ البقرة/٢٠٥. و﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾^(٢) النمل/٣٤. ولم يصلحوها إذ أفسده وفسده ضد أصلحه و«المفسدة» مصدر الإفساد أو سببه^(٣).

(١) ومن على شاكلته.

(٢) انظر المفردات للراغب ص ٣٧٩.

(٣) انظر منجد الطلاب - فؤاد افرام البستاني ص ٥٥١.

وفي قوله تعالى ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ قال المفسرون: «المراد بالإفساد مخالفة أحكام التوراة»^(١) و«لتفسدن بارتكاب المعاصي»^(٢) ويقول الماوردي: «الإفساد الذي فعلوه قتلهم للناس ظلماً وتغلبهم على أموالهم قهراً وإخراب ديارهم بغياً»^(٣).

«وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل مقيد انه إفساد من جمهورهم بحيث تعد الأمة كلها مفسدة وإن كانت لا تخلو من الصالحين»^(٤). فكل أمرٍ أمر الله به أن يوصل فيقطع كان إفساداً. وكل شيء صدر من الله فعمل به كان إفساداً. والله قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ البقرة/١١١، وقال ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ البقرة/٢٧.

فعهد الله الذي قطعه مع بني إسرائيل أن يؤمنوا بالله ورسله ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ المائدة/٧٠. هكذا بدل أن يؤمنوا بهم ويصدقوهم وينصروهم.. فكان إفساد في الأرض.

بل إن العهد الذي قطعه الله مع موسى وقومه على الإيمان برسول الله محمد ﷺ ونصره واتباع النور الذي سينزل معه. ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. أولئك هم المفلحون﴾ الأعراف/١٥٧. غير أنهم كفروا وما نصروا.

(١) القرطبي ٢١٤/١٠.

(٢) انظر الألوسي ١٧/١٥، والرازي ١٥٥/٢٠.

(٣) تفسير الماوردي ٤٢٣/٨.

(٤) تفسير ابن عاشور ٣٠/١٥.

قلت إن ذلك العهد هم مسؤولون عنه أمام الله وأمام أنبياءه وأمام الناس - ونقضه يشكل إفساداً في الأرض. قال ابن إسحاق: «ثم ذكر ما أخذ الله عليهم، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذ هو جاءهم، وإقرارهم على أنفسهم. فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحُكْمِهِ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾»^(١) آل عمران/٨١.

وحين بعث رسول الله ﷺ وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق وما عهد الله اليهم فيه [قالوا^(٢)] والله ما عهد إلينا في محمد عهد وما أخذ له علينا من ميثاق. فيترل الله فيه ﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة/١٠٠. وقال أبو صلُوبا الفطيوبي لرسول الله ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آياته فتتبعك لها. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ البقرة/٩٩^(٣).

نقضوا العهد وقطعوا الميثاق وكفروا، وصدق الله ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ المائدة/٦١.

هذا من ناحية الإفساد من بني إسرائيل في الأرض. أما العلو في الأرض فسنبحثه في المطلب الثالث إن شاء الله تعالى.

(١) سيرة ابن هشام ١٣١/٢-١٣٢.

(٢) ساقطة من الاصل - فأثبتها.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٢٥/٢.

المطلب الثالث

معنى العلو في قوله تعالى:

﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾

أما العلو فقد قال فيه أهل التفسير أي «يتجبرون ويطغون ويفخرون على الناس»^(١) والعلو العتو على الله والجرأة - وهذا قول ابن عباس^(٢) «ولتستكبرن على الله باجترائكم عليه استكباراً شديداً»^(٣).

* - قال القرطبي في «علواً كبيراً» أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان^(٤).

* - وابن عاشور يقول: «والعلو في قوله تعالى ﴿ولتعلن علواً كبيراً﴾ مجاز في الطغيان والعصيان كقوله ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾. تشبيهاً للتكبر والطغيان بالعلو على الشيء لإمتلاكه تشبيه معقول بحسوس^(٥).

* - أما الألوسي فيقول «لتستكبرن عن طاعة الله تعالى أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحد». وأصل معنى «العلو» الارتفاع وهو ضد السفلى وتجاوز به عن التكبر والاستعلاء على وجه الظلم^(٦).

* - وهذا ما أثبتته الراغب الأصفهاني في مفرداته حيث قال:

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٢) انظر تفسير السمرقندي - لوحة ٢٨٩/م.

(٣) تفسير الإمام الطبري ٢٠/١٥.

(٤) تفسير القرطبي ٢١٤/١٥.

(٥) تفسير ابن عاشور ٣٠/.

(٦) انظر تفسير الألوسي ١٧/١٥.

«علا: العُلُو ضد السفْل.. والعُلُوُّ الارتفاع وقد علا يعلوا علواً وهو عالٍ، وعلى يعلي علا فهو عليٌّ... وقيل إن «علا» يقال في المحمود والمذموم، و«علي» لا يقال إلا في المحمود، قال تعالى: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ القصص/٤ ﴿لَعَالِ فِي الْأَرْضِ أَنَّهُ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ﴾ يونس/٨٣ - ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ المؤمنون/٤٦ - وقال لإبليس: ﴿اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ص/٧٥ - وقد مدح المؤمنين فقال: ﴿لَا يَرِيدُونَ عَلَاً فِي الْأَرْضِ﴾ القصص/٨٣ - وقال: ﴿وَلَتَعْلَنَ عَلَاً كَبِيراً﴾ الإسراء/٤ وقال: ﴿وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعَلَاً﴾ النمل/١٤.

والعليُّ هو الرفيع القدر.. من عَلَيَّ.. وإذا وصف به الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ لقمان/٣٠. و﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ النساء/٣٤. فمعناه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين بل علم العارفين وعلى ذلك يقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأعراف/١٩٠... والاستعلاء قد يكون طلب المذموم، وقد يكون طلب العلا أي الرفعة.. في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ طه/٦٤ يحتمل الأمرين جميعاً^(١). ثم بعد ذلك نقول.. لقد ذكر لفظ «العلو» ومشتقاته [علا يعلو - علواً - واستعلى - استعلاء] - ذكر سبعين مرة في القرآن الكريم موزعة في كثير من سوره لكنه لم يرد بصيغة الذم إلا في ستة عشر موضعاً كلها تعطي معنى التكبر على الله والتعالي الفاجر على أحكامه والبغي في الأرض بغير الحق والاستكبار على الناس ظلماً وعدواناً منها على سبيل المثال...

١/ قوله تعالى: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ القصص/٤.

٢/ وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَى اللَّهِ﴾ الدخان/١٩.

٣/ وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ المؤمنون/٤٦.

والعجب إن في قوله تعالى في سورة الإسراء مخاطباً بني إسرائيل - على جهة الخصوص - بقوله: ﴿لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلَنَ عَلَاً كَبِيراً﴾ الإسراء/٤.

(١) انظر مفردات الراغب ص ٣٤٥.

إن في كل المواضع التي ذكر فيها «العلو» لم يأت فيها موصوفاً بأنه «علواً كبيراً» إلا في سورة الإسراء في موضعين في قوله تعالى: «ولتعلن علواً كبيراً» في صيغة الذم، وفي قوله تعالى: في سورة الإسراء أيضاً «سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً» الإسراء/ ٤٣ في صيغة المدح لعلوه سبحانه، ولم تستعمل في مدح المؤمنين كما قلنا - إلا مرة واحدة حين نفت عنهم حب التعالي والإفساد في الأرض فقال تعالى: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقي» القصص/ ٨٣.

فمما تقدم نجد أن القرآن لم يستعمل لفظ «العلو» إلا عندما أخبر عن التكبر والاستعلاء بجحد الحق ظلماً واستكباراً على أهله في الأرض وحين استعمله في بني إسرائيل قال عنهم «ولتعلن علواً كبيراً» وهذه حالة لم تكن في بني إسرائيل إلا في زماننا هذا.. صحيح أنهم فسدوا وأفسدوا وأن إفسادهم قد اتخذ كل صور الإفساد وأشكاله وحالاته في كل جوانب حياتهم وربما في كل مراحل التاريخ^(١). لكنهم لم يستعلوا على الناس كما استعلوا في زماننا هذا ولم يطغوا الطغيان المادي والبشري كما طغوا اليوم ففي كل مراحل التاريخ من يوم أن كانوا في مصر وعندما أصبحوا تحت وطأة الفراعنة وبعد خروجهم مع نبيهم موسى مروراً بفترة التيه وبعدها عند دخولهم الأرض المقدسة وعند حكم أنبيائهم داود وسليمان وغيرهما وعند قيام دولتيهم يهوذا وإسرائيل وبعد خرابها وتعرضهم لغزوات سنحاريب، ونبوخذ نصر وسبيهم في بابل وغيرها، وتعرضهم لنكبات الرومان وحتى مجيء الإسلام وإذلالهم بالجزية وإجلالهم من أرض الجزيرة.. في كل ذلك التاريخ لم يكن لبني إسرائيل الاستعلاء والطغيان كما كان لهم في هذا الزمن على الرغم من اتساع إفسادهم وشموله جوانب حياتهم كلها عبر أبعاد التاريخ وتقلبات مراحلها.

فماذا يعني هذا؟ سؤال يطرح نفسه.. فإذا كانت الآية قد بينت صراحة أن هناك إفسادين من بني إسرائيل سيكونان في الأرض - على اختلاف في وقتي وقوعهما - فهل سيكون هناك علوان أيضاً؟.

(١) يراجع كتاب المفسدون في الأرض - جرائم اليهود السياسية والاجتماعية عبر التاريخ - ل. س ناجي.

وبعبارة أخرى.. هل أن لفظ «المرتين» في قوله تعالى: ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ ينسحب على «العلو» في قوله تعالى «ولتعلن» أي لتعلن علويين كبيرين فيكون مع كل إفساد علو؟ أم أن العلو واحد في قوله تعالى: «ولتعلن علواً كبيراً» يصاحب أحد الإفسادين كما هو ظاهر الآية حيث لم يقل القرآن «ولتعلن علويين كبيرين»؟؟؟.

ومن خلال نظرة دقيقة إلى ماضي إفساد بني إسرائيل ومقارنته بالإفساد الذي نعاصره اليوم نجد أن في كل إفسادهم الماضي لم تكن لبني إسرائيل دولة فيها استعلاء على الناس بغير الحق.. وما قيل عن فترة حكم داود وسليمان التي يعدها اليهود - الفترة الذهبية - من تاريخهم لم يكن فيها من العلو شيء بمعناه المذموم - كما قدمنا - إن داود وسليمان كان حكمهما كما يحب الله ويرضى حتى قال: ﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾ الأنبياء/ ٧٨ - فلا يصح أن يقال إن حكم داود أو سليمان كان علواً في الأرض.. إن سليمان لم يظلم هدهد... بل لم يؤذ نملة.. وحين طلب من بلقيس أن تسلم قالت ﴿أسلمت مع سليمان﴾ وليس له فلم يكن علو في الأرض إذاً ولا إفساد.. أقول بناءً على ما تقدم نجد...

أولاً - إن مرقي الإفساد شيء وإن الوعد بالعقوبة عليهما شيء آخر..
ثانياً - إن الإفساد في الأرض شيء وإن العلو في الأرض شيء أعم منه وأشمل.
ونستطيع أن نبين هذا في مخطط توضيحي* «للإفساد اليهودي» لنرى كيف ومتى كانت هاتان المرتتان من إفساد بني إسرائيل ومتى كانت العقوبة على الأول منهما ومن هم المبعوثون عليهم فيها وكيف جاسوا خلال الديار ومتى دخلوا المسجد وكيف كانت الكرة لبني إسرائيل عليهم وما هي مقومات هذه الكرة وهل حدثت أم لا وأين العلو منهم في ذلك.. الخ.

يتبين لنا بوضوح من خلال النظر إلى المخطط التوضيحي لمراحل إفساد بني إسرائيل. وأهم الأحداث التي حدثت فيه ومن خلال العطاءات القرآنية التي بينها والتي سنبين الباقي منها، عدة حقائق مهمة أجملها في نقاط..

* انظر المخطط التوضيحي للإفساد اليهودي عبر التاريخ في الملحق رقم ٢/.

١/ - إن مرقى الإفساد لم تحدث كلتاها قبل الإسلام.. وإنما الجزء الأكبر من الإفساد الأول فقط أما الجزء الأخير فقد كان معاصراً للنبي ﷺ.

٢/ - العقوبة على الإفساد الأول حدثت يبعث العباد الذين كانوا من الصحابة بقيادة النبي ﷺ والذي شرفه بنسبته إليه في ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ كما شرفهم في نسبتهم إليه في ﴿عباداً لنا﴾.

٣/ - دخول العباد ديار اليهود^(١) - من بني النضير وقينقاع وقريظة وخيبر فجاسوا خلال ديارهم بعدما أجلوا بعضهم وقتلوا البعض الآخر.

٤/ - دخول العباد المسجد الأقصى الذي تأخر إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مما يوحي بسرّ تأخر ذكره في الآية التي تحدثت في الوعد بالعقوبة على الإفساد الثاني.

٥/ - انقطاع الإفساد اليهودي ودخولهم مرحلة التمزق والضياع بين الأمم ولكن دون أن يقطع دابرهم كما حدث لأهل الكفر من قبل.

٦/ - عودة بني إسرائيل بعد لعق جراحهم وتجميع فلولهم ونشر الإفساد في الأرض ورد الكرة إليهم وإمدادهم بالأموال والأولاد وكثرة النفير.. بعد ردت المسلمين وتخليهم عن مركز القيادة والإمامة.

٧/ - نحن الآن في دور هذه الكرة التي ردت لبني إسرائيل علينا.. وهي مرهونة بعودتنا إلى الله ورجوعنا إلى حالة ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ ليتحقق الوعد الثاني بالعقوبة على إفسادهم الآخر الذي علو فيه - اليوم - علواً كبيراً..

٨/ - بلوغهم حالة العلو الكبير الذي أوصلهم إلى النفوذ في مؤسسات العالم الدولية وتوجيه العالم إلى الإفساد الثاني من خلاله.

(١) «إن هناك farkاً بين كلمتي دار - و-ديار»، فإن الأولى أعم من الثانية حيث أن «دار» تستعمل للأصل أو لعموم المكان وهي مؤنثة ولذلك يقال «تلك الدار» أما الديار فهي القرية أو مجموعة بيوت قليلة يقال عنها «ديار». ولذلك حين أراد أن يخبر عن قريتهم قال «فأصبحوا في ديارهم جائعين» وحين أخبر عن عموم بلدهم قال «فأصبحوا في دارهم جائعين» سيأتي بيان معنى الديار التي لليهود..

٩ / - إن هناك فرقاً كبيراً بين العلو في الأرض والاستكبار فيها إذ أن الاستكبار حالة ترفض الاهتداء بهدي الله وتأتي الانصياع لدين الله أو الاستسلام له والتصديق بما جاء به الرسل.. على الرغم من أن المستكبر قد يظهر الإسلام نفاقاً والإيمان ظاهراً لكنه مع نفسه أو مع شياطينه يقول أني معكم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ وهذا ما كان واضحاً جلياً في موقف^(١) اليهود في المدينة مع رسول الله ﷺ على الرغم من علمهم بأنه الرسول الحق وأنه الذي بشرت به كتبهم استكباراً عن طاعته والإسلام لله سبحانه على يديه..

وقد رأينا أنه في كل مراحل حياة بني إسرائيل لم يكن لبني إسرائيل علو في الأرض غير هذا الذي نجده اليوم.. انه الكفر بعينه ليس برسول الله فحسب وإنما حتى بأنبيائه الذين بشروا به وطالبوهم بالإيمان به واتباعه متى ما أدركوه..

(١) لقد عدَّ ابن هشام من اسلم من أخبار يهود نفاقاً جمع انظر سيرة ابن هشام ١٩٨/٢ وما بعدها..

المبحث الثاني

أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتها

المطلب الأول:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول ومناقشتها

المطلب الثاني:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني ومناقشتها

المطلب الثالث:

أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني ومناقشتها

المبحث الثاني

أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتها

توطئة:

قال تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد. فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تبيراً﴾ الإسراء/٤-٧.

الناظر فيما أورده الإمام ابن جرير الطبري من روايات في تفسيره لهذه الآيات يختار في تمييز الصحيح من الضعيف ويختلط عليه الأمر بين القبول وعدمه.. إذ انه أورد روايات كثيرة تباينت من حيث الصحة وعدمها.

ومما يزيد الحيرة أن تجد عند من جاء بعده من المفسرين أقوالاً آخر بعضها جديد من قبيل الاجتهاد في تحديد معنى الآيات وبعضها منقول عما أورده الطبري في تفسيره من روايات ولكن من غير إسناد وعلى ما رآه مناسباً لمعنى النص القرآني أو ما ترجح عنده أنه الصحيح..

لذلك حين جمعت أقوال المفسرين في هذين الإفسادين ومن بعث عليهم فيهما وجدت التضارب والاختلاط على أشده.. مما اضطرني إلى أن احصر المسألة في أقل عدد ممكن من الأقوال بعد الدمج والتركيز أولاً، ثم أرجعتها إلى أصلها في الروايات التي أوردها الطبري ثانياً.. ثم قمت بتحقيق هذه الروايات للوقوف على صحتها أو ضعفها ثالثاً..

فأسقطت الضعيف واعتمدت الصحيح قولاً يمكن الاعتماد عليه إن لم يخالف المعطيات القرآنية التي يوحى بها النص القرآني الذي نحن بصددده بعد إبراز معانيه دراسة وتحليلاً.

وقبل ذي بدء أقول أنه لو صحّ لدينا حديث واحد عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن إذا لكفانا المؤنة ولما كان هناك خلاف بين الأوائل أو كان هنا قيل ويقال بين الأواخر..

إلا أن الحديث الوحيد الذي ورد في هذا الشأن إنما كان الذي ساقه ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسيره^(١) مرفوعاً إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بالسند الآتي..

حدثنا عصام بن رواد بن الجراح قال: ثنا أبي قال: ثنا سفيان بن سعد الثوري قال: «ثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما اعتدوا وعلوا، وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك الفرس بختنصر، وكان الله ملكه سبع مئة سنة، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصرها وفتحها، وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً، ثم سبي أهلها وبني الأنبياء وسلب بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألف عجلة من حلي حتى أورده بابل. قال حذيفة فقلت: يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله؟ قال: أجل بناه سليمان بن داود من ذهب ودر وياقوت وزبرجد، وكان بلاطه بلاطة من ذهب، وبلاطة من فضة، وعمده ذهباً، أعطاه الله ذلك، وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين، فسار بختنصر بهذه الأشياء حتى نزل بها بابل، فأقام بنو إسرائيل في يديه مئة سنة، تعذبهم الجوس وأبناء الجوس، فيهم الأنبياء وأبناء الأنبياء، ثم إن الله رحمهم، فأوحى إلى ملك من ملوك فارس، يقال له «كورس» وكان مؤمناً أن سر إلى بقايا بني إسرائيل حتى تستنقذهم، فسار «كورس» ببني إسرائيل وصلى ببيت المقدس حتى رده إليه، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مئة سنة، ثم إنهم عادوا في المعاصي، فسلط الله عليهم «ابطياخوس» فغزا بأبناء من غزا مع «بختنصر» فغزا بني إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس، فسبي أهلها، وأحرق بيت المقدس وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم في المعاصي غدنا عليكم بالسبأ فعادوا في المعاصي، فسير الله عليهم السبأ الثالث ملك رومية يقال

(١) كذلك أورده القرطبي بلفظ آخر مختلف عن هذا. انظر ٢٢٢/١٠.

له «قاس بن اسبايوس» فغزاهم في البر والبحر، فسباهم وسبي حلي بيت المقدس وأحرق بيت المقدس بالنيران، فقال رسول الله ﷺ هذا من صنعتي حلي بيت المقدس. ويردّه المهدي إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبع مائة سفينة، يرسى بها على يافا، حتى تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأولين والآخرين»^(١).

قلت: رجال هذه الرواية هم..

* عصام بن رواد بن الجراح العسقلاني: قال الذهبي «لينه الحاكم أبو أحمد»^(٢).

* رواد بن الجراح العسقلاني: قال أحمد بن حنبل "لا بأس به، صاحب سنة، إلا أنه

حدث عن سفيان أحاديث مناكير، وقال ابن معين: «ثقة». وقال النسائي: «روى غير

حديث منكر» وقال أبو حاتم «محله الصدق تغير حفظه». وقال الدار قطني «متروك».

وقال ابن عدي «عامّة ما يرويه لا يتابعه عليه الناس»^(٣) وقال عنه البخاري «كان قد

اختلط لا يكاد يقوم حديثه، ليس له كثير حديث قائم»^(٤).

* سفيان بن سعيد الثوري: «ثقة جليل»^(٥).

* منصور بن المعتمر: هو السلمي أبو عتاب «ثقة، أحد الأعلام»^(٦).

* ربعي بن حراش، هو العبسي الكوفي «مخضرم»^(٧).

* حذيفة بن اليمان: «صحابي جليل»^(٨).

* فعلة الحديث واضحة في رواد بن الجراح، فهو متكلم فيه من قبل حفظه وفي

روايته عن سفيان نكارة، وقد حدث عنه هنا فالحديث منكر «ضعيف».

(١) جامع البيان ٢٢/١٥.

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٥٥/٢-٥٦ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٨/٣.

(٣) ميزان الاعتدال ٦٦/٣ وتقريب التهذيب ١٩٥٨.

(٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٨/٣.

(٥) انظر تقريب التهذيب ٢٤٤٥ والخلاصة ١٤٥.

(٦) انظر تقريب التهذيب ٦٩٠٨ والخلاصة ٣٨٨.

(٧) انظر تقريب التهذيب ١٨٧٩ والخلاصة ١١٤.

(٨) انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ٣٣٢/١.

وقد أنكر الحافظ ابن كثير على الإمام الطبري إirاده لهذه الرواية فقال: «وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً وهو حديث موضوع لا محالة. لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كل العجب كيف راج عليه - أي الطبري - مع جلالة قدره وإمامته. فقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزني - رحمه الله - بأنه موضوع مكذوب. وكتب ذلك على حاشية الكتاب»^(١).

وتعقيباً على نقد ابن كثير لابن جرير الطبري لما ساق الحديث أقول: «إن منهج أهل العلم كان أن يأتوا بجميع الأقوال التي وصلت إليهم في تأويل آية ما. وإن كان فيها الصحيح والضعيف كمرحلة أولى، ثم يأتي بعد ذلك تنقيح تلك الروايات وتلكم الأقوال». ولما كان ابن جرير الطبري - رحمه الله - قد جمع ولم ينقح فإنه لم يُشر في أي موطن من تفسيره إلى صحة جميع ما ورد فيه من أخبار^(٢). وفي هذا يقول الذهبي «ثم إن ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحیح الأسانيد بتصحیح ولا تضعيف»^(٣).

غير أن من جاء بعده لم يورد كل ما وجد وإنما أورد بعض ما رآه راجحاً وترك غيره، كما فعل ابن كثير حيث قال «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها. لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم. ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً. ونحن في غنية عنها والله الحمد»^(٤).

كذا قال ابن كثير وفي كلامه نظر. إذ أن الطبري قد ساق مجموعة من الأخبار، نعم فيها ما هو أصله ثابت من كلام أهل الكتاب مثل بعض روايات ابن إسحاق ووهب ابن منبه. لكنه كذلك أورد أخباراً أخر عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٢) قلت: وهذا هو الثابت في منهج الإمام الطبري في تفسيره. ان يورد كل ما وصل إليه تاركاً تنقيح الروايات إلى من يقرأ أو يأخذ عنه، فلکم تمنيت أن لو نقح فأسقط ما لا قيمة له ابتداءً وأثبت الصحيح فآثم واختصر وأراح واقتصر. وأثيب ضعفين.

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ٢١٢/١.

(٤) تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

وسعيد ابن جبير وابن المسيب فيها ما هو صحيح السند إلى قائله وفيها ما هو ضعيف السند إلى قائله كذلك.

وكذلك فعل غيره من المفسرين في اختيار ما رآه راجحاً وترك ما ضعف عنده لسبب أو لآخر. وهم - في الأغلب - في إيرادهم لهذه الأقوال قد أسقطوا السند واكتفوا بنقل الرواية فقط مما اضطرني للرجوع إلى روايات الطبري وتحقيقها لمعرفة صحة الأقوال التي اعتمدها - أو ضعفها - فيما يخص تفسير الآيات المتعلقة بفساد بني إسرائيل ومن بعث عليهم بعده^(١).

ومن الجدير بالذكر أنه لا خلاف بين المفسرين في أن فساد بني إسرائيل نشأ من اتخاذ غير الله وكيلاً وفي عبادة الأصنام كالعجل الذهبي وبعل الصنم وعبادة الذهب، وعصيان أمر الله المبلغ إليهم عن طريق أنبياءهم الذين كذبوا فريقاً منهم وفريقاً يقتلون وحرفوا التوراة واستكبروا عن هدي الله واستعلوا على الناس بالبغي والظلم. وقد كان من كبائر هذا الإفساد والطغيان قتل بعض أنبيائهم ظلماً وعلواً^(*).

أقول: ولكن اختلاف المفسرين كان فيمن قتل من الأنبياء في الإفسادين ومن بعث عليهم بعدهما.

لذلك جعلت لهذا المبحث مطالب ثلاثة:

المطلب الأول:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول:

أ- من قتل فيه من الأنبياء.

(١) قلت: ولأن بحثي ليس - حديثياً - فقد اقتصر على الروايات المتعلقة بالإفسادين والمبعوثين فقط، غير متوسع في الروايات التي أشارت إلى معنى: قضينا - أو جاسوا - أو لفيفا - وغيرهما لاتفاق المفسرين في هذه المعاني وعدم اختلافهم فيها.

* عجبت لأغلب المفسرين حين يحددون الإفساد في قتل نبي أو نبين ويتركون باقي أنواع الإفساد، كالإفساد العقيدي والاجتماعي والسياسي. ولا شك أن قتل النبي كبير عند الله لكن أن يقال «وكان فسادهم الأول هو قتل زكريا مثلاً» فهذا مما لا يستساغ، والله أعلم.

ب- من بعث عليهم فيه.

المطلب الثاني:

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني:

أ / من قتل فيه من الأنبياء.

ب / من بعث عليهم فيه.

المطلب الثالث:

أقوال المفسرين المحدثين في الإفساد الأول والثاني.

المطلب الأول

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول:

أ / من قتل فيه من الأنبياء:

للمفسرين في ذلك قولان الأول هو الراجح منهما:-

القول الأول - كان الإفساد الأول معاصراً لقتل نبي الله زكريا وقد ذكر ذلك

الطبري في تفسيره وتابعه كل من الماوردي والقرطبي والآلوسي^(١).

القول الثاني - إن الإفساد الأول قتل فيه أشعياء وذكر ذلك الماوردي وتابعه ابن

الجوزي والقرطبي والشوكاني^(٢).

ب / من بعث عليهم فيه:

وللمفسرين في ذلك عدة أقوال وهي:

(١) انظر الطبري ٢١/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٧/٥ والقرطبي ٢١٥/١٠ والآلوسي ١٦/١٥.

(٢) انظر الماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٨/٥ والقرطبي ٢١٥/١٠ والشوكاني ٢٤٩/٣.

القول الأول: أنه جالوت الجزري وجنوده. وبذلك قال الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير والآلوسي^(١).

القول الثاني: انه سنحاريب ملك الموصل، ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي وابن كثير والآلوسي^(٢).

القول الثالث: انه يختصر ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير^(٣).

القول الرابع: جند من فارس، ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي^(٤).

أ- مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الأول:

بعد عرض أقوال المفسرين لابد من مناقشتها لمعرفة الصحيح منها من الضعيف كخطوة أولى، ثم كان لابد لنا في الخطوة الثانية إعادة كل قول إلى مصدره من الروايات التي أوردها الإمام الطبري في تفسيره، حيث كما قلنا انهم في الغالب الأعم قد نقلوا عنه واعتمدوا على ما أورده من روايات غير انهم حذفوا الأسانيد منها.

أولاً- مناقشة أقوال المفسرين في تحديد الإفساد الأول ومن قتل فيه من الأنبياء، ومن هم المبعوثون عليهم بعده.

(١) انظر الطبري ٢٨/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ والرازي ١٥٦/٢٠ والقرطبي ٢١٥/١٠ وابن كثير ٢٥/٣ والآلوسي ١٧/١٥.

(٢) انظر ٢٨/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ وابن كثير ٢٨/٣ والآلوسي ١٧/١٥.

(٣) انظر الطبري ٢٨/١٥-٢٩ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ والرازي ١٥٥/٢٠ والقرطبي ١٠/١٥ وابن كثير ٢٥/٣.

(٤) انظر الطبري ٣٠/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ والرازي ١٥٦/٢٠ والقرطبي ٢١٥/١٠.

* هناك قول حكاه بعض المفسرين كقول خامس قيل هم العمالقة لم أتعرض له لبطلانه إذ لم أجد له

أساساً في الطبري علاوة على أن المقصود بهم أنهم قوم جالوت، فتركته.

مناقشة القول الأول:

أن فسادهم الأول كان حين قتلوا «نبي الله زكريا» فقد أورد الإمام الطبري رواية بهذا المعنى في تفسيره وهي قوله: وكان فساد بني إسرائيل في الأرض المرة الأولى ما حدثني به موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره عن ابن صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس، وعن مرة عن عبد الله: إن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة: «لتفسدن في الأرض مرتين» فكان أول الإفسادين: قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط، وكان يدعى صحابين فبعث الجنود، وكانت أساورته من أهل فارس، فهم أولوا بأس شديد. واستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قول الله: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ يقول عددا^(١).

قلت: إن سند هذه الرواية أورده أحمد شاكر في تحقيقه على تفسير الطبري^(٢) وقال ما نصه «هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً في تفسير الطبري، إن لم يكن أكثرها، فلا يكاد يخلو تفسير آية من رواية بهذا الإسناد، وقد عرض الطبري نفسه في (ص ١٢١ بولاق، سطر ٢٨ وما بعده) فقال: وقد ذكر الخبر عن ابن مسعود وابن عباس بهذا الإسناد «فإن كان ذلك صحيحاً، ولست أعلمه صحيحاً، إذ كنت بإسناده مرتاباً...» ولم يبين علّة ارتيابه في إسناده، وهو مع ارتيابه قد أكثر من الرواية به ولكنه لم يجعلها حجة قط.

- كذا قال أحمد شاكر...

وقال أيضاً: بيد أني أراه إسناد يحتاج إلى بحث دقيق ولأئمة الحديث كلام فيه وفي بعض رجاله. وقد تتبع ما قالوا وما يدعوا إليه بحثه ما استطعت، وبدا لي فيه رأي، أرجو أن يكون صواباً إن شاء الله تعالى.

* / أما شيخ الطبري، وهو «موسى بن هارون الهمداني»^(٣) فما وجدت له

(١) انظر الرواية كاملة في تفسير الطبري ٢١/١٥.

(٢) الطبري تحقيق أحمد شاكر ١٥٦/١ الأثر ١٦٨.

(٣) ورد هذا السند في نسخة الطبري التي بيدي ما حدثني به هارون قال ثنا عمرو: ووجدته في النسخة

المحققة لأحمد شاكر «موسى بن هارون» فاعتمدته باعتباره الأصوب بعد التحقيق.

ترجمة، ولا ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع، إلا ما يرويه عنه الطبري أيضاً في تاريخه وهو أكثر من خمسين موضعاً في الجزئين الأول والثاني منه.

* / «وعمر بن حماد».. «ثقة روى عنه مسلم في صحيحه، وترجمه ابن سعد في الطبقات^(١)» قال «كان ثقة إن شاء الله».

* / و«أسباط بن نصر الهمداني» مختلف فيه، وضعفه أحمد وذكره ابن حبان في الثقات.

* / و«إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي» وهو السدي الكبير. وهو تابعي سمع أنس. وروى عن غيره من الصحابة وعن كثير من التابعين وهو «ثقة» أخرج له مسلم في صحيحه، وثقه أحمد بن حنبل فيما روى ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»^(٢). وفي الميزان والتهذيب «أن الشعبي قيل له: إن السدي قد أعطي حظاً من علم القرآن، فقال: قد أعطي حظاً من جهل بالقرآن!»^(٣). وقال عنه أبو حاتم «يكتب حديثه ولا يحتج به»^(٤). وقال عنه يحيى بن معين «في حديثه ضعف» وقال النسائي «صالح» وقال في موضع آخر «ليس به بأس» وأعاب عليه الإمام أحمد التفسير الذي جاء به^(٥) ولذلك نجد أن الإمام الطبري لا يحتج بحديثه كما قال ابن حجر^(٦).

وقد لخص القول فيه ابن حجر العسقلاني في تقريره قائلاً عنه «صدوق يهمل»^(٧) أي قد يخطئ في الخبر ولا يعتمد الخطأ.

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢٨٥/٦.

(٢) انظر الجرح والتعديل ١٨٤/١/١.

(٣) انظر الطبري ١٥٧/١ من كلام أحمد شاكر في الهامش رقم ٢.

(٤) انظر تهذيب الكمال ١٣١/٣.

(٥) قلت لعل تفسير هذه الآية التي نحن بصدددها من ذلك التفسير الذي أعابه عليه الإمام أحمد. والذي سنرى أنه كان يعتمد على أخبار أهل الكتاب في تفسيره.

(٦) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٢٥-٣٣٣/١.

(٧) انظر تقريب التهذيب ٧١/١ فان في ترجمته الكثير.

* / أما «أبو صالح، مولى أم هانئ، واسمه باذام» وثَّقه أحمد شاكر وقال عنه «تابعي ثقة» رجحنا توثيقه في شرح المسند ٢٠٣٠، وروي عن يحيى بن معين قال «أبو صالح مولى أم هانئ ليس به بأس»^(١).

* / و«أبو مالك» وهو الغفاري واسمه غزوان وهو تابعي كوفي «ثقة» وروي توثيقه عن يحيى بن معين^(٢).

* / و«ابن عباس» الصحابي الجليل حبر الأمة، ما في العرب مثله جسماً وعلماً وبياناً وجمالاً وكمالاً^(٣) قال أحمد شاكر .. هذا عن القسم الأول من هذا الإسناد، فإنه في حقيقته إسناده أو ثلاثة، أولهما هذا المتصل بابن عباس.

والقسم الثاني أو الإسناد الثاني «وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود».

* / و«مرة» هو ابن شرحبيل الهمداني الكوفي وهو تابعي ثقة.. ليس فيه خلاف بينهم...^(٤).

* / وابن مسعود الصحابي الجليل أحد السابقين الأولين ومن كبار البدرين^(٥) وعليه فحاصل الكلام في رواية ابن جرير الطبري عن ابن عباس من هذا الطريق إنها مضطربة ويعزى هذا الاضطراب إلى إسماعيل بن كريمة السدي الذي كان في حديثه شيء من الوهم كما أشار إلى ذلك العسقلاني بقوله «صدوق يهم»^(٦).

ولهذه فإن الرواية هذه لا يعول عليها في تفسير الآية المعنية لضعف السند من حيث جهالة موسى بن هارون وضعف السدي. هذا أولاً.

وثانياً: إن المتن فيه شذوذ كبير.. إذ أن الرواية ذكرت ملك النبط الذي يدعى صحابين بعث الجنود وكان فيهم يختصر فتلطف ودخل المدينة... الخ.

(١) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٣٠/١/١.

(٢) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٤١/٢/١.

(٣) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٤٠/١.

(٤) انظر تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر ١٥٨/١.

(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي ١٣/١.

(٦) انظر تقريب التهذيب ٧١/١.

وبختصر قد سبق زمن زكريا بعدة قرون كما هو ثابت تأريخياً.. وفي ذلك يقول الإمام الرازي معترضاً على من ذهب إلى ذلك (أقول التواريخ تشهد بأن بختصر كان قبل وقت عيسى عليه السلام ويحيى وزكريا بسنين طويلة، ومعلوم إن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له «قسطنطين الملك» والله أعلم بأحوالهم^(١)). وقد ذكر ابن الأثير في كامله بطلان القول بأن بختصر كان معاصراً ليحيى وزكريا إذ بينهما أكثر من أربعة قرون ونصف وأن ذلك ثابت في كتب اليهود والنصارى^(٢). وعليه فإن الرواية ليست لها قيمة عند أهل التفسير والتحقيق.

مناقشة القول الثاني:

وهو قول بعض المفسرين بأن الذي قتل من الأنبياء في الإفساد الأول إنما هو «أشعيا» الذي ذكره الماوردي وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم إنما أخذوه من رواية ابن جرير الطبري التي أوردتها في تفسيره حيث قال:

«حدثنا ابن حميد، قال ثنا سلمة، قال ثني ابن إسحاق قال كان مما أنزل الله على موسى في خبره عن بني إسرائيل وفي أحداثهم وما هم فاعلوه فقال: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل... حصيراً﴾ فكانت بنو إسرائيل وفيهم الأحداث والذنوب وكان الله في ذلك مستجاوزاً عنهم، متعطفاً عليهم، محسناً إليهم، فكان مما أنزل بهم في ذنوبهم... إن ملكاً منهم يدعى صديقة وكان الله إذا ملك الملك عليهم بعث نبياً يسدده ويرشده ويكون فيما بينه وبين الله، ويحدث إليهم في أمرهم لا يتزل عليهم الكتب، إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التي فيها، وينهونهم عن المعصية ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة، فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياً بن أمصيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى... وشعياً الذي بشر بعيسى ومحمد ﷺ فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً، فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث وشعياً معهم، بعث الله عليهم

(١) انظر تفسير الرازي ١٥٨/٢٠ وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١١/١.

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٣/١.

(سنحاريب) ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية^(١) فأقبل سائراً حتى نزل نحو بيت المقدس... ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات^(٢).

قلت: وهذه الرواية ضعيفة السند وشاذة المتن كذلك. فأما من ناحية السند فإن في رجاله محمد بن حميد بن حيان الرازي (كذبه أبو زرعة وابن خراش وصالح جزرة وقال البخاري (فيه نظر) أما الذهبي فقد خفف القول فيه لما وصفه بأنه من بحور العلم وهو ضعيف^(٣)).

* / وأما (سلمة.. فهو: أبو عبد الله بن الفضل الأبرش قاضي الري) (ضعفه) البخاري وابن راهويه والنسائي وتركه علي بن المديني وقال عنه يحيى بن معين: كتب عنه وليس به بأس وكان يتشيع.

وقال ابن سعد (ثقة صدوق) وقال أبو أحمد الحاكم (ليس بالقوي عندهم) وقال ابن حبان (يخطأ ويخالف) وقال أبو حاتم الرازي (محله الصدق في حديثه نكارة... يكتب حديثه ولا يحتج به)^(٤).

فخلاصة القول فيه انه يغلط ولا يتيقن ويخطأ وقد يصيب فهو ممن لا يحتج به.

* / محمد بن إسحاق بن يسار اختلف أهل العلم بالجرح والتعديل في قبول مروياته فما ظنك بأقواله المقطوعة عليه..؟ فان (ما تفرد به فيه نكارة وفي حفظه شيء)^(٥). وقال ابن عدي (وقد فتشت أحاديثه كثيراً فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو وهم في الشيء بعد الشيء كما يخطأ غيره)^(٦).

(١) أورد القرطبي هذه الرواية وفيها «أن المهزوم سنحاريب ملك بابل جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف..» انظر القرطبي ٢١٥/١٠.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٢/١٥-٢٤.

(٣) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٥٣٠/٣ وانظر التقريب ٥٨٣٤.

(٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ١٥٣/٤ بتصرف.

(٥) ميزان الاعتدال للذهبي ٤٧٥/٣.

(٦) الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢١١٦/٦-٢١٢٥.

وهو المفهوم من كلام يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهما^(١).

وعليه فإن هذه الرواية ضعيفة الإسناد لا يحتج بها لحال ابن حميد بن إسحاق كما أوضحت وسلمة بن الفضل كذلك.

و أما من ناحية المتن فإن الاضطراب يبين في كثير من المواضع فيها ولعل أبرزها ذلك العدد الهائل من الجنود الذين جاء بهم سنحاريب حتى كانوا ستمائة ألف راية وتحت كل راية مائة ألف فيكون المجموع على هذا $(600000 \times 100000 = 60000000000)$ ستون مليار مقاتل، فأى أرض وسعتهم؟ والأعجب من هذا أنهم لم يفتحوا بيت المقدس وماتوا كلهم إلا سنحاريب وخمسة من كتابه. فماذا فعلت الأرض بالموتى وماذا فعل بني إسرائيل بهم؟؟؟*.

ب - مناقشة أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في فسادهم الأول:
وللمفسرين في ذلك خمسة أقوال:

١ - مناقشة القول الأول - القول الراجح عند أهل التفسير في هذا القول أن الذي بعث على بني إسرائيل في فسادهم الأول هو (جالوت الجزري وجنوده) حيث قال بذلك الطبري وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير الألويسي كما قدمت^(٢).

والرواية التي اعتمدها في ذلك أوردها الإمام الطبري في تفسيره بأسانيد ثلاثة:

١ - الإسناد الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما:

قال الطبري (حدثنا محمد بن سعد، قال ثنا أبي قال ثنا عمي، قال ثنا أبي عن أبيه، عن ابن عباس: قوله ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد

(١) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٩٤/٧ وتأريخ بغداد ٢٣٢/١. سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٦/٧ والتهذيب للعسقلاني ٤٣/٩.

* قلت: لعل من الجدير بالتنبيه إلى أن بعض المفسرين أشار إلى وجود قول ثالث - مرجوح - أشار إليه القرطبي في ٢١٥/١٠ وصاحب صفوة البيان بعبارة (قيل: الأول تغيير التوراة وعدم العمل بها، وحبس أرمياء وجرحه إذ بشرهم بمحمد ﷺ). انظر ص ٣٩٥ لم أناقشه لعدم ترجيحه من جمهور المفسرين، وبجنيته بصيغة الاحتمال، كذلك فما يقال فيه ليس غير ما قلناه هنا عن أشعياء.

(٢) انظر الفقرة /ب «أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الأول». ص ٣٧.

فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ قال: بعث الله عليهم جالوت فجاس خلال ديارهم وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت فقاتلوا جالوت فنصر الله بني إسرائيل وقُتل جالوت بيد داود وأرجع الله إلى بني إسرائيل ملكهم^(١).

قلت: هذه الرواية جاءت بإسناد قالوا عنه (سلسلة الكذب) وقد حققها أحمد شاكر في تفسير الطبري وقال عنه ما نصه:

(هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً في تفسير الطبري.. وهو إسناد مسلسل من أسرة واحدة - إن صح التعبير - وهو معروف عند العلماء بـ (تفسير العوفي) بان التابعي الذي يرويه عن ابن عباس هو (عطية العوفي).. قال السيوطي في الإتيان (وطريق العوفي عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً والعوفي ضعيف ليس بواه وربما حسن له الترمذي)^(٢). وسنشرحه هنا مفصلاً إن شاء الله تعالى.

* / (محمد بن سعد، بن محمد بن الحسن بن عطية بن سعد بن جنادة العوفي) وهو (لين في الحديث)^(٣)

وقال الدارقطني (لا بأس به).

* / وأبوه (سعد بن محمد بن الحسن العوفي) ضعيف جداً، سئل عنه الإمام أحمد فقال (ذلك جهمي.. وأضاف: لو لم يكن هذا أيضاً لم يكن ممن يستأهل أن يكتب عنه ولا موضعاً لذلك)^(٤).

* / عن عمه: أي عم سعد وهو (الحسين بن الحسن بن عطية العوفي) قال ابن معين (كان ضعيفاً في القضاء ضعيفاً في الحديث) وكذا قال عنه ابن سعد في الطبقات، وضعفه أيضاً أبو حاتم والنسائي وقال ابن حبان في المجروحين (منكر الحديث، لا يجوز

(١) تفسير الطبري ٢٨/١٥.

(٢) الإتيان للسيوطي ٢٢١/٢.

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٢٢/٥ وانظر لسان الميزان ١٧٤/٥.

(٤) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٢٦/٩ ولسان الميزان ١٨/٣.

الاحتجاج بخبره^(١)..

* / عن أبيه وهو (الحسن بن عطية بن سعد العوفي) وهو ضعيف أيضاً قال البخاري في الكبير (ليس بذلك) وقال أبو حاتم (ضعيف الحديث) وقال ابن حبان يروي عن أبيه، روى عنه ابنه محمد بن الحسن، منكر الحديث فلا أدري البلية في أحاديثه منه أو من أبيه أو منهما معاً ؟ لأن أباه ليس بشيء في الحديث، وأكثر روايته عن أبيه، فمن هنا اشتبه أمره ووجب تركه^(٢).

* / عن جده وهو (عطية بن سعد بن جنادة العوفي) وهو ضعيف أيضاً ولكنه مختلف فيه... قال أحمد (هو ضعيف الحديث) وكان الثوري وهشيم يضعفان حديث عطية، وقال أبو حاتم (ضعيف الحديث، يكتب حديثه)... قد ضعفه النسائي أيضاً في الضعفاء، وضعفه ابن حبان جداً في كتاب المجروحين قال (فلا يحل كتابة حديثه إلا على وجه التعجب)^(٣).

وعليه فليس هناك تعليق على ما قاله أحمد شاكر من أن هذه الرواية هي (سلسلة الضعفاء) فأنى يحتج بها؟.

٢ - الإسناد الثاني: عن قتادة رضي الله عنه

قال ابن جرير.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد، قال ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿فإذا جاء وعد أولاهما.....﴾ إنه كان وعداً مفعولاً ﴿قضاء قضى الله على القوم كما تسمعون، فبعث

(١) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٢٩/٨ وطبقات ابن سعد ٧٤/٢/٧ والمجروحين لابن حبان رقم ٢٢٨/ص ١٦٧.

(٢) مترجم له في التاريخ الكبير ٢٢٩/٢/١ وابن أبي حاتم ٢٦/٢/١ والمجروحين لابن حبان رقم ٢١٠/ص ١٥٨.

(٣) انظر ترجمته في كتاب المجروحين لابن حبان ص ١٧٨، وطبقات ابن سعد ٢١٢/٦، والكبير للبخاري ٩/١/٤-٨، وابن أبي حاتم ٣٨٢/١/٣.

قلت: كل هذه التخارج لهذه الرواية إنما هي لأحمد شاكر في تحقيقه للطبري ٢٦٣/١-٢٥٤، وإنما أوردتها بتصرف. قلت: وانظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٢٤/٧-٢٢٦.

عليهم في الأولى جالوت الجزري، فسبى وقتل وجاسوا خلال الديار كما قال الله، ثم رجع القوم على دخن فيهم^(١).

قلت: الإسناد في هذه الرواية صحيح إذ أن رجاله كلهم ثقات لا مغمز فيهم^(٢).

* فبشر بن معاذ العقدي.. «ذكره ابن حبان في الثقات»^(٣).

* ويزيد.. هو ابن زريع " ثقة " أحد الأعلام قال عنه أبو حاتم: «ثقة إمام» وقال أحمد «ما أحفظه ما أتقنه»^(٤).

* سعيد بن أبي عروبة.. «ثقة» ومن أثبت الناس في قتادة^(٥).

* قتادة بن دعامة السدوسي.. حافظ ثقة ثبت، لكنه مدلس فقد احتج به أصحاب الصحاح لاسيما إذ قال حدثنا^(٦).

قلت: ولما كان الأثر عن قتادة فلا مغمز فيه..

وعليه فالرواية صحيحة من حيث السند.

٣- الإسناد الثالث «عن قتادة أيضاً».

قال الطبري: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة قال:

أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت، حتى بعث طالوت ومعه داود فقتله داود^(٧). رجال هذا السند..

* / محمد بن عبد الأعلى «ثقة»^(٨).

* / محمد بن ثور الصنعاني «ثقة»^(٩).

(١) الطبري ٢٨/١٥ وقد أورد السيوطي هذا الخبر في الدر المنثور ص ٣٥٢.

(٢) قلت هذا الإسناد وثقه أحمد شاكر في الطبعة المحققة له على الطبري ١٦٣/١.

(٣) انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٧٠٢ وانظر الخلاصة ٤٩.

(٤) انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٧٧١٣ وانظر الخلاصة ٤٣١.

(٥) انظر ترجمته في تقريب التهذيب ٢٣٦٥ وانظر الخلاصة ٣٨٤.

(٦) انظر ميزان الاعتدال ٦٨٥/٣ وانظر التقريب ٥٥١٨.

(٧) تفسير الطبري ٢٨/١٥.

(٨) انظر تقريب التهذيب ٦٠٦٠.

(٩) انظر تقريب التهذيب ٥٧٧٥.

* / معمر بن راشد الأزدي «ثقة ثبت فاضل» وفي روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئاً.. وكذا فيما حدث به بالبصرة^(١)..

* / قتادة بن دعامة السدوسي «ثقة» سبقت ترجمته^(٢).

فالإسناد في هذه الرواية صحيح لثقة رجاله ويصلح إن يقوى به السند السابق ويكون متابعاً له^(٣).

ولكن المسألة من وجهة نظر أخرى تحتاج لبيان ومناقشة المتن لمعرفة مدى حقيقته وموافقته للواقع التاريخي من جهة وللمعطيات القرآنية من جهة أخرى.

فقبل أن أتناول مسألة مخالفة الواقع التاريخي لما ورد في هذه الرواية عن قتادة ينبغي أن أبين شيئاً أجده من الأهمية بمكان.. وهو إن الذين قالوا أن جالوت هو من تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الأول هم أنفسهم أو أغلبهم الذين قالوا إن فسادهم الأول كان حين قتلوا «نبي الله زكريا».

وهذا بحد ذاته يطل هذه الرواية من أساسها إذ أن حقائق التاريخ الثابتة التي لا مجال للجدال فيها أنكرت ذلك... فجالوت سابق على زمن زكريا بما لا يقل عن تسعمائة وخمسين سنة^(٤) فلا يعقل أن يكون ذلك كما قيل... وإذا كان الإمام الرازي قد رد قول من قال إن يختصر هو الذي تعرض إلى بني إسرائيل عند قتلهم زكريا وقال «والتواريخ تشهد بأن يختصر كان قبل عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة»^(٥) فمن باب أولى أن يردّ قول من قال بأنه جالوت..

أما من ناحية مخالفة هذه الرواية للمعطيات القرآنية فيمكن حصره في أمور

عدة هي:

(١) انظر تقريب التهذيب ٦٨٠٩ وانظر ميزان الاعتدال ١٥٤/٤.

(٢) انظر ميزان الاعتدال ٦٨٥/٣.

(٣) وقد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري في تفسيره ٢٨/١٥، ٣٦، ٤٤ والدر المنثور انظر ٥٣٩/٥-٥٤٠.

(٤) انظر المخطط التوضيحي لتسلسل الأنبياء والملوك الذين تعرضوا لبني إسرائيل خلال الإفسادين كما قال المفسرون الأقدمون ملحق رقم ٢.

(٥) انظر تفسير الرازي ١٥٨/١٥.

١/ إن جالوت وجنوده لا تنطبق عليه أهم الصفات التي أثبتتها المعطيات القرآنية لمن بعثوا على بني إسرائيل وهي صفة العبودية لله تعالى أو لتشرفهم بنسبة الاختصاص لله تعالى في «عباداً لنا» فقد كانوا كافرين بشهادة القرآن^(١)..

٢/ إن معطيات النص القرآني توحى بان بني إسرائيل بعد أن بعث الله عليهم العباد الذين كانوا أولي بأس شديد جاسوا خلال ديارهم ودخلوا المسجد وكان وعداً مفعولاً بالنصر لهم مما يفهم منه أن بني إسرائيل قد كسرت شوكتهم وأرغمت أنوفهم فلم يعد لهم وجود سياسي أو عسكري يمكن أن يعتمد عليه فقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة.. ولم تعد لهم دولة إلا بعد سنين طويلة وقرون اقتضتها "ثم" التي هي للبعد في الزمان والتراخي فيه كما سرى ذلك إن شاء الله تعالى..

بينما الغلبة التي حدثت لبني إسرائيل على يد ملكهم طالوت وقتل جالوت على يد داود كانت برحمة من الله لما تابوا وعزموا على القتال في سبيل الله كما دلت عليه آية البقرة ﴿قَالُوا وَمَالُنَا لَا نَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ البقرة/٢٤٦، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/٢٥٠. ثم قامت بعدها مملكتا داود وسليمان وشيكاً.. فأين الفترة التي سبقت الكرة وبقاء بني إسرائيل في الذل؟ مما يقتضيه السياق القرآني في قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ..﴾ أي بعد زمن متطاوّل كما قال بذلك صاحب الأساس في التفسير «بعد مئات السنين»^(٢) ويقول في موضع آخر يرد على من قال إن جالوت هو المبعوث عليهم في الإفساد الأول، وهناك اتجاه يقول إن المسلّطين الأولين هم قوم جالوت... ثم عندما غلب بنو إسرائيل جالوت وقومه أصبحوا أكثر نفيراً... يقول:

(.. لكن عندما نرجع إلى سفر القضاة الذي يتحدث عما بعد يشوع وقبل طالوت نجده يتحدث عن مجموعة إفسادات...^(٣) ثم ساق نصوصاً من التوراة تثبت إن القول بتسليط جالوت على بني إسرائيل في الإفساد الأول غير صحيح...

(١) انظر الآية ٢٥٠ من سورة البقرة.

(٢) انظر تفسير الأساس - سعيد حوى ٣٠٤٠/٦.

(٣) المصدر السابق ٣٠٤٣/٦.

أضف إلى هذا أن المسجد لم يكن موجوداً قبل بناء سليمان له وإن كان قد بني في عهد إبراهيم وإسحاق ومن ثم لم يدخله جالوت لأنه لم يكن موجوداً قبل أن يجدد بناءه سليمان كما هو الثابت تاريخياً ونصت عليه بعض نصوص التوراة وفي ذلك يقول سعيد حوى في أساسه.

(إن المسجد الأقصى وإن يكن قد أسسه إبراهيم عليه السلام إلا أنه لم يأخذ طابعه الذي يعتبر الاستيلاء عليه رمزاً لسقوط العز اليهودي إلا بعد داود وسليمان (عليهما السلام) وهما كانا بعد المرحلة السابقة^(١) أي بعد تعرض جالوت لبني إسرائيل وقتالهم له بقيادة طالوت وداود..

كل هذا مما يوحي بأن هذه الرواية - رواية بشر عن قتادة في الإسناد الثاني ورواية محمد بن عبد الأعلى عن قتادة أيضاً في الإسناد الثالث ضعيفة في متنها لمخالفتها حقائق التاريخ وحقائق القرآن وإن كانت في إسنادها صحيحتان..

٢ - مناقشة القول الثاني - من أقوال المفسرين فيمن تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الأول أنه «سنحاريب».. فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي وابن كثير والآلوسي^(٢). وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في قولهم هذا على روايتين الأولى عن ابن جبير والثانية عن ابن إسحاق..

١ / الإسناد الأول..

قال الطبري: «حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن علية، عن أبي المعلى قال سمعت سعيد ابن جبير، يقول في قوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأسٍ شديد﴾ قال: بعث الله تبارك وتعالى عليهم في المرة الأولى سنحاريب من أهل أثور ونيوى، فسألت سعيداً عنها، فزعم أنها الموصل؟^(٣).

(١) المصدر السابق ٣٠٤٤/٦.

(٢) انظر الطبري ٢٨/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ وابن كثير ٢٥/٣ والآلوسي ١٧/١٥.

(٣) الطبري ٢٨/١٥.

وذكر الطبري بنفس السند عن سعيد ابن جبير أنه قال: بعث الله عليهم في المرة الأولى سنحاريب، قال فردّ الله لهم الكرة عليهم كما قال: قال ثم عصوا ربهم... ولم يعدهم الرجعة إلى ملكهم...^(١).

قلت: رجال هذا السند هم.

*/ يعقوب بن إبراهيم.. بن كثير العبدي الدورقي: (ثقة)^(٢).

*/ ابن علي.. هو إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي (ثقة حافظ)^(٣).

*/ أبو المعلى... يحيى ابن ميمون الضبي العطار الكوفي: (ثقة)^(٤).

*/ سعيد بن جبير: الأسدي الكوفي: (ثقة ثبت فقيه) قال الطبري (ثقة حجة إمام

المسلمين - وذكره ابن حبان في الثقات وقال كان عبداً ورعاً - جهيد العلماء)^(٥).

فالرواية صحيحة الإسناد لكن متنها مضطرب.. وذلك لأن سنحاريب سابق لعهد

زكريا بسنين طويلة فكيف يكون هو المبعوث على بني إسرائيل في زمن قتلهم زكريا..

حقائق التاريخ ومجريات الأحداث ترفض هذا ومعطيات النص القرآني لا تدخل

سنحاريب في كثير من مقتضياتها... مثل:

*/ إن سنحاريب لا يدخل في كونه من عباد الله الصالحين الذين شرفهم الله

بنسبتهم إليه في «عباداً لنا».

*/ عدم جوسه خلال الديار، إذ تذكر الرواية إن الله أهلكتهم قبل دخولهم المدينة

وكذلك لم يدخل المسجد ولن يدخله أبداً.

*/ عدم وجود الكرة التي لبني إسرائيل على سنحاريب وجنوده.

*/ العدد الغير معقول الذي جاء به من الجيوش حيث بلغ «٦٠» مليار مقاتل..

(١) الطبري ٣٤/١٥.

(٢) انظر التقريب ٧٨١٢ وانظر الخلاصة للخزرجي ٤٣٦.

(٣) انظر التقريب ٤١٦ وانظر الخلاصة للخزرجي ٣٢.

(٤) انظر التقريب ٧٦٥٨.

(٥) انظر التقريب ٢٢٧٨ وانظر تهذيب التهذيب ١١/٤. وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٧٦/١.

وعليه فان اضطراب المتن ومخالفته للمعطيات القرآنية ولحقائق التأريخ ينفي قبولها
وكونها حجة..

٢ / الإسناد الثاني: عن ابن إسحاق

قال الطبري: «حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا ابن إسحاق، قال: كان
مما أنزل الله على موسى في خبره عن بني إسرائيل وفي أحداثهم ما هم فاعلون بعده،
فقال: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً
كبيراً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ فكانت بنو إسرائيل وفيهم
الأحداث والذنوب.. الخ».

قلت: هذه الرواية بهذا الإسناد سبق تحقيقها وقد أوردتها في معرض استشهادي بها
عند الكلام عن مناقشة القول الثاني من أقوال المفسرين بأن الذي قتل من الأنبياء في
الإفساد الأول إنما هو أشعياء^(١).

وقد ثبت لدينا ضعف سندها لحال ابن حميد وسلمة من الفضل وكذلك ابن إسحاق.
ولهذا فلا حجة لها^(٢).

٣ - مناقشة القول الثالث - قال بعض المفسرين إن الذي تعرض لبني إسرائيل في
فسادهم الأول هو (بختنصر) فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي
والقرطبي وابن كثير^(٣)..

وقد اعتمد المفسرون في هذا القول على الروايات التي أوردتها الطبري في تفسيره
بأربعة أسانيد هي:

الإسناد الأول - عن سعيد بن جبير^(٤).

(١) انظر المطلب الثاني القسم ٢/ والهامش ٤٣.

(٢) انظر ما ترجمناه لرجال هذا السند في المطلب الثاني عند الهامش ٤٤، ٤٥، ٤٦.

(٣) انظر الطبري ٢٨/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ والرازي ١٥٥/٢٠ والقرطبي ٢١٥/١٠

وابن كثير ٢٥/٣.

(٤) انظر تفسير الطبري ٢٨/١٥-٢٩.

الإسناد الثاني - عن سعيد بن المسيب^(١).

الإسناد الثالث - عن مجاهد^(٢).

الإسناد الرابع - عن ابن عباس^(٣).

١ - الإسناد الأول: «رواية القاسم عن سعيد بن جبير»

قال الطبري: «حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال ثنى الحجاج عن ابن جريج قال: ثنى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير، أنه سمعه يقول: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ حتى إذا بلغ ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بكى وفاضت عيناه، وطبق المصحف، فقال ذلك ما شاء الله من الزمان، ثم قال: أي رب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يديه،.. فأري في المنام مسكيناً ببابل يقال له بختنصر، فانطلق بمال وأعبد له، وكان رجلاً موسراً، فقيل له أين تريد؟ قال: أريد التجارة حتى نزل داراً ببابل، فاستكراها ليس فيها أحد غيره، فجعل يدعو المساكين ويلطف بهم، حتى لم يبق أحداً فقال: هل بقي مسكين غيركم؟ قالوا نعم، مسكين بفج آل فلان مريض، يقال له بختنصر، فقال لغلمانه: انطلقوا، حتى أتاه، فقال: ما اسمك؟ قال بختنصر، فقال لغلمانه: احتملوه، فنقله إليه ومريضه حتى برأ، فكساه وأعطاه نفقة، ثم آذن الإسرائيلي بالرحيل، فبكى بختنصر، فقال الإسرائيلي، ما يبكيك؟ قال: أبكي أنك فعلت ما فعلت، ولا أجد شيئاً أجزيك، قال: بلى شيئاً يسيراً..

إن ملكك أطعني، فجعل الآخر يتبعه ويقول: تستهزئ بي!! ولا يمنعه أن يعطيه ما سأل، إلا أنه يرى أنه يستهزئ به، فبكى الإسرائيلي وقال: لقد علمت ما يمنحك أن تعطيني ما سألتك إلا أن الله يريد أن ينفذ ما قد قضاه، وكتب في كتابه...

وضرب الدهر من ضربه، فقال يوماً - صيحون - وهو ملك فارس ببابل لو أنا بعثنا طليعة إلى الشام.. وخرج بختنصر في مطبخه لم يخرج إلا ليأكل في مطبخه فلما قدم

(١) انظر تفسير الطبري ١٥/٢٩-٣٠.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٥/٣٠.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٥/٢١-٢٢.

الشام، ورأى صاحب الطليعة أكثر أرض الله فرساً ورجلاً جُلداً، فكبر ذلك في روعه، فلم يسأل [عن شيء]..

قال فجعل يختصر يجلس مجالس أهل الشام، فيقول: ما يمنعكم أن تغزوا بابل، فلو غزوتوها ما دون بيت ما لها شيء، قالوا لا نحسن القتال، قال: فلو أنكم غزوتهم، قالوا: إنما لا نحسن القتال، ولا نقاتل.. حتى أنفذ مجالس أهل الشام.. ثم رجعوا فأخبر الطليعة ملكهم بما رأى وجعل يختصر يقول لفوارس الملك: لو دعاني الملك لأخبرته غير ما أخبره فلان، فرفع ذلك إليه، فدعاه فأخبره الخبر، وقال إن فلان لما رأى أكثر أرض الله فرساً ورجلاً جُلداً، كبر ذلك في روعه، ولم يسألهم عن شيء وإني لم أدع مجلساً بالشام إلا جالست أهله، فقلت لهم كذا وكذا، وقالوا لي كذا وكذا^(١)..

ثم ضرب الدهر من ضربه - [وعزم الملك على إرسال جيش إلى الشام] فدعا يختصر وأرسله وانتخب معه أربعة آلاف من فرسانهم فانطلقوا فجاسوا خلال الديار، فسبوا ما شاء الله ولم يخبوا ولم يقتلوا، ومات صيحوون الملك قالوا استخلفوا رجلاً قالوا: على رسلهم حتى تأتي أصحابكم، فإنهم فرسانكم، لن ينقضوا عليكم شيئاً، أمهلوا فأمهلوا حتى جاء يختصر بالسبي وما معه، فقسّمه في الناس، فقالوا: ما رأينا أحداً أحق بالملك من هذا.. فملكوه...^(٢).

رجال السند في هذه الرواية:

● / القاسم بن سلام: قال عنه ابن معين «ثقة» وقال عنه ابن الحربي «رأيت أبا عبيد ما مثله إلا بجبل نفخ فيه الروح»^(٣).

● / الحسين: ابن داود ولقبه سنيد «ضعفه أبو داود» وقال أبو حاتم «ضعيف» وقال النسائي ليس بثقة وذكره ابن حبان في الثقات وقال «كان ضعيف التفسير»^(٤).

(١) يريد أن قائد الجيوش لما رأى كثرة الرجال خاف أن يسألهم ورجع إلى الأول فأخبره بقوتهم بينما يختصر جالسهم وسألهم وعرف جبنهم وعدم طاقتهم على القتال، فأخبر الملك بغير ما أخبره قائده.

(٢) الطبري ٢٩/١٥.

(٣) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٣١٥/٨.

(٤) انظر الضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١ وانظر تهذيب التهذيب ٣٤٤/٤. وقد خرج أحمد شاكر في تفسير الطبري ١٢٤/١ الأثر ١٤٤/ وانظر الجرح والتعديل ٣٢٦/١/٢.

- / حجاج: هو ابن محمد المصيصي، ثقة ثبت قال عنه أحمد «ما كان أضبط وأصح حديثه»^(١).
- / ابن جريج: كان من أوعية العلم - ثبتا لكنه يدللس^(٢).
- / يعلى بن مسلم: بن هرمز البصري.. قال ابن معين وأبو زرعة «ثقة» وقال يعقوب مستقيم الحديث وذكره ابن حبان في «الثقات»^(٣).
- قلت: هذا السند ضعيف لحال «سنيد» الحسين بن داود. حيث:
- / ضعفه أبو داود.
- / وقال عنه أبو حاتم «ضعيف».
- / وقال عنه النسائي «ليس ثقة».
- / وذكره ابن حبان في الثقات وقال عنه «ضعيف التفسير»^(٤).
- فالرواية بهذا السند ضعيفة لحال «سنيد» وقد خرّجه أحمد شاكر في تحقيقه للطبري^(٥).
- وعليه فلا حجة لهذه الرواية بسندها الضعيف هذا أما المتن فقد اشتمل على ما هو غريب.
- / فرجل من بني إسرائيل يقرأ المصحف.. يعني بعد نزول القرآن وظهور الإسلام فكيف تسنى له رؤية يختصر وهو سابق له بعدة قرون؟؟؟.
- / رأى في المنام يختصر فقصده إلى بابل وعالجه وأعطاه وأخذ منه كتاب بالأمان إن هو ملك وغزا بني إسرائيل.. يعني إن ذلك كان قبل الغزو^(٦) فكيف كان يقرأ القرآن قبل أن ينزل بعدة قرون؟؟؟.

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٣٤٥/١.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١٦٩/١-١٧٠ وانظر تهذيب الكمال ٣٣٨/١٨.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٤٠٥/١١.

(٤) انظر تهذيب التهذيب ٢٤٤/٤ والضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١ والجرح والتعديل ٣٢٦/٢.

(٥) في الأثر ١٤٤/ في تفسير الطبري ١٢١/١.

(٦) انظر تفسير الطبري ٢٩/١٥.

● / ذكرت الرواية إن اسم الملك صيحون وفي غيرها سنحاريب أو صحاين^(١).

فهذا الشذوذ والاضطراب يجعل الرواية غير جديرة بالاحتجاج.

٢ / الإسناد الثاني: رواية يونس بن عبد الأعلى عن سعيد بن المسيب.

قال الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب، قال أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: «ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا.. أي كناسه، فسألهم ما هذا الدم؟ قالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن»^(٢).
فرجال هذا السند هم:

● / يونس بن عبد الأعلى: «ثقة»^(٣).

● / عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي: «ثقة - حافظ - عابد»^(٤).

● / سليمان بن بلال: ذكره ابن حبان في الثقات قال عنه ابن مسعود «ثقة عاقلاً»^(٥).

● / يحيى ابن سعيد: قال العجلي «ثقة فيه - رجل صالح»^(٦).

● / سعيد بن المسيب «ثقة - فقيه المدينة - وسيد التابعين»^(٧) سبقت ترجمته فالإسناد

صحيح.

لكن المتن فيه شذوذ في أمور منها:

١ / هذه الرواية عن سعيد بن المسيب ذكرت أن بختنصر ظهر على الشام ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي ثم قتل على ذلك الدم سبعين ألفاً حتى سكن. بينما الرواية الثانية التي أوردها الطبري في (٣٢/١٥).

(١) انظر تفسير الطبري ٢١/١٥/الهامش.

(٢) الطبري ٢٩/١٥-٣٠.

(٣) انظر التقريب ٧٩٠٧ وانظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٠٠/١.

(٤) انظر التقريب ٣٦٩٤ وانظر ميزان الاعتدال ٥٢١/٢.

(٥) انظر تهذيب التهذيب ١٧٥/٤ وانظر تذكرة الحفاظ ٢٣٤/١.

(٦) انظر تهذيب التهذيب ٢٢١/١١ وانظر تذكرة الحفاظ ١٣٧/١.

(٧) انظر تذكرة الحفاظ ٥٥/١.

عن السُّدِّي أن بمختصر حاصر بيت المقدس حتى فتحها فقتل على دم يحيى سبعين ألفاً وامرأة حتى سكن ثم خرب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف فهذا الاضطراب في روايتين في نفس المعنى يدل دلالة واضحة على ضعف هذه الرواية.

٣ / الإسناد الثالث: «رواية محمد بن عمرو عن مجاهد»

قال الطبري: «حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد فجاسوا خلال الديار﴾ قال: من جاءهم من فارس يتجسسون أخبارهم، ويسمعون حديثهم، معهم بمختصر، فوعى أحاديثهم من بين أصحابه ثم رجعت فارس ولم يكن قتال، ونصرت عليهم بنو إسرائيل، فهذا وعد الأولى»^(١).

ورجال هذا السند..

● / محمد بن عمرو: أبو سهل الأنصاري البصري «ضعفه» يحيى القطان وابن معين وابن عدي.. وقال محمد بن عبد الله «ليس يساوي شيئاً»^(٢).

● / أبو عاصم: الضحاك بن مخلد الشيباني البصري - لُقِبَ بالنبيل «ثقة ثبت حافظ»^(٣).

● / عيسى: بن ميمون الجرشي - ابن داية: «ثقة» - قال ابن عينة «كان قارئاً للقرآن.. قرأ على ابن كثير» وثقة أبو حاتم وغيره^(٤).

● / ابن أبي نجيح: «ثقة» وثقة أحمد^(٥).

● / مجاهد بن جبير: «ثقة - عالم بالتفسير»^(٦).

فالرواية ضعيفة لحال «محمد بن عمرو» الذي قيل عنه أنه «لا يساوي شيئاً»..

(١) الطبري ٣٠/١٥.

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٦٧٤/٣.

(٣) تذكرة الحفاظ ٣٦٦/١ وانظر تقريب التهذيب ٢٩٧٧ وتحرير التقريب ١٤٩/٢.

(٤) انظر تقريب التهذيب ٥٣٣٤ وتحرير التقريب ١٤٥/٣ أخرجه أحمد شاكر ٢٤٠/١ الأثر ٢٧٨.

(٥) انظر الخلاصة للخزرجي ٢١٧ وانظر التقريب ٣٦٦ وتحرير التقريب ٢٧٨/٢.

(٦) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٩٢/١.

وكذلك المتن لمخالفته النص القرآني - حيث أن الرواية ذكرت أنه لم يكن قتال ثم رجعت فارس ونصرت عليهم بنو إسرائيل.. والقرآن يقول إنهم جاسوا خلال الديار.. ودخلوا المسجد في المرة الأولى ولم يُنصر بنو إسرائيل عليهم.. بل وأخذ المسجد بعدما جيس خلال ديارهم. وقد صرح الشيخ سعيد حوى في تفسيره الأساس، بأن (ذلك ما توهمه بعض المفسرين الذين ليس لهم مستند إلا الروايات الإسرائيلية وهي لا تفيد ما توهموه)^(١).

٤ / الإسناد الرابع: «رواية موسى بن هارون عن ابن عباس»:

قال الطبري: «وكان فساد بني إسرائيل في الأرض المرة الأولى ما حدثني به موسى ابن هارون، قال ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره عن أبي صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس وعن مرة عن عبد الله أن الله عهد إلى بني إسرائيل... الخ. قلت: وقد سبق إيراد هذه الرواية^(٢) وتحقيق سندها وقلنا إنها ضعيفة وذلك.

● / لجهالة موسى بن هارون.

● / لضعف ابن كريمة السدي كما أخرج ذلك أحمد شاكر في تحقيقه للطبري^(٣).

● / ثم شذوذ متنها واضطراب إسم الملك بين سنحاريب وصحابين^(٤).

لذا فلا حجة لهذه الرواية.

٤ - مناقشة القول الرابع - من أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في

الإفساد الأول.. إنهم «جند من فارس» فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي^(٥) كلهم عن مجاهد، فقد اعتمدوا في ذلك على ما أورده الإمام الطبري في تفسيره بأسانيد ثلاث من رواية مجاهد... وهي:

(١) انظر الأساس في التفسير ٣٠٤٢/٦.

(٢) انظر المطلب الأول في مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الأول عند مناقشة القول الأول.

(٣) انظر الطبري ١٥٦/١ تحقيق أحمد شاكر الأثر ١٦٨.

(٤) ورد في تاريخ الطبري ٦٥٧/٢ أنه صيمانين، وفي بعض النسخ: صحابين وصيحابين وسنحاريب وغيره انظر تفسير الطبري ٢١/١٥ هامش رقم ١.

(٥) انظر الطبري ٣٠/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ٩/٥ والرازي ١٥٦/٢٠ والقرطبي ٢١٥/١٠.

١ / السند الأول:

قال الطبري: «حدثني محمد بن عمرو، قال ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا...﴾ فهذا وعد الأول».

قلت وقد سبق تحقيق هذه الرواية قبل قليل في الإسناد الثالث للقول الثالث..

وقد ثبت ضعف هذه الرواية لحال محمد بن عمرو ولمخالفة متنها للنص القرآني وللحقائق التاريخية الثابتة^(١).

٢ / السند الثاني:

قال الطبري: «حدثني الحارث، قال ثنا الحسين، قال ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ جند جاءهم من فارس يتجسسون أخبارهم...»^(٢).

قلت: لما رأيت في هذا السند - الحسين بن داود والذي هو «سنيد» وترجمته في كتب الجرح والتعديل تدل على أنه قد..

* ضعفه أبو داود.

* وقال عنه أبو حاتم «ضعيف».

* وقال النسائي «ليس بثقة».

* وذكره ابن حبان في الثقات وقال «ضعيف التفسير»^(٣).

فالرواية ضعيفة لحال «سنيد» كما قال أحمد شاكر. فلا يحتج بها. إذ كان الاضطراب في متنها واضح كذلك وليس في سندها فقط. فان الجند الذين جاؤوهم من فارس ما جاسوا خلال ديارهم وما دخلوا المسجد ولن يدخلوه وما كانت لبني إسرائيل كربة عليهم ولن تكون..

(١) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٦٧٤/٣. وانظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٤٢/٦.

(٢) الطبري ٣٠/١٥.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٣٤٤/٤ والضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١ والجرح والتعديل ٣٢٦/١/٢.

وقد خرج أحمد شاكر في تفسير الطبري الأثر ١٤٤ في ١٢٤/١.

قال الطبري: «حدثنا القاسم، قال ثنا الحسين، قال ثني حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ قال: ذلك أي من جاءهم من فارس...^(١).

رجال السند:

- / القاسم: بن سلام، قال عنه ابن معين «ثقة»^(٢).
- / الحسين: بن داود ولقبه «سنيد» ضعفه أبو داود وقال أبو حاتم «ضعيف» وقال النسائي ليس بثقة^(٣).
- / حجاج: بن محمد المصيصي ثقة سبقت ترجمته^(٤).
- / ابن جريج: مجمع على ثقته مع أنه يدلّس^(٥).
- / مجاهد بن جبير «ثقة - جبل»^(٦).

فالسند ضعيف لحال سنيد - الحسين بن داود - وعليه فلا حجة لهذه الرواية من ناحية السند لضعفه.. وكذلك لشذوذ متنها فما قيل في سابقها ينسحب إلى هذه هنا.

المطلب الثاني

أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني

أ / من قتل من الأنبياء فيه:

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الإفساد الثاني كان من بني إسرائيل حين قتلوا نبي الله - يحيى بن زكريا..

(١) الطبري ٣٠/١.

(٢) انظر تهذيب التهذيب ٣١٥/٨.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٣٤٤/٤ وانظر الضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١.

(٤) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٣٤٥/١.

(٥) انظر تهذيب الكمال ٣٧٨/١٨ وميزان الاعتدال ١٨٥/٢ وانظر التقريب ٤١٩٣.

(٦) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٩١/١.

ذكر ذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والقرطبي والشوكاني^(١).

وكان هذا القول منهم شبه إجماع.. لاعتمادهم على ما قاله الطبري من جهة
ولاعتماد بعضهم على بعض من جهة أخرى.. فكل مفسر يقول بما قال به سابقه دون
الرجوع إلى أصل الخبر والرواية التي بُنيت عليها هذه الأقوال.. وهي التي أوردتها الطبري
في تفسيره^(٢) وقد تبين لنا ضعف أسانيدها ومخالفتها لمعطيات النصوص القرآنية وللحقائق
التاريخية كذلك.

ب / من بعث عليهم فيه:

اختلف المفسرون في هذه القضية ... واختلافهم كان إلى أربعة أقوال..

القول الأول:

أنه «بختنصر» وهو الراجح عند المفسرين فقد ذكر ذلك الطبري والماوردي
وابن الجوزي والرازي والقرطبي والآلوسي^(٣)..

ولقد أورد بعض المفسرين أقوالاً - أخرى - فيمن تعرّض لبني إسرائيل غير
«بختنصر» لا ترقى إلى الاعتماد عليها ولا يمكن تجاهلها.. إذ أن كل مفسر قال بما ترجح
عنده على حسب ما وصل إليه من الروايات أو ما توصل إليه من دراسة تاريخ بني
إسرائيل أو توراتهم المحرفة.

وهي كما يأتي:

القول الثاني: أنه «انطياخوس الرومي» قاله الماوردي وابن الجوزي^(٤).

القول الثالث: أنه «خردوس» قاله القرطبي والآلوسي^(٥).

(١) انظر الطبري ٢٧/١٥ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/١٥ والقرطبي ٢١٨/١٠ والشوكاني.

(٢) انظر الطبري ٣٢/١٥.

(٣) انظر الطبري ٢٢/١٥-٣٤-٣٥-٣٦ والماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/١٥ والرازي ١٥٨/٢٠
والقرطبي ٢٢٠/١٠ والآلوسي ٢٠/١٥.

(٤) انظر الماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/١٥.

(٥) القرطبي ٢٢٠/١٠ والآلوسي ٢٠/١٥.

القول الرابع: أنه «الاسكندر» قاله الآلوسي^(١).

وقبل أن نبدأ بمناقشة هذه الأقوال.. أود أن أنبه إلى أن هذه الأقوال التي ذكرناها هنا والتي سبق ذكرها إنما وردت في أهم تفاسير الأقدمين.. وهناك أقوال لمفسرين محدثين خالفوا الأقدمين فيها وربما وافقوهم في بعضها سأذكرها فيما بعد وأناقشها بقدر تعلق الأمر بموضوعنا الذي نحن بصددده وهو إفسادي بني إسرائيل ومن تعرض لهم فيهما إن شاء الله تعالى..

أ / مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الثاني

قال الإمام الطبري: «وأما إفسادهم في الأرض المرة الآخرة، فلا اختلاف بين أهل العلم، أنه كان قتلهم يحيى بن زكريا..»^(٢).

وقال في موضع آخر: «وكان مجيء وعد المرة الآخرة عند قتلهم يحيى»^(٣) وساق الرواية التي اعتمد عليها من جاء بعده من المفسرين الذين قالوا ما قاله الطبري وهم الماوردي وابن الجوزي والقرطبي والشوكاني^(٤) غير أنهم جعلوا مع قتل يحيى العزم على قتل عيسى..

بينما ذهب غيرهم كالرازي والآلوسي إلى أن قتل يحيى صاحبه قتل أبيه زكريا^(٥).. لكن القول الأساس هو قتل يحيى عليه الصلاة والسلام.

مناقشة هذا القول:

قال الطبري: «حدثنا موسى بن هارون، قال ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط عن السدي في الحديث الذي ذكرنا أسناده قبل^(٦) إن رجلاً من بني إسرائيل رأى في النوم إن

(١) الآلوسي ٢٠/١٥.

(٢) الطبري ٢٧/١٥.

(٣) الطبري ٣٢.

(٤) انظر الماوردي ٤٢٣/٨ وابن الجوزي ١١/٥ والقرطبي ٢١٨/١٠ والشوكاني.

(٥) انظر الرازي ١٥٨/٢٠ والآلوسي ١٧/١٥.

(٦) في ٢١/١٥.

خرباب بيت المقدس وهلاك بني إسرائيل على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل، يدعى بختنصر، وكانوا يصدقون، فتصدق رؤياهم، فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب، فلما جاء وعلى رأسه حزمة من حطب القاهها، ثم قعد إلى جانب البيت فضمه، ثم أعطاه ثلاثة دراهم فقال اشتر لنا بها طعاماً وشراباً - وبعد ثلاثة أيام - قال له: إني أحب أن تكتب لي أماناً إن أنت ملكت يوماً من الدهر، فقال: أتسخر بي؟ فقال: إني لا أسخر بك، ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندي يداً، فكلمته أمه،... فكتب له أماناً، فقال له: رأيت إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، فاجعل لي آية تعرفني بها.. قال ترفع صحيفتك على قصبة أعرفك بها، فكساه وأعطاه، ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويُدني مجلسه، ويستشير في أمره ولا يقطع أمراً دونه، وأنه هوى أن يتزوج ابنة امرأة له، فسأل يحيى عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال: «لست أرضاها لك» فبلغ ذلك أمها، فحققت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها، فعمدت أم الجارية حين جلس الملك على شرابه، فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً وطيبتها وألبستها من الحلبي.. وأرسلتها إلى الملك، وأمرها أن تسقيه وأن تعرض له نفسها، فان أرادها على نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاه ذلك، سألته أن يأتي برأس يحيى بن زكريا في طست، ففعلت.. فقال: ما الذي تسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا، فأوتى برأسه في هذا الطست... فلما ألححت عليه بعث إليه، فأتي برأسه، والرأس يتكلم، حتى وضع بين يديه وهو يقول: «لا يحل لك ذلك» فلما أصبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقى عليه، فرقى الدم فوق التراب يغلي... حتى بلغ سور المدينة وهو يغلي وبلغ صيحاين، فثار في الناس وأراد أن يبعث جيشاً، ويؤمر عليهم رجلاً، فأتاه بختنصر وكلمه... فبعثه، فسار بختنصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منه في مدائنهم، فلم يطقهم فلما اشتد عليهم المقام وجاع وأصحابه أرادوا الرجوع، فخرجت إليهم عجوز من عجائز بني إسرائيل... فقالت: رأيت أن فتحت لك المدينة أتعطيني ما سألتك، وتقتل من أمرتك بقتله، وتكف إذا أمرتك أن تكف؟ قال: نعم.. فطلبت منه أن يستفتح بدم يحيى ففعل - فتساقطت المدينة فقالت أقتل على

هذا الدم حتى يسكن وانطلقت به إلى دم يحيى وهو على تراب كثير فقتل عليه حتى سكن سبعين ألفاً وامرأة... وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف، وقال من طرح فيه جيفة فله جزيته تلك السنة، وأعانه على خرابه الروم، من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى، فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بني إسرائيل وأشرافهم، وذهب بدانيال وعلياء وعزارياء وميشائيل، هؤلاء كلهم من أولاد الأنبياء... وذهب معه برأس جالوت. فلما قدم أرض بابل وجد صحابين قد مات، فملك مكانه»^(١)..

قلت: سبق تحقيق هذا السند وظهر من خلال ترجمة رجاله جهالة موسى بن هارون الذي قال عنه أحمد شاكر لم أجد له ترجمة ولا ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع^(٢).

وكذلك لضعف إسماعيل بن كريمة السدي... قال عنه يحيى بن معين «في حديثه ضعف» وقال عنه أبو حاتم «يكتب حديثه ولا يحتج به»^(٣).

فالرواية من ناحية السند ضعيفة لا يحتج بها.

وأما من ناحية المتن فإن فيها خللاً في عدة مواضع منها، مما يجعلها غير جديرة بالاحتجاج.

ومن هذه الأمور...

١- ذكرت الرواية إن بختنصر كان غلاماً يتيماً في بابل. فجاءه الرجل وأخذ منه كتاب أمان وأكرمه وأعطاه ورجع.

٢- وذكرت الرواية إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه ويستشيريه في أمره ولا يقطع أمراً دونه مما يدل على إن يحيى كان له حظوة لدى الملك.. وفي الرد على هذا ننقل ما قاله الرازي في هذا الشأن.

(١) الطبري ٣٢/١٥-٣٣.

(٢) انظر تحقيق أحمد شاكر للطبري ١٥٧/١.

(٣) انظر تهذيب الكمال ١٣١/٣.

قال الإمام الرازي - بالنص - : (ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ فيه مسائل.

المسألة الأولى: قال المفسرون معناه وعد المرة الأخيرة، وهذه المرة الأخيرة هي أقدامهم على قتل زكريا ويحيى (عليهما الصلاة والسلام).. قال الواحدي: فبعث الله تعالى عليهم بمختصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس...).

أقول [الكلام للرازي]: التواريخ تشهد بأن بمختصر كان قبل وقت عيسى عليه السلام. ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ومعلوم إن الملك الذي انتقم من اليهود بسب هؤلاء ملك من ملوك الروم يقال له «قسطنطين الملك»... والله أعلم بأحوالهم»^(١).

٣- ذكرت الرواية أمراً غريباً وهو إن بمختصر قد ذهب معه برأس جالوت إلى أرض بابل...!! مع العلم إن جالوت قتل على يد داود قبل مقتل يحيى بسنين طويلة وبمختصر لم يعاصر جالوت ولا يحيى.. فانظر..

هذا الاضطراب الشديد في متن الرواية يجعلها لا تساوي شيئاً البتة.

ب / مناقشة أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الثاني.
للمفسرين في ذلك اختلاف إلى أقوال أربعة:

قال عنها الإمام الطبري: «وقد اختلفوا في الذي سلطه الله عليهم منتقما به منهم عند ذلك.. وأنا ذاكرٌ اختلافهم في ذلك إن شاء الله»^(٢).

وقبل البدء بأقوال المفسرين في ذلك أود أن أبين أمرين..

الأمر الأول - إن الإمام الطبري هو أول من قال إن «بمختصر» هو الذي تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الثاني يفهم هذا من إirاده ست روايات بأسانيد مختلفة في تأكيد هذا المعنى وهي باختصار..

(١) انظر الرازي ١٥٨/٢٠، وسوف يأتي من الأدلة الكثيرة في مناقشة قول من قال: إن الذي تعرض لبني إسرائيل هو بمختصر.

(٢) الطبري ٢٧/١٥.

١- رواية يونس - عن ابن زيد في ٢٢/١٥.

٢- رواية يعقوب - عن ابن جبير ٣٤/١٥.

٣- رواية محمد بن عمرو - عن مجاهد في ٣٥/١٥.

٤- رواية بشر - عن قتادة في ٣٦/١٥.

٥- رواية محمد بن عبد الأعلى عن قتادة أيضاً في ٣٦/١٥.

٦- رواية محمد بن سعد - عن ابن عباس في ٣٦/١٥.

كلهم في أنه «بختنصر».

الأمر الثاني - إن كل من جاء بعده من المفسرين قال بما قاله الطبري من إن المبعوث عليهم «بختنصر» غير إن كل واحد منهم اعتمد على ما رآه صحيحاً من هذه الروايات الستة وترك الباقي وأنا ذاكر في مناقشة أقوال المفسرين الرواية التي اعتمدها كل مفسر في قوله الذي قال به.. إن شاء الله تعالى.

مناقشة القول الأول:

بأن «بختنصر» هو الذي بعث على بني إسرائيل في فسادهم الثاني وبه قال الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي والآلوسي - كما قدمنا .. وقد اعتمدوا في ذلك على الروايات التي أوردها الطبري في تفسيره بأسانيد عدة.. وهي كما يأتي:

السند الأول - من رواية يونس عن أبي زيد..

قال الطبري: «حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال بن زيد: كان إفسادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين، قتل يحيى بن زكريا، سلط الله عليهم سابور ذا الأكثاف، ملكاً من ملوك فارس، من قتل زكريا، وسلط عليهم بختنصر من قتل يحيى»^(١).

رجال هذا السند هم:

● / يونس بن عبد الأعلى: (ثقة) (إمام كبير)^(٢).

(١) الطبري ٢٢/١٥، و ٤٠/١٥.

(٢) انظر التقريب ٧٩٠٧. وانظر طبقات الشافعية للسبكي ٢٧٩/١.

- /عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي: (ثقة حافظ عابد)^(١).
- /عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: متأخر - ضعيف جداً - قال عنه ابن خزيمة (ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه، وهو رجل صناعته العبادة والتقشف، ليس من أحلاس الحديث)^(٢).

وعليه فالرواية ضعيفة لحال ابن زيد.

قلت وكذلك المتن فان فيه شذوذاً منها:

١ - جعل الإفساد الأول عند قتل زكريا وقد سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف.

٢ - جعل الإفساد الثاني عند قتل يحيى بن زكريا وقد سلط الله عليهم بختنصر.

قلت: ...

الأول: أجمع علماء التفسير إن الفترة بين العقوبتين فصلت بينهما (ثم) التي تقتضي التراخي في الزمن والبعد فيه وقتل زكريا كان معاصراً لقتل يحيى كما هو ثابت تأريخياً.. فأين الكثرة التي بينهما كما أخبر القرآن؟ ثم إن قتل زكريا متأخر جداً عن تعرض سابور لبني إسرائيل.

الثاني: إن القول بتسليط بختنصر على بني إسرائيل عند قتلهم يحيى باطل كما قال الإمام الرازي^(٣). وكما جاء في القرطبي من قول السهيلي ما نصه (وهذا لا يصح، لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى ابن مريم عليه السلام بزمان طويل.. وقبل الاسكندر، وبين الاسكندر وعيسى نحو من ثلاثمائة سنة... وقال الثعالبي: ومن روى إن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عن قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار...)^(٤).

(١) انظر التقريب ٣٦٩٤. وانظر ميزان الاعتدال ٥٢١/٢.

(٢) انظر التقريب ٣٨٦٥. وانظر ميزان الاعتدال ٥٦٤/٢. وتهذيب التهذيب لابن حجر ١٧٨/٦. وقد

ضعفه احمد شاكر في تحقيقه للطبري انظر ١٧٦/١. الأثر ١٨٥.

(٣) انظر الرازي ١٥٨/٢٠.

(٤) انظر القرطبي ٢٢٠/٢٠.

فمما تقدم نجد أن هذه الرواية لا قيمة لها.

السند الثاني: من رواية يعقوب.. عن سعيد بن جبير.

قال الطبري: «حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن عليّة، عن أبي المعلى، قال: سمعت سعيد بن جبير قال: بعث الله عليهم في المرّة الأولى سنحاريب، قال: فردّ الله لهم الكرة عليهم كما قال..»

قال: ثم عصوا ربهم وعادوا لما هو عنه، فبعث عليهم في المرّة الآخرة بختنصر فقتل المقاتلة وسبى الذريّة وأخذ ما وجد من الأموال...»^(١).

ورجال هذا السند هم:

- / يعقوب بن إبراهيم: «ثقة»^(٢).
- / ابن عليّة إسماعيل بن إبراهيم الأسدي: «ثقة حافظ»^(٣).
- / أبو المعلى يحيى بن ميمون: «ثقة»^(٤).
- / سعيد بن جبير: «ثقة ثبت فقيه جهيزة العلماء»^(٥).

فالإسناد صحيح قائم...

أما من ناحية المتن فما قلناه عن متن الرواية قبل هذه يقال هنا لمشابهته في الشذوذ^(٦).

السند الثالث: من رواية محمد بن عمرو... عن مجاهد.

قال الطبري:

(حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى.. وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد «فإذا جاء وعد

(١) انظر بقية الرواية في الطبري ٣٤/١٥

(٢) انظر التقريب ٧٨١٢. والخلاصة للخزرجي ٤٣٦.

(٣) انظر التقريب ٤١٦. والخلاصة للخزرجي ٣٢.

(٤) انظر التقريب ٧٦٥٨.

(٥) انظر التقريب ٢٢٧٨. وانظر تهذيب التهذيب ١١/٤. وتذكرة الحفاظ ٧٦/١.

(٦) يراجع ما قاله الرازي حول هذا الموضوع في تفسيره ١٥٨/٢٠.

الآخرة، ليسوؤا وجوهكم» قال: بعث الله ملك فارس بيا بل جيشاً وأمر عليهم بختنصر، فأتوا بني إسرائيل فدمروهم، فكانت هذه الآخرة ووعدھا^(١).
قلت: ...

هذا السند مجموع من طريقين مدارهما عن أبي نجیح عن مجاهد.
أما الطريق الأول: - فقد ثبت ضعفه لحال محمد بن عمرو الذي سبقت ترجمته^(٢).
والطريق الثاني: - الذي ورد عن الحارث فان فيه - الحسين بن داود - سنيد -
فقد ضعفه أبو داود وأبو حاتم وقد سبقت ترجمته^(٣).
وعليه فالرواية ضعيفة في كلا طريقها من ناحية السند وكذلك المتن فان ما قاله
الإمام الرازي يشمله من حيث مخالفة الحقائق التاريخية لها^(٤).

السند الرابع: من رواية بشر عن قتادة.

قال الطبري: (حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ آخر العقوبتين
﴿ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ كما دخله عدوهم قبل
ذلك ﴿وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ فبعث الله عليهم في الآخرة بختنصر الجوسي البابلي،
أبغض خلق الله إليه، فسبا وقتل وخرّب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب^(٥).
قلت: فرجال هذا السند ثقات سبق تخريجه وقد وثقه أحمد شاكر في تحقيقه للطبري^(٦).

(١) الطبري ٣٥/١٥. قلت قد وقع هنا تصحيف في احد رجال الطريق الثاني حيث ذكر «وحدثني
الحارث. قال ثنى الحسن» بينما هو الحسين انظر الطبري ٣٠/١٥.

(٢) انظر صفحة ١٤٠.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ٢٤٤/٤، والضعفاء والمتروكين للذهبي ٣٦٢/١ وانظر ص ١٣٩ وص ١٤٢.

(٤) انظر تفسير الرازي ١٥٨/١٥. والقرطبي ٢٢٠/١٠، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٦١/١.

(٥) الطبري ٣٦/١٥.

(٦) انظر تفسير الطبري ١٦٣/١. وانظر تحقيقنا له في الإسناد الثاني من مناقشة القول الأول فيمن بعث
عليهم في الإفساد الأول «جالوت».

فالسند صحيح.

أما المتن فيناله نقد الرازي والقرطبي المتقدمين من أن القول بتعرض بختنصر لبني إسرائيل في الإفساد الثاني باطل فليراجع^(١)..

السند الخامس: رواية محمد بن عبد الأعلى عن قتادة..

قال الطبري: (حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة قال ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ من المرتين ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ قال: ليقبحوا وجوهكم ﴿وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ قال: يدمروا ما علوا تدميرا قال: هو بختنصر، بعثه الله عليهم في المرة الآخرة...)^(٢).

قلت: ورجال هذا السند ثقات أيضاً وقد سبق تخريجهم^(٣) فالسند صحيح. غير إن المتن اعتراه من الشذوذ ما جعل اعتراض أئمة التفسير والحديث عليه يسقطون العمل به وهو جعل بختنصر هو المبعوث عليهم في المرة الآخرة حيث اعترض الإمام الرازي والقرطبي على ذلك كما قدمنا في السند السابق^(٤).

السند السادس: من رواية محمد بن سعد عن ابن عباس.

قال الطبري: (حدثنا محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قال: فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الآخرة بختنصر، فخرّب المساجد وتبر ما علوا تتبيرا)^(٥).

قلت: كذلك هذا السند قد سبق تخريجه وتبيان ضعفه إذ أنه مكون من سلسلة الضعفاء، وقد ضعفه أحمد شاكر في تحقيقه للطبري^(٦).

وما قيل عن متن سابقه يقال عنه هنا وعليه فلا قيمة لهذه الرواية.

(١) انظر ما قاله الرازي في ١٥٨/٢٠. والقرطبي في ٢٢٠/١٠.

(٢) الطبري ٣٦/١٥.

(٣) انظر المطلب الأول فرع/ب مناقشة القول الأول عند الاسناد الثالث.

(٤) انظر الرازي ١٥٨/١٠. والقرطبي في ٢٢٠/٢٠.

(٥) الطبري ٣٦/١٥.

(٦) انظر الطبري ٢٦٣/١-٢٦٤ الهامش وانظر المطلب الأول عند مناقشة القول الأول - السند الأول.

قال ابن الأثير: (قد اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه بختنصر على بني إسرائيل فقليل كان في عهد ارميا النبي ودانيال وحنانيا وعزارياء وميشائيل.. وقيل إنما أرسله الله على بني إسرائيل لما قتلوا يحيى بن زكريا.. والأول أكثر)^(١).

كذا قال ابن الأثير وأصاب فان من قال إن ذلك حدث في زمن يحيى فقد أبعد النجع بدليل ما تقدم من الآثار وأقوال المفسرين والمؤرخين وأهل السير وكما سنرى إن شاء الله تعالى.

بعد أن ناقشنا القول الراجح فيمن تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الثاني من أنه (بختنصر) نصل إلى أقوال بعض المفسرين التي لا تخرج عن كونها مجرد احتمال من باب قيل ويقال من جهة ومن جهة أخرى فأما أسندت إلى من كان ضعيفاً أو متروكاً كما سنرى.

القول الثاني: أنه «انطياخوس الرومي»..

لقد ذكر ذلك الماوردي وابن الجوزي في تفسيريهما^(٢) عن مقاتل دون أن يوردا سند الرواية التي اعتمداها في هذا القول ولم أجدها في الطبري بعد البحث.. ولكن نقول ابتداءً انه مهما يكن من أمر هذه الرواية فان السند الذي يروى عن مقاتل لا يحتج به أهل الحديث خصوصاً في التفسير..

أقول ذلك بعد ما اطلعت على ترجمته في كتب الجرح والتعديل فقد قال عنه أبو حاتم (متروك الحديث) وقال عنه ابن حبان (كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن والذي يوافق كتبهم)^(٣) وقال عنه الذهبي (قد لُطِّخ بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم.. بجرأ في التفسير)^(٤).

... قلت: ثم في تعرض انطياخوس وغيره إلى بني إسرائيل في زمن يحيى لا يشكل أمراً مهماً ذي بال.. إذ أن أساس القضية ليس صحيحاً في اعتبار أن قتل يحيى عليه

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير ٢٦١/١.

(٢) انظر الماوردي ٤٢٥/٨ وابن الجوزي ١١/٥.

(٣) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٧٩/١٠.

(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ١٧٤/١.

السلام هو الإفساد الثاني الذي قال به أهل التفسير كما سنرى ذلك من خلال المعطيات القرآنية لآيات الإفساد في هذه القضية..

القول الثالث: أنه «خردوس»..

فقد ذكر ذلك القرطبي عن محمد بن إسحاق وكذا الآلوسي لكنه سماه (خردوش). قلت: لقد اعتمد القرطبي في هذا القول... ولعل الآلوسي كذلك على رواية وجدتها في الطبري عن ابن إسحاق..

حيث قال الطبري: (حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: قال ابن إسحاق: فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم، وقتلوا يحيى بن زكريا «وبعض الناس يقول: قتلوا زكريا» ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له: خردوس فسار بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام... الرواية^(١)).

قلت: سند هذه الرواية ضعيف كما سبق تخريجها^(٢).

فإن فيها - محمد بن حميد الذي «كذبه أبو زرعة وابن خراش وصالح جزرة» وقال عنه البخاري «فيه نظر» وضعفه الذهبي^(٣).

وكذلك لحال (سلمة بن الفضل الأبرش «ضعفه» البخاري والنسائي وقال ابن حبان «يخطأ ويخالف» وقال عنه أبو حاتم الرازي «محله الصدق في حديثه نكارة - يكتب حديثه ولا يحتج به»^(٤)).

وكذلك ابن إسحاق فقد اختلف أهل الجرح والتعديل في قبول مروياتهم، وقد قال عنه الذهبي «ما تفرد به ففيه نكارة فان في حفظه شيء»^(٥).

قلت: ورغم ضعف السند عن ابن إسحاق فان في المتن ما يعيب منه - إن الرواية ذكرت أنه حين قتلوا يحيى بن زكريا ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له:

(١) الطبري ٤١/١٥.

(٢) انظر المطلب الأول - عند مناقشة القول الثاني - قتل شعيباء.

(٣) ميزان الاعتدال ٥٣٠/٣. والتقريب ٥٨٣٤.

(٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ١٥٣/٤.

(٥) انظر ميزان الاعتدال ٤٧٥/٣. وانظر تذكرة الحفاظ ١٧٢/١.

خردوس فسار إليهم بأهل بابل. ومن المعلوم إن يحيى لم يكن معاصراً للمرحلة التي تعرض فيها البابليون لبني إسرائيل إذ إن البابليين الذين منهم سنحاريب وبختنصر تعرضوا لبني إسرائيل في زمن دولتي بني إسرائيل «إسرائيل ويهوذا» وليس في زمن يحيى.. وكتب التاريخ تشهد بهذا.

وكذلك فإن اضطراب الأقوال في إسم هذا الملك يفقد قيمة الخبر حيث أورده القرطبي «خردوس» على ما جاء في رواية الطبري عن ابن إسحاق.. وقال الآلوسي بعد أن ذكر اسمه (وقيل: اسمه «بيروودس» من ملوك الطوائف) وقال أيضاً (وكأنه هو خردوس الذي مرّ آنفاً)^(١).

وعليه فلا قيمة لهذه الرواية ولا لهذا القول.

القول الرابع: «الاسكندر»..

أورد الآلوسي هذا القول بعد أن ذكر اعتراض السهيلي على من قال إن الذي تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الثاني «بختنصر» حيث قال: (واختلف في تعيين هؤلاء العباد المبعوثين بعد أن ذكروا قتل يحيى عليه السلام في الإفساد الأخير.. فقال غير واحد: إنه بختنصر وجنوده وتعقبه السهيلي بأنه لا يصح.. لأن قتل يحيى بعد رفع عيسى عليه السلام وبختنصر كان قبل عيسى بزمن طويل)^(٢).

ثم قال الآلوسي: «وقيل الاسكندر وجنوده، وتعقبه أيضاً بان بين الاسكندر وعيسى عليه السلام نحواً من ثلثمائة سنة»^(٣).

ويؤيد هذا القرطبي في تفسيره لكنه يجعل المدّة «من بعد مملكة الاسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاث وستين سنة»^(٤).

قلت: لا أجدني مضطراً للتعليق على قول السهيلي في ردّ هذا الخبر الذي ليس له إسناد أولاً. ومجيئه من باب «قيل» ثانياً. ولأن الاسكندر لم يرى يحيى في حياته ثالثاً. ولن يراه.

(١) الآلوسي ٢٠/١٥.

(٢) قلت هذا الكلام يؤيد ما قاله الرازي والقرطبي الذي بيناه من قبل في هذا الموضوع.

(٣) الآلوسي ٢٠/١٥.

(٤) القرطبي ٢٢٠/١٠.

ومع ذلك فقد ناقش هذه المسألة الإمام الآلوسي نفسه في تفسيره لا مجال لذكرها هنا فراجعها هناك^(١).

ولعل من تمام القول أن ننبه إلى مسائل عدة.. تكون كوضع النقاط على الحروف والتأكيد على أن ما قال به المفسرون ينبغي أن يراجع لعدم إمكان التسليم به لما بينا. وهذه المسائل هي:

أولاً: ترك بعض المفسرين الكبار الخوض في هذه المسألة الشائكة وعدم التسليم بصحة كل ما جاء فيها.. كأبي الفداء إسماعيل بن كثير في تفسيره حيث اقتصر على ذكر بعض الأقوال فيمن تعرّض لهم دون التطويل الذي قال عنه «وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل هذا الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً ونحن في غنية عنه والله الحمد».. وقال «وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته.. والله أعلم»^(٢).

ثانياً: توقف البعض عن الجزم في هذا الموضوع كصاحب صفوة البيان حين نقل عن الجبائي قوله «إنه تعالى لم يبين ذلك فلا يقطع فيه بخير»^(٣).

قلت: لقد أخرج أحمد شاكر في تحقيقه للطبري «٣٤٤/١» في ترجمة الجبائي أنه كان يروي عن الكتب «يريد الكتب المنسوبة لأهل الكتاب من الأساطير» أي أنه كان يفسر القرآن بما يرويه من الأساطير المأخوذة عن كتب أهل الكتاب.. ثم قال.. وقد ترجم له البخاري في الكبير «٢١٩/٢/١» وترجمه ابن أبي حاتم في «٣٥٣/١/٢»^(٤). فانظر.... وهو الذي قال «إن الله لم يبين ذلك فلا يقطع فيه بخير؟».

(١) انظر الآلوسي ٢٠/١٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٢.

(٣) انظر صفوة البيان - محمد حسنين مخلوف ص ٣٥٩.

(٤) انظر تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر ٣٤٤/١.

ثالثاً: منهم من أعرض عن الخوض في هذه المسألة كلياً.. كصاحب أضواء البيان إذ قال في تفسيره ما نصه «وتركنا بسط قصة الذين سُلطوا عليهم في المرتين، لأنها أخبار إسرائيلية، وهي مشهورة في كتب التفسير والتأريخ.. والعلم عند الله تعالى»^(١).
إذ أنه اعتمد على تفسيره للقرآن بالقرآن - كما هو منهج أهل العلم من الأقدمين كخطوة أولى.. وذلك ما كان مفهوماً من قول ابن كثير في تفسيره حيث قال: (وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم...)^(٢).
رابعاً: ومنهم من ترك النص والتعبير القرآني وأمسك التوراة وفتش في أسفارها ليجد تفسيراً لهذه الآيات التي ما جاءت إلا لتبين ما أخفته التوراة وما حرّفه أولياء الشيطان وما بدّله المغضوب عليهم حتى لا يهتدي الضالون من النصارى ولا يثوب إلى الرشيد المؤمنون ولعل من هؤلاء العالم الجليل ابن عاشور^(٣) ومن وافقه في الأخذ عن التوراة والإنجيل كلياً أو جزئياً..

فهذه المسائل وما شاكلها لتدل دلالة واضحة على أن هذه الآيات الخاصة بفساد بني إسرائيل في المستقبل لم تجد من يعطيها حقها ويقدرها حق تقديرها سواء في مجال مطابقة اللفظ للمعنى الذي وضع له في الاستعمال العام بدون تكلف أو تعسف أو في مجال مطابقة التفسير الواصل إلينا عن طريق المفسرين المتقدمين الذين اعتمدوا المأثور والمنقول للواقع التاريخي ببعديه الماضي البعيد والقريب وبالتالي فهو غير مطابق لما سيكون في المستقبل إذ كان هو المقصود من النص إنباءً لا إخباراً..

٥ / والمسألة الأخيرة هي قبول روايات التابعين في التفسير أو عدم قبولها فقد قال الشيخ الذهبي: (اختلف العلماء في الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثّر في ذلك شيء عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فنقل عن

(١) انظر أضواء البيان - محمد الشنقيطي ٤٠٨/٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٣) انظر مثال ذلك في تفسير التحرير والتنوير ٢٨/١٢-٢٩. و ٣٢/١٥-٣٣. وانظر ٣٧/١٥. هامش

رقم ١. الاصحاح الثالث من إنجيل مرقس وغيره كثير.

الإمام أحمد رحمه الله روايتان في ذلك، رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول، وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي.. واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي:

١ / بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ فلا يمكن الحمل عليه كما قيل في تفسير الصحابي أنه محمول على سماعه من النبي ﷺ.

٢ / أنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد.

٣ / إن عدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة - فقد - نقل عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء التابعين فهم رجال ونحن رجال...

وأضاف الذهبي: وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة..^(١).

قال الذهبي: والذي تميل إليه النفس هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به.. إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه فإنه يؤخذ به حينئذ (عند عدم الريبة) فإن ارتبنا فيه بأن كان يأخذ من أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأي فانه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

قال ابن تيمية رحمه الله: قال شعبة بن الحجاج وغيره، أقوال التابعين ليست بحجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني إنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فان اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن والسنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك^(٢).

(١) قلت: هذا في الأمر التي تلقاها الصحابة عن رسول الله ﷺ أو اجتهاد الصحابة. أما عن فساد بني إسرائيل فقلت ما قالوا به إنما أخذوه عن أهل الكتاب.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٢٨-١٢٩. وانظر مقدمة ابن تيمية في التفسير ص ٢٨-٢٩ وانظر الإتيان للسيوطي ٢/١٧٩. وانظر مقدمة الفصل الثالث.

قلت: وبناء على ما تقدم فإن أقوال التابعين - في التفسير - ليست بحجة عموماً
وأما بخصوص هذه الآيات التي تعرضت لفسادي بني إسرائيل فمن باب أولى..
لأنها:

أولاً - لم تعتمد على شيء مأثور - صحيح - عن رسول الله ﷺ ولا عن
الصحابة رضوان الله عليهم.

ثانياً - كان اعتمادهم في الغالب الأعم على الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب
كما رأينا.

ثالثاً - مخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة.

رابعاً - عدم رجوع أكثرهم إلى لغة القرآن أو عموم لغة العرب كما قال شعبة
أنفأ.. وهذا ما سنراه في المعطيات القرآنية واضحاً قوياً إن شاء الله تعالى.

المطلب الثالث

أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني

انتهينا في المطلبين السابقين من مناقشة أقوال المفسرين الأقدمين بعد حصرها وردها
إلى مصادرها من الروايات التي جاءت بها إذا كانت ضمن إطار التفسير بالمأثور..
ومن أجل الإحاطة بهذا الموضوع الشائك الذي اضطربت فيه أقوال جهابذة
التفسير والتأريخ والسير.. فسأورد أقوالاً - أخرى - لعلماء محدثين تعرضوا لتفسير هذه
الآيات فكانت لهم أقوال انفردوا بها.. وهي لا تخرج عن كونها من باب التفسير بالرأي
والاجتهاد، بناء على ما توصلوا إليه من استقرارٍ لتأريخ بني إسرائيل وما أوحى به
توراتهم ومقارنتها بما وجدوه في تفاسير الأقدمين من روايات وأقوال... وعلى الرغم من
أن ما توصل إليه المحدثون من أهل التفسير من أقوال لا ترقى إلى مستوى يمكن الاعتماد
عليه والتسليم بأنه المعنى المقصود من النص القرآني، كما هو الحال في أقوال الأقدمين،

كذلك لا يمكن تجاهلها فإنها وإن كانت في أغلبها تخالف معطيات النص القرآني إلا أن فيها من الحق الذي يمكن أن يبنى عليه أو أن يكون أساساً لفهم أعمق ووعي أرشد. وهذه الأقوال لثلاثة من أهل العلم قد شهدت لهم الدنيا بالفضل في عالمنا المعاصر اليوم - وهم:

١/ الطاهر ابن عاشور صاحب التفسير القيم (التحرير والتنوير).

٢/ محمد سيد طنطاوي صاحب كتاب (بنو إسرائيل في القرآن والسنة).

٣/ سعيد حوى صاحب (الأساس في التفسير).

فإن لكل واحد من هؤلاء الأعلام قولاً قد انفرد به ولم يعتمد فيه على غيره سأذكرها وأناقشها تباعاً.. لأخلص بعد ذلك لآراء بعض العلماء التي جانبوا فيها الصواب في - قضية فساد بني إسرائيل - وإني على يقين أنهم لم يقصدوا الخطأ حيث اجتهدوا فما نالوا الأجرين وإنما هو أجر واحد.

القول الأول: (من أقوال المحدثين العلامة: محمد الطاهر بن عاشور..بحرٌ من

العلم.. صاحب التحرير والتنوير في التفسير...).

قال ابن عاشور في تفسيره^(١) لقوله تعالى: ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ ما نصه:

(هذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين، حوادث بينهم وبين البابليين، وحوادث بينهم وبين الرومانيين، فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين:

نوع منها تدرج فيه حوادثهم مع البابليين... والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين... فعبر عن النوعين بمرتين، لأن كل منها تحتوي على عدة ملاحم..

فالمرّة الأولى: هي مجموع حوادث متسلسلة تسمى في التاريخ بـ «الأسر البابليج

وهي غزوات «بختنصر» ملك بابل وآشور، بلاد أورشليم..

* والغزو الأول كان سنة ٦٠٠ قبل المسيح، أسّر جماعات كثيرة من اليهود

ويسمى - الأسر الأول -...-

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور «٢٩/١٥».

* ثم غزاهم أيضاً غزواً يسمى - الأسر الثاني - وهو أعظم من الأول.. كان سنة ٥٩٨ / قبل المسيح واسر ملك يهوذا وجمعاً غفيراً من الإسرائيليين، واخذ الذهب الذي في هيكل سليمان.

* الأسر الثالث سنة / ٥٨٨ قبل المسيح، غزاهم "بختنصر وسي كل شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان وبقيت أورشليم خراباً ياباً...

وأما المرة الثانية: فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم^(١).

قال ابن عاشور... ولم يعد لهم الله في هذه المرة إلا بتوقع الرحمة دون رد الكرة فكان إيمانهم إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة.

وبهذا تبين إن المشار إليه بهذه المرة الأخيرة هو ما اقترفه اليهود من المفاصد والتمرد وقتل الأنبياء والصالحين والإعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبي ملاخي في الإصحاحين الثالث والرابع من كتابه، وأنذرهم زكريا ويحيى وعيسى فلم يراعوا... فضر بهم الله الضربة القاضية بيد الرومان... وذلك سنة / ١٣٥ للمسيح.. وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرقوا في الأرض ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة / ١٦ هجرية، صلحاً مع أهلها وهي تسمى يومئذٍ «إيلياء»^(٢).

مناقشة هذا القول:

قلت: إن من الواضح جداً اعتماد ابن عاشور في تفسيره لهذه الآيات - على النحو الذي نقلناه - على أمور هي في حقيقتها ليست من قواعد التفسير بقدر ما هي أمور اجتهادية في مجال التفسير بالرأي ومن خلال النظر إلى هذه الأمور يتبين لنا أن الآيات التي جاءت في سورة الإسراء بخصوص فساد بني إسرائيل في الأرض مرتين لا علاقة لها بغزوات البابليين ولا بنكبات الرومانيين.. إذ إن تعرض البابليين والفارسيين والنبطيين

(١) المصدر نفسه «٢٩/١٥».

(٢) المصدر السابق «٣٧/١٥-٣٨».

والكنعانيين من قبل والرومانيين من بعد وكل من سُلِّطَ عليهم عبر تاريخهم الطويل في القديم وفي الحديث كذلك - ممن لم يتصف بالصفات التي حددتها الآيات وحصرتها فيمن سيتعرضون لبني إسرائيل - كل أولئك إنما هم داخلون في حدود معنى (مَنْ) الواردة في قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأْذِنُ رَبُّكَ لِيُعْثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - مَنْ - يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف/١٦٧.

إن هذا قانون^(١)... قانون عقوبة خاص ببني إسرائيل، جارٍ ومهيأ في أي زمان افسدوا فيه وفي كل مكان تواجدوا فيه... (ولم يكن لعباد الله المخلصين وجود فعلي وعضوي حي متحرك قائم بذاته له دولة وسلطان).

أما الآيات في سورة الإسراء فقد أخبرت بقانون ثان هو أيضاً قانون عقوبة خاص ببني إسرائيل وهو بعث عبداً لله خالصين مخلصين أولي بأس شديد جاسوا خلال ديارهم قديماً وسوف يسؤون وجوههم مستقبلاً... ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة... وهذه قضية مهمة ينبغي التركيز على دراستها وفهمها من خلال تدبر هذه الآيات والاجتهاد في معرفة ما تعنيه والبلوغ بالمستوى الفهمي المطلوب لتهدي بالكتاب الذي ليس غيره ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وهذه الأمور التي - سنبينها على شكل نقاط - نعتب عليه فيها ولا نعذره عليها لا لشيء إلا لجلالة قدره وسعة علمه كما يشهد بذلك تفسيره القيم في مواضع كثيرة - غير هذا الموضع في القرآن كله.

أولاً / عدم ذكره لما ذهب إليه المفسرون وانفراده بتفسير معين لهذه الآيات يدل على عدم إطمئنانه إلى ما قاله المفسرون في هذين الإفسادين ومن بُعثَ عليهم فيهما... ربما لوقوفه على ضعف تلك الروايات من ناحيتي السند والمتن وما نتج عنهما من شذوذ واضطراب واضح يمنع النفس من الارتياح إليها. بل لعلها كانت حجاباً لمعنى الآيات وشغلتهن عن وحيها الأصيل المقصود من خلال التعبير القرآني وفي ذلك يقول الشيخ

(١) انظر المبحث الأول من الفصل الرابع ص/٢٠٥.

رشيد رضا: (إن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيرة حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس، المنورة للعقول)^(١).

وقد عتب ابن عاشور نفسه على المفسرين الذين حصروا اعتمادهم على هذه الروايات في تفاسيرهم فيقول: «ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فأثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفاً حتى أوهموا كثيراً من الناس أن القرآن لا تتزل آياته إلا لأجل حوادث يدعو إليها.. وبئس هذا الوهم، فإن القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة»^(٢).

ثانياً / الأمر الثاني هو أنه لم يأت بدليل واحد على أن المقصود من المرتين في الآية هي هاتان الفترتان من غزوات البابليين والرومانيين. لا من القرآن ولا من السنة وإنما الذي اعتمد عليه في تفسيره لهاتين المرتين هو الاستقراء التاريخي لماضي بني إسرائيل ولما جاء في التوراة فيما يخص هذا التاريخ^(٣) وهي هي النظرة إلى الآيات من زاوية الماضي وحصر معانيها فيه.. بحيث أنه وإن لم يتابع المفسرين في قبول وتبني الروايات والآثار الإسرائيلية التي أخذها بعض الصحابة أو نقل إلينا أنهم أخذوها عنهم^(٤) وكذلك التي أخذها التابعون مشافهة عن أهل الكتاب ثم بعد ذلك كانت عند أهل التفسير أقوالاً تناقلها المفسرون خلفاً عن سلف - على النحو الذي رأينا - دون تمييز بين صحيح أو ضعيف...

أقول إنه على الرغم من عدم متابعته للمفسرين في هذه الروايات إلا أنه تابعهم في الاعتماد على أقوال وتأويلات أهل الكتاب بصورة غير مباشرة وذلك في حالتين..

الحالة الأولى - اعتماده على الاستقراء التاريخي لحوادث ونكبات تعرض لها بنو إسرائيل - ومن ثم حمل معنى الآيات عليها.

(١) تفسير نجاهد بن جبر «١٧/١-٦» وانظر تفسير المنار «١٠/١». قلت: لعله يقصد كتلك الروايات التي أوردها الطبري في تفسيره وقد بان ضعفها بعد تحقيقها.

(٢) تفسير ابن عاشور «٤٦/١».

(٣) انظر استشهاديه بما جاء في التوراة في تفسيره «٣٢/١٥» و«٣٣/١٥» و«٣٧/١٥».

(٤) انظر القاعدة الرابعة من قواعد تفسير القرآن في مقدمة الفصل الثالث «عن عمد الرواية الإسرائيلية».

الحالة الثانية - اعتماده على ما جاء في التوراة والتلقي منها مباشرة - على الرغم من العلم لمسبق بتحريفها.. ومن ثم تفسير الآيات بها.

إن ذلك التصور المأخوذ من تأريخ بني إسرائيل.. وهذا المفهوم المأخوذ من التوراة لهُ هو الأخبار الإسرائيلية نفسها وهو الأخذ عن أهل الكتاب ولكن بإسلوب آخر.. فلئن كان بعض الصحابة والتابعين قد نقلوا أو أخذوا مشافهة تلك الأخبار ووصلت إلينا عن طريق المفسرين وكتاب التاريخ المتقدمين فإن بعض المفسرين المتأخرين من أخذها من كتب التاريخ التي كان من مصادرها علم أهل الكتاب وكذلك أخذوها من التوراة مباشرة والتي كانت المصدر الأمثل لعلم من أسلم من أهل الكتاب قبل أن يسلم.

إن من المعلوم أن لتفسير القرآن منهجاً^(١) رسمه النبي ﷺ وسار عليه من جاء بعده من الصحابة والتابعين لهم، هو أن يفسر القرآن بالقرآن فإن لم نجد فبالسنة ثم بالاجتهاد والاستنباط على أساس الرجوع إلى المفردة اللغوية^(٢) ومعرفة معانيها دون الاختصار على معنى واحد...

أما أن يفسر القرآن بإصحاحات التوراة والنكبات التي نزلت على أهلها ؟ فان ذلك غير صحيح كما اعتقد.

ثالثاً / الأمر الثالث هو مخالفة تفسيره لهذه الآيات الحقائق التاريخية والمعطيات القرآنية التي أوحى وتوحي به هذه الآيات وهي باختصار شديد..

١ / كلمة «العباد» في قوله تعالى: «عباداً لنا» لا تنطبق في مقوماتها على البابليين الكافرين ولا على الرومان الظالمين^(٣).

٢ / إذا سلّمنا إن البابليين هم المبعوثون على بني إسرائيل في فسادهم الأول فان الكرة عليهم من بني إسرائيل والتي هي بإجماع المفسرين تعني (الدولة والغلبة) بينما

(١) انظر القاعدة الأولى من قواعد التفسير القرآني في مقدمة الفصل الثالث «منهج النبي ﷺ في تفسير القرآن» (٨٨).

(٢) انظر تفسير ابن عاشور نفسه في أهمية اللغة في تفسير القرآن «٢٢/١».

(٣) انظر المعطيات القرآنية في الفصل الرابع ص ١٨٦.

يفسرها ابن عاشور (الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه)^(١). فمتى رُدَّت الكرة لهم على البابليين..؟ إن ذلك لم يحدث ولن يحدث أبداً.

٣/ صرّحت الآيات أنه في حال الكرة ستكون لهم دولة وغلبة على أعدائهم الذين جاسوا خلال ديارهم وسوف يمدّهم الله بأموال وبنين ويجعلهم أكثر نفيراً فمتى حدث ذلك والتاريخ يشهد أنهم كانوا يسامون سوء العذاب على أيدي أعدائهم - على مدار التاريخ - غزوات سنحاريب ثم غزوات البابليين ثم غزوات النبط ثم غزوات الرومان ثم مُزّقوا في الأرض وفق سنة الله التي قضاهم عليهم ﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً﴾ ثم تعرّض لهم المسلمون ... لم يمضي عليهم حين من الدهر إلا وكانوا تحت الأكف وبين الأقدام يعانون الذلة والمسكنة من هؤلاء وأولئك.

٤/ أين العلو في كل مراحل التاريخ التي مرت بهم؟.

٥/ قال عند حديثه عن الكرة الثانية: «ولم يعدّهم الله في هذه المرّة إلا بتوقع الرحمة دون ردّ الكرة. فكان إيماءً إلى أنهم لا مُلك لهم بعد هذه المرّة»^(٢) وأسأل: ماذا يقول لدولتهم اليوم وغلبتهم وإمدادهم بالمال والبنين وكانوا - اليوم - أكثر - نفيراً مما سبق ومنا أيضاً - ثم أليس هم اليوم قد علو علواً كبيراً؟.

وأخيراً فإننا نجد فيما قاله الشيخ سعيد حوى - رحمه الله - ردّاً على من ذهب إلى ذلك القول في تفسيره الأساس بالنص: (يبقى أن يقول قائل: إن المسلّطين الأولين هم بختنصر وقومه، والمسلطون الآخرون هم الرومان الذين احتلوا فلسطين بعد عودة اليهود من سبي بابل، فإذا قال قائل ولكن هؤلاء غير أولئك يقال: لكن يجمعهم وصف الوثنية، وكلّ منهم قد سيطر ودخل المسجد الأقصى عاتياً...).

ويمكن أن يقال ردّاً إن الآيات تقول: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ وبعد السبي وقبل الغزو الروماني لم تقم لليهود شوكة يكونون فيها أكثر نفيراً^(٣)...

(١) انظر تفسير ابن عاشور «٣٢/١٥».

(٢) انظر تفسير ابن عاشور «٣٧/١٥».

(٣) الأساس في التفسير - سعيد حوى «٣٠٤٣/٦».

وبعد... فإن الواقع ليشهد أن الآيات في سورة الإسراء لم تأت لتكون نافذة تطل
- عبر نفق إلى الماضي وما كان فيه - من وعلى بني إسرائيل من أحداث.. وإنما جاءت
- وتجيء - دائماً لتفتح أبواب الحاضر والمستقبل لدخول العباد ميدان الجهاد - كما
دخلوه أول مرة...

العباد الذين سيشفهم الله بنسبتهم إليه في «عباداً لنا» أولاً...
ويمن عليهم فيجعلهم «أولي بأس شديد» ثانياً...
ويكرمهم فيجعل إيقاع العقوبة على بني إسرائيل على أيديهم ثالثاً..
مصدقاً لقوله تعالى: «ليسوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول
مرة، وليتبروا ما علو تبيراً»..

القول الثاني:

(من أقوال المحدثين: الشيخ الفاضل - محمد سيد طنطاوي ... صاحب الكتاب
القيم - بنو إسرائيل في القرآن والسنة).

أورد في كتابه «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» قولاً في هذين الإفسادين - انفرد
به - فقال: (الرأي الذي نختاره هو إن العباد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل بعد
إفسادهم في الأرض «جالوت» وجنوده.. ونستند في اختيارنا لهذا الرأي إلى أمور من
أهمها ما يلي..

أولاً: ذكر القرآن في سورة البقرة قصة القتال بين طالوت وجالوت ما يدل على
أن بني إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم يتجلى هذا المعنى في قوله
تعالى: «ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً
نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ قالوا وما لنا ألا
نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا» البقرة/ ٢٤٦.

ثانياً: صرح بعض المفسرين بأن الأعداء الذين أخرجوا بني إسرائيل من ديارهم
وأبنائهم هم قوم جالوت.

ثالثاً: قوله تعالى ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ صريح في أن الله تعالى نصر بني إسرائيل بعد أن - تابوا وأنابوا - على أعدائهم الذين قهروهم وأذلّوهم وجاسوا خلال ديارهم.

رابعاً: قوله تعالى ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ أكثر ما يكون انطباقاً على عهد حكم داود وابنه سليمان - عليهما السلام - لبني إسرائيل ففي هذا العهد - عهد داود وسليمان - الذي دام زهاء ثمانين سنة ازدهرت مملكتهم، وعزّ سلطانهم وأمدّهم الله خلاله بالأموال الوفيرة وبالبنين الكثيرة وجعلهم أكثر من أعدائهم قوة وعدداً^(١)..

أما عمن تعرض لهم في الإفساد الثاني فقال فضيلته:
(نرجّح أن يكون المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل عقب إفسادهم الثاني في الأرض هم الرومان بقيادة «تيطس» الروماني^(٢)).
رجّح هذا القول على ما قاله جمهور المفسرين من أن المبعوث على بني إسرائيل في إفسادهم الثاني «بختنصر»^(٣) معللاً ذلك لعدّة أسباب أوردها باختصار.
أولاً: إن رذائل بني إسرائيل في عهد الرومان أشد وأكثر مما كانت عليه في زمن بختنصر.

ثانياً: إن بختنصر سبق وجوده على يحيى ولم يعاصره مما يطل هذا القول..
ثالثاً: ضربات الرومان كانت أشد وأقسى على بني إسرائيل من ضربات «بختنصر» لهم.
رابعاً: النكبة التي أنزلها الرومان بقيادة «تيطس» باليهود أشنع بكثير من النكبة التي أنزلها بهم «بختنصر»^(٤).

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة - سيد طنطاوي «٣٦٧/٢».

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة - سيد طنطاوي «٣٧٢/٢».

(٣) كما أوضحنا ذلك في المطلب الثاني فرع /ب من هذا المبحث.

(٤) انظر بنو إسرائيل - سيد طنطاوي «٣٦٨/٢ وما بعدها».

وهو لهذه الأسباب رجّح أن يكون الذي تعرض لهم في الإفساد الثاني هو " تيطس الروماني وليس «بختنصر».

مناقشة هذا القول:

قلت: على الرغم من عدم ذكر - فضيلته - للفساد الأول وإنما اكتفى بذكر من تعرض لهم فيه وهو جالوت - إلا أن المفهوم من كلامه اختياره للقول الأول^(١) من أقوال المفسرين فيمن تعرض لبني إسرائيل وقد ناقشنا هذا القول وتبين لنا بطلانه كلياً لأسباب ذكرناه هناك^(٢) لا مجال لذكرها هنا إلا على سبيل الاختصار الشديد..

أولاً: إن اختيار بعض المفسرين - لجالوت - فيمن تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الأول هم أنفسهم الذين قالوا إن فسادهم الأول إنما كان منهم عند قتلهم نبي الله زكريا.. وظهر بطلان هذا القول لمخالفته الحقائق التاريخية الثابتة فبين جالوت وزكريا أمداً بعيداً..

ثانياً: من خلال مناقشتنا للرواية التي اعتمدها المفسرون في هذا القول والتي أوردها الطبري بأسانيد ثلاثة عن ابن عباس وقتادة وقد تبين ضعف هذه الرواية من خلال بعض أسانيدها ومخالفة متنها للحقائق التاريخية واعتراض أهل العلم والتفسير عليها مما لا يبقى لها قيمة الاحتجاج...

أما مناقشة قوله في الإفساد الثاني... فكذلك اكتفى بذكر من تعرض لهم فيه دون توضيح أبعاد الإفساد الثاني ووقته.. لكن المفهوم من خلال كلامه أنه لا يخالف الجمهور في قولهم أنه حدث في زمن قتلهم يحيى بن زكريا^(٣) وإنما يخالفهم فيمن تعرض لهم.. فقول الجمهور هو «بختنصر» وذكرنا أنه القول الراجح لهم وكيف كان اعتمادهم على ست روايات بأسانيد مختلفة أوردها الطبري ناقشناها هناك.. فقال إن المبعوث عليهم في

(١) انظر المطلب الأول من هذا المبحث ص/٩٦.

(٢) راجع المطلب الأول من هذا المبحث عند مناقشة القول الأول فيمن تعرض لبني إسرائيل في الإفساد الأول.

(٣) انظر المطلب الثاني من هذا المبحث فرع/أ.

الإفساد الثاني إنما هو «تيطس الروماني» وليس «بختنصر» وذكر أسباباً ضَعَفَ فيها القول باختيار أهل التفسير «بختنصر» وكان على صواب في ذلك لكنه لم يوفق في اختيار «تيطس الروماني» أنه المسلط على بني إسرائيل في فسادهم الثاني وذلك لأسباب سنناقشه فيها.

وذلك من خلال مراجعة الأسباب الأربعة التي ذكرها السيد طنطاوي والتي بني عليها قوله بأن الذي سُلط على بني إسرائيل في فسادهم الثاني إنما هو تيطس الروماني نجد أنه جعل مؤشراً خاصاً لتعيين الإفساد وهو - قوة الضربة - التي تعرّض لها بنو إسرائيل - وقساوة النكبة - التي أنزلها الرومان بقيادة «تيطس» باليهود وأنها اشد وأقسى مما أنزله بهم «بختنصر».

قلت وهذا أمر ليس بالصواب.. وذلك لأسباب منها..

أولاً: إن أهل التاريخ من علماء المسلمين قد كتبوا عن هاتين الفترتين وذكروا النصوص التي تصور حجم الدمار الذي أصاب أورشليم وسكانها.. فكان أن لا مقارنة بينهما والذي يراجع ما كتبه ابن جرير الطبري في كتابه الأمم والملوك وابن الأثير في الكامل وابن كثير في البداية والنهاية وغيرهم يجد أن ضربات الفرس ونكباتهم ببني إسرائيل لم يكن لها مثيل في تأريخهم الطويل وكذلك التوراة التي صورت ما نزل ببني إسرائيل من جرّاء غزوات الفرس على بني إسرائيل وتنكيلهم بهم^(١).

وكذلك ما نقل عن أهل الكتاب من طريق وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق^(٢) في تصوير عقوبة بني إسرائيل زمن بختنصر.. وهذه العقوبة حين مقارنتها بما أورده من نصوص عن فترة الحكم الروماني وما تعرّض له بني إسرائيل في هذا العهد كله.. أكاد لا أجد ما يوافق قول السيد طنطاوي في هذا الشأن.

(١) انظر مثلاً الملوك الثاني ١٤/٢١-١٧-٢٠-٢١. وكذلك «٣٧/٢٣» وانظر أخبار الأمم «٣٦».

(٢) قلت ان أكثر الأخبار إنما جاءت عن طريق ابن منبه وابن اسحاق في البداية والكامل وغيرها من أمهات كتب التاريخ.

ثانياً: لقد كتب الدكتور أحمد سوسة - عن هاتين الفترتين فقال عن غزو بختنصر (حمل نبوخذ نصر الثاني ملك الكلدانيين «٦٠٥-٥٦٢ ق.م» على أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس... عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والاقيان سباهم من أورشليم إلى بابل... ولم يبق إلا مساكين شعب الأرض... وأخيراً وقع السبي الثاني سنة/ ٥٨٦ ق.م، وحين قضى نبوخذنصر على مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل وقد قدر عدد الذين سباهم نبوخذنصر بأكثر من خمسين ألف شخص، هذا عدا الذين قتلوا^(١).

ثم صور السيد سوسة الموقف بقوله: (وبذا يكون قد قضى على آخر من تبقى من اليهود في فلسطين وزاد موضحاً الدمار الذي حل بشعب بني إسرائيل حيث قال وقد ورث الادوميون سكان فلسطين الأصليون ومعهم الأنباط ديار يهوذا بعد القضاء على مملكة يهوذا وسبى اليهود منهم)^(٢).

وأما مملكة إسرائيل فقد أشار آنفاً إلى تدميرها وإزالتها من الوجود لما تكلم عن تدمير أورشليم إلا أنه لما تكلم عن الحكم الروماني لأورشليم قال: (وأخيراً قضى الرومان نهائياً على من تبقى منهم)^(٣). أي من بني إسرائيل..

وبناءً على ما تقدم أقول: إن مذبحه الرومان الأخيرة في أورشليم ما هي إلا حلقة أخيرة في سلسلة التدمير الذي أحدثه بختنصر في مملكتي يهوذا وإسرائيل، فأين تقع هذه الحلقة الأخيرة من التدمير الروماني إلى جانب تلك السلسلة الرهيبة من الأحداث التدميرية التي حدثت على يد بختنصر الطاغوي الغشوم على مدى سنين طويلة كان خلالها ثلاث غزوات دمروا فيها مملكتي بني إسرائيل وأحرقوا الهيكل والتوراة وحرثوا أرض أورشليم بقناطير من الملح... إلخ؟.

وبعد فان هناك أمرين يجعلان هذا القول من ضمن الأقوال التي ثبت لدينا أنها لا يعول عليها في هذه القضية.. وهذان الأمران هما..

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة «ص ٦١٩ - ٦٢٠».

(٢) مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة «ص ٦١٩ - ٦٢٠».

(٣) مفصل العرب واليهود - أحمد سوسة ص/ ٦٢٠.

أولاً: بما أنه ثبت لدينا بطلان القول بأن جالوت هو الذي تعرض لبني إسرائيل في فسادهم الأول من خلال تحقيق الأسانيد التي جاءت بها الروايات وبيان ضعفها كذلك من خلال اضطراب وشدوذ متن الروايات لمخالفتها الحقائق الثابتة تاريخياً فإن كل ما يبنى على هذا الأساس لا تقوم به حجة..

ثانياً: إذا ثبت بطلان القول الأول فإن بطلان القول بتعرض بختنصر باطل من باب أولى لعدم حدوث الكرة لبني إسرائيل عليهم لا على الفرس ولا على الرومان كذلك ثم إن المعطيات القرآنية للآيات تخالف كل هذه الأقوال ذلك لان هذه المعطيات - كما سنرى - لتتجاوز بنا مسألة التأريخ وضربات الفرس ونكبات الرومان التي ذهبت بمن وقعت عليهم كأى قضية مضت وانقضت فأصبحت في خبر كان..

إذ أن المعطيات القرآنية لهذه الآيات إنما تقول لنا اليوم إن بني إسرائيل قد أظهروا الإفساد في الأرض واستكبروا على الله وكتبه وعلو على الناس علواً كبيراً.. فهل أنتم (يا مؤمني الكرة) مؤهلون إلى أن تظهروا الإساءة على وجوههم وتدخلون المسجد كما دخله أسلافكم أول مرة وأن تتبروا ما علو تتبيرا...؟

القول الثالث: (من أقوال المحدثين.. الشيخ العالم - سعيد حوى).

عَلَّمَ من أعلام الإسلام صاحب الأساس في التفسير... إذ أنه حين تعرض لتفسير هذه الآيات قال: (يبدو بما لا يقبل الجدل إن الإفسادة الأولى هي التي سُلط عليهم بختنصر، فهي الإفسادة التي رافقها بغي وطغيان وعتو، والتي يدور حولها كثير من كلام العهد القديم، وما قبل ذلك لا نعرف أنه حدث لبني إسرائيل مثل هذا الدمار، ولم يحدث أن قوماً سيطروا على المسجد الأقصى وجاسوا خلال الديار)^(١).

أما إفسادهم المرة الثانية فإنه يفهم من قوله:

(ولعل ما هم فيه الآن نموذج على علوهم وفسادهم، فها هم لهم دولة، وها هم لهم سلطان وهيمنة عالميان، وهم يستعملون ذلك في إفساد كل شيء)^(٢).

(١) الأساس في التفسير - سعيد حوى «٣٠٣٩/٦».

(٢) المصدر السابق «٣٠٣٩/٦».

وكذلك من قوله: (إننا نرجّح إن التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿وقلنا من بعده﴾ أي من بعد موسى ﴿لبنی اسرائیل اسكنوا الأرض﴾ كل الأرض متفرقين ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقاً﴾ أي جميعاً إلى فلسطين، وأن هذا النص يحدد إن الإفسادة الآخرة بعد تفريقهم في الأرض كلها ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ وأما الإفسادة الأولى فتكون قبل ذلك...

ومن المعلوم إن التشيت الشامل على وجه الأرض لبني إسرائيل إنما كان بعد عودتهم من سبي بابل، فيكون التسليط الأول هو تسليط بختنصر، والتسليط الثاني هو الذي يتوقع الآن، بدليل العلو والإفساد..

فالإفسادة الأولى كانت لهم دولة وفساد، والآن إفسادهم في الأرض كلها معروف، وسيطرتهم الخفية على بعض بلدان العالم معروفة، واجتمع لهم سلطان ودولة، وإن المرشحين للتسليط عليهم هم العراقيون المسلمون سواء اعتبرنا بختنصر موحداً أو لا، أو المسلمون عامة، إذا كان بختنصر موحداً^(١).

ومعنى قوله باختصار شديد أن..

الإفساد الأول: كان عندما تعرض لهم بختنصر، وهو يوافق القول الثالث من أقوال علماء التفسير حيث قال بذلك الطبري والماوردي وابن الجوزي والرازي والقرطبي كما قدمنا من قبل^(٢).

الإفساد الثاني: هو ما نحن فيه اليوم حيث قال (بدليل العلو والإفساد، الآن في الأرض كلها.. وسيطرتهم الخفية.. واجتماع السلطان لهم والدولة)..

مناقشة قوله بالإفساد الأول:

قال رحمه الله: (يبدو بما لا يقبل الجدل إن الإفسادة الأولى هي التي سُلط عليهم فيها بختنصر..).

(١) الأساس في التفسير - سعيد حوى - «٣٠٤٤/٦».

(٢) راجع المطلب الأول في المبحث الأول من هذا الفصل الفرع/ب.

وهو حين يقول بهذا يرد الأمر إلى سببين اثنين هما:

السبب الأول - حين قال (فهى الإفسادة التى رافقها بغى وطغيان وعتو).

السبب الثانى - قال عنها: (إنها هى التى يدور حولها كثير من كلام العهد القديم).

ولنا أن نسأل.. هل كان من فساد بني إسرائيل فسادٌ لم يصاحبه بغى وطغيان وعتو؟

أم هل كان معنى الإفساد فى معناه اللغوى والاصطلاحى غير البغى والطغيان والعتو؟.

إن مجمل ما قال فيه أهل اللغة والتفسير هو - الخروج عن حد الاعتدال والاستقامة

إلى التغير والتبديل قليلاً كان أو كثيراً^(١).. إن كل ما فعله بنو إسرائيل ويفعلونه إنما هو

من قبيل البغى والطغيان والعتو من أول يوم مكروا فيه ضد أخيهام يوسف إلى آخر يوم

مكروا فيه ضد رسول الله محمد ﷺ وجمّعوا عليه أعداءه، مروراً بعبادة العجل الذهبى

وعنادهم فى امثال أمر أنبياءهم وطغيانهم على الناس ظلماً وعتوهم عن أمر التوراة

وقتلهم الأنبياء بغير الحق.. واختلافهم فى الحق من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم وو..

إلى آخر صور البغى والظلم والاستعلاء والعتو عن أمر الله تعالى والتى لا تجد لها مثيلاً إلا

عند بني إسرائيل فى فسادهم فى الأرض عبر التاريخ..

ثم هل ما حدث لبني إسرائيل أيام يختصر فقط مما دار حوله كثيرٌ من كلام العهد

القديم يمكن أن يكون مؤشراً إلى أن تلك الأحداث هى ما كانت من بني إسرائيل فساد

فى الأرض؟ وإذا تجاوزنا هذا السؤال الذى لا تخفى الإجابة عليه لنسأل.. هل تصلح

أخبار العهد القديم أن تكون مفسرةً لآيات القرآن الحكيم؟ مع العلم المسبق والتقرير

المستقدم من فضيلته إلى أن التوراة محرّفة فيقول بالنص: (وقد حاولنا أن نلقى نظرة على

التوراة المحرّفة لعلنا نجد ما نستأنس به، فوجدنا فى التوراة شيئاً له علاقة بهذا الموضوع إلى

حد ما إلا أن التحريف واضح جداً فيها)^(٢).

(١) انظر ما قاله الراغب فى مفرداته فى معنى البغى «ص/٥٥» وفى معنى الطغيان «ص/٤٢١». وفى معنى

العتو «ص/٣٢١» وانظر ما قاله فى معنى الإفساد «ص/٣٧٩». وانظر كذلك ما قال المفسرون فى

معنى الإفساد كماوردى مثلاً «٨/٤٢٣».

(٢) انظر الأساس فى التفسير «٦/٤٢/٣٠».

ويقول في موضع آخر: (ولولا أن التحريف قد حدث في التوراة لكان ما في التوراة تفسيراً صالحاً للقرآن في هذا المقام، ولكن لعنة الله على أقلام النساخ الكاذبة)^(١). ولذلك فإني لا أجد مساعاً للاعتماد على التوراة وأخبار الأولين في تفسير آيات القرآن الحكيم وما يقال إن ذلك مما يستأنس بها في أمهات المسائل التاريخية إنما يقال عن حسن نية وسلامة قصد فان من يقرأ التوراة «بتدبر» يعلم إنها كتبت بأيدي أناس يعلمون ماذا يكتبون ويعرفون ماذا يريدون.. ومن ثم فلا يجوز أن يستهان بهذا الأمر ويقال عنه انه يستأنس بأخبار التوراة والعهد القديم في أمهات المسائل التاريخية وحتى على فرض إننا نعالج المسائل التاريخية فان التاريخ لا يعتمد عليه في الوصول إلى الحقائق القرآنية.. ولا حتى التوراة وفي معرض رفض هذين المصدرين لتفسير آيات القرآن يقول صاحب الظلال..

(وكان يمكن للتوراة - كمصدر ديني - أن تكون مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث، لو أن التوراة سلمت من التحريف والزيادات ولكنها أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير، وشُحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله. فلم تعد التوراة - بذلك - مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص القرآني، وإذن فلم يبق إلا القرآن، الذي حفظ من التحريف والتبديل، هو المصدر لما ورد فيه من القصص القرآني)^(٢).

وكذلك: (عدم جواز محاكمة القرآن إلى التاريخ)^(٣) وان ذلك يعود لسببين

واضحين:

أولاً: إن التاريخ مولود حديث العهد فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية، لم يعلم عنها شيئاً، والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها..

(١) المصدر السابق «٣٠٤٣/٦».

(٢) في ظلال القرآن «٩/١٦» الطبعة الثالثة.

(٣) يفهم من كلامه أنه يقصد التأريخ القديم المنقول إلينا عن أهل الكتاب والله اعلم.

ثانياً: إن التاريخ - وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروي على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة.. ومن مثل هذا الكلام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!!^(١).

ومن أجل هذا نعتب على من يعتمد في تفسيره لهذه الآيات على التوراة أو أخبار العهد القديم والتاريخ الأقدم.

وفي ذلك يقول صاحب الظلال: (أما تفاسير القرآن فقد وردت فيها أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين) كما إنها تبعا لهذا (ينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليّات وأساطير)^(٢).

فعلى هذا أقول أن ترجيح القول بأن (بختنصر) هو الذي تعرض لهم في الإفساد الأول قول غير صحيح على الرغم من أن بعض أهل التفسير قد ذهبوا إليه..

وقد تبين لنا من خلال تحقيق الروايات التي اعتمدها المفسرون والتي أوردها الإمام الطبري إن منها ما كانت ضعيفة السند لا تقوم بها حجة ومنها ما كانت شاذة المتن ومضطربة المعنى لمخالفستها للحقائق التاريخية الثابتة ومن ثم مخالفة هذا القول لكل المعطيات القرآنية التي سنذكرها تباعاً والتي تشكل في مجموعها - حقائق قرآنية - اتفق عليها جمهور المفسرين على الرغم من اختلافهم في بعضها والتي بين هذا البعض الشيخ سعيد حوى في تفسيره بقوله: (هذه الآيات مما كثر فيه الخلاف بين المفسرين، ولا يكثر الخلاف إلا إذا كان لذلك مبرراته..).

ثم نجد فضيلته يتساءل..

(١) المصدر السابق «٩/١٦».

(٢) نفسه «١٠/١٦» ويراجع «المنظور التاريخي في فكر سيّد قطب للدكتور عماد الدين خليل» ص ٨٥ وما بعدها، ط/١ دار القلم

- / فما هما هاتان الإفسادتان ومتى كانتا ؟
 - / ومن هم الأقوام الذين يسلطون على بني إسرائيل مرة بعد مرة ؟
 - / وهل المراد بالكتاب التوراة، أو القرآن، أو اللوح المحفوظ ؟
 - / وهل المرتان حدثتا أو أنهما ستحدثان بعد نزول القرآن ؟
 - / أو إن واحدة حدثت من قبل والثانية في طريقها؟
 - / وهل للأقوام المسلّطين صلة عدااء أو ولاء للمسجد الأقصى حتى ذكروا به
- ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾^(١).. هذه كلها تحتاج إلى أجوبة دقيقة، ومن ثم وقع الخلاف^(٢).

ثم يقول فضيلته:... (قال ابن كثير وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلّطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده، وسلط عليهم أولاً ثم أدبلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت ولهذا قال ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ وعن سعيد بن جبير انه ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل) - ثم يقول - (وبعد أن يذكر ابن كثير طرفاً من أخبار بختنصر يقول: وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها- ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم)...

ثم يقول معقّباً: (ولكن ما قاله ابن كثير لا يجيب على كثير من الأسئلة التي ذكرناها كلها.. ومن ثم اقتضى هذا منا أن نقف وقفة عند هذا الموضوع، وهو موضوع مهم لأنه قضية عصرنا..)^(٣).

قلت ولأنه موضوع مهم ولأنه قضية عصرنا سأورد هنا عدة حقائق - قرآنية - أتفق عليها المفسرون من أنها مما يحملها النصر القرآني وقد أوحى بها المعطيات القرآنية

(١) قلت: وسوف نرى في تلك المعطيات القرآنية الأجوبة الدقيقة التي نحتاجها والتي ظهرت كحقائق قرآنية ان شاء الله تعالى.

(٢) الأساس في التفسير - سعيد حوى «٣٠٣٧/٦».

(٣) الأساس في التفسير «٣٠٣٨/٦».

لأثبت من خلالها بأن يختصر هو ليس الذي سلط على بني إسرائيل في إفسادهم الأول..
أو الثاني..

الحقيقة الأولى: إن يختصر لم يكن ممن استحق شرف النسبة إلى الله على جهة الاختصاص في «عباداً لنا».

الحقيقة الثانية: هي إن الآيات صرّحت بأن الذين بعثهم الله على بني إسرائيل قد جاسوا خلال الديار رغم كونهم أولي بأس شديد - ويختصر لم يجس خلال الديار بل دمرها تدميراً فهو اجتياح وليس جوس.

الحقيقة الثالثة: إن العباد قد «دخلوا» المسجد الأقصى في تعرّضهم الأول ويختصر هدم الهيكل وأحرقه بالنار، فلم يكن دخولاً بالمعنى المفهوم وإنما تدميراً وإهلاكاً.

الحقيقة الرابعة: تصرّح الآيات بأن الله قد ردّ لبني إسرائيل الكرة - وهي الدولة والغلبة^(١) إلى بني إسرائيل على من جاسوا خلال ديارهم ولم تحدث هذه ولا مثلها لبني إسرائيل بعد قضاء يختصر عليهم وسبيهم إلى بابل وبقوا في الأسر كعبيد وأرقاء.

يقول سعيد حوى: (ومن المعلوم أن التشيت الشامل على وجه الأرض لبني إسرائيل إنما كان بعد عودتهم من سبي بابل^(٢) ويقول في موضع آخر: (وبعد السبي وقبل الغزو الروماني لم تقم لليهود شوكة يكونون فيها أكثر نفيراً)^(٣)).

وعليه فلا دولة لهم ولا كرة بعد يختصر مما ينفي أن يكون هذا الأخير هو الذي تعرّض لهم أول مرة..

الحقيقة الخامسة: قال صاحب الأساس نفسه: (إن الآيات تذكر إن الذين يسلّطون على بني إسرائيل أول مرة هم الذين يسلّطون عليهم ثاني مرة، ويلاحظ من عودة الضمير على المذكورين.

(١) انظر القرطبي «٢١٧/١٠».

(٢) الأساس في التفسير «٣٠٤٤/٦».

(٣) الأساس في التفسير «٣٠٤١/٦».

أولاً: في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم﴾^(١).

ثانياً: أنه جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيماً﴾.. يقول - إننا لم نجد قوما بأعيانهم قد سُلطوا على اليهود مرتين في حال اجتماع العلو والإفساد.. لقد سُلط عليهم بختنصر والرومان وغيرهم، ولكن قوماً بعينهم لم يسلطوا عليهم مرتين داخلين المسجد الأقصى هذا الدخول الموصوف فيما نعلم^(٢).

قلت: ... وهذه ما ستجيب عليه المعطيات القرآنية التي سنفصل القول فيها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

أما من ناحية وقت فسادهم الثاني ومن سيتعرض لهم فيه فقد أصاب فيما ذهب إليه من أن الإفساد الثاني لهم هو ما نحن فيه اليوم..

قلت: ... وهو القول الوحيد^(٣) الذي وجدته في كتب التفسير سواء عند الأقدمين أو المحدثين.. ما يوافق المعطيات القرآنية وما ظهرت فيها من حقائق قرآنية تنسجم مع بعضها في تناغم وتناسق يوحي بان هذا القرآن ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء.. وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ يوسف/١١١.

فنجدده يقول: (ويمكن أن نفهم المسألة فهماً آخر بأن نعتبر الإفسادة الأولى هي محاولاتهم الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وتسليط الله المسلمين عليهم وعلى ديارهم حول المدينة المنورة..).

والإفسادة الثانية هي الإفسادة الحالية، ويكون المسلمون الذين غلبوهم أول مرة هم الذين سيغلبوهم المرة الثانية، إذا اجتمع لهم العبودية لله والبأس الشديد.. فيكون معنى الآيات: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي في القرآن ﴿لتفسدن في الأرض

(١) يراجع الكلام عن عودة الضمائر في المبحث الثالث من هذا الفصل عن - صيغ الأفعال -.

(٢) الأساس في التفسير «٣٠٤٣/٦».

(٣) قلت: الوحيد في كتب التفسير لكن سبق الى هذا القول الشيخ عبد المعز عبد السلام من شيوخ الأزهر أوردته الشيخ محمد سيد طنطاوي في كتابه القيم - بنو إسرائيل في القرآن والسنة - انظر «٣٧٨/٣».

مرتين ولستعلن علواً كبيراً» أي لتطغن طغياناً كبيراً «فإذا جاء وعد أولاهما» أي الإفسادة الأولى «بعثنا عليكم عبداً لنا» هم الصحابة «أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار» أي سيطروا عليها سيطرة تامة «وكان وعداً مفعولاً»، ثم بعد مئات السنين «رددنا لكم الكرة عليهم» على المسلمين بأن جعلنا لكم الغلبة «وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً» كما هم الآن فهم أغنياء ويستطيعون إستنفار العالم ضدنا «إن أحسنتم» بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد ﷺ «أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم» برفض الإسلام «فلها» فنفع أعمالكم عائد إليكم «فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم» أي فإذا جاء وعد الإفسادة الآخرة ليسووا المسلمون وجوهكم «وليدخلوا المسجد» أي الأقصى مستردينه منكم «كما دخلوه أول مرة» كما أخذوه الأنحذة الأولى يوم فتح القدس عمر «وليتبروا ما علوا» وليهلكوا في علوهم «تتبرأ» أي إهلاكاً «عسى ربكم أن يرحمكم» بأن يجعلكم مسلمين «وإن عدتم» إلى الإفساد في الأرض «عدنا» إلى التسليط عليكم كما سيفعل الله يوم يأتون مع جند الدجال «وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً» أي سجنأ.

وفي قوله تعالى: «وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً» ما يقوى هذا الاتجاه في الفهم لأن الآية تشير إلى أنهم كافرون، ولا نحكم بكفرهم إلا بعد رفضهم رسالة المسيح ثم محمد ﷺ..

فالإفسادتان متأخرتان على بعثة المسيح، وهذا الاتجاه يقويه إن كلمة «عباداً لنا» تُشعر بأنهم المسلمون فهم العباد الحقيقيون لله وكلمة «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة» تُشعر بأنهم المسلمون فهم أصحاب المسجد وهم وإن لم يأخذوه من اليهود مباشرة فقد أخذوه ودخلوه المرة الأولى فاتحين.. وتكون الآيات مشيرة إلى ما ينبغي فعله لتحرير القدس وفلسطين؟ على أن يخوض المعركة مسلمون اجتمعت لهم - العبودية لله والبأس الشديد^(١).

(١) الأساس في التفسير «٦/٣٠٤٠ - ٣٠٤١».

أقول: والله يشهد أن هذا هو الحق وهو المستفاد من النص القرآني الوارد في صدر سورة الإسراء كما سيتبين لنا من خلال تحليل المفردة القرآنية ... ولعل مما تقتضيه الأمانة العلمية أن أذكر مسألتين أتمُّ بها ما بدأته..

المسألة الأولى:

إن هذا القول الذي رجّحه الشيخ سعيد حوى بأن المسلّط عليهم في الإفساد الأول (بختنصر) وأن الإفساد الثاني الذي نحن فيه اليوم والمرشحون للتسلط عليهم هم المسلمون قد قال بذلك أحد العلماء المحدثين هو الشيخ عبد الحميد جودة السحار.. وقد ذكر ذلك في كتاب له سماه: (وعد الله وإسرائيل) تعرّض فيه لتفسير الآيات الواردة في صدر سورة الإسراء..

فبعد أن أورد الآيات من قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ إلى قوله ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾.

قال معلقاً: (جاس بختنصر خلال فلسطين وحمل اليهود سبايا إلى بابل، ودخلوا المسجد أوّل مرّة بعد ذلك في أيام قورش، وطُردوا من القدس في أيام الرومان بعد أن فسدوا في الأرض وتحقق وعد أولاهما..

ثم يقول: (ورحت أنقب في تاريخ بني إسرائيل بحثاً عن دخولهم مرّة ثانية فلم أجد غير هذه المرّة التي دخلوا فيها بيت المقدس بعد العدوان الثلاثي الجديد، عدوان إسرائيل وأمريكا وإنجلترا على العرب..

ثم قال: (وقد اطمأنت نفسي إلى أن ذلك العدوان هو الذي قصده الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً...﴾).

ثم قال: (فصارت إسرائيل بذلك أكثر عدة وعتاداً وأكثر نفيراً، وليدخلوا بيت المقدس وليصل إفسادهم في الأرض قمته ليجيء وعد الآخرة.. وعد المرة الثانية، المرّة التي يدخل فيها العرب فلسطين ويطردوا منها بني إسرائيل ويهلكوهم هلاكاً جزاء وفاقاً على علوهم في الإفساد)^(١).

(١) وعد الله وإسرائيل - عبد الحميد جودة السحار «ص/٥-٦» دار مصر للطباعة.

لكننا نعتب عليه حين تعرّض لما قاله المفسرون فقد خانه التعبير حين قال (وعدت إلى تفاسير القرآن الكريم لأرى ما قال المفسرون في تلك الآيات التي جاءت في صدر سورة الإسراء - قال - (فوجدت تخبّطاً كبيراً) كذا قال أيضاً في موضع آخر: (وقال بعض المفسرين - إن الإفساد الأول كان أيام بختنصر. وإن الإفساد الثاني كان أيام صلاح الدين الأيوبي.. وأيام صلاح الدين الأيوبي كان اليهود مشتين في الأرض ولم تكن لهم دولة في القدس.. ثم قال: (وسأسوق نموذجاً من هذه التفسيرات للدلالة على تفاهتها جميعاً)^(١).

ثم قال: (إن الآيات الكريمة لا يمكن أن تفسر إلا بعودة بني إسرائيل إلى القدس ثم بطردهم منها ليكون في ذلك إذلال لهم وإمعان في الهوان وقد عادوا إليها هذه المرة فأصبح على العرب أن يجمعوا صفوفهم على قلب رجل واحد.. ولقد دخل موشي ديان على أكتاف بني إسرائيل وكانت هذه ثاني مرة يدخل فيها اليهود المسجد الأقصى • بعد المرة الأولى التي أجلاهم عنه بختنصر أعادهم إليه قورش إمبراطور الفرس، ليتحقق وعد الله وليهلك المؤمنون بعد ذلك بني إسرائيل هلاكاً ما بعده هلاك فقد قال الله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تبيراً﴾^(٢).

المسألة الثانية:

تتعلق بما ذكره الشيخ سعيد حوى في تفسيره الأساس بما يخص هذه الآيات من إفساد بني إسرائيل.. وما قاله المفسرون من عودة الضمائر إلى العباد واقتضاء اتحاد المبعوثين أولاً وثانياً كما ذكر ذلك الألوسي في تفسيره^(٣) مما جعل الشيخ سعيد حوى يورد احتمالين حول هذا الموضوع..

(١) المصدر السابق «ص/٦-٧».

• في الأصل «المسجد الحرام» ولعل الصحيح ما أثبتته.

(٢) المصدر السابق «ص/١١١». «الواضح من كلام السحار أن أمر الدخول قد اختلط عليه فهو هنا ينسب

الدخول الثاني إلى اليهود بينما الآية واضحة في تعيين الدخول الثاني إلى المؤمنين».

(٣) انظر تفسير الألوسي «١٥-٢١» وانظر تفسير ابن عاشور كذلك «٣٧/١٥».

حيث قال: (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض كلها متفرقين، فإذا جاء وعد الإفساد الثانية جئنا بكم إلى أرض فلسطين، وعندئذ نسلط عليكم من سلطانهم عليكم من قبل، فإن كان يختصر مسلماً فالمسلطون الجدد هم المسلمون بإطلاق، وإن لم يكن كذلك فالعراقيون خاصة وهم المسلمون بفضل الله.. ثم قال: هذا احتمال نفهم على ضوئه الآيات فيكون معناها ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب.. لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ هم يختصر وجنده ﴿فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ بعد مئات السنين بأن جعلنا لكم الغلبة حتى إذا دخلتم في صراع معهم غلبتموهم، كما حدث إذ غلب المسلمون ومنهم العراقيون حقيقة أو حكماً في الصراعات الحالية ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ كما هو الحال الآن، إذ تستطيع دولة إسرائيل أن تحشد جيشاً كبيراً وتستنفر العالم من ورائها ﴿إن أحسنتم﴾ خلال هذه الفترة ﴿أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم﴾ أي ليسئ العراقيون خاصة والمسلمون عامة ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تبيراً عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بالدخول في الإسلام، وإن عدتم إلى العلو والإفساد ﴿عدنا﴾ إلى التسليط ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾^(١).

يفهم مما سبق أن فضيلته يورد احتمالين هنا في كون المسلط على بني إسرائيل في فسادهم الأول هو يختصر فإذا كان:

أولاً: يختصر مسلماً فالمسلطون عليهم في الإفساد الثاني هم المسلمون بإطلاق.

ثانياً: إذا لم يكن كذلك ولأنه من بابل فالمسلطون عليهم في الإفساد الثاني هم العراقيون.

وقد ذهب إلى هذا المنحى الدكتور أحمد الكيسي ذكر ذلك في مقال^(٢) بحث فيه جانباً من جوانب الإعجاز القرآني ومنه آيات الإسراء التي تحدثت عن فساد بني إسرائيل في الأرض.

(١) الأساس في التفسير «٣٠٤٠/٦».

(٢) بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود ببغداد ١٩٩٠م.

فأما عن الأول فلا دليل أن يختصر كان مسلماً فحقائق التاريخ تثبت أنه من بابل التي كانت تدين بالوثنية والشرك... وقد اعترف الشيخ حوى في تفسيره بذلك حيث قال عن يختصر وقومه وعن الرومان (فإذا قال قائل ولكن هؤلاء غير أولئك يقال: لكن يجمعهم وصف الوثنية، وكل منهم قد سيطر ودخل المسجد الأقصى عاتياً)^(١) ثم أعاد هذا الوصف مرة أخرى في نفس الصفحة..

فاعتراف الشيخ حوى بوثنية يختصر يطل قوله الأول.

أما عن القول الثاني فمادام يختصر عراقياً فالمرشحون لان يكونوا هم المسلمون على بني إسرائيل هم العراقيين كلام يحتاج إلى إعادة نظر..

لذلك نعتقد.. إن إعادة النظر مرة بعد مرة في قوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا﴾ تتيح لنا رؤية أعمق وأشمل: «فالعباد» لفظ يحمل بين طياته معان يختص بها لا تجدها في غيره من الألفاظ.. فالعباد^(٢) هم المخلصون الذين اصطفاهم الله واختارهم على علم عنده، ثم لم يكتفي بهذا وإنما نسبهم إلى نفسه سبحانه على جهة الاختصاص فقال: (لنا.. عبداً لنا) بلام الاختصاص ونون العظمة..

وليس في اللفظ ما يدل على صرفه إلى آخرين لم تتوفر فيهم تلك الخصوصية التي لا تكفيها - لو أريد شرحها - مجلدات...

وليس من الإنصاف أن يُترك هذا اللفظ فلا يبحث عن معانيه ودلالته ومقتضاه ويطلق هكذا بلا تدبر ودون الاستعانة بقرينة تسوغ إطلاقه على ما لم يحتمله من معان. مع العلم أن أسباب صرف هذا اللفظ عن معناه لا صحة لها.. فلقد ثبت من خلال تأكيد بعض المفسرين وحقائق التاريخ الثابتة والمعطيات القرآنية التي سنذكرها فيما بعد وقد ذكرنا طرفاً منها ضمناً بان القول بتسليط يختصر باطل أصلاً وما بني على باطل فلا قيمة له. ومع هذا نقول إن ردّ نسبة البعث إلى قوم معينين يسكنون في بلد ما أو زمن ما دون بيان عقيدة هؤلاء القوم وموقفهم من دين الله فليس من طبيعة هذا القرآن..

(١) انظر الأساس في التفسير «٣٠٤٣/٦».

(٢) يراجع معنى العباد في المطلب الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل.

فما أنت واجد في القرآن اهتماماً واعتزازاً وتشريفاً لقوم لا يدينون دين الحق وهم ليسوا من عباد الله الصالحين...

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الحجرات/١٣. ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ الحجرات/١٥. ﴿الله ولي الذين آمنوا..﴾ البقرة/٢٥٧. وكثير من الآيات تثبت إن التقدير والتقييم إنما هو للإيمان ولحقيقة الولاء وحسن الإتياع مهما كان هذا الإنسان من أي بلد أو أرض أو جنس أو لون أو نسب كان، فإن القاعدة ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وأنا لا أنقص من قدر العراقيين فأنا منهم ولكن الله أذهب عنا نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء..

بل إني لأعتر به لا لكونه وطني فحسب بل لأن رسول الله ﷺ بشر بأن الذين سيبيعون المهدي في حروبه ضد الدجال صنفين من الناس هم - أفذاذ الشام وعصائب أهل العراق - (١) ..

وعصائب جمع عصابة: والعصابة جماعة متعاضدة ومنه قوله تعالى ﴿ولحن عصابة﴾ أي جماعة شديدة (٢) ..

هذا من جانب ومن جانب آخر.. إن إيماننا بأن هذا القرآن حق وأنه من عند الله لم يكن لينطلق من منطلق الأرض أو الجنس أو اللون أو حتى اللغة، تلك ربما كانت من جذور العصبية التي أمرنا أن نتركها وأن يكون منطلقنا عقيدياً على أساس الإيمان بالله والإتياع لرسول الله والولاء لهذا الدين...

ولو قُدِّر أن يتعرض لليهود قوم يُختارون على أساس الأرض أو القوم لكانت عشيرة النبي وأهل بيته الذين حُرِّمت عليهم الصدقة لتشرفهم برسول الله ﷺ أو لكانوا أهل المدينة إكراماً لرسول الله - بل إن الأمر لأبعد من هذا..

(١) الحديث رواه أبو داود في أخبار المهدي انظر «١٠٧/٤» - كتاب المهدي باب ١/ رقم الحديث ٤٢٦٦.

(٢) انظر مفردات الراغب الأصفهاني «ص/٣٣٦».

لقد أورد الإمام ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ حديثاً قال عنه: روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت علينا سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قالوا من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً وفيما سلمان الفارسي، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان الفارسي ثم قال: «لو كان الإيمان عند الشريا لنا له رجال - أو رجل - من هؤلاء»^(١)..

ففي هذا الحديث دليل على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس لأنه فسر قوله تعالى ﴿وآخرين منهم﴾ بأهل فارس..^(٢)

فربما لو قال أحد - إستناداً إلى هذا الحديث - إن أهل فارس هم المرشحون لأن يسلطون على بني إسرائيل في الإفساد الثاني هل يعيب عليه أحد هذا القول؟ بل ربما لكان أصح وأنسب لأن الذي فسر هذه الآية وقال بهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم.

فما بال أقوام يصرفون معنى العباد إلى العراقيين ليس إلا لأن يختصر كان عراقياً

ويترك إسلام العراقيين وإيمانهم أليس هذا تحميل للنص القرآني أكثر مما يحتمل؟؟

يقول ابن عاشور في تفسيره: (قال شرف الدين الطيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء..) شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقاً للفظ من حيث الاستعمال سليماً من التكليف، عرياً من التعسف، وصاحب الكشاف يسمي ما كان على خلاف ذلك «بدع التفسير»^(٣).

قلت: أفليس حمل لفظ ﴿عباداً لنا﴾ على قوم أمثال يختصر وغيره لا لشيء إلا

لأنهم عراقيون؟ من التكليف في التفسير؟ والتعسف فيه؟ وأنه بالتالي من بدع التفسير؟

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الجمعة انظر عمدة القارئ «٢٣٥/١٩» - رقم

الحديث/٣٩١». وانظر صحيح مسلم بشرح النووي هامش إرشاد الساري «٤٣٥/٩».

(٢) انظر تفسير ابن كثير «٤٣٦٣».

(٣) تفسير ابن عاشور «٣٠/١».

وأين قيم الإيمان إذا؟ وأين معاني العباد في القرآن ومقتضيات مطابقة استعمالها

في الوضع؟...

إن هذا القول إنما بُني على قول آخر ضعيف فكيف يثبت ؟ إن الإيمان والإسلام والحق بريئون من بختنصر، وأن العراقيين إذا توفر فيهم شرطان - العبودية الصادقة لله والبأس الشديد فهم - مع كل من شاركهم بهذين الشرطين - مرشحون لأن يكونوا هم المسلطون على بني إسرائيل في إفسادهم الثاني.

وذلك كما أشار إليه صاحب الأساس بقوله: (ويكون المسلمون الذين غلبوهم أول مرة هم الذين سيغلبونهم المرة الثانية، إذا اجتمع لهم العبودية لله والبأس الشديد...).
ويقول في موضع آخر:.. (على أن يخوض المعركة مسلمون إجمعت فيهم العبودية لله والبأس الشديد...)^(١).

أقول:.. إني على يقين أن ذلك مما كان - وسيكون - لأننا أولى أن نؤمن بهذا.
ممن آمن به من علماء بني إسرائيل الذين سيكونون ﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾
ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ الإسراء / ١٠٨.



(١) انظر الأساس في التفسير سعيد حوى «٣٠٤٠/٦ - ٣٠٤١».

الفصل الرابع

إفسادا بني إسرائيل كما أوحى بهما المعطيات القرآنية

تمهيد:

أما قبل ...

فلعننا نعذر أهل التفسير ممن تعرّضوا لهذه القضية - قضية إفساد بني إسرائيل -
وحكموا على مجرياتها بما حكموا عليه.. وكما ورد في تفاسيرهم من الأمور الآتية..

١- إن أقوالهم في معالجة هذه القضية وتفسيرها اعتمدت في غالبها على التفسير
بالمأثور... ومخالفة المفسر القديم لواقعة تاريخية حصلت بعده أو بروز أمر جديد
استدعى النظر في الآيات التي بنيت عليها تلك القضية.. أو ظهور بعد آخر
للموضوع الذي تعرّضوا له وتعرض له نحن..

إن كل هذا أمر مألوف ومعهود وليس فيه أي مأخذ، بل هو من قبيل الاجتهاد
المأمور به شرعاً...

٢- إن طبيعة النص القرآني، وخصوصية معالجته لقضية بني إسرائيل تتيح لنا مجالاً
خاصاً لتفسير الآيات التي أنبثت بفسادهم في ضوء المستجدات الحاصلة لهم... ومن
خلال تأثير هذه المستجدات علينا بما لا يخرج عن ضوابط الفهم القرآني السليم.

٣- لا يوجد في القرآن الكريم ما يمنع من إعادة وإمعان النظر في مسألة بني إسرائيل ولا في
السنة التي بين أيدينا على سعتها بل أن الأغلب الأعم - إن لم يكن كله - إنما هو من
الآثار المرفوعة إلى بعض الصحابة أو الموقوفة على التابعين مما نقلوه عن أهل الكتاب.
ومن المعلوم الذي قاله أهل التفسير أن قول التابعي لا يلزم الأخذ به في التفسير
خصوصاً إذا اختلفت الأقوال واضطربت مع صحة السند الذي جاء بها.. فكيف وأغلبها
مما ضعف سندها؟.

٤- لا يفهم مما تحصل من خلال تحقيق الروايات أن كل ما قاله المفسرون مرفوض جملةً
وتفصيلاً فهذا شيء غير معقول ولا قصدناه أبداً بل لا يحقُّ لنا ذلك فإن الكثير مما
قالوه في مجال اللغة وإيراد المعنى إنما كان صواباً لأنهم - وهذا حق - إنما كانوا
أساطين العلم في اللغة والبيان وكذلك في التفسير والتأويل... بحيث أنهم كانوا
بحوراً من العلم وجبالاً في التقوى.. (ولكن الذي كان منهم من باب حرصهم على

التفسير بالمأثور هو اعتمادهم على ما وصل إليهم من روايات ضعيفة وأخبار إسرائيلية في تفسير هذه الآيات اعتماداً بلغ حداً أهملوا معه النظر في المفردة القرآنية نظراً أشمل وأعمق مما كان ...

وكذلك عدم إعطاء هذه الآيات حقها من الدراسة في مجالات عديدة كالوحدة الموضوعية للسورة مثلاً ... أو علاقة هذه القضية بما جاء في غير سورة الإسراء من أخبار عن إفساد بني إسرائيل ... أو حصر هذه القضية في التأريخ الماضي دون الحاضر - المعاصر للنبي - أو المستقبل أي الزمن الذي نعيشه اليوم..

٥- إنه لا بد من الاعتراف بأنهم كانوا أحرص الناس على أن لا يقولوا في كتاب الله بغير علم - وحاشاهم - فهم لم يألوا جهداً ولو بسيطاً في تحرّي الأقوال للوصول إلى المعنى المقصود ولكن تلك مشيئة الله سبحانه في أن جعل لكل جيل حظه من العلم وحظه من فهم القرآن... فهذه الآيات التي تعرض لها المفسرون لم تكن لزمانهم وإنما لزماننا هذا الذي لم يدركوه..

والله وحده يعلم ما كانوا سيقدمونه لنا لو أدركوه وكانوا بيننا.. وهذه مسألة من الأهمية بمكان.. سأبينها باختصار شديد... حتى لا يُساء فهمي ...

إن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن على رسوله ﷺ ونزله منجماً.. ليثبت به فؤاده وليقرأه على الناس على مكثٍ وتدبر فكان منه آيات إنما جاءت لتنبئ عما جرى وكان في ماضي الزمان لتكون فيها موعظة وعبرة.

ومنها آيات جاءت لتعالج الواقع المعاصر لنزوله، ومنها ما جاءت أخباراً لما سيكون في المستقبل.

* / فأيات تنزل لتخبر عن الماضي - للبرة والموعظة - كقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسليطان مبين فتولى بركنه﴾ الذاريات/٣٩. ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ النساء/١٤٥. ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ النساء/١٥٤.

* / وآيات تنزل لتعالج الواقع ولتوجه النبي ﷺ والمؤمنين كيف يتعاملوا مع بعضهم أو مع بني إسرائيل وغيرهم من الكافرين والمنافقين ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون

بآيات الله... ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الإسراء/٨٥. ﴿سل بني إسرائيل﴾ البقرة/٢١١
﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ الأنفال/١ ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾
النساء/٤٣. ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ الأحزاب/٣٧. ﴿يسألك أهل
الكتاب﴾ النساء/١٥٣.

* / وآيات نزلت ليست للزمن الماضي ولا المعاصر لتزولها ولكنها للمستقبل الذي
سوف يأتي دون شك. ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ القمر/٤٥ الآية مكية وعمر
يسأل أي جمع هذا؟.

قال ابن كثير (روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سيهزم الجمع
ويولون الدبر﴾ قال عمر: أي جمع هذا؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر
رأيت رسول الله ﷺ يشب في الذرع وهو يقول! ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فعرفت
تأويلها يومئذ^(١).

وقد أورد السيوطي في الدر المنثور (عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لتسألن
يومئذ عن النعيم﴾ قالوا يا رسول الله: أي نعيم تُسأل عنه وسيوفنا على عواتقنا والأرض
كلها لنا حربٌ يصبح أحدنا بغير غداء ويمسي بغير عشاء؟ قال: عني بذلك قوماً
يكونون بعدكم، أنتم خيرٌ منهم يُغذى على أحدهم بجفنة ويراح عليه بجفنة ويغدوا في
حلة ويروح في حلة، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ويفشو فيهم السمن^(٢)).

قرآن ﴿بالحق نزل...﴾ للماضي والحاضر والمستقبل...
ومنه دون شك ﴿لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً...﴾ فإذا جاء وعد
الآخرة جئنا بكم لفيفاً لماذا؟ ﴿ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول
مرة.. وليتبروا ما علوا تبيراً﴾ كما سنرى إن شاء الله تعالى.

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤١٣/٣.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ٣٩١/٦ وانظر كتاب الورع عن الإمام أحمد بن حنبل لأبي بكر المروزي تحقيق
محمد زغلول ص/١٤٠.

٦- إن كل ما قاله المفسرون في قضية إفساد بني إسرائيل مما كان مخالفاً للحقائق التاريخية الثابتة إنما ينبغي أن يعذرون فيه وقد أثبتوا عليه ولا شك فانهم اجتهدوا قطعاً في فهم المراد من هذه الآيات ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام نصوص لم يبلغهم عنها من رسول الله ﷺ شيء وإنما بلغهم عن أسلم من أهل الكتاب أشياء.

وعدم بيان النبي ﷺ لها لا يعني - قطعاً - إن ذلك إخلال في مهمته التي أخبر الله تعالى عنها في كثير من آياته والتي منها ﴿ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم...﴾ وإنما ترك هذا البيان لله في الزمن الذي سيجيء محتاجاً إليه وهذا من إعجاز القرآن الذي لا يخفى عن علم وفهم...

وعلى هذا الأساس فإن التعرض لتفسير هذه الآيات أو التعامل معها تعاملًا موضوعيًا وإيجابيًا في غير ما قاله المفسرون لا يعني مخالفة المفسرين فيما ذهبوا إليه أو الخروج عنه بالمعنى المذموم وإنما هو التفاعل مع هدي القرآن والتعامل مع نصوص الآيات التي أنزلت على النبي محمد ﷺ، بينما هي تناسب زماننا وتطابق حركة الإسلام في الواقع الذي نعيشه اليوم مع أعداء هذا الدين عامة والمفسدون من بني إسرائيل خاصة، هذه هي القضية التي ينبغي أن لا تغيب عن أنظار من يتعامل مع القرآن تفسيراً وتحليلاً حسب اعتقادي في زماننا هذا.

إن سورة الإسراء تميّزت عن غيرها من السور المكية إذ أنها جاءت بشيء جديد لم تأت به سورة غيرها فيما يخص مستقبل بني إسرائيل وعاقبة إفسادهم في الأرض. وإنك لتجد في بعض أقوال وتلميحات بعض المفسرين (يحتمل أن يكون معناها كذا... ربما نزلت في كذا... ويجوز أن يكون المقصود منها كذا) ما يوحي إلى عدم اطمئنان بعض المفسرين إلى ما وصل إليهم من أقوال وتفسيرات غالبها من الإسرائيليات. والحقيقة أن هذه الآيات ما جاءت لتخبر عما مضى من الزمان، أو لمعالجة الواقع المعاصر لنزولها.. وإن كانت داخلة في إطار معالجتها له من خلال شمولية النصوص واتساع دائرة المعنى للزمن والمكان المعاشين.. ولكنها في الأغلب الأعم إنما جاءت لترسم المنهج الذي ينبغي على الأمة السير عليه في معالجة ومواجهة إفساد بني إسرائيل الذي

سيكون - مستقبلاً - في الأرض. ولستحكم حركة أصحاب هذا الدين من خلال تربيتهم.. وتأهيلهم ليكونوا بالمستوى المطلوب في ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ لتحقيق العقوبة الثانية على إفسادهم الأخير في الأرض واستعلائهم فيها في الزمن الذي لم يعاصره المفسرون وما أدركوه.

ولما تقدم أقول...

إن من أهم الأسباب التي جعلتني أعكف على دراسة هذه الآيات المتعلقة بإفسادي بني إسرائيل والتي اضطرتني إلى أن أدرس الروايات التي جاءت بها من ناحية الأسانيد أو الطرق الذي أوردتها الإمام الطبري ومن ناحية الأساس التاريخي الذي اعتمدت عليه هذه الروايات والذي يبدو - والله اعلم - أنه مستقى أصلاً من التوراة بصورة أو بأخرى.. قلت من أهم الأسباب.. هي:

١- عدم وجود شيء صحيح عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن - وهذا ثابت - إلا حديثاً موضوعاً أنكره ابن كثير كما قدمنا.

٢- إن أغلب ما ورد إلينا إنما كان مرفوعاً إلى صحابي أو موقوفاً على تابعي ومعلوم أن أقوال التابعين - إذا اختلفت - ليست بحجة فكيف إذا اختلفت في التفسير وكان مصدرها النقل عن أهل الكتاب؟.

٣- مخالفة الواقع التاريخي المعاش لكل ما قاله المفسرون وموافقته لكل المعطيات القرآنية والتي تحصلت من خلال دراسة العبارة القرآنية دراسة دقيقة وشاملة ومن خلال التركيز على مطابقة المفردة القرآنية لمعناها في اللغة وفي موقعها من القرآن أيضاً وانطباق الواقع التاريخي الثابت لذلك المعنى الذي جاء به القرآن فعلى هذا برزت معطيات قرآنية ثرة - بفضل الله تعالى - كما سنرى فيما سيأتي.. إن شاء الله.

المبحث الأول

الإفساد الأول والعقوبة عليه

المطلب الأول:

تحقق مقومات الإفساد الأول.

أولاً: نفي الماضي واقتضاء المستقبل.

ثانياً: العلاقة بين الوعدين.

ثالثاً: صيغ الأفعال ودلالاتها.

المطلب الثاني:

تحقق مقومات الوعد الأول.

أولاً: معنى البعث وحتميته.

ثانياً: أهم صفات المبعوثين.

المطلب الأول

تحقق مقومات الإفساد الأول

أولاً: في نفي الماضي ... واقتضاء المستقبل ... في قوله تعالى:
... «فإذا جاء وعد أولاهما» ...

قال النحاة ومنهم ابن هشام:

إن «إذ وإذا» من حالتهما أنهما تستعملان في الإخبار عن ظرف الزمان - الماضي والحاضر والمستقبل.

قال ابن هشام إن، إذ - تأتي على أربعة أوجه منها..

أن تكون اسماً للماضي^(١).. وفي هذه أيضاً لها أربع حالات... أهمها..

أن تكون - ظرفاً للماضي وهو الغالب.. كقوله تعالى «إلا تنصروه فقد نصره الله

إذ أخرجه الذين كفروا» التوبة/ ٤٠.

فدل الفعل الذي تلاه على الماضي لفظاً ومعنى..

وقال: «وزعم الجمهور أن - إذ - لا تقع إلا ظرفاً أو مضافاً كقوله تعالى

«واذكروا إذ كنتم قليلاً» الأعراف/ ٨٦. ظرف لمفعول محذوف.. أي - واذكروا -

نعمة الله عليكم - إذ كنتم قليلاً».

وقد ذكر ابن هشام الأوجه الثلاثة الباقية وقال عقب الحديث عن كل وجه عبارة

«والجمهور لا يثبتون هذا القسم» مما يدل على ترجيح الوجه الأول الذي ذكرناه...

وعن بعض استعمالاتها التي قد يعتقد أنه للمضارع..

قال ابن هشام:

«قد تلزم الإضافة إلى جملة إما ...

(١) جاء في معني اللبيب «إن - إذ - كلمة تدل على ما مضى من الزمان وهو اسم مبني على السكون وإن

- إذا - اسم يدل على زمان مستقبل ولم تستعمل إلا مضافاً إلى جملة». انظر ٨١/١ ٨٤/١.

١ / اسمية كقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ الأنفال/٢٦.

٢ / أو فعلية فعلها ماضٍ لفظاً ومعنى.. نحو ﴿واذ ابتلى إبراهيم ربه﴾ البقرة/١٢٤.

٣ / أو فعلية فعلها ماضٍ معنى لا لفظاً نحو ﴿واذ يرفع إبراهيم القواعد﴾ أي واذ

رفع إبراهيم..

وكذلك ﴿واذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الأنفال/٣٠.

يعني «إذ مكر بك الذين كفروا..»^(١).

وهي لا تأتي للمستقبل إلا إذا دخلت عليها «ما» فتكون «إذ ما» حينئذ أداة شرط

تجزم فعلين وهي حرف عند سيبويه بمنزلة «إن الشرطية» وظرف عند المبرد^(٢) وغيره..

كقولك: «إذ ما أتيت الرسول فقل له» أي مستقبلاً.

* هذا عن - إذ - ...

* أما عن - إذا - فإنها تأتي على وجهين..

الأول - أن تكون للمفاجئة -.

فتختص بالجملة الاسمية ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال

- خاصة - لا الإستقبال.. نحو قولك: «خرجت فإذا الأسد بالباب» وقوله تعالى:

﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ طه/٢٠.

قال ابن هشام:

«و لم يقع الخبر معها في التزيل إلا مصرحاً به^(٣) - أي الحال - نحو ﴿إن كانت إلا

صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ يس/٢٩ - أي حال الصيحة - نحو ﴿فنزع يده

فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ الشعراء/٣٣ أي وقت إخراجها..

الثاني - أن تكون لغير مفاجئة، فالغالب أن تكون ظرفاً للمستقبل مضمنة معنى

الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية - عكس الفجائية -..

(١) انظر مغني اللبيب ٨٤/١.

(٢) مغني اللبيب لابن هشام ٨٧/١.

(٣) مغني اللبيب لابن هشام ٨٧/١.

وقد اجتمعنا في قوله تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض^(١) إذا أنتم تخرجون﴾ الروم/٢٥.

ويكون الفعل بعدها ماضياً كثيراً ومضارعاً دون ذلك^(٢).

فالفعل - دعاكم - ماضٍ لفظاً مستقبلي معنى..

وكذلك قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما.. بعثنا﴾.

فالفعل - جاء - ماضٍ لفظاً مستقبلي معنى.

قال ابن هشام في بيان أن - إذا - تحصر في المستقبل - غالباً - كما هو مذهب

الجمهور فقال: والجمهور على أن «إذا» لا تخرج عن الظرفية - وأن حتى في نحو:

﴿حتى إذا جاؤوها﴾ فإنها تعتبر حرف ابتداء دخل على الجملة بأسرها ولا عمل له..

وقال.. وإذا جاءت بعد القسم فإنها للحال كما في قوله تعالى ﴿والنجم إذا

هوى﴾ النجم/١، لأن القسم هنا إنشائي لا خبري.. وهو قسم الله القديم.. والحال

والاستقبال متنافيان^(٣).

وتقدير معناه (إذا هوى النجم فأقسم... ما ضلّ صاحبكم) فهو ليس للمستقبل

كما قد يظن..

ولذلك قال الراغب: (إذا يُعبر به عن كلّ زمان مستقبل وقد يضمن معنى الشرط

فيجزم به.. وإذا يُعبر عن الزمان الماضي ولا يجازى به إلا إذا ضمّ إليه «ما» نحو «إذا ما

أتيت الرسول فقل له)^(٤) *

(١) ويراد به الاستقبال.

(٢) مغني اللبيب ١/٨٧.

(٣) المصدر السابق ١/٩٤-٩٥ بتصرف.

(٤) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص/١٥.

* ولقد جاءت كل من «إذا» و«إذا» في آية واحدة فكانت في أجمل وأروع تعبير وفيه من التصوير الفني ما

لا يكفيه صحائف الدنيا وذلك عبر قوله تعالى: (والليل إذا أدبر... والصبح إذا أسفر) الفجر/٣٤. فعبر

عن ذهاب الليل الذي مضى أو يكاد ودخوله في حيز الماضي بـ «إذا» وعن الصبح الذي يكاد يسفر

بالإشراق بـ «إذا» أي سوف يسفر.

وقول الراغب آنفاً «وقد يضمن إذا - معنى الشرط فيجزم به» يوافق ما قاله ابن هشام آنفاً فالغالب أن تكون ظرفاً مضمنة معنى الشرط..

من هذه المقدمة - النحوية - نستطيع أن نقول أن مجيء «إذا» في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا - بعثنا﴾ .

إنما لحكمة ومناسبة لها دورها في العطاء القرآني لا يصح إهماله هنا وهو الإخبار عن المستقبل الواقع لا محالة فقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ قال أهل اللغة الفاء هنا تفيد الترتيب مع التعقيب.. و«إذا» هذه التي هي ظرف للمستقبل ومضمنة معنى الشرط جاء بعدها فعل ماضٍ لفظاً لكنه مستقبل معنى وهو (جاء) فكون هذا الفعل جاء بعد إذا يعني أن المجيء لم يجيء بعد ...

وذلك لأسباب منها:-

١ / إن - إذا - هنا جاءت ظرفاً للمستقبل - حصراً - كما قال ابن هشام - سابقاً..

٢ / أنها ضمنت معنى الشرط أي إن المجيء بعدها كان مشروطاً بحدوث فعلٍ قبلها وهو الإفساد فإذا حدث الإفساد جاء الوعد عليه بالعقوبة لا محالة كجواب الشرط..

٣ / أنها جاءت مرتبطة بفاء التعريف التي تقتضي التعقيب وإن ما قبلها يترتب عليه ما بعدها..

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا.. بعثنا عليكم﴾ تقديرها إن الإفساد الأول منكم إذا وقع فقد ترتب عليه مجيء الوعد بالعقوبة عليه وإن الوعد بالعقوبة قد ترتب عليه بعث العباد عليكم ولذلك قال عنه ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾.

قال الزمخشري: (يعني وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل)^(١).

وقال عنه القاسمي:

(١) انظر الكشف - للزمخشري ٢/٦٩٤.

(أي ما وعدوا به في المرة الأولى.. يعني وعد المؤاخذه على أول المفسدتين)^(١)

ويؤكد هذا المعنى ابن عاشور حيث يقول في تفسيره عن جواب إذا:

(عطف جملة «فجاسوا» فهو من تمام جواب «إذا» من قوله ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ ومن بقية المقضي في الكتاب، وهو ماضٍ لفظاً مستقبلي معنى، لأن «إذا» ظرف لما يستقبل وجيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك..)^(٢) ولذلك قال عنه: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾.

كما قال الآلوسي في تفسيره: (وكان أي وعد أولاهما ﴿وعداً مفعولاً﴾ محتم الفعل)^(٣). وخلاصة ما تقدم نقول:.. إنه لو كانت العقوبة على إفسادي بني إسرائيل قد وقعتا في الماضي - قبل الإسلام - لاستعمل القرآن حين الإخبار عنها ما يناسبها من اللفظ الذي يؤدي معناها في زمانها ولاختار الأداة التي تناسب ظرفها مثل «إذ» التي هي مختصة بالظرف الماضي كما يقول علماء اللغة وأهل التفسير.. إذ إن «إذ» لا تأتي للمستقبل إلا نادراً^(٤) وإنما هي مختصة بالظرف الماضي كما ورد ذلك في القرآن في كثير من إخباره عن الماضي وعن بني إسرائيل بالذات..

مثل قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ البقرة/٣٤.

وقوله: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم﴾ البقرة/٦٧.

وقوله: ﴿وإذ قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ البقرة/٥٥.

وقوله: ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ الأعراف/١٦٤.

وقوله: ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ البقرة/٧٢. وغيرها كثير..

فلماذا حين أخبر عن فسادهم في سورة الإسراء لم يستعمل «إذ» إذا كان الإخبار عن

الماضي؟ ولماذا لم يقل مثلاً: ﴿وإذ قضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ حكاية عن الماضي؟.

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٣٩٠٢/١٠.

(٢) تفسير ابن عاشور ص/٣١-٣٢.

(٣) تفسير الآلوسي ١٨/١٥.

(٤) وذلك في حالة واحدة عندما تدخل عليها «ما» كما ذكرنا من قبل.

إنه ليس الماضي أبداً .. إنما هو الحاضر والمستقبل ..

وحين استعمل القرآن «إذا» إنما أراد أن يخبر عن عقوبتهم على فسادهم الأول الذي هم واقعون فيه والذي أصبحت نهايته وشيكة^(١) وعن إفسادهم الثاني الذي سيحدثونه في المستقبل البعيد^(٢) وعن عقوبتهم عليه تلك العقوبة التي أيقن بها الذين أوتوا العلم منهم وحين تقع سيخرون إلى الأذقان يكون ..

أقول حين أخبر القرآن عن فسادهم وعن عقوبتهم عليه مرتين استعمل " إذا " التي هي مختصة بالمستقبل أولاً ...

ولكونها ضُمَّت معنى الشرط ثانياً ...

كما ورد ذلك في كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح.. فسبح بحمد ربك واستغفره﴾.

فاستعمل إذا هنا للإخبار عن نصر الله وفتحه الذي سيحيي في المستقبل فإذا جاء.. ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾ النصر/٣.

وكقوله: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم.. فليستأذنوا﴾ النور/٥٩.

يعني حين يبلغ الأطفال منكم الرشد - مستقبلاً - فليستأذنوا..

فمحيي الفعل «جاء» بعد «إذا» في قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾، وفي قوله ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾:

(يعني أن المحيي لم يحيي بعد لأنه في المستقبل أولاً).

(ولأنه مشروط بوقوع الإفساد منهم ثانياً).

وفي هذا يقول الشيخ أسعد التميمي إن «إذا» - أداة ظرفية تدل على إن الأمر سيقع في المستقبل، ولا علاقة لما بعدها بما قبلها.. فوجود كلمة «إذا» في الآية تدل على أن الإفساد والعلو ثم التدمير الأول آتٍ وأنه لم يمر^(٣).

(١) كما سيأتي بيانه عند الحديث عن «فجاسوا».

(٢) سيأتي إثبات ذلك عند الحديث عن «ثم» التي تقتضي التراخي في الزمن والبعده فيه.

(٣) زوال اسرائيل حتمية قرآنية - أسعد بيوض التميمي ص/٣٥.

ثانياً.. في العلاقة بين الوعدين:

الناظر في دقة النص القرآني ممن كان له حسّ مرهف في تذوق التعبير القرآني يجد من خلال العطاءات القرآنية التي تتعرض لها إن لهذه النصوص حيوية وحركة تصور حوادث وأحداثاً وترسم مواقف وشخصاً يتبين من خلال تدبرها كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله...

وصدق صاحب الظلال حين يقول: (إن النص القرآني ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة.. إنما هو رصيد من الحيوية الدافقة وإيجاء متجدد في المواقف والحوادث.. ونصوصه مهياة للعمل في كل لحظة متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب.. ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السرّ العجيب)^(١).
وعما نحن بصدد من الحديث عن العلاقة التي يكشفها النص بين الوعدين - الوعد الأول في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ وبين الوعد الثاني في قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾.

نقول لماذا حين استعمل القرآن عبارة ﴿وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ عن الأول منهما لم يستعمل عبارة «وعد ثانيهما» أو «فإذا جاء الوعد الآخر منهما» عند إخباره عن العقوبة الثانية على فسادهم الثاني؟..

نقول إن لذلك أهمية كبيرة.. فإن هناك فارقاً كبيراً بينهما يّنه أهل اللغة فقالوا: إن كلمة «الآخر» بكسر الخاء إنما هو ما يقابل به «الأول» أما كلمة «الآخر» بفتح الخاء هو ما يقابل به «الواحد»^(٢)..

* فحين تقول - مثلاً - «هذا الأول» فينبغي - حين تخبر عن الثاني - أن تقول «وهذا آخر» بكسر الخاء..

* أما حين تقول «هذا واحد» فحين تخبر عن الثاني ينبغي أن تقول «وهذا آخر» بفتح الخاء.

(١) المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - عماد الدين خليل ص/٩٢ وانظر الظلال ٢١/١٤٠.

(٢) انظر مفردات الراغب ص/١٣.

ولتوضيح ذلك نقول. حين أعطيك قلماً بشكل ولون معين فأقول لك «هذا واحد» فإذا أعطيتك غيره يختلف عنه بالشكل واللون فينبغي أن أقول لك: «وهذا آخر» أي ثان لا يشبهه أما حين أكون لا أملك إلا قلمين متشابهين في الشكل واللون فحين أعطيك أحدهما أقول: «هذا أولهما» فإذا أعطيتك الثاني فينبغي أن أقول لك: «وهذا الآخر» أي أنه من عين الأول ومثله..

* ويزيد العلامة ابن منظور هذه الحقيقة توضيحاً حيث يقول: (آخر - هو الأول والآخر - هو الباقي بعد فناء خلقه - والظاهر والباطن) الحديد/٣.

* قال الليث - الآخر - نقيض المتقدم والمتقدمة - بالكسر - والآخر - بالفتح - أحد الشيئين - بمعنى غير - كقولك رجل آخر - وثوب آخر.. فالذي في الكسر يكون من جنس الأول وفي الفتح يكون مختلفاً عنه.. والتأخر ضد التقدم.. والتأخير ضد التقادم.. ومؤخر كل شيء خلاف مقدمه.. وقوله تعالى ﴿فَاخْرَاجُوا قَوْمَانِ مَقَامَهُمَا﴾ المائدة/١٠٧.

* فسرّه ثعلب فقال: فمسلمان يقومان مقام النصرانيين يحلفان أنهما أختانا ثم لم يرتجع إلى النصرانيين..

* وقال الفراء: معناه أو آخران من غير دينكم من النصارى واليهود.. وهذا للسفر والضرورة، لأنه لا تجوز شهادة كافر على مسلم في غير هذا..

ويضيف - والأخرى والآخرة: دار البقاء - صفة غالبية - والآخر بعد الأول وهو صفة.. أي آخر كل شيء.. وأنتك آخر مرتين وآخر مرة مرتين..

* وقال ابن سيده [في آية الإسراء] - وعندي أنها المرة الثانية من المرتين.. وقد تستعمل للبعيد حساً ومعناً ومكاناً وزماناً.. مثل - في حديث ماعز: إن الآخر قد زنى - وهو الأبعد المتأخر عن الخير..

ويقال: لا مرحباً بالآخر.. أي الأبعد..

جاء في الأثر: «إن المسألة آخر كسب المرء» أي أرذله وأدناه ويروى - بالمد - أي إن السؤال آخر ما يكتسب به المرء عند العجز عن الكسب..^(١).

(١) انظر لسان العرب - لابن منظور ٢٩/١ - ٣٠.

فحين يصف القرآن الوعد الثاني بأنه «وعد الآخرة» فإنه يريد أن يقول إنه من جنس ونوع الوعد الذي قال عنه «وعد أولاهما» وبعبارة أخرى إن العقوبة الثانية التي سيوقعها الله بهم بعد إفسادهم الثاني هي من نوع وجنس العقوبة التي أوقعها بهم بعد فسادهم الأول...

ونستطيع من خلال عقد مقارنة بين العقوبتين أن نتبين أوجه التشابه في مقوماتها ونتائجها.. من خلال ما رسمته الآيات وحددته نصوص القرآن..

الوعد الأول...	الوعد الثاني...
(١) بعث عبداً لله أولي بأس شديد.	(١) بعث عبداً لله - أمثال الأولين.
(٢) جاسوا خلال الديار - وقتلوهم وأجلوا كثيراً منهم وأورثهم الله أموالهم وديارهم.	(٢) سيسبئون وجوههم بقتلهم وإذلالهم وإخراجهم ليس من المسجد فحسب وإنما من الأرض المقدسة كلها.
(٣) دخلوا المسجد الأقصى أول مرة.	(٣) سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة.
(٤) دمروا وجودهم كقوة.	(٤) سيدمرون كل ما علاه اليهود تدميراً.

وحين يكون هذا تكون العقوبة على الإفساد الثاني هي من نوع وجنس العقوبة الأولى على إفسادهم الأول.. وهذه قضية لها أبعادها في الاعتقاد والتصور ومن ثم في المواقف والتبعات.. لنا أمة الإيمان على وجه العموم ولنا - مؤمني الكرة - على وجه الخصوص - فإن هذه القضية تشتمل على حقائق لا يجوز أن تغفل..

بل ينبغي أن تكون - جزءاً - من المادّة الحيّة التي ينبغي أن نربّي عليها الأجيال ومنها على سبيل الاختصار:

أولاً- إننا ينبغي أن ندرك إدراكاً تاماً أننا في دور الكرة^(١) التي لبني إسرائيل علينا، وأنهم اليوم يركبون موجة الاستعلاء والتجبر والطغيان في الأرض وقد جعلوا الإفساد في الأرض شريعة للناس..

(١) سنثبت هذا عند الحديث عن الكرة إن شاء الله.

ثانياً- إن انتهاء هذه الكرة التي لهم علينا مرهونة بعودة المؤمنين إلى الله وإلى أن يكونوا في حالة «عباداً لنا» أي إفراد الله بالألوهية والربوبية وأن تكون العبودية لله وحده دون سواه..

إذ إن ذلك هو شرط الإمامة^(١) التي ارتضاها الله لعباده ممثلة في أبينا إبراهيم الذي سمّانا مسلمين: «إني جاعلك للناس إماماً - قال: ومن ذريتي؟ ... قال: لا ينال عهدي الظالمين» البقرة/١٢٤.

وهو هو الذي أعز الله به أسلافنا الذين استحقوا به شرف النسبة إليه في قوله: «عباداً لنا» يوم أن بعثهم الله على اليهود - فجاسوا خلال الديار ثم - دخلوا المسجد - وكان وعداً مفعولاً بالنصر لهم..

ثالثاً- أجمع المفسرون كلهم قاطبة على أن القرائن والمؤشرات كلها تدل على أن من سيتعرض لبني إسرائيل في العقوبة الثانية إنما هم أمثال الذين تعرضوا لهم في العقوبة الأولى وهذه هي أهم حقيقة في هذه القضية.. حقيقة أن الله قدر وشاء الله أن يكون هناك سابقون مقربون - ثلة من الأولين - وقليل من الآخرين - يُعصب بهم أمر هذا الدين.

ولقد رجّح الإمام ابن كثير أن يكون المراد بقوله تعالى: «ثلة من الأولين» أي من صدر هذه الأمة، «وقليل من الآخرين» أي من [أواخر] هذه الأمة.. بعدما ضعّف القول الذي اختاره ابن جرير في أن يكون المراد بالأوليين الأمم الماضية وبالأخريين هذه الأمة...

وقال «لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها»^(٢).

ولقد بين القرآن أن هذه حقيقة لا جدال فيها ولا مرأى حين قال:

(١) شروط الإمامة هو الإيفاء بالعهد وهو الإيمان بالله وحده رباً والهاً. انظر ما قاله ابن كثير في مختصر تفسيره ١٦/١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤.

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ ثم قال بعدها معقبا ﴿وآخرين منهم﴾ فكما كان النبي رسولا منهم ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ البقرة/١٥١. كان المؤمنون في آخر الزمان هم من المؤمنين في أول الإسلام فقال: ﴿وآخرين منهم﴾ غير أنهم ﴿لما يلحقوا بهم﴾ وحيث أن: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ الجمعة/٢-٤.

إذا هم منهم غير أنهم (لما) يلحقوا بهم فأثبت أن المتأخرين هم من عين الأولين ولذلك استعمل «لما» التي تفيد «نفي الماضي وتقريب الفعل» - فكأن الآية تريد أن تقول إنه حين يأتي وقت مجيء الذين هم من الأولين لم يستخدم كلمة «سوف» التي تفيد المستقبل البعيد ولا حرف السين الذي يفيد المستقبل القريب وإنما استعمل «لما» التي تفيد نفي الماضي وتقريب الفعل الذي هو «اللاحق بهم» أي بالذين بعث فيهم النبي ﷺ فكانوا من ثم ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ فالذين عندهم الآية بأنهم ﴿آخرين منهم﴾ وقالت عنهم ﴿لما يلحقوا بهم﴾ قد فصلت بينهم فترة زمنية أرخت حبلها «ثم» التي هي لتراخي الزمن والمد فيه.. فهم قادمون لا محالة ليلحقوا بمن كانوا هم السابقين المقربين.. ﴿ثلاثة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ الواقعة/١٤. ﴿عباداً لنا.. أولي بأس شديد.. فجاسوا خلال الديار.. وكان وعداً مفعولاً..﴾.

رابعاً- هناك حقيقة لا تقل أهمية عن سابقتها وهي إن مجيء الوعد الذي قالت عنه الآيات ﴿فإذا جاء وعد أولاهما - و - إذا جاء وعد الآخرة﴾ له علاقة وثيقة بأمرين: الأمر الأول: وقوع الإفساد في الأرض - وهذا ما يسميه أهل اللغة فعل الشرط - له علاقة بمجيء الوعد بالعقوبة عليه - كجواب الشرط.

الأمر الثاني: إن مجيء الوعد له علاقة ببعث العباد.. فإذا ما وقع الإفساد واستعلى وطغى أيقظ الحق الذي نام وسها إذ أن الباطل لا يقوم إلا في غفلة الحق.. فإذا ما صحا الحق بعث الله به أصحابه فكانوا عباداً لله وحده ألو بأس شديد فانزلوا العقوبة بمن طغوا وعلوا على الناس علواً كبيراً فكانوا من المفسدين...

وتلك سنة الحق التي لا تتبدل إنما: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ ...

ثالثاً- في صيغ الأفعال ودلالاتها:

لقد وردت عدة أفعال بعد قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ وبعد قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ ... ومعرفة صيغ هذه الأفعال وظرف كل منها والضمائر التي اشتملت عليها كل هذه مما لا بد من الوقوف عليه لبيان ما بها من عطاء قرآني نحن بحاجة إليه.

* ولعل مما يلفت النظر للوهلة الأولى إن الأفعال الواردة بعد ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ كلها جاءت بصيغ (الماضي لفظاً والمستقبل معنى).

أنظر ... «فإذا جاء» وعد أولاهما «بعثنا» عليكم عباداً لنا.. أولي بأس شديد «فجاسوا» خلال الديار - وكان وعداً مفعولاً.

* والأفعال التي بعد ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ جاءت كلها بصيغة (المستقبل لفظاً ومعنى) فانظر ...

﴿فإذا جاء وعد الآخرة - ليسؤوا - وجوهكم و - ليدخلوا - المسجد كما دخلوه أول مرة و - ليتبروا - ما علوا تنبيراً﴾.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى:

* جاءت الأفعال التي بعد «ثم» مضافة إلى الضمير «نا» العائد إلى الله سبحانه أنظر.

﴿ثم . رددنا . لكم الكرة عليهم و . أمددناكم . بأموال وبنين و . جعلناكم . أكثر نفيراً﴾ .

فالأفعال التي بعد «وعد أولاهما» وبعد «ثم» المضافة إلى الضمير «نا» يقول عنها ابن عاشور: (أنها للمستقبل وإن جاءت بصيغة الماضي والمعنى: - نبعث - عليكم عباداً لنا - فيجيسون - ونرد لكم الكرة عليهم - ونمددكم - بأموال وبنين - ونجعلكم - أكثر نفيراً^(١)).

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٢/١٥.

وأما عن الأفعال التي بعد «وعد الآخرة» فقد جاءت مسبقة بلام «كي» التي هي للتعليل.. يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:

(«ولامات» ليسؤوا، وليدخلوا وليتبروا، للتعليل وليست للأمر لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث، ولو كانا لامي أمر لكانا ساكنين بعد واو العطف.. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا ﴿عليكم﴾ عباداً لنا ليسؤوا وجوهكم^(١) أي لكي يسؤوا وجوهكم.

وذكر الألوسي ذلك فقال: (فإذا جاء وعد «المرّة الآخرة» من مرقي إفسادكم «ليسؤوا» متعلق بفعل حذف للدلالة ما سبق عليه.. وهو جواب إذا - أي - بعثناهم ليسؤوا «وجوهكم» أي ليجعل العباد المبعوثون - عليكم في المرّة الثانية - آثار المساءة والكآبة بادية في وجوهكم..)^(٢).

يقول الإمام الطبري: (وقد اختلف القراء في قراءة قوله ﴿ليسؤوا وجوهكم﴾ فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة والبصرة ﴿ليسؤوا وجوهكم﴾ بمعنى ليسؤوا العباد أولو البأس الشديد الذين بعثهم الله عليكم وجوهكم)..

واستشهد قارئوا ذلك لصحة قراءتهم كذلك بقوله تعالى ﴿وليدخلوا المسجد﴾ وقالوا ذلك خبر عن الجميع فكذلك الواجب أن يكون قوله ليسؤوا.. وليتبروا..

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة ﴿ليسؤ وجوهكم﴾ على التوحيد بالياء.. وقد يحتمل ذلك وجهين من التأويل.

أحدهما: ما قد ذكرت.

والآخر: منها.. «ليسؤ الله وجوهكم».. فمن وجه تأويل ذلك إلى «ليسؤ - مجيء الوعد - وجوهكم» جعل جواب قوله «فإذا» محذوفاً وقد استغنى بما ظهر عنه.. وذلك المحذوف جاء.. فيكون الكلام تأويله.. ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤ وجوهكم﴾ - جاء.

(١) المصدر السابق ٣٦/١٥.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٥-١٩.

ومن وجه تأويله إلى «ليسؤ الله وجوهكم» كان أيضاً في الكلام محذوف قد استغنى هنا عنه بما قد ظهر منه غير أن ذلك المحذوف سوى جاء.. فيكون معنى الكلام حينئذ.. (إذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسؤ الله وجوهكم) فيكون المضمّر (بعثناهم) وذلك جواب «إذا» حينئذ..

وقرأ ذلك بعض أهل العربية من الكوفيين (ليسؤ وجوهكم) على وجه الخبر من الله تبارك وتعالى اسمه - عن نفسه سبحانه^(١).

* ويضيف الإمام الرازي بقوله (ليسؤوا - على صيغة المغاية.. قال الواحدي وهي موافقة للمعنى ولللفظ..)

أما المعنى - فهو أن المبعوثين هم الذين يسؤونهم في الحقيقة، لأنهم هم الذين يقتلون (ويدمرون علوهم تدميراً).

وأما اللفظ - فلأنه يوافق قوله ﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي في المرة الثانية كما (دخلوه أول مرة).. والله اعلم.

ثم قال: (وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة «ليسؤ» بالفتح على إسناد الفعل إلى الواحد - وذلك الواحد يحتمل أن يكون أحد الأشياء الثلاثة:

الأول - إما اسم الله سبحانه لأن الذي تقدم هو قوله: ثم رددنا وأمددنا، وكل ذلك ضمير عائد إلى الله تعالى.. والتقدير (ليسؤ الله وجوهكم).

الثاني - إما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله (بعثنا) والفعل المتقدم يدل على المصدر - والتقدير (ليسؤ البعث وجوهكم).

والثالث - أن يكون ذلك الواحد هو الوعد - كما قال الزجاج (ليسؤ الوعد وجوهكم)^(٢).

وقريء (ليسؤوا) بضمير الجمع.. والضمائر راجعة إلى محذوف دل عليه لام التعليل في قوله (ليسؤوا) إذ هو متعلق بما دل عليه قوله تعالى: ﴿وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا﴾...

(١) انظر جامع البيان - للإمام الطبري ١٥-٢٥.

(٢) تفسير الرازي ١٥٩/٢٠.

فالتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عبادا لنا ليسئوا وجوهكم...

وقريء عن عاصم (ليسئ) بالإفراد والضمير لله تعالى^(١).

وكذلك قرئت على التوحيد والضمير لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث المدلول عليه بالجزاء المحذوف^(٢)...

ويؤيد هذا قراءة الكسائي (لنسئ) بنون العظمة.. فإن الضمير لله تعالى لا يحتمل غير ذلك...

وقرأ أبي (لنسون) بلام الأمر ونون العظمة أوله، ونون التوكيد الخفيفة آخره... وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه أيضا (لنسون - وليسئون) بالنون والياء أولاً ونون التوكيد الشديدة آخراً.. واللام في ذلك لام القسم.. والجملة جواب القسم سادة مسد جواب إذا..

والسلام في قوله تعالى: ﴿وليدخلوا المسجد﴾ لام كي (تقديرها: ولكي يدخلوا المسجد.. (كما دخلوه) أي دخولاً كائنا كدخلوهم إياه أول مرة)^(٣).

(و) ضمير ﴿كما دخلوه﴾ عائد إلى العباد المذكورين في ذكر المرة الأولى بقرينة اقتضاء المعنى مراجع الضمائر^(٤).

ويختتم الآلوسي القول عن هذه المسألة بقوله: (وظاهر الآية يقتضي اتحاد المبعوثين أولاً وثانياً، ومن لا يقول بذلك يجعل رجوع الضمائر للعباد على حد رجوع الضمير للدرهم في قولك: عندي درهم ونصفه فافهم)^(٥) *.

(١) ابن عاشور ٣٦/١٥ وهذا ما قاله الرازي آنفاً. انظر تفسير ابن الجوزي ١١/٥.

(٢) انظر ما قاله الرازي ١٥٩/٢٠.

(٣) روح المعاني للآلوسي ٢٠/١٥ بتصرف.

(٤) تفسير ابن عاشور ٣٧/١٥.

(٥) روح المعاني للآلوسي ٢١/١٥. وانظر تفسيرات ابن عاشور ٣٧/١٥.

* في كلام الآلوسي هذا ردٌ على من قال إن القول بأن المبعوثين في المرة الثانية هم من عين المبعوثين في المرة الأولى، ليس بمراد «إذ» أنه خطأ في التقدير كما ترى.

وبذلك يتأصل ما ذهبنا إليه من اتحاد العقوبتين لاتحاد أهم مقوماتها وهم المبعوثون
أولاً وثانياً - والله الحمد.

المطلب الثاني

تحقق مقومات الوعد الأول بالعقوبة على الإفساد الأول

أولاً- معنى البعث... وحتميته:

المعطيات القرآنية

أولاً- في قوله تعالى.. ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾.

قلنا إن اللفظ والمفردة القرآنية تحمل بين طياتها معانيها ومجىء كلمة «بعثنا» هنا
تلقى من الإيحاء مالا تلقىه كلمة «أرسلنا» مثلاً لو استعملت مكانها..
يقول الراغب: (إن أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه.. يقال بعثته فانبعث.. أثرته
وسيرته..)^(١).

والبعث من بعث: بعثه بعثاً: أرسله وحده.. وبعث به: أرسله مع غيره.

والبعث: الرسول.. وبعث الجنود إلى الغزو..

والبعث: القوم المبعوثون المشخصون.. ويقال لهم البعث بسكون العين..

والبعث: يكون بعثاً للقوم يبعثون إلى وجه من الوجوه.. وبعثه على الشيء حملة

على فعله..

وفي التنزيل ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديد﴾.

وفي الخبر أن عبد الملك خطب فقال: بعثنا عليكم مسلم بن عقبة فقتلكم يوم

الحرّة...

وانبعث الشيء وتبعث: اندفع، وبعثه من نومه بعثاً، فانبعث أيقظه.. واهبه..^(٢)..

(١) مفردات الراغب ص/٥٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٢٣٠/١.

قال البستاني: (انبعث - مطاوع - بعث - إندفع في السير - أسرع)^(١) وتأويل البعث: إزالة ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث.. وانبعث في السير أسرع.. والبعث في كلام العرب على وجهين:

أحدهما - الإرسال - ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ الأعراف/١٠٣. معناه أرسلنا..

الثاني - البعث: إثارة باريك أو قاعد - تقول - بعثت البعير فانبعثت أي - أثرته فثار..

وكذلك البعث - الأحياء من الله للأموات - كما قال تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾^(٢) البقرة/٥٦. والراغب يجعله على ضربين.. بشري - وإلهي.. الأول: بشري.. كبعث الإنسان في حاجة.

الثاني: إلهي.. وهو ضربان..

أحدهما - إحياء الأعيان والأجناس.. وذلك يُخصّ به الباري تعالى ولم يقدر عليه أحد - كقوله تعالى ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ البقرة/٢٥٩.

الثاني - إحياء الموتى وقد خص بذلك أوليائه كعيسى (ع) وأمثاله - كقوله تعالى ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾ الكهف/١٢ وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان^(٣).

ويقال «تبعث مني الشعر - أي انبعث كأنه سال.. وقيل أن الباعوث للنصارى كالإستسقاء للمسلمين وهو إسمٌ سرياني»^(٤).

وفي إحصائية لورود كلمة (بعثنا) في كتاب الله الكريم نجد ما يلي.. إن كلمة (بعثنا) استعملت سبع مرات..

(١) منجد الطلاب - للبستاني ص/٧٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٢٣٠/١.

(٣) مفردات الراغب ص/٥٣.

(٤) لسان العرب لابن منظور ٢٣٠/١.

* خمس منها للأنبياء..

* وواحدة لنقباء بني إسرائيل..

* وواحدة لمعاقبة بني إسرائيل^(١)..

فمواضع استعمال «بعثنا» الخمسة التي هي للأنبياء هي:

(١) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ الأعراف/ ١٠٣.

(٢) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يونس/ ٧٤.

(٣) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمُلَّتْهُ﴾

يونس/ ٧٥.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ النحل/ ٣٦.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ الفرقان/ ٥١.

* وأما التي لنقباء بني إسرائيل فقد جاءت في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا

مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ الآية/ ١٢.

* وآخرها التي جاءت في سورة الإسراء لعقاب بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا

جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ الآية/ ٥.

(إذن كلمة «بعثنا» استعملت للأنبياء وما يشبههم ولم تستعمل للكفار أو غير

المؤمنين.. أي إن الذين سيبعثون مضافين إلى اسم الجلالة سبحانه وتعالى.. سيكونون من

المؤمنين وليسو من الكافرين)^(٢).

يقول الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:

(ومعنى بعثنا عليكم.. أرسلنا عليكم)^(٣) ففسر البعث بالإرسال والله سبحانه لا

يرسل إلا من يصطفيه ويختاره من المؤمنين أما من يعبد الأصنام والأوثان فلا... وصدق

الله: ﴿وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ الكهف/ ٥١.

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص/ ٣٦.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) تفسير الإمام الرازي ١٥٥/٢٠.

وبذلك قال الإمام الآلوسي (بعثنا عليكم أرسلنا لمؤاخذتكم)... وقال - قال ابن عطية - (يحتمل أن يكون الله تعالى أرسل إلى ملك أولئك العباد رسولاً يأمره بغزو بني إسرائيل فتكون البعثة بأمرٍ من الله تعالى^(١)...) .

وإنك لتلمح من كلام ابن عطية - رحمه الله - أن البعث من الله سبحانه لا ينبغي أن يكون إلا على يد من يختارهم الله من عباده المرسلين أو الذين شرفهم بنسبتهم إليه.. وحيث قد يكون البعث بتهيئة أسباب إيقاع العقوبة عليهم^(٢).

كما يقول ابن عاشور: (والبعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه حتى كأن ذلك أمرٌ بالمسير إليهم كما في قوله تعالى: ﴿لِيُعْثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ في سورة الأعراف، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحى وأمر^(٣)...) .

ثم أضاف قائلاً - وتعدية «بعثنا» بحرف الاستعلاء لتضمينه معنى التسليط كقوله ﴿لِيُعْثَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف/١٦٧^(٤).

فعلى هذا يكون ما قال به المفسرون من أن نسبة البعث إلى يختصر وسنحاريب وتيطس وأهل بابل وغيرهم من الكافرين والمشركين لا يتلائم مع مدلول النص القرآني كما هو واضح من كلام المفسرين الأجلاء.. إذ إن النص القرآني قد بين صفات ومعالم أثبتتها فيمن تعرض لبني إسرائيل في العقوبة الأولى عليهم بل جعلها خاصة بهم وهي ﴿عباداً لنا﴾ و﴿أولى بأسٍ شديد﴾ ثم ﴿جاسوا خلال الديار﴾ وغيرها.

وفي هذا يقول الدكتور فضل في تفسير هذه الآية:

(ومعنى هذا أنهم حينما يفسدون في المرة الأولى سيبعث الله عليهم عباداً شرفهم بالانتساب إليه وأكرمهم بهذه الخصوصية ﴿عباداً لنا﴾).

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/١٧.

(٢) سيأتي بيان أن العقوبة على بني إسرائيل ماضية بسنة لها قانونين.

(٣) قلت: سيأتي إثبات أن ذلك ممكن انظر تفسير الرازي ٢٠/١٥٧.

(٤) تفسير ابن عاشور ١٥/٣٠.

وهذه العبارة القرآنية تدل على أن هؤلاء المبعوثين على بني إسرائيل ممن أذاقهم الله طعم الإيمان، وكرمهم بشرف العبودية فهم - عباداً لنا - من أجلنا يحاربون وبأمرنا يأثمرون).

ويضيف.. (وما ذكر في كتب التفسير من أقوال في شأن الذين سُلطوا على بني إسرائيل لا يتفق مع الوصف القرآني الدقيق، والحق أن هذا الوصف القرآني إنما يصدق على أولئك الذين أخلصوا العبودية لله، ورباهم النبي ﷺ تربية خاصة فكانت نفوسهم قرايبهم، وأناجيلهم صدورهم، هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم الذين جاسوا خلال الديار ففتشوا ونقبوا ودخلوا بيوت هؤلاء اليهود.. وعلى هذا تكون تلك المرة الأولى التي أفسد فيها بني إسرائيل في الأرض.. فبعث الله عليهم هؤلاء الصفوة الخيرة ﴿عباداً لنا أولي بأسٍ شديد﴾ فنفذوا حكم الله فيهم^(١)...

وفي هذا يقول الشيخ عبد المعز عبد الستار: (فسلط الله عليهم عباده المؤمنين فأجلوا بني النضير وقتلوا بني قريظة وسبواهم ثم فتحوا خيبر ثم من عليهم الرسول ﷺ فاستبقاهم عملاء حتى أجلهم عمر في خلافته وكان وعداً من الله للمؤمنين بالتمكين وقد فعل..

هذه هي المرة الأولى لا تنطبق أوصافها إلا على أصحاب رسول الله ﷺ. فهم الذين يستحقون شرف هذه النسبة (عباداً لنا) لأنهم الموحدون أتباع عبده الذي أسرى به.. أما أتباع بختنصر أو سابور أو صحابين أو سنحاريب... الخ. ما اضطربت فيه أقوال المفسرين، فقد كانوا عباد وثن لا يستحقون شرف الإختصاص لله في قوله «لنا»^(٢)..

قلت:.. ﴿إي وربي إنه الحق﴾

وبناءً على ما سبق ذكره أقول:

(١) نفحات من الإسراء والمعراج - دكتور فضل حسن ص/١٢٠.

(٢) يراجع بتوسع ما أورده الدكتور محمد سيد طنطاوي في كتابه بنو إسرائيل في القرآن والسنة من كلام الشيخ عبد المعز ٣٧٨/٢.

أولاً/ في العلاقة بين الوعدين إنما هي علاقة ترابط لا انفصام لها إذ إن الوعد الثاني لعقوبة بني إسرائيل إنما هو من جنس وعين ونوع الوعد الأول كما أثبت ذلك المفسرون من خلال تفاسيرهم.

ثانياً/ ومن خلال تطابق المقومات^(١) الأساسية للوعدين الأول والثاني.

ثالثاً/ ومن خلال توافق المعنى بل وتأكيداته بأنه «قليل من الآخرين» هم من أشارت إليهم آية الجمعة «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم»..

رابعاً/ ومن خلال عود الضمائر في الأفعال التي تحدثنا عنها في «يسؤوا - وليدخلوا - وليتبروا» العائدة بإجماع المفسرين على العباد المبعوثين أول مرة أو على الوعد أو البعث أو العائدة إلى الله سبحانه الذي تأذن بهذا البعث متى شاء.

أقول: ومع هذا فإن بعض المفسرين قد قال مصرحاً في (بعثنا عليكم.. أي سلطنا عليكم)^(٢)...

ويقول غيره في: «بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد».

في قوله «بعثنا» وجهان:

أحدهما: خلينا بينكم وبينهم خذلاناً لكم بظلمكم.. قاله الحسن.

الثاني: أمرنا بقتالكم انتقاماً منكم^(٣).

إن هذا لم يكن إلا من بعض المقضي به على بني إسرائيل مما ينفي أي احتمال آخر قال به بعض المفسرين^(٤) وإنما هو أمر الهي واضح وثابت... فإنه قدر حتمي كتب عليهم فكان قضاء لا يرد قد وقع بهم وسيقع عليهم..

وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: «ولكن الله يسلط رسله على من يشاء» الحشر/٦ إنما في يهود بني النضير^(٥) بعد ما هموا بقتل النبي ﷺ فقال لهم

(١) انظر المطلب الأول من هذا المبحث.

(٢) انظر تفسير الإمام النسفي ١٥٣/٣.

(٣) تفسير الماوردي ٤٢٣/٨/٢.

(٤) كقول ابن عطية الذي أورده الإمام الآلوسي انظر ١٧/١٥.

(٥) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٧٢/٣.

سلام بن مشكم «وهو من يهود بني النضير» قال لهم لا تفعلوا، والله ليخبرن بما همتم به وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه.. كما ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته^(١)..

وقد نزلت سورة الحشر بأكملها في بني النضير بعد نقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ وكان هذا هو النقض الثاني لهم في السنة الرابعة من الهجرة.. بعد نقض بني قينقاع للعهد وخيانتهم لرسول الله ﷺ في السنة الثانية من الهجرة^(٢)..

وبعد غزوة الخندق - في السنة الخامسة للهجرة - وقد فرق الله جماعتهم وكسر شوكتهم.

قال ابن إسحاق: (قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع - الخيل - والخف، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فاني مرتحل..

قال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح...

فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ كما حدثني الزهري، معتجراً^(٣) بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامدٌ إليهم فمززل بهم..

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.. وقدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة.. ومر رسول الله ﷺ مع أصحابه بالصوريين - موضع - قبل

(١) انظر طبقات ابن سعد ٩٩/٣ وانظر سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣ وما بعدها.

(٢) انظر فقه السيرة للبوطي ص/٢٤٠ و ٢٧٦.

(٣) الاعتجار أن يتعمم الرجل دون تلح أي لا يلقي شيئاً تحت لحيته.

أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مرّ بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله، قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم.. ولما أتى رسول الله ﷺ بني قريظة.. وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب - وكان ما كان من تحكيم سعد بن معاذ فيهم فحكم فيهم فقال: «فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء».. فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة^(١)..

قال ابن إسحاق:.. ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق تخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ست مئة أو سبع مئة... وقد قالوا لكعب بن أسد، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالاً... يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!!... فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ.. وأتي بُحَيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلّة له فقاحية^(٢). وقد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسلبها، مجموعة يدها إلى عنقه بجبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: «أما والله ما لُمت نفسي عداوتك، ولكنه من يخل الله يُخذل.

ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس: إنه لا بأس بأمر الله. كتابٌ وقدر... وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل...

ثم جلس فضربت عنقه»^(٣)..

إنها والله لأصدق كلمة قالها أكذب كذوب:

(١) أرقعة - السموات.

(٢) قال ابن هشام فقاحية ضرب من الوشي تضرب الى الحمرة.

(٣) انظر السيرة النبوية - لابن هشام ٣/٣٢١-٣٣٣.

كتاب وقدر ... وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ...

وانها والله لأصدق كلمة قالها أصدق صدوق...

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل - في الكتاب - لتفسدن في الأرض مرتين - ولتعلن

علواً كبيراً.. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا

خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾.

ثانياً: أهم صفات المبعوثين:

أ- إنهم عباد مخلصون لله.

وتتمة لما تقدم نقول.. إن العباد المبعوثين على بني إسرائيل كانوا يتميزون بصفات

خاصة بهم لا تنطبق على غيرهم ومقومات إيمانية لا تجد لها مثيلاً في سواهم.

فحين ننظر في أول وأهم صفة أثبتها القرآن للمبعوثين على بني إسرائيل في تحقيق

الوعدين هي صفة ﴿عباداً لنا﴾ نجد إعجازاً كبيراً..

فكلمة - عباد - جمع لكلمة - عبد -.. والعبد من العبودية..

والعبودية هي.. إظهار التذلل.. والعبادة أبلغ منها.. لأنها غاية التذلل.. ولا

يستحقها إلا من له غاية الإفضال.. وهو الله سبحانه وتعالى..

ولهذا قال تعالى: ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

والعبادة ضربان:

عبادة بالتسخير.. وعبادة بالاختيار.

أولاً: عبادة بالتسخير -

وهي الطاعة لله والسجود له تذلاً وعبادة.. وهي أيضاً ضربان:

(١) سجد اختيار - وليس ذلك إلا لمن كلفوا اختياراً كالإنسان، وبه يستحق الثواب

كقوله: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ النجم/٦٢.

(٢) سجد تسخير - وهو للإنسان والحيوان والنبات والجماد وهي الدلالة الصامتة

الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعلٍ حكيم.

كقوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ الرحمن/٦.
وقوله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ الرعد/١٥.
وقوله تعالى: ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ النحل/٤٩..

ينطوي على النوعين من السجود والتسخير والاختيار..
ثانياً: أما العبادة بالاختيار فهي:
«لذوي النطق.. وهي البأمور بها في قوله تعالى: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾
البقرة/٢١.

وقوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ النساء/٣٦.
ثم إن كلمة «العبد» تُطلق على ثلاثة أوجه:
الأول - عبد بحكم الشرع - وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه نحو:
﴿العبد بالعبد﴾ البقرة/١٧٨.

وقوله تعالى: ﴿وعبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ النمل/٧٥.
الثاني - عبد بالإيجاد - وذلك ليس إلا لله.. وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿إن كل من
في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ مريم/٩٣.

الثالث - عبدٌ بالعبادة والخدمة -.. والناس في هذا ضربان.

(١) عبد لله مخلصٌ.

وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ ص/٤١.
﴿نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ الفرقان/١.
﴿أنزل على عبده الكتاب﴾ الكهف/١.
﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ الحجر/٤٣.
﴿أن أسر بعبادي ليلاً﴾ ص/٧٧.

﴿فوجدنا عبداً من عبادنا﴾ الكهف/٦٥.

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ الحجر/٤٠.

﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ الإسراء/١

(٢) عبد للدنيا وأعراضها.

وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها وإياه قصد النبي ﷺ بقوله: «تعس عبد

الدينار.. تعس عبد الدرهم.. تعس عبد القطيفة..»^(١). رواه أبو هريرة.

وعلى هذا النحو يصح أن يقال ليس كل إنسان عبداً لله بالاختيار فمنهم من

يكون عبداً لغير الله.. والناس كلهم عباداً لله.. بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها

بالتسخير وبعضها بالإختيار فعلى هذا يكون..

أ- جمع العبد الذي هو مسترق... «عبيد»

ومنه قوله تعالى: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ ق/٢٩.

وقيل جمعه «عبيداً» أي عبّدت فلاناً إذا أذلته واتخذته عبداً^(٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿أن عبّدت بني إسرائيل﴾ الشعراء/٢٢.

(وقرأ بعضهم «وُعِبِدَ الطاغوت» بالإضافة «وَعَبِدَ الطاغوت» أي خدم الطاغوت)^(٣).

ب- وجمع العبد الذي هو العابد لله وحده المخلص له في عبادته والذي اختاره الله

وشرفه بنسبته إليه وتشرفه به.. «عباد»^(٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ الحجر/٤٢.

﴿أن أسري بعبادي ليلاً﴾ طه/٧٧.

﴿بعثنا عليكم عبداً لنا﴾ أي خالصين لنا دون سوانا.. صادقين في ولائهم مخلصين

في عقيدتهم ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ الحج/٣١.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله انظر عمدة القاري ١٧١/١٤

/رقم الحديث/١٠٠ وانظر كذلك ٢٣/٤٥/٢٣.

(٢) انظر المنجد للبستاني ص/٤٥٧.

(٣) مختار الصحاح للرازي ص/٤٠٨.

(٤) مفردات الراغب الاصفهاني ص/٣١٩ بتصرف.

ولهذا يصح أن يقال.. إن كل الناس عبيد لله ولكن ليس كل الناس عباداً، إذ أن العباد ليسوا إلا أولئك الذين رضوا بالله وحده دون سواه.. رباً، وبالإسلام ديناً.. فعبدوا الله وحده دون أن يشركوا به شيئاً..

مما تقدم نجد إن هناك farkاً كبيراً بين كلمة «عبيد» وكلمة «عباد» فليس اعتباراً مجيء «عباداً لنا» في سورة الإسراء وإنما هو أمر أريد عن قصد أن يقول القرآن (أن الله قضى أن تكون عقوبة بني إسرائيل على فسادهم الأول على يد «عباد» يبعثهم الله عليهم عندما يحين وقت العقوبة الأولى على إفساديهما المقضي بهما عليهم في الأرض.. فإن في اختيار هذا اللفظ حكمة عظيمة.. فلو نظرنا إلى كلمة «عباد» في القرآن نجد أن هذه الكلمة استعملت في الغالب الأعم على من كان عبداً لله غير المشركين به.. أي إنها استعملت لمن آمن بالله سبحانه دون سواه كالأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين لكنها قد تطلق على غيرهم بنسبة قليلة لا تكاد تذكر إلى ما جاءت به من صيغ المدح والثناء والإضافة إلى الله مباشرة أو إلى ضمير يعود إلى الله من قريب أمر بعيد.

يقول الإمام الرازي: (وفرّق بين «العبد» مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى.. فإن الإضافة إلى الشريف تكسوا المضاف شرفاً.. تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك البيت، وعلى هذا فقوله تعالى: «وعباد الرحمن» من قبيل قوله: «إن عبادي» وكذلك قوله: «عباد الله»..^(١)

(وكذلك فإن التعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها.. إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبر به في هذا المقام العظيم)^(٢).

فكلمة (عباد - عباده - عبادي - عبادك - عبادنا - عباداً لنا). إنما تشمل أولئك الذين قال عنهم عدو الله إبليس: «إلا عبادك منهم المخلصين» الحجر/٤٠ وقد عرف

(١) انظر تفسير الامام الرازي ٦٣/٢٦.

(٢) أضواء البيان - للشنقيطي ٣٩٨/٣.

هذه الحقيقة يوم طرد من رحمة الله.. وطلب الإنظار ف قيل له: ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزت لك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ص/٨٣ - بفتح اللام -.

وقد قال عنهم الآلوسي: «هم الذين أخلصهم الله لطاعته.. وعصمهم عن الغواية»^(١).

والغواية هي الكفر والضلال من الغي الذي قال عنه الراغب^(٢): «جهل من اعتقاد فاسد.. قال تعالى: ﴿واخوانهم يمدوهم في الغي﴾ الأعراف/٢٠٢ وقال:

﴿لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين.. إلا عبادك منهم المخلصين﴾ الحجر/٤٠

ولذلك كان الحق أن ينصر الله عباده المؤمنين ويحفظهم منه فقال ﴿هذا صراط عليّ

مستقيم.. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين﴾ الحجر/٤٢.

إن الذين أكرمهم الله بتمام العبودية له سبحانه، وشرفهم بكرامة الانتساب إليه

وحده سبحانه قد أطلق عليهم صفة «عباد» فكانوا في الغالب الأعم من الأنبياء

والمرسلين وعباد الله الصالحين المخلصين.

هذا الغالب الأعم الذي جاء في لفظ «عباد» إنما أخذ حكم الصلاح والانتساب

إلى الله على الرغم من مجيء بعضه في مواضع قليلة ما يشير - ربما - إلى غيره.. فإنما هو

يأخذ حكم هذا الغالب الأعم كما قال الآلوسي^(٣) بذلك وكما دلت على ذلك صور

شقي وصيغ متعددة تؤكد هذا المعنى - منها -.

(١) ما كان مباشراً -

كقوله تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾^(٤) الصافات/٧٤.

وقوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ الفرقان/٦٣.

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ٢٢٨/٣٢.

(٢) مفردات الراغب /٣٦٩.

(٣) قال الآلوسي «إن معظم الشيء يقام مقام كله» أي فيأخذ حكمه انظر ٣٠/١٥.

(٤) تكررت هذه الآية في سورة الصافات وحدها خمس مرات.

(٢) ما كان مضافاً إلى ضمير الغائب الذي يعود إلى الله سبحانه:

كقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ الإسراء / ١.

(٣) ومنها ما كان مضافاً إلى ياء المتكلم الذي هو الله سبحانه:

كقوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ بقرة / ١٨٦.

وقوله: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ العنكبوت / ٥٦.

(٤) ومنها ما كان مضافاً إلى نون المتكلم العائد إلى الله «نون العظمة»:

كقوله: ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا﴾ الكهف / ٦٥.

وقوله: ﴿ولكن جعلناه نوراً هدي به من نشاء من عبادنا﴾ الشورى / ٥٢.

(٥) ومنها ما كان مضافاً إلى كاف المخاطب العائد إلى الله أيضاً..

كقوله تعالى: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ ص / ٨٣.

وقوله: ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ الزمر / ٤٦.

(٦) ومنه ما كان مضافاً إلى صفة من صفات الخير والبر..

كقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً بل عبادة مكرمون﴾ الأنبياء / ٢٦.

وقوله تعالى: ﴿كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين﴾ التحريم / ١٠.

وقوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فاطر / ٢٨.

(٧) ومنها ما كان مضافاً إلى الله بلام الاختصاص^(١)..

كقوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا.. أولي بأس شديد﴾ الإسراء / ٥.

وفي إضافة «عبد - وعباد» إلى الله تعالى إنها من باب التشريف والتكريم يقول

المفسرون:..

(وفي إضافته تعالى «عبده» لضميره تشريف عظيم ... وكثيراً ما أتى التشريف

بلفظ العبد كقوله تعالى: ﴿نعم العبد - وان عبادي ليس لك عليهم سلطان - واذكر

عبداً إبراهيم..﴾^(٢).

(١) لم أجد في القرآن كله مثل هذه الصيغة إلا في سورة الإسراء ١١.

(٢) انظر النهر الماد من البحر المحيط لابي حيان الأندلسي ص / ٢٨١.

ويقول ابن عاشور: («وعبد» المضاف إلى ضمير الجلالة هنا هو محمد ﷺ كما هو مصطلح القرآن، فإنه لم يقع فيه لفظ العبد مضافاً إلى ضمير الغيبة الراجع إلى الله تعالى إلا مراداً به النبي ﷺ ولأن خبر الإسراء به إلى بيت المقدس قد شاع بين المسلمين وشاع إنكاره بين المشركين فصار المراد «بعبد» معلوماً.. والإضافة إضافة تشريف لا تعريف لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفاً^(١).

(وفي إحصائية لكلمة «عباداً لنا» نجد إن كلمة «عبد» في القرآن الكريم عامة للمسلمين وغيرهم.. بل لا بد من ملاحظة أن كلمة «عبد - و - عباد» المضافة إلى ضمير المتكلم حيث نجد أن كلمة «عبدنا» استعملت خمس مرات للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فقط^(٢).

وكلمة «عبادنا» استعملت اثني عشرة مرة للأنبياء - عليهم السلام - والمؤمنين فقط^(٣)، وزيادة هذه الصيغة بلام الإضافة^(٤) والنسبة إلى الله تعالى «لنا» يجعل الصيغة دليلاً أو قرينة قوية على أن المبعوثين من المؤمنين ومن نوعية خاصة منهم.. ومما يقوي هذه القرينة ويعطي القرينة المتقدمة شيئاً من القوة أيضاً.. أن الله سبحانه وتعالى استعمل مادة «البعث» في الوعدين لبني إسرائيل، ولكن جعل الصيغة في - وعد التسلط عليهم

(١) انظر تفسير ابن عاشور ١٢/١٥ وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٣/٣٩٨.

(٢) قلت هي (١) (إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) البقرة/٢٣ - (٢) (إن كنتم آمتم بالله وما أنزلنا على عبدنا) الأنفال/٤١ - (٣) (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ص/١٧ - (٤) (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) القمر/٩.

(٣) هي ١ (إنه من عبادنا المخلصين) يوسف / ١٤ ، ٢ (فوجدنا عبداً من عبادنا) الكهف / ٦٥ ، ٣ (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) مريم / ٦٣ ، ٤ (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) فاطر / ٣٢ ، ٥ و ٦ و ٧ و ٨ (إنه من عبادنا المؤمنين) الصافات / ٨١ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ٩ (لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) الصافات / ١٧١ ، ١٠ (واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب) ص/١١١ ، ٤٥ (فهدي به من نشاء من عبادنا) الشورى / ٥٢ ، ١٢ (كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين) التحريم / ١٠.

(٤) قيل هي لام الاختصاص.

«ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب» وعبر عن المبعوثين بـ «من يسومهم» وقد عرفنا إن هؤلاء المبعوثين هم الوثنيون والمجوس والنصارى وغيرهم^(١)...

بينما جعل الصيغة هنا «بعثنا» وهي صيغة استعمالها للأنبياء والأوصياء فقط..

فقد عبر عن المبعوثين بـ «عباداً لنا» وهو تعبير فريد لم يستعمل ما يشبهه في

الإضافة إليه تعالى إلا في الأنبياء والمؤمنين..

نعم ورد استعمال «عبادي» لغير المؤمنين أيضاً ولكنه استعمال يجيء دائماً في

مقابل دعوى العبودية لغيره تعالى...

إذن: إن الذين سيتولون تدمير اليهود هم من المؤمنين لما مر من الشرح...

وهذا التشريف والتكريم الإيماني لا ينطبق على البابليين ولا على الرومان لأنهم

جميعاً من الوثنيين، وينطبق هذا الوصف على رسول الله ﷺ وأصحابه الذين جاؤوا إلى

المدينة ولليهود فيها نفوذ سياسي واقتصادي وكان من أول أعماله ﷺ في المدينة إبرام

المعاهدة السياسية بينه وبين اليهود والتي نصّت على أن اليهود جماعة مستقلة وإن

المسلمين جماعة مستقلة.. فلما غدر اليهود ونقضوا العهد كعادتهم ودأبهم سلط الله

عليهم المسلمين فجاسوا خلال الديار اليهودية وتغلغلوا فيها وأزالوهم عن المدينة وخير

وتيماء، فزال سلطانهم وتمّ تدمير علوهم من خلال معركة بني قريظة وبني النضير ومعارك

خير الشهيرة».

إن هذا الذي تحصل لدينا إنما يؤكد أنه نجد له رصيذاً في النص.. أي إن كل تلك

المعاني داخلة فيما يحتمله اللفظ القرآني «عباداً لنا» على خلاف ما قيل من أقوال قد

تضاربت واضطربت اضطراباً شديداً.. بحيث لا يمكن أن يحتملها النص القرآني^(٢) ولا

يؤيدها الواقع التاريخي الذي عاشه بنو إسرائيل..

(١) سيأتي تفصيل هذا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

(٢) قلت لأنها مترادفة وليست متقاربة.

مثال ذلك ما أورده الماوردي في تفسيره وتابعه من جاء بعده كابن الجوزي^(١) حيث قال: (في قوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾ وفيهم خمسة أقوال:

- / أحدها - أنهم «جالوت وجنوده» قاله ابن عباس وقتادة.
 - / الثاني - «بختنصر» قاله سعيد بن المسيب واختاره الفراء والزجاج.
 - / الثالث - «العمالقة» وكانوا كفاراً، قاله الحسن.
 - / الرابع - «سحاريب» قاله سعيد بن جبير.
 - / الخامس - «قوم من أهل فارس» قاله مجاهد.
- ثم يضيف.. وقال ابن زيد.. سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف من ملوك فارس^(٢).

بل حتى الذين لم يجد بنو إسرائيل منهم بأساً قيل عنهم أنهم سلطوا على بني إسرائيل..

وفي ذلك يقول الشيخ سعيد حوى في ردّه على بعض المفسرين الذين قالوا بتسليط سحاريب على بني إسرائيل: (فلم يكن تسليطاً في هذه المرحلة كما توهم بعض المفسرين الذين ليس لهم مستند إلا الروايات الإسرائيلية، وهي لا تفيد ما توهموه)^(٣). فكيف أمكن أم كيف يعقل أن كل هؤلاء على اختلاف عقائدهم أولاً؟.. وعلى تباين وتباعد فترات وجودهم في التاريخ ثانياً؟.. أن يكونوا هم المبعوثين لتحقيق العقوبة الأولى على بني إسرائيل في فسادهم الأول؟.. فهل كان يعزّ على الله - سبحانه وتعالى عن ذلك - أن يوجد من يستحق هذا الشرف من المؤمنين؟ كيف وهو يقول سبحانه: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ الكهف/٥١.

ولقد ردّ الإمام الرازي على الجبائي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾ حيث قال: (أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: المراد من ﴿بعثنا عليكم﴾ هو

(١) تفسير ابن الجوزي ٩/٥.

(٢) تفسير الماوردي ٤٢٣/٨.

(٣) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤٣/٦.

أنه تعالى أمر أولئك الأقوام بغزو بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الإفساد، فأضيف ذلك الفعل إلى الله تعالى من حيث الأمر..).

فردّ الرازي عليه بقوله: (واعلم أن الجواب الأول ضعيف، لأن الذين قصدوا تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال إنهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى..)^(١).

قلت: إن الإمام الرازي - رحمه الله - كان محقاً في ذلك ولكن ... إنما قد يجوز أن يكون «بإذن الله» تعالى لحكمة يعلمها وعقوبة تأذن بإيقاعها على بني إسرائيل إلى يوم القيامة. كلما فسدوا وأفسدوا في الأرض في أثناء هاتين الإفسادتين وحين لم يكن للعباد «الذين اختصهم الله تعالى بشرف الانتساب إليه، فكانوا من المخلصين» وجوداً متمثل بكيان ودولة له قوة وصوله بحيث لا يرضون منهم إلا أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. كما كان الحال في عهد النبي ﷺ ودولته الفتية..

أما حين لم يكن لدولة الإسلام وجوداً! وحين لم يكن العباد - وان وجدوا - مؤهلين إلى أن يقاتلوا اليهود!! فعندئذ لا يسمح الله لسلطان اليهود أن يمتد ولشراً أعوان الشيطان أن ينتشر إنما تكفل الله سبحانه أنه ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله..﴾. وإنهم ليفسدون بل ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ المائدة/٦٤..

قال ابن كثير: (أي من سجيّتهم أنهم دائماً يسعون الإفساد في الأرض)^(٢).
ولذلك كانت سنة الله فيهم متمثلة في ﴿وإذ تأذن ربك لبيعنّ عليهم إلى يوم القيامة - من يسومهم سوء العذاب﴾ الأعراف/١٦٧ فكان أولئك الظالمون الذين زخر بهم التاريخ من الذين أذن الله أن يتسلطوا - عبر التأريخ في الماضي والحاضر وربما في المستقبل - على بني إسرائيل كلما فسدوا وأفسدوا..

يقول الرازي:

(١) انظر تفسير الرازي ١٥٧/٢٠ لم اذكر الوجه الثاني الذي ذكره الجبائي لعدم الحاجة إليه ويمكن الرجوع إليه في مكانه المشار اليه.

(٢) تفسير ابن كثير ٧٦/٢.

(واعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما عصوا سُلَّطَ عليهم أقوماً قصدوهم بالقتل والنهب والسلب)^(١).

وقال صاحب الظلال حول موضوع التسليط:

(ولقد صدقت النبوة ووقع الوعد، فسَلَّطَ الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سَلَّطَ عليهم من شردهم في الأرض، ودمر مملكتهم فيها تدميراً.. فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض، فالجزاء حاضر والسنة ماضية: ﴿وإن عدتم عدنا﴾.. حتى كان العصر الحديث فسَلَّطَ عليهم «هتلر» ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة إسرائيل التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الولايات، وليسلمن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف..)^(٢).

ثم إذا كان أولئك قد شرفهم الله سبحانه بـ «البعث» و«الإرسال» و«الانبعاث» ليقعوا وعده سبحانه على بني إسرائيل حين فسدوا الإفساد الأول فماذا يقال للإفساد الثاني الذي بعده والذي تلاه والذي كان حين كفروا بـ عيسى - وهو أصلاً قد بعث إليهم - مصداقاً لما معهم من التوراة؟ وماذا يقال عن فسادهم حين كفروا بمحمد ﷺ وأعلنوا الحرب عليه؟ وماذا يقال عن إفسادهم واستعلائهم الذي نحن فيه اليوم؟ والسؤال قبل الأخير.. هل كان لأولئك جوس - خلال - ديار بني إسرائيل. أم أنه الاجتياح والدمار والخراب؟.

والسؤال الأخير.. هل كانت لبني إسرائيل كربة ودولة على أيّ واحد من أولئك فكان لهم المدد في الأموال والبنين وكانوا فيها أكثر نفيراً؟؟..

هذا ما ستبينه لنا المعطيات القرآنية التي ما تزال ثرة ولما يُقَضَّ إبحاؤها بعد...

ثم بعد هذا نقول: إنه ربما طرح على مائدة هذا البحث الذي نحن بصدد سؤال يُعترض به علينا...

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ١٥٨/٢٠.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٧/٥ - ٣٠٨. وانظر المطلب الثاني في المبحث الأول من الفصل الرابع حيث فصلت هذا الموضوع هناك.

وهو.. إنه قد وردت كلمة «عباد» في أكثر من موضع يشير ظاهرها إلى أنها ليست بالمعنى الذي تقرر فيما سبق ونعتقده صواباً..

ومثل هذا وارد.. و﴿الله لا يستحي من الحق﴾ ففي القرآن ميزة الإيجاز التي هي من الإعجاز.

لفظ واحد يجيء في عدة مواضع وفي كل موضع له معنى ما، واستعمال ما.. وذلك لكي يحرك القرآن العقول والإفهام فتبحث عن المراد من هذا اللفظ وسر اختياره هنا في هذا الموضع بالذات بينما كان اختيار غيره في سواه من المواضع؟ ولإجابة على هذا التساؤل أقول:

الذي عليه أهل العلم أن الغالب يأخذ حكم الكل^(١). فإطلاق لفظ العباد على الغالب الأعم ينسحب إلى كل الداخلين فيه وان كان هناك من لم يدخل في المراد من النص - ربما - إلا بقرينة ما تعين المراد وتخصص المقصود. أما المطلق الذي لم يخص كلفظ «عباد» في القرآن التي وردت في الغالب الأعم على الأنبياء والصالحين كما رأينا، ووردت كذلك في ثلاث مواضع يدل ظاهرها على غير ما قلناه..

الأول - في سورة المائدة عند قوله تعالى:

﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آية/١١٨.

الثاني - في سورة الإسراء عند قوله تعالى:

﴿وَكُفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ آية/١٧.

الثالث - في سورة يس عند قوله تعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ آية/٣٠.

* فآية المائدة يوحى ظاهرها أن عيسى - عليه السلام - يقصد الناس الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله.. بينما المعنى الذي قصده عيسى من العباد هم الحواريين كما هو المفهوم من مقتضى النص الذي جاء ضمن الجو العام للآيات بدءاً من قوله

(١) انظر ما قاله الآلوسي في تفسيره حول هذا الموضوع في ٢٣/٢٢٨.

تعالى: ﴿وَإِذْ أُوحِيتَ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَاتُّبِعْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَانْكَرُ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ الآيات ١١١-١١٨.

فالقُرآن هنا يقرر حقيقة لا شك فيها وهي إيمان الخواريين بالله وبرسوله وإقرارهم
بهذا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ...

يقول صاحب الظلال: (يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الخواريين أن يؤمنوا بالله
وبرسوله، فإذا هم ملتبون مستسلمون ويشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة
لله...) (١).

أما قضية عتاب الله لعيسى وسؤاله أمام الملائكة الأعلى ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمِّي إلهين مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنما هو من باب التعريض بقومه الذين اتخذوه إلهاً من دُونِ اللَّهِ
بينما هو لم يطلب منهم هذا، إنما كان أول كلمة قالها لهم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ مريم/٣٠.
ودعوته كلها كانت ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ المائدة/١١٧.
قال الرازي: (والمعنى ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به...) (٢).

المهم إن الآيات تثبت أن الخواريين الذين آمنوا بالله وبعيسى رسول الله لم يقولوا
بالوهمية عيسى في حياته وإلا أنكرها عليهم حين كان حياً بين أظهرهم فقد كان شهيداً
عليهم ما دام فيهم.. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ولكن ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي
كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ يارب، فإن قالوا ذلك فلا ذنب لي ولكن حين كنتُ فيهم
فأنا شهيد بأنهم مؤمنين.. فعن هؤلاء قال عيسى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَاتُّبِعْ عِبَادُكَ﴾ الذين
اخترقهم واصطفيتهم وألهمتهم الإيمان ﴿وَإِذْ أُوحِيتَ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي
قَالُوا آمَنَّا﴾ لاعن القوم الذين أشركوه بالله إلهاً في أقانيم ثلاثة، فإن الإشراك ليس ذنباً
حتى يقول عيسى ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذ لا يمكن أن يجهل وهو نبي قضية من أهم وأكبر

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٧١/٣.

(٢) تفسير الرازي ١٣٥/١٢.

قضايا الإيمان وهي «إن الله لا يغفر أن يشرك به» بينما هو ولا شك يعلم علم اليقين قضية «إن الله يغفر الذنوب جميعاً» وإن كانت كبائر، برحمته وفضله على عباده.. ولو كان عيسى يقصد غير الحواريين الذين أشركوا ما قال «وإن تغفر لهم» فإن الكافر مخلد في النار والمشارك لن يغفر الله له ولذلك لم يقل «إنك أنت الغفور الرحيم» وإنما قال: «فإنك أنت العزيز الحكيم».

وفي هذا يقول الإمام الرازي: (معنى الآية ظاهر، وفيه سؤال: وهو أنه كيف جاز لعيسى - عليه السلام - أن يقول «وإن تغفر لهم» والله لا يغفر الشرك؟)^(١).
ثم أورد أربعة أجوبة للجواب على هذا السؤال لا مجال لذكرها إلا اختصاراً..
فأقول: (أن عيسى في خلال حياته شهد لهم بالإيمان وعدم الكفر أو الشرك وأهم قد نصره فكانوا من المصطفين الأخيار وكان عليهم شهيداً ما دام فيهم، أما حين توفاه الله ورجع قومه إلى الكفر والشرك فكانوا من الضالين الذين اتخذوه إلهاً من دون الله فهؤلاء أصلاً لم يكن الله ليغفر لهم ولم يكن عيسى عليه السلام ليدعو الله لهم بالمغفرة، وإنما قصد أولئك الذين آمنوا به وأسلموا لله وقالوا: «إنا نصارى...» وقالوا: «... واشهد بأننا مسلمون».

(روى الحافظ ابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (وإذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله بنعمته عليه فيقر بها فيقول: «يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك» ثم يقول: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله» فينكر أن يكون قال ذلك.. فيأتي بالنصاري فيسألون فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى - عليه السلام - فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب، ويُتطلق بهم إلى النار)*.

(١) انظر تفسير الرازي ١٣٦/١٢-١٣٧ فقد بين الحكمة من قوله تعالى: (العزيز الحكيم) ولم يقل: (الغفور الرحيم). وانظر كذلك الظلال ٧١/٣.

* انظر مختصر ابن كثير ٥٦٤/١ فقد أخرجه في تفسيره وانظر صفوة التفاسير ٣٧٥/١.

وإننا لنلمح من خلال السياق إشارات نفهم منها أن عيسى - عليه السلام - كان يقصد من خلال إجابته أمراً ما.. في ذلك الموقف الرهيب بين يدي الله سبحانه والذي أخبر عنه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَا أُنْجِيتُمْ؟.. قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا...﴾ كيف؟ لا علم لهم!!

هل نسوا ما كان لما رأوا هول الموقف بين يدي الله وقد جُمِعُوا.. أم ماذا؟. ثم حين يسأل الله عيسى من دون كل الأنبياء غيره ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كان مقتضى الكلام أن يقول عيسى (لا لم اقل لهم ذلك) ولكنه قال ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ كيف لم يذهل عيسى عما قال كما ذُهِلَ الأنبياء عما أُجِيبُوا من قومهم؟ الموقف رهيب نعم، ولكنه في مجال - ربما - في ما يستحيل في حق الأنبياء أن يقولوا على الله كذباً.. أو ما ليس لهم به حق.. فحين يقول عيسى ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فإنه في هذا المجال الذي له فيه حق وهو مقتضى أنه كان شهيداً عليهم ما دام فيهم - انهم مؤمنون - وأشهدوه انهم مسلمون: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فلا يأتي هنا ويغير ولو كان الموقف رهيباً.. فانهم كانوا - حين كان بينهم في الدنيا - عباداً لله ونصارى، فاستحقوا في القيامة أن يطلب لهم المغفرة لذنوبهم لا لشركهم إذ انهم لم يشركوه بالله وإنما فعل ذلك مَنْ جاء بعدهم بعد أن أضلهم بولس - شاؤول - الذي اندس بينهم وجعل نفسه رسولاً من عيسى المسيح فادعى أنه لقيه على طريق دمشق وأعطاه انجيلاً (نفي عنه فيه كونه إنساناً وإنما هو إلهاً، فقد كانت ألوهية المسيح اختراعاً ليس عشوائياً، بل هو اختراع محسوب ومضبوط مع خطة طرد المسيحيين من أورشليم إلى طريق الأمم)^(١).. ليضلوا.. فضلوا.

ومن أجل ذلك أطلق القرآن عليهم صفة الضالين.

(١) يراجع في ذلك كتاب المسيح الدجال - قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى لسعيد أيوب. وخاصة موضوع - الاختراق - ثغرة جدار المسيحية ص/٣٧ وما بعدها.

وفي هذا يقول ابن عاشور: (والنصارى ضلّوا بعد الحوارين وأساؤا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام فزعموه ابن الله على الحقيقة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(١) المائدة/٧٧.

والكلام عن الذنوب ومغفرتها دون غفران الشرك ينسحب هنا إلى ما تعينه الآية في سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿وَكُفِيَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ /١٧. إن الذنوب لتصدر من العباد كما تصدر من العبيد لكن مع الفارق، فأن (مصطلح) الذنوب يطلق على أخطاء ترتكب في معصية الله وما نفى الله عنه وهي كما قال الراغب: (تستعمل في كل فعل يستوخم عقابه، ولهذا سمي الذنب تبعة، اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذنب ذُنُوب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾^(٢) آل عمران/١١.

قلت: ومنها صغائر ومنها كبائر والله يغفر أيها شاء أو كلاهما إن شاء لمن يشاء كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ النساء/٣١. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الزمر/٥٣.

أما الكفر فإنه ليس كذلك إذ إن (الكفر جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة ... والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوجدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثها)^(٣). وكذلك الشرك فإنه في الدين ضربان:

أحدهما: - الشرك العظيم - وهو إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم من الكفر قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ النساء/٤٨. وقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ المائدة/٧٢.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٠٠/١.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص/١٨١.

(٣) المصدر السابق ص/٤٣٤.

الثاني: - الشرك الصغير - وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء

والنفاق المشار الآية بقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾^(١) يوسف/١٠٦.

فتخصيص الله تعالى هنا إضافة الذنوب إلى العباد دون الكفر أو الشرك أمر مقصود وله دلالة معينة يفهم هذا من إقرانها وإضافتها إلى العباد. فكون الحق سبحانه وتعالى قال (بذنوب) كان أخف من غيرها وإضافته إلى (عباده) الذين هم غير كافرين ولا مشركين وإلا لما أضافهم إليه عن طريق الهاء الذي يعود إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾.

وكما سبق القول إن الإضافة هنا في (عبده - وعباده - وعبدنا - وعبادنا) إضافة تشريف من الله لعباده فقد صرح بذلك الإمام الرازي - كما ذكرنا آنفاً - في تفسيره حيث قال: (وفرّق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً...) ^(٢).

فلا يُخرج العباد من دائرة العبودية لله كونهم أذنبوا بل وحتى لو أسرفوا على أنفسهم في ذلك والله تعالى يقول: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ الزمر/٥٣.

وكما هو معلوم من الدين بالضرورة إن المسلم قد يكون عاصياً أو فاسقاً أو فاجراً.. ولكن لا يكون كافراً أو مشرك وإلا لخرج من دائرة الإسلام.. ومع هذا فنحن لا نقول بحصر ولا قصر لفظ العباد على المؤمنين الذين أخلصهم الله واصطفاهم دون شمول غيرهم في هذا اللفظ ولكن نقول إن دخول هؤلاء كان من باب الأغلب الأعم الذي يأخذ حكم الكل كما قال بذلك الألوسي: من (إن معظم الشيء يقام مقام كله) ^(٣) فيأخذ حكمه.

(١) المصدر السابق ص/٤٥٩-٢٦٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٦٣/٢٦ يراجع ما ورد في معنى العباد في بداية هذا المطلب وما قاله الألوسي في ١٣٠/١٥ وما قاله الشنقيطي في أضواء البيان ٣٩٨/٣١.

(٣) انظر روح المعاني ١٣٠/١٥.

أما الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد﴾ في سورة يس/ ٣٠ فقد ذكر فيها المفسرون كلاماً كثيراً وسأقتصر على ما أورده الإمامان الرازي والآلوسي باختصار حيث كان لهما في هذه المسألة إحاطة وبيان.

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد﴾ أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة.. والتنكير للتكثير...).

ثم قال في المسألة الثانية: (من المتحسر..؟ نقول فيه وجوه.

الأول: لا متحسراً أصلاً في الحقيقة، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.

الثاني: إن قائل - يا حسرة - هو الله على الاستعارة تعظيماً للأمر وتحويلاً له.

الثالث: المتلهفون من المسلمين والملائكة، ألا ترى ما حكى عن حبيب^(١) أنه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومي، وبعدما قتلوه وأدخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم عليه..).

وقال في المسألة الثالثة قريء:

أ - / - ((يا حسرة)) بالتنوين.

ب - / - ((يا حسرة العباد)) بالإضافة.

ج - / - ((يا حسره على العباد)) بالهاء إجراء الوصل مجرى الوقف.

وقال في المسألة الرابعة... من المراد بالعباد ؟ -

نقول فيه وجوه:

أحدهما: الرسل الثلاثة... كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم يا ليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم.

ثانيهما: هم قوم حبيب.

ثالثهما: كل من كفر وأصر واستكبر.

(١) حبيب النجار الذي جاءهم من أقصى المدينة يسعى فقال: يا قوم اتبعوا المرسلين.

* وعلى الأول بإطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ الحجر/٤٢. وقوله: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الزمر/٥٣.

* وعلى الثاني بإطلاق العباد على الكفار.. وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً.. تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك بيت).

قلت: كأن الإمام الرازي رحمه الله يريد أن يقول إن استعمال كلمة العباد له دلالة خاصة في المواضع التي جاءت فيها لذلك نجده يقول مضيفاً إلى ما سبق:..
(وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ من قبيل قوله ﴿إِنْ عِبَادِي﴾ وكذلك ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾^(١).

ثم نجد الإمام الآلوسي يؤيد ما ذهب إليه الرازي:
يقول في قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة على ما قال الراغب - الغم على ما فات والندم عليه، كأن المتحسر إنحسرت عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، وفي البحر هي أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيراً، والظاهر أن - يا - للنداء و- حسرة - هو المنادى وندائها مجاز بتزيلها منزلة العقلاء كأنه قيل: يا حسرة أحضري فهذه الحال من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها..

ثم قال: والمراد بالعباد مكذبوا الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولاً أولاً.. ويضيف: وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القراءات ﴿يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا مَا يَأْتِيهِمْ...﴾ وجوز أن تكون حسرة الملائكة عليهم السلام والمؤمنين من الثقلين.

وعن الضحاك تخصيصها لحسرة الملائكة عليهم السلام وزعم أن المراد بالعباد الرسل الثلاثة، وأبو العالية فسّر - العباد - بهذا أيضاً^(٢)..

(١) تفسير الرازي ٦٣/٢٦.

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ٣/٢٣.

ثم بعد مناقشة وبحث لغوي يذكر ما يلي (وقيل - يا - للنداء والمنادى محذوف
و- حسرة - مفعول مطلق لفعل مضمرو - على العباد - متعلق بذلك الفعل أي -
يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد)^(١).

وبعد.. فتحمل هذا اللفظ لهذه المعاني يجعلنا لا نسقط أي منها ولا نجزم بأحدها بل
نرجح ما كان وارداً في الأغلب الأعم بشرط أن لا يكون مخالفاً لطرائق المفسرين ولا
لشروط التأويل الصحيح التي حددها أهل العلم..

يقول ابن عاشور - في المقدمة الرابعة - في تفسيره.. (فغرض المفسر بيان ما يصل
الآية أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى... ولا يأباه اللفظ
من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم)^(٢). ثم
يضيف...

(فطرائق المفسرين للقرآن ثلاثة...)

الأول: إما الاختصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه
وهذا هو الأصل..^(٣).

الثانية: وإما إستنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا
يجافىها الاستعمال ولا مقصد القرآن..^(٤).

الثالثة: وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم
المعنى متوقفة عليها..^(٥) ^(٦).

أما من ناحية عدم المخالفة لشروط التأويل الصحيح فقد قال صاحب الوجيز في
أصول التشريع الإسلامي^(٧) ما نصه:

(١) نفسه ٤/٢٣.

(٢) تفسير ابن عاشور ٤١/١.

(٣) وهذا ما فعلناه مع قوله تعالى (وكفى بربك بذنوب عباده).

(٤) كما مر معنا من بيان آية المائدة (إن تعذبهم فأنهم عبادك).

(٥) كما مر في الآية من سورة يس (يا حسرة على العباد).

(٦) انظر تفسير ابن عاشور - المقدمة الرابعة - ٤٢/١ بتوسع.

(٧) الدكتور محمد حسن هيتو.

(للتأويل الصحيح شروط يجب مراعاتها حتى يصح هي:

أولاً: أن يكون موافقاً لوضع اللغة أو عرف الاستعمال، وكل تأويل خرج عن هذا

فليس بصحيح.

الثاني: أن يكون هناك دليل يدل على أن المراد من اللفظ هو المعنى الذي حمل عليه،

وأول الظاهر إليه، فإذا إنعدم الدليل بطل التأويل.

الثالث: يمكن أن يكون دليل التأويل قياسياً، وفي هذه الحالة يشترط به أن يكون

جلياً لا خفياً.

الرابع: أن لا يعود التأويل على ظاهر النص بالبطلان^(١).

قلت: فإن كان الذي قلناه مخالفاً لطرائق المفسرين فهل كان في شروط التأويل

الصحيح هذه ما يخالف الذي قلناه في شيء؟ قليلاً كان أو كثيراً؟.

اللهم هداك نبغي... والحكمة من النص ضالتنا... فهبي لنا من أمرنا رشدا...

ب - أولي بأس شديد:

ثانياً - في قوله تعالى: ﴿أولي بأس شديد﴾.

عرفنا إن أهم المقومات التي امتاز بها المبعوثون على بني إسرائيل عقب فسادهم

الأول هم كونهم (عباداً لله.. مخلصين) وهؤلاء بديهي أن تكون لهم صفات يُعرفون

بها... قال القرآن عن أوليها أنهم ﴿أولي بأس شديد﴾ كميزة قلما تجدها في غيرهم.

فماذا يعني البأس؟.. ولماذا كان شديداً؟.

إن البأس صفة مشتركة قد تجدها في أي شيء يمكن أن يقال عنه أنه ذو بأسٍ شديد

كقوله تعالى: ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ الكهف/٢. وقال عن الحديد: ﴿وأنزلنا الحديد فيه

بأس شديد﴾ الحديد/٢٥. أما أن يصف صنفاً من عباده بقوله: ﴿عباداً لنا أولي بأس

شديد﴾ فإنه يعني ولا شك أمراً ما..

(١) الوجيز في اصول التشريع الاسلامي - د. محمد حسن هيتو ص/٢٥٢ ط/٣ - ١٩٩٠ - بيروت.

علماء اللغة يقولون: (البأس - هو الشدة والمكروه.. والبؤس في الفقر.. أما البأس فهو في الحرب والنكاية^(١)).

وعند ابن منظور أن (البأس - الشدة في الحرب)^(٢).

ويقول الليث: (البأساء) اسم للحرب والمشقة والضرب..

وابن الأعرابي يقول: (البأس والبئس - العذاب الشديد.. ورجل بئس.. شجاع..)^(٣).

قال تعالى: ﴿والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ النساء/٨٤،

﴿فأخذناهم بالأساء والضراء﴾ الأنعام/٤٢.

﴿بأسهم بينهم شديد﴾ الحشر/١٤.

والبأس غير القوة.. حيث أن (القوة غالباً ما يتقوى بها على القتال من - عدد

وعُدّة - ولها عدة استعمالات في اللغة كما يبين ذلك الراغب في مفرداته حيث قال:

• القوة تستعمل تارة في معنى القدرة الإلهية كقوله تعالى: ﴿إن الله قوي عزيز﴾ المجادلة/٢١.

• وتستعمل أخرى في معنى البدن كقوله تعالى: ﴿من أشد منا قوة﴾ فصلت/١٥.

• وتستعمل ثالثاً في قوة القلب كقوله تعالى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ مريم/١٢.

• وتستعمل رابعاً في المعاون من خارج كقوله تعالى: ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ هود/٨٠.

• ومنه ما يتقوى به من جند ومال كقوله تعالى: ﴿نحن أولوا قوة وأولوا بأسٍ شديد﴾ النحل/٣٣.

أي أولي وسائل حربية وجنود^(٤).

أما البأس فهو الشدة في الجسم والنفس والقلب أو ما يعبر عنه بـ (القوة الذاتية)

أو (الروح المعنوية) في زماننا والتي إن وجدت مجتمعة كان البأس على قدرها زيادة أو

(١) انظر مفردات الراغب "ص/٦٦"

(٢) لسان العرب لابن منظور "١٥٢/٢".

(٣) صفوة البيان - مخلوف ص ٣٥٩.

(٤) انظر مفردات الراغب "ص/٤١٩".

نقصاناً حتى وإن عدت أسباب القوة المادية من عدد وسلاح ونحوه.. ولذلك حين وصفهم القرآن بـ (أولي بأس - قال عنه - شديد) إشارة إلى قوة إيمانهم وصدق يقينهم بالله وثقتهم بنصره.

قال الألوسي: (إن وصف البأس بالشديد مبالغة.. كأنه قيل ذوي شدة شديدة.. كظل ظليل^(١)).

والعجيب أنك تجد هؤلاء العباد الذين وصفهم القرآن في هذا الموضع بـ (أولي بأس شديد) وصفهم في موضع آخر بأنهم (أشداء على الكفار.. رحماء بينهم) وتلك حالة فريدة لا تجد لها مثيل عند غيرهم، إذ أنك لا يمكن أن تجد صفتين متناقضتين ومتلازمتين في شيء واحد فالصلابة واللين لا يمكن أن تجتمعا في شيء واحد إلا إذا كان متميزاً والشديد لا يكون رحيماً إلا إذا كان في حالة ارتقاء إيماني يجعله شديداً على أعدائه رحيماً مع إخوانه.. وهذا أفق إيماني رحيب ارتقى القرآن باتباع النبي ﷺ إليه فقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار.. رحماء بينهم﴾ الفتح/٢٨.

بينما تجد على النقيض من هذا موقف الذين كفروا من اليهود حين وصفهم القرآن بأن ﴿بأسهم بينهم شديد.. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ الحشر/١٤. ولعل هذا هو أهم أسباب ضعفهم وتمزقهم وبالتالي جبنهم وتخاذلهم مما جعل الذلة مضروبة عليهم والمسكنة وباؤوا بغضب من الله..

ولهذا هم ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ و﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ ولأنهم جبناء لا يفقهون ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.. بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.. ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ الحشر/١٣/١٤.

هذا من جهة ومن جهة أخرى إن ذي بأس شديد - غير عباد الله المخلصين - لا يمكن أن يكون رحيماً كما كان صحابة رسول الله ﷺ، فإنهم إذا دخلوا قرية

(١) انظر روح المعاني - للألوسي «١٥ - ١٧».

أفسدوها. وجعلوا أعزة أهلها أذلة. ثم ترك لك أن تتصور ماذا عسى أن يفعلوا ليقول لك بعدها.. نعم ﴿وكذلك يفعلون﴾ النمل/٣٤.

لكن من كانت أولى صفاتهم.. ﴿عباداً لنا﴾ وكانوا ﴿أولي بأسٍ شديد﴾ ثم ﴿جاسوا خلال الديار﴾ ديار من بعثوا عليهم فانتصروا عليهم.. لم يقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً بل إنهم لم يقطعوا شجرة.. إنما هم جاسوا - فقط خلال الديار - يبحثون عن حمل السلاح لقتالهم أو عن كمن للغدر بهم في المنعطفات.. يقول الشيخ عبد المعز في حديثه عن بعض صفات من بُعث على بني إسرائيل في عقوبتهم الأولى:

(هذه المرة الأولى لا تنطبق أوصافها إلا على أصحاب رسول الله ﷺ..)

أ - فهم الذين يستحقون شرف هذه التسمية ﴿عباداً لنا﴾ لأنهم الموحدون أتباع عبده الذي أسرى به.

ب - وهم الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

ج / - وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن ﴿جاسوا خلال الديار﴾^(١).

قلت: وكل ما قاله ونقله المفسرون - رضي الله عنهم - من أن المبعوثين كانوا جالوت أو بختنصر أو سنحاريب أو غيرهم من البابليين أو الرومان ممن قتل منهم سبعين ألف وساق الباقين أسرى إلى بابل ودمر أورشليم واعتدى على أعراضهم وفتح بطونهم بحثاً عن الذهب الذي ابتلعوه إلى آخر ما ارتكبوه من فضائع في بني إسرائيل مما يصدق أن يقال عنه أنه اجتياح وليس جوساً..

إذ أن الجوس يلقي ظل الهدوء والسكينة مع الترقب والحذر مما يوحى بالتمكين والسيطرة وأنهم كانوا أولي بأس شديد بحيث لم يستطع أحد أن يجابههم.. وفي (وصف الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المبعوثين على اليهود بأولي بأس شديد دون أولي قوة.. له بعدان:

(١) من مقال بعنوان «سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل» للشيخ عبد المعز عبد الستار أورده السيد طنطاوي في كتابه بنو إسرائيل في القرآن والسنة انظر «٣٨٠/٢».

الأول: إن الغرض الأساسي في وعد اليهود بالعقوبة هو بيان أن هؤلاء المبعوثين،

سيترلون المكروه الشديد بهم، وهو ما يتناسب مع ذكر البأس.

الثاني: إن عدم ذكر قوة هؤلاء المبعوثين والتي تعني وسائل حربهم وكثرة جنودهم

أمر مقصود، لأنهم قد لا يملكون هذه الكثرة ولا يكونون أولي قوة كبيرة، ومع ذلك فهم أولو بأس شديد، وهذا هو حال المسلمين عندما قضاوا على إفساد اليهود الأول في صدر الإسلام، وهو حالهم عندما سيقضون عليهم، ويتبرون علوهم الكبير بإذن الله في المرة الثانية^(١).

قلت: وهذه حقيقة قرآنية بينتها سورة الإسراء وغيرها من السور القرآنية في أكثر من موضع في طرحها للحقائق التي ينبغي أن لا تُغفل وضربت لها أمثلة كثيرة والتي منها حين أخبرت عن قوم ملكة سبأ.. فهي بعد أن ألقى إليها كتاب سليمان ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري.. ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون..﴾ طلبت منهم الرأي والمشورة لكنهم ماذا قالوا: ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾ النمل ٣٢/٣٣.

فهم إذا قد شهدوا على أنفسهم أنهم ليسوا أصحاب رأي نابع من قلوب لها عقيدة.. ونفوس لها مبدأ قد آمنت به... ربما كانوا أصحاب أجسام ضخام وقوة في العدد والعدة.. نعم كانوا يعولون على قوة عدتهم الحربية وعددهم الكثير.. فقالوا نحن ﴿أولوا قوة﴾.. وهذه القوة - الرجال والسلاح - التي كانوا يعتقدون أنهم بها ﴿أولوا بأس شديد﴾.

وهناك فارق كبير بين البأس الشديد وبين القوة التي تعتمد على العدد والعدة. وفارق كذلك بين البأس الشديد الذي يكون أساسه ومصدره (القوة المعنوية) والتي تزرعها في النفوس والقلوب عقيدة الإيمان والتوحيد الصحيح والتي جاء بها كل الأنبياء وأرسل بها كل الرسل: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ الأنبياء/٢٥.

(١) زوال إسرائيل - أسعد التمتي «ص/٣٩».

وبين البأس الذي يكون اعتماده على العدد والعدة الظاهرة بحيث لو فقدت القوة الحربية وقل العدد سيفقد البأس شدته، بل ربما لا يبقى هناك بأس أصلاً.. إن الأول هو بأس عقيدي ومعنوي نابع من إيمان الإنسان بربه ومن يقينه بحفظه ومن ثقته بوعده.. لا تستطيع الأحداث أن تزلزله مهما عظمت لأنه موصول بروح من الله سبحانه.. وإنه ليزيد بالقوة الحربية وإعداد الجنود الذين لا يمثلون في حقيقة الأمر إلا أخذاً بالأسباب وإعداداً لقدرة الله وتلك قضية أمرنا أن لا نتجاهلها اعتماداً على قدر الله وحده ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ وحده - نعم - ولكن لا بد من ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا الله وعدوكم﴾ الأنفال/٦٠.

ولذلك تجد أن القرآن كان دقيقاً جداً - كما هي طبيعته - في عرض هذه الحقيقة فحين قال حكاية عن قوم بلقيس ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ فقدم القوة ثم أتبعها البأس الشديد.. فاعتماد البأس على القوة وحدها أمر غير صحيح، فهب إن القوة عُدِمَتْ بفقد السلاح والرجال فقد هُدمَ البأس وفقد شدته.. فهم قوم لا يرتجى منهم خير وذلك ملحوظ من الآية نفسها إذ ما ظنك بقوم ﴿أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ ثم يقولون لامرأة تملكهم ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾ النمل/٣٣.

فحين وصف القرآن - العباد - الذين بعثهم الله على بني إسرائيل بعد فسادهم الأول بأنهم ﴿أولي بأس شديد﴾ إنما يشير إلى قوة عقيدتهم.. وصلابة إيمانهم وصدق يقينهم بنصر الله.. فضلاً عن إعدادهم - ما استطاعوا - من قوة ومن رباط الخيل الذي أرهبوا به عدو الله وعدوهم.. وكانوا بذلك أولي بأس شديد فاستحقوا نصر الله بعد ما أخذوا بكامل أسبابه.. فجاسوا خلال الديار.. وكان ذلك كما قال الله: ﴿وعداً مفعولاً﴾.

ج - يجوسون خلال الديار:

د - يدخلون المسجد مرتين:

ثالثاً- في قوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار...﴾...

جاسوا.. خلال الديار.. وهم أولوا بأس شديد.. عبادا لله وحده.. بعثهم الله على بني إسرائيل ليوقعوا قدره فيهم.. عباداً صدقوا الله فصدقهم الله وعده.. إنه كان وعده مفعولاً..

والجوس كلمة لها جرس خاص بها، وهي يتيمة لها قيمة، لم تذكر في القرآن ولم يستخدمها إلا في هذا الموضع: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾.

* / والجوس.. أصله من (الجس) وهو مسّ العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم.. وهو أخصّ من الحس فإن الحس تعرف ما يدركه الحس.

* / والجسّ تعرف حال ما.. ومن لفظ الجسّ اشتق (الجاسوس)^(١).

ومصدر الجوس كما يقول ابن منظور هو (جاس - يجوس - جوسا - وجوساناً).

وقال جاسوا وحاسوا بمعنى واحد.. أي يذهبون ويحيثون.

* / قال الزجاج: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه؟.

* / وفي الصحاح: جاسوا خلال الديار أي تخللوا فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار يطلبها.. وكذلك الإجتياص، والجوسان: بالتحريك الطوفان بالليل. وكل ما وطئ فقد جيس والجوس.. كالدوس.

* / ورجل جوّاس.. يجوس كل شيء، يجوسه.

* / ورجل يجوس الناس أي يتخطاهم، والجوس طلب الشيء باستقصاء.

* / قال الأصمعي: تركت فلاناً يجوس بني فلان ويجوسهم.. أي يدوسهم ويطلب

فيهم.. يجوس.. يتخلل^(٢).

(١) انظر مفردات الراغب «ص/٩٣».

(٢) انظر لسان العرب لأبن منظور «١/٥٣٣».

ولقد تباينت أقوال المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ فقال الإمام الطبري: (أي فترددوا بين الدور والمساكن وذهبوا وجاؤوا، يقال فيه جاس القوم بين الديار وحاسوا: بمعنى واحد.. وأضاف: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول: (معنى جاسوا قتلوا، ويستشهد لقوله بيت حسان:

ومنا الذي لاقى بسيف محمد
فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال: وجائز أن يكون معناه: فجاسوا خلال الديار فقتلوهم ذاهبين وجائين فيصح التأويلان جميعاً^(١).

وبنحو هذا قال القرطبي^(٢) وقال ابن كثير: (فجاسوا خلال الديار.. أي تملكوا بلادهم وسلکوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها)^(٣)

أما الإمام الشوكاني فقد قال فيها: (أي عاثوا وترددوا..).

قال الجواهري: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي تخللوها كما يجوس الرجل للأخبار أي يطلبها.. وكذا قال أبو عبيدة..

وقال الفراء: معناه قتلوهم بين بيوتهم)^(٤).

والإمام الآلوسي يجمع هذا المعنى في قولين فيقول: (والجمهور على إن في هذه البعثة حرب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجللاء والأسر في بني إسرائيل وحُرقت التوراة... وعن ابن عباس ومجاهد انه لم يكن ذلك، إنما جاس الغازون خلال الديار وانصرفوا بدون قتال)^(٥).

ويورد الإمام الماوردي خمسة تأويلات لهذه فيقول: (الآية ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ فيه خمسة تأويلات:

(١) انظر تفسير الطبري «٢٧/١٥».

(٢) انظر تفسير القرطبي «٢١٦/١٠».

(٣) تفسير ابن كثير «٢٥/٣».

(٤) فتح القدير للشوكاني «٢٠٢/٣».

(٥) انظر روح المعاني للآلوسي «١٨/١٥». قلت: والقول الثاني أصح لما تقدم من معنى الجوس.

أحدها: يعني مشوا وترددوا بين الدور والمساكن.. قاله ابن عباس - وقال - وهو أبلغ في القهر.

الثاني: معناه.. قداسوا خلال الديار.

الثالث: معناه.. فقتلوهم بين الدور والمساكن.

الرابع: معناه.. فتشوا وطلبوا خلال الديار.. قاله أبو عبيدة.

الخامس: معناه.. نزلوا خلال الديار.. قاله قطرب^(١).

وبنحو هذا قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره..^(٢).

ويصرح الإمام الرازي بهذا التباين في أقوال المفسرين فيقول: (واختلفت عبارات

المفسرين في تفسير «جاسوا».

● / فعن ابن عباس: فتشوا..

● / وقال أبو عبيدة: طلبوا من فيها..

● / وقال ابن قتيبة: عاثوا وأفسدوا..

● / وقال الزجاج: طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه؟..

● / وقال الواحدي: الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه^(٣).

ويوضح الإمام محمد الشنقيطي هذا المعنى فيقول: (فجاسوا خلال الديار - في

القاموس - الجوس: بالجيم طلب الشيء باستقصاء مع التردد خلال الديار والبيوت، ففي

اللفظ معنى التفتيش والتنقيب خلال الديار.. أي وسطها)^(٤).

فإذا كان المعنى الأساسي لكلمة (الجوس) هو (طلب الشيء باستقصاء مع

التردد)^(٥) كما قال أهل اللغة والتفسير..

(١) تفسير الماوردي ٤٢٤/٢.

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٨/٥.

(٣) تفسير الإمام الرازي ١٥٦/٢٠.

(٤) التفسير الواضح - محمد حجازي ٧/١٥.

(٥) انظر أضواء البيان - محمد الشنقيطي ٧/١٥.

وجاسوا خلال الديار - أي تخللوا فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار يطلبها.. ولذلك اشتق لفظ (الجاسوس) من لفظ (الجس).

قال تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾^(١) الحجرات/١٢.

فيكون المعنى أنهم لم يجتاحوا الديار أجتياح تدمير وتخریب وقتل واعتداء^(٢) بل هو كما قال صاحب أضواء البيان وإنما هو بإستقصاء مع التردد خلال الديار والبيوت.. ففي اللفظ معنى التفتيش والتنقيب خلال الديار أي وسطها.. وهذا المعنى مفهوم من خلال كلمة «خلال» نفسها وما تلقي من ظلال.

يقول الراغب (الخللُ فُرْجة بين شيئين وجمعه خلال.. كخلال الدار والسحاب..

قال تعالى في وصف السحاب: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ النور/٤٣.

وقوله: ﴿ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتن﴾ التوبة/٤٧ أي سعوا وسطكم

بالنميمة والإفساد^(٣).

فكلمة (خلال الديار).. التي تعني (بين الديار).

وأنت ترى الصورة التي يصورها القرآن لحركة أولئك المبعوثين عليهم ليقعوا بهم وعد الله فيهم.. (فجاسوا.. ولم يقل ليجسوا) كما قال ليسوؤا.. وليدخلوا.. حين يخبرك عن مستقبل سيقع ولكنه قال (فجاسوا..) أي كأن الجوس كان وأصبح ماضيا وهاهم الرجال - العباد - دخلوا أرضهم وديارهم، وهاهم يتحركون ويذهبون ويجيئون في ديارهم التي تركوها وأخرجوا منها فهي خالية من أي أحد. وخربت بعضها عن عمد.. صورة من صور النصر والعزة للعباد الذين كانوا أولي بأسٍ شديد.. وهاهم اليوم قد جاسوا خلال ديار اليهود، إنه تصوير إيحائي لما كان وربما لما سيكون.

و(التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة

عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن

(١) انظر لسان العرب ٥٣٣/١ وانظر المفردات للراغب ص ١٠٣ وانظر مختار الصحاح للرازي ص ١٠٤.

(٢) كما نقل ذلك أغلب المفسرين.

(٣) انظر مفردات الراغب ص ١٥٣.

النموذج الإنساني والطبيعة البشرية.. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد.. وإذا النموذج الإنساني شاخص حي.. وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.. فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة.. فيها الحياة.. وفيها الرحمة.. فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لهل كل عناصر التخيل^(١).

وإنك لترى وأنت تقرأ هذه الآيات حركة الرجال - العباد - الذين يجوسون بين الديار يبحثون عمن تخلف عن الجلاء واختبأ خوفا من القتل وقد كان من المفسدين. إن القرآن لم يخبر عن معركة - حدثت - رهيبة ومدمرة - كما قيل ويقال - لم يخبر عن جيوش تقاتلت في ملاحم مجنونة سقط ضحيتها سبعون ألفاً وربما أكثر أو أقل في مفازة من الأرض أو داخل الحصون والأسوار ثم كان ما كان من التقتيل والدمار.. ثم دخلوا بعد ذلك يمشون - خلال - الديار دون أن يتعرضوا إلى الديار نفسها.. وكأن الملوك إذا دخلوا قرية لم يفسدوا فيها ولم يجعلوا أعزة أهلها؟؟؟

بل: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.. وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾... كلمة حق بكل ما فيها من معنى.

القرآن لم يقل هذا وإنما أخبر عن حالة من البحث والتحري (بين الدور والمساكن وذهبوا أو جاؤوا)^(٢).. (خلال الديار والبيوت، ففي اللفظ معنى التفتيش والتنقيب)^(٣).. (فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه؟)^(٤).. كما قال الزجاج.

وفي ذلك أعظم دليل على أنهم كانوا ﴿أولي بأسٍ شديد﴾ فهل سمعت الدنيا عبر التاريخ يجيش من رجال أولي بأسٍ شديد يبحثون بين الديار دون أن يتعرضوا للديار نفسها..؟

(١) التصوير الفني في القرآن - سيد قطب ص ١٥.

(٢) كما قال بذلك الطبري انظر ٢٧/١٥.

(٣) كذلك في التفسير الواضح - محمد حجازي ٧/١٥.

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور ٥٣٣/١.

ماذا فعل الذين انتصروا على أعدائهم؟ ماذا فعل الغالبون بالمغلوبين؟. أليس ما قالته بلقيس كان حقيقة ﴿إن الملوك - الذين لم يكونوا عباد لله - إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ إن العباد المبعوثين لمعاقبة اليهود في الوعد الأول لم يفعلوا هذا.. إنما هم فقط (جاسوا - بحثوا - فتشوا - طلبوا من فيها - وبعد أن قتلوا بعضهم نزلوا فيها، وذلك محتمل لكل ما قالوه^(١).. كما قال ذلك الواحدي.

فمن غير الصحابة (ينطبق عليهم هذا الإخبار وهذا التصوير الدقيق لما قاموا به..؟ إنهم لم يفعلوا شيئاً مما قاله المفسرون من أعمال (رهبة) قام بها الذين دخلوا بيت المقدس من قتل كثير وإراقة للدماء حتى غدت أنهاراً وحرق للهيكل وتدمير أورشليم وخلط تربتها بقناطير الملح حتى لا تنبت زرعاً^(٢).

ثم إن هناك حقيقة لا تكتمل الصورة إلا بها.. وهي أن (الجوس خلال الديار) هو غير (الدخول إلى المسجد) يعني بعبارة أخرى أن الديار المقصودة في الآية الأولى هي ليست ديار بيت المقدس كما قال أصحاب القول الأول^(٣). حيث لم يكن المسجد بيد اليهود أولاً. ولم يكن اليهود يسكنون ديار بيت المقدس يوم دخله - العباد - أصحاب النبي (في خلافة عمر الفاروق. وإنما هي ديار بني إسرائيل من - اليهود - الذين كانوا يعيشون في المدينة والذين تولوا كبر الإفساد الأول في إعلان العصيان ونقض العهود وتأليب الكافرين على رسول الله ﷺ الذي عرفوه وأيقنوا بصدقه ﷺ.

وذلك ملحوظ ومفهوم من خلال الاستقراء القرآني لكلمة (الديار) نفسها والتي هي جمع لكلمة (دار) حيث تجمع على حالتين:
الأولى - دور.. والثانية - ديار.

إن كلمة (دار) مؤنث وقد تذكر.. فإذا ذُكرتُ جُمعت على صيغة (دور) أما حال كونها مؤنثة فإنها تجمع على صيغة (ديار)*.

(١) راجع ما قاله الإمام الرازي ١٥٦/٢٠.

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٤٢/١ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣٠٣/١.

(٣) أغلب المفسرين.

* انظر الفرق بين كلمتي دار وديار في ص/١٩٤ هامش ١/.

هذا من ناحية اللغة أما من ناحية الاصطلاح فان القرآن لم يستعمل لفظ الديار إلا في حالة الخروج منها على جهة الإكراه أو القهر وذلك ما كان واضحاً في كل استعمالات القرآن لها..

فلقد استعملت كلمة (الديار) في ستة عشر موضعاً في القرآن الكريم كله جاءت في الغالب الأعم مقرونة بذكر الخروج منها قهراً أو إكراهاً.. أنظر..
أولاً: مضافة إلى كاف المخاطب في أربعة مواضع منها هي:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ

من - دياركم -﴾^(١) البقرة / ٨٤

٢- قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ -دياركم

- ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ النساء / ٦٦.

٣- قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ

- دياركم - أن تبزوهم﴾ المتحنة / ٨.

٤- قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ -

دياركم﴾ المتحنة / ٩.

ثانياً: مضافة إلى هاء الغائب في عشرة مواضع منها.. وهي:

١ / قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ -

ديارهم -﴾ البقرة / ٨٥.

٢ / قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ - ديارهم - وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾

البقرة / ٢٤٣.

٣ / قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَخَرَجُوا مِنْ - ديارهم - وَأَوْذَوْا فِي سَبِيلِي﴾

آل عمران / ١٩٥.

(١) انظر على سبيل المثال تفسير هذه الآية في تفسير ابن كثير ١/ ١٢١ حيث قال: «أي لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرج من منزله ولا يظهر عليه».

٤ / قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من - ديارهم - بطراً ورثاء الناس﴾
الأنفال/٤٧.

٥ / قوله تعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في - ديارهم - جاثمين﴾
هود/٦٧.

٦ / قوله تعالى: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في - ديارهم - جاثمين﴾
هود/٩٤.

٧ / قوله تعالى: ﴿الذين أخرجوا من - ديارهم - بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾
الحج/٤٠.

٨ / قوله تعالى: ﴿وأورثكم أرضهم - وديارهم - وأموالهم وأرضاً لم تطئوها﴾
الأحزاب/٢٧.

٩ / قوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من - ديارهم -
لأول الحشر﴾ الحشر/٢.

١٠ / قوله تعالى: ﴿الذين أخرجوا من - ديارهم - وأموالهم يبتغون فضلاً من الله
ورضواناً﴾ الحشر/٨.

ثالثاً: مضافة إلى نون المتكلم في موضع واحد: قوله تعالى: ﴿وقالوا وما لنا أن لا
نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من - ديارنا -﴾ البقرة/٢٤٦.

رابعاً: لم ترد معرفة بلام العهد إلا في موضع واحد هو في سورة الإسراء في قوله
تعالى: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال - الديار -﴾ الإسراء/٥.
(والتعريف في الديار تعريف العهد أي دياركم وذلك جعل أصل (الـ) عوضاً عن
المضاف إليه)^(١).

ونستطيع أن نقول إن لفظ الديار في قوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ جاء
يحمل معنى معيناً خاصاً به يقصد من خلال استعماله بالذات (دون استعمال غيره

(١) تفسير ابن عاشور ٣١/١٥.

ككلمة - مساكن - مثلاً أو - بيوت -^(١). الإيحاء بأن العباد سيجوسون خلال الديار التي كان يعيش فيها اليهود.. والتي شاء الله أن تكون في المكان الذي قامت فيه دولة الإسلام وكان وجود النبي (فيه معهم.. النبي الأمي الذي قطع العهد والميثاق مع نبيهم أنه إذا جاء لينصرته وليؤمنن به كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر...﴾ الأعراف/١٥٧.

تلك الديار التي جاسها المسلمون وداسوها ومشوا خلالها يتحرون عن بقي منهم لم يقتلوه..

أما المسجد الذي دخلوه فلم يكن بأيدي اليهود فكيف يجوسون خلال ديارهم ويدخلون المسجد في نفس الوقت.. ومن هنا تتبين الحكمة من تأخر ذكر المسجد إلى ما بعد الجوس حيث ذكر في الوعد الآخر حين قال تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ ولم يذكر في الوعد الأول لأن العقوبة كانت قد نزلت عليهم يوم بعث الله عليهم عباده المؤمنين فابتدأت في السنة الثانية للهجرة بعد خيانة يهود قينقاع^(٢). وانتهت بالقضاء على الوجود اليهودي سنة سبع للهجرة بعد غزوة خيبر.

ثم القضاء على الوجود النصراني في غزوة تبوك سنة تسع للهجرة ثم بعث أسامة بن زيد إلى فلسطين والشام^(٣) آخر بعوث رسول الله (وكان في جنوده كبار الصحابة رضوان الله عليهم ولم يتم فتح بيت المقدس إلا في زمن عمر بن الخطاب (ودخول

(١) قلت: وقد استعملها القرآن في مواضع وآيات كثيرة معلومة كقوله: (ومساكن ترضونها) التوبة/٢٤، و(اجعلوا بيوتكم قبلة) يونس/٨٧.

(٢) انظر فقه السيرة - للبوطي ص ٢٤٠، وانظر ما قلناه من كلام الدكتور فضل/ والشيخ عبد المعز ص ١٥٤ فما بعدها.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣٨٤/٤.

المسجد الأقصى سنة ستة عشر للهجرة.. فحين أخر الله خبر الدخول إلى المسجد في آية الوعد الآخر إنما لمناسبة تأخر دخول المسلمين إلى تلك السنة وكان ذلك وعداً مفعولاً.

هـ - حتمية تحقق الوعد الأول:

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾

(كان: عبارة عما مضى من الزمان.. وفي كثير من وصف الله تعالى تنبئ عن معنى الأزلية، قال تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ النساء/٨٥... وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقاً بوصف له هو موجود فيه تنبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه نحو قوله تعالى في الإنسان: ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ الإسراء/٦٧. وقوله: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ الكهف/٥٤. وقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ آل عمران/١١٠. فقد قيل معنى كنتم - معنى الحال - وليس ذلك بشيء بل إنما ذلك إشارة إلى أنكم كنتم كذلك في تقدير الله تعالى وحكمه^(١).

فكذلك في قوله تعالى: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ أي في تقدير الله وحكمه..

يقول الإمام الرازي: (وكان وعداً مفعولاً.. أي كان قضاء الله قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والنسخ)^(٢) ومجيء الفعل (كان) في صيغة الماضي الذي يراد به الاستقبال حيث إنه (لما كان وعد الله في غاية الثقة أنه يقع عبر عن مستقبله بالماضي)^(٣).

(والوعد يكون في الخير والشر، يقال وعدته بنفع وضر وعداً وموعداً وميعاداً..

والوعد في الشر خاصة.. قال تعالى: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ إبراهيم/٢٢.

﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ المائدة/٩.

ومن الوعيد بالشر قوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾

الحج/٤٧. وقوله: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ يونس/٤٦..

(١) مفردات الراغب ص ٤٤٤.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ١٥٦/٢٠.

(٣) النهر الماد من البحر المحيط - لأبي جيان الاندلسي ٢٨٣/١٥.

ومما يتضمن الأمرين قول الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يونس/ ٥٥.

فهذا وعد بالقيامة وجزاء العباد إن خيراً فخير وإن شراً فشر..

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ إلى قوله: ﴿لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ﴾ وقوله

- لِيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ - تفسير لَوَعَدَ.. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ فقوله - أنها لكم - بدل من قوله: إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ.. تقديره.. وعدكم الله إن إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ لكم إما طائفة العير وإما طائفة النفير^(١).

ولقد ذكرت كلمة - الوعد - وما اشتق عنه في القرآن الكريم مئة وتسعة وخمسين مرة.. موزعة في سورة المكية والمدنية كلاهما.

بينما نجد - وفق قانون النسب -^(٢) إن هذه الكلمة قد وردت في سورة الإسراء وحدها (ست مرات).. وهي نسبة لم تبلغها في أية سورة أخرى غيرها.. هذه واحدة.

والثانية: إن هذه المرات الست التي ذكر فيها الوعد.. قد ذكر فيها الوعد فيما يخص بني إسرائيل خمس مرات.. بينما المرة السادسة قد ذكر فيها الوعد الذي يخص الشيطان ووعدته أوليائه من الكافرين والمشركين والمنافقين من الذين استفزهم وأجلب عليهم بخيله ورجله وشاركهم في الأموال والأولاد ووعدهم بغرور.. والذين كانوا - دون شك - أغلبيتهم من اليهود إلا من رحم ربك.. وقليل ما هم.

وهذه المرات التي ذكر فيها - الوعد - في سورة الإسراء هي:

١/ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ - وعد - أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا﴾ الآية/ ٥.

٢/ قوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ - وعداً - مَفْعُولاً﴾ الآية/ ٥.

٣/ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ - وعد - الآخرة ليسؤوا وجوهكم﴾ الآية/ ٧.

٤/ قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ - وعد -

الآخرة جئنا بكم ليفاً﴾ الآية/ ١٠٤.

(١) مفردات الراغب ص ٥٢٦-٥٢٧.

(٢) انظر ما قلناه عن قانون النسب في القرآن في المبحث الأول.

٥/ قوله تعالى: ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان - وعد- ربنا لمفعولا﴾ الآية/١٠٨.

أما المرة السادسة والتي تخص (وعد الشيطان وأوليائه) فهي:

٦/ قوله تعالى: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك

ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد - وعدهم - وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ الآية/٦٤.

هذا كله من جهة ومن الجهة الأخرى يتبين لنا قانون النسبة مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وعداً مفعولاً﴾ إذ أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن كله إلا ثلاث مرات.. مرة واحدة في سورة المزمل ومرتين في سورة الإسراء...

انظر: ١/ قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به كان - وعدة مفعولا -﴾ المزمل/١٨.

٢/ قوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار وكان - وعداً مفعولا -﴾ الإسراء/٥.

٣/ قوله تعالى: ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان - وعد ربنا لمفعولا-﴾ الإسراء/١٠٨.

ومن غير المعقول ولا المقبول أن يكون هذا قد جاء هكذا بصورة عفوية في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... إنه تزيل من حكيم عليم. يقول الشيخ أسعد التميمي: (إن القرآن الكريم لم يستعمل هذا التعبير إلا في هذا الموضع واستعمل تعبيرين قريبين منه:

أولهما: في نفس سورة الإسراء وبعد قوله لبني إسرائيل: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون.. سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ الإسراء/١٠٨.

وثانيهما: في خطابه تعالى لمشركي قريش بعد تشبههم بفرعون وذكر ما حل به فقال تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا، السماء منفطر به كان وعده مفعولا﴾ فهو حكاية لقول العلماء^(١) في حق القرآن،.. فيبقى استعمالان من قبل الله تعالى لـ (الوعد المفعول).

(١) المقصود بالعلماء من كان عنده علم من صالح أهل الكتاب. وانظر صفوة التفاسير للصابوني ١٧٩/٢.

أحدهما: إنذار لفراعنة قريش بوعد اليوم الآخر الذي لا يطاق.
الثاني: إنذار لفرعنة اليهود بيوم المسلمين عليهم الذي لا يطاق...^(١).
مما سبق يتبين لنا إن قوله تعالى: [وكان وعداً مفعولاً] قد كان وسيبقى (وعداً مفعولاً) و(مقضيّاً لا صارف له)^(٢).
لأنه من الله أولاً.. ولأنه قضي عليهم به ثانياً.. ولأنه مما تأذن الله به ثالثاً..
إذ أنه وعد بالعقوبة التي تأذن الله بها أن يترها عليهم كل حين وهذا مما أثبتته
التاريخ... فليسأل..

ومما أثبتته سورة الإسراء التي تفرّدت بالإنباء عن وعدي العقوبة لبني إسرائيل
مستقبلاً - كما رأينا - وكما أثبتته القرآن في غير سورة. كما في سورة غافر مثلاً التي
نزلت بعد سورة الإسراء والتي تكلمت عن الوعد الذي وعد به الذين كفروا بالله وكتبه
ورسله وباليوم الآخر.. فقد جاءت الآيات توصي النبي ﷺ بالصبر وتذكره بأن وعد الله
حق فيما أن يرى النبي بعض ذلك الوعد في حياته وإما تسبق عليه الوفاة فإنما هم إلى الله
راجعون.. وحين يردّ هذا الأمر للنبي ﷺ ولأمتة من بعده لا يأتي مرة واحدة وإنما يرد
مرتين في نفس السورة فيقول تعالى حكاية عن موسى وإيراث بني إسرائيل الكتاب
ولكنهم جعلوه خلف ظهورهم فسَيَحِقُّ عليهم وعد الله سبحانه..

﴿ولقد آتينا موسى الهدى.. وأورثنا بني إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولي
الألباب.. - فاصبر إن وعد الله حق - واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي
والإبكار﴾ غافر/٥٥.

والثانية في السورة نفسها قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به
رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم، ثم في
النار يسجرون، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله، قالوا ضلوا عنا بل لم
نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين﴾.

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص ٤٠.

(٢) تفسير القاسمي ص ٢٩٠٣.

ثم يقول تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق.. فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ ٧٧/.

فهل الذي حدث لبني إسرائيل من قتل وسي وتشريد وذل وإساءة لوجوههم على يده ﷺ ويد الصحابة الذين كانوا بحق ﴿عباداً لله﴾ هل كان ذاك من ﴿بعض الذي نعدهم﴾؟
إن القرآن والواقع والتأريخ ليشهدون ولسان حالهم يقول: ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً.

ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن العقوبة الأولى في الوعد الأول قد وقعت على بني إسرائيل على يد النبي ﷺ وأصحابه الكرام الذين تمثلت فيهم كل المقومات الأساسية فيمن شرفهم الله بالانتساب إليه في ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار﴾ والتي حدثت على مراحل - كما سنرى إن شاء الله - والتي كانت تمثل الضربة القاضية لإفساد بني إسرائيل الأول والممتد من تحريف التوراة وعصيان عيسى ومحاولة قتله إلى تحريف الكلم عن مواضعه وعصيان النبي محمد ﷺ الذي أسلمهم إلى تيه جديد وشتات في الأرض بعد إعلان فسادهم المتمثل في كفرهم بالرسول ونقضهم العهود والمواثيق التي أخذها عليهم مرة بعد مرة وفي رفع السلاح في وجه الحق وتأليب الكافرين عليه..

قلت: يؤكد ما ذهبنا إليه أيضاً أن كل الغزوات والمعارك والمواجهات التي واجه بها النبي ﷺ إفساد اليهود الذين عاصروه إنما جاءت الآيات القرآنية في سورة الإسراء وفي غيرها تنطبق أيما انطباق عليها بدءاً من أول تعرض لهم في المدينة إلى آخر جلاء لهم من المدينة ومن جزيرة العرب ذلك الجلاء الذي كان قد عزم عليه النبي ﷺ.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»^(١).

حتى دخول عمر بن الخطاب وجيوشه المسجد الأقصى في السنة السادسة عشر للهجرة.

(١) انظر صحيح الإمام مسلم ١٣٨٨/٣ كتاب الجهاد والسير - باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب رقم الحديث ١٧٦٧.

المبحث الثاني

الإفساد الثاني والعقوبة عليه

المطلب الأول:

تحقق مقومات الإفساد الثاني

أولاً - ثم تقتضي التراخي بين الإفسادين.

ثانياً - رد الكرة وبدء الإفساد الثاني.

المطلب الثاني:

تحقق الكرة واللفيف النافر

أولاً - المدد بالأموال والبنين.

ثانياً - النفير الأكثر.

ثالثاً - فرصة اختبار واختيار.

رابعاً - حتمية تحقق الوعد الثاني.

المبحث الثاني

الإفساد الثاني والعقوبة عليه

المطلب الأول

تحقق مقومات الإفساد الثاني

«ثم»... تقتضي التراخي بين الإفسادين.. تلك حقيقة تفرض نفسها.. لأنها حقيقة قرآنية أولاً.. ولأنها حقيقة لغوية ثانياً.. ولأنها حقيقة تاريخية ثالثاً... ولذا نجد في قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الكثير من المعطيات القرآنية..

أولاً: في قوله تعالى: ﴿ثم رددنا﴾.

ثُمَّ.. وَثُمَّ.. بفتح الشاء: إشارة إلى المكان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ - ثُمَّ - رَأَيْتَ نَعِيماً وَمَلَكاً كَبِيراً﴾ الدهر/٢٠.

● / قال الزجاج: والمعنى وإذا رميت ببصرك ثُمَّ.

وقال: وَثُمَّ في المكان إشارة إلى مكان منزاح عنك هناك وهو للتباعد.

● / قال أبو إسحاق: ثُمَّ في الكلام إشارة بمترلة هناك، وهو المكان البعيد منك. بينما - ثُمَّ - بالضم حرف نسق..

● / قال الليث: ثُمَّ حرف من حروف النسق لا يشرك ما بعدها بما قبلها... إلا أنها تبين الآخر من الأول.

● / قال الزجاج: ثُمَّ لا تكون في العطف إلا لشيء بعد شيء..^(١).

(١) لسان العرب - لابن منظور ٣٧٦/١.

ويؤيد الراغب قول الزجاج فيقول: (ثُمَّ.. حرف عطف يقتضي تأخر ما بعده عما قبله إما تأخير بالذات أو بالمرتبة أو بالوضع..

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) البقرة/٥٢.

- / ويقول الرازي (ثُمَّ) حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي^(٢).
- / وابن عاشور يقول: مضيفاً: (ثُمَّ.. تفيد التراخي الرُّبِّي والتراخي الزمني معاً^(٣).

وفي قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ ما يفيد بأن الكرة والتي هي (الدولة والغلبة) كما يقول جمهور المفسرين أنها أعيدت لبني إسرائيل على من جاسوا خلال ديارهم من العباد الذين بُعثوا عليهم ومن ثم فقد أمدّوا بأموال وبنين وكانوا فيها أكثر نفيراً.

ومما يفهم من كلام أهل اللغة أن مجيء (ثُمَّ) في الكلام يقتضي التراخي والبعد الزمني كما أن (ثُمَّ) في الكلام تقتضي التراخي والبعد المكاني.. فالتراخي في الزمن بين حادثتين أو حالتين عطفت إحداهما على الأخرى تستوجب التعبير عنها بـ (ثُمَّ).. أما إذا كانت المدة الزمنية بين الحالتين غير متباعد بينهما وغير متراخ فيهما فلا يعبر عنها بـ (ثُمَّ) وإنما بأداة ملائمة لها كالفاء مثلاً كما تقول (جاءني زيدٌ فعمر) يعني مجيء عمرو كان بعد زيد في مدة لم يتراخ الزمن فيها..

وكما يقول تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ.. فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مِنْهُمْ﴾ القمر/١١. وفتح أبواب السماء بالماء المنهمر وتفجير الأرض به يدل على أن الإجابة كانت مقاربة لحالة التوجه إلى الله وطلب النصر على القوم الكافرين.. ويوضح هذه الحالة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ الصافات/٧٥.

فالزمن بين الدعاء والإجابة كان زمناً يسيراً دلّ عليه حرف الفاء الذي يوحى بقرب العهد ومثل هذا تجده في القرآن كثيراً حتى في الأمور التي تكاد تكون مستحيلة إلا

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص ٨١.

(٢) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ص ٨٦.

(٣) تفسير ابن عاشور ٣٨/١٥.

على الله سبحانه وتعالى كدعاء زكريا - مثلاً - حينما طلب من الله ولدا يرثه ويرث من آل يعقوب وأن يكون رضيعاً.. وبعد ما يدخل على مريم ويجد عندها طعاماً فيسألها فتقول له: ﴿هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ آل عمران/ ٣٧.

هذه الحقيقة كانت - ربما - غائبة عن زكريا الذي بلغ من الكبر عتياً وكانت امرأته عاقراً، لكنه حين سمع كلام مريم: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي بلا أسباب.. تذكر فدعا مباشرة بعد ما تنبه لشيء كان قد غفل عنه زمناً فقال القرآن بعبارة دقيقة: ﴿هنالك﴾ في تلك اللحظة تنبه زكريا لشيء كان قد نسيه فـ﴿دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ولياً﴾ يقول القرآن: ﴿فنادته الملائكة﴾ جاء حرف الفاء ليعبر عن قلة الزمن في استجابة الدعاء على العكس من (ثم) التي تفيد التعبير عن زمن امتد وتطاول.. وقد اختلفت تأويلات المفسرين في هذه المدة تبعاً لاختلافهم في تعيين مرتي العقوبة الواقعة عليهم من العباد الذين جاسوا خلال ديارهم.. فمن جعلها هي المدة بين غلبة جالوت على بني إسرائيل أول الأمر وبين بعث طالوت ملكاً كما قال بذلك الإمام الطبري^(١) حيث قال: (إنه جالوت سلط عليهم أولاً ثم أدب عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ولهذا قال ثم رددنا لكم الكرة عليهم) وبه قال ابن كثير أيضاً^(٢).

والقرطبي يلمح على وجود الخلاف في ذلك فيقول: (وذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره على الخلاف فيمن قتله)^(٣) وبنحو هذا قال الشوكاني والبيضاوي^(٤). ويحدد الإمام الألوسي المدة بمئة سنة فيقول: (وكان بين البعث والرد على ما قيل مئة سنة.. وقيل: رد الكرة بأن سلط الله تعالى داود - عليه السلام - فقتل جالوت)^(٥).

(١) انظر جامع البيان للطبري ٣٠/١٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢١٧/١٠ وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٨/١.

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني ٢٠٢/٣ وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٩٧/٣.

(٥) روح المعاني للألوسي ١٨/١٥.

والعجيب أنك تجد بعض المفسرين يورد من الأقوال المضطربة والتي لا تتفق في زمن وقوعها التاريخي مع النص القرآني.. فلو أخذنا - على سبيل المثال - الإمام الجليل ابن الجوزي فانه يورد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ولتفسدن في الأرض مرتين..﴾ ما يلي:

(وفي من قتلوه من الأنبياء في الإفساد الأول قولان:

أحدهما - زكريا.. قاله السدي.

والثاني - أشعيا.. قاله ابن إسحاق.

أما المقتول من الأنبياء في الإفساد الثاني فهو يحيى ابن زكريا.. قاله مقاتل. ثم يقول:

وكان بين الإفسادين مئتا سنة وعشر سنين^(١).

يعني أن بين قتل زكريا في الإفساد الأول وبين قتل يحيى ابنه في الإفساد الثاني مئتا وعشر سنين تقريباً.. ومن المعلوم أن الكرة لبني إسرائيل قد حدثت بين الإفسادين أي بعد العقوبة الأولى على الإفساد الأول وبين العقوبة الثانية على الإفساد الثاني...^(٢).

ثم نجد الإمام ابن الجوزي حين يصل في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ يقول: (وذلك حين قتل داود جالوت وعاد ملكهم إليهم)^(٣). وجالوت قد سبق زكريا بمئات السنين كما هو الثابت تاريخياً.. فهل كانت الكرة قبل الإفساد الأول؟ وإلا كيف جاء جالوت في الزمن الذي كان بين زكريا ويحيى؟..

هذا الاضطراب في النقل لا نقول عنه سببه ابن الجوزي نفسه رحمه الله لا فهو أسمى من ذلك وأجل، ولكن في الروايات الإسرائيلية^(٤) التي وصلت إليه ممن كان يعتمد عليها ويأخذها من أهل الكتاب الذين يصرفون معاني الآيات إلى الماضي السحيق كالسدي وابن إسحاق، وقد فصلنا القول في هذا مسبقاً.

(١) زاد المسير لابن الجوزي ١٠-٧/٥.

(٢) انظر ما قاله الثعالبي في تفسيره لهذه الآية ٣٣١/٢.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥.

(٤) لقد قال ابن كثير عن هذه النقطة «ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز لنا كتابته وروايته» انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٣.

حين نقول إن كل ذلك مما لا يحتمله النص القرآني ولا يوحى به الجو العام للآيات والتي يفهم من سياقها أن الأمر بعيد جداً عما قيل فيه ويقال مما قال به الذين اسلموا من أهل الكتاب فلا شأن للآيات التي وردت في سورة الإسراء بجالوت ولا طالوت وإنما هو الواقع المعاصر لتزول القرآن والمستقبل الذي انطوى بظهر الغيب وهو ظاهر لا محالة لأن ذلك من المقضي به على بني إسرائيل، إذ هو كما قال أكذبهم - حيي بن أخطب - كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ولأن ذلك أيضاً مما نزل به القرآن في ﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل﴾ الإسراء/١٠٥.

إن هناك كثيراً من حقائق التأريخ تقف شاهداً على أن جالوت لا شأن له بالكرة ولا داود كذلك ولا حتى زكريا ويحيى.. منها:

أولاً: قضية الصفات التي أثبتتها القرآن للعباد المبعوثين لا تنطبق ولا في شيء منها على جالوت وجنوده فهم:

أ / لم يكونوا عباداً لله وإنما كانوا وثنيين يعبدون الأصنام.

ب / إنهم لم يجوسوا خلال ديار اليهود وإنما اجتاحوا بني إسرائيل فدمروا أورشليم وقتلوا بنو إسرائيل.

ج / لم يدخلوا المسجد لأنه لم يكن قد بني بعد وإنما بناه سليمان^(١) بن داود وذلك بعد أن قتل داود جالوت..

صحيح أنه كان مبنياً زمن إبراهيم إذ بناه بعد البيت الحرام بأربعين سنة كما ثبت ذلك من حديث أبي هريرة^(٢) لكن طول المدة الزمنية الفاصلة بين إبراهيم وسليمان مرورا بإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وما مرّت على أرض بيت المقدس من أحداث جسام كفيلة بأن تزيل بيت المقدس من الوجود.

وفي ذلك يقول الإمام الألوسي رحمه الله:

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣٥٤/٢ هامش.

(٢) سبق تخريجه انظر ص ٤٨ هامش ٣٦. وانظر الألوسي ١٢/١٥.

﴿وليدخلوا المسجد﴾ فإن المراد به بيت المقدس.. وداود ابتداء بنيانه بعد قتل جالوت وإيتائه النبوة ولم يتمه.. وأتمه سليمان عليه السلام، فلم يكن قبل داود مسجد حتى يدخلوه أول مرة^(١).

أضف إلى ذلك إن كلمة المسجد لم تُطلق عليه إلا بعد نزول القرآن - كما أسلفنا^(٢) - فمما سبق نُخلص إلى أن فترة الكربة التي جاءت (ثم) تنبئ عنها هي التي نعيشها اليوم بعد ما تراجع المسلمون عن مكان القيادة والريادة وعادوا القهقري، فرُدَّتْ الكربة لبني إسرائيل علينا.

د / إنه لم تكن لبني إسرائيل دولة ولا غلبة على من جاسوا خلال ديارهم إلا في هذه المرة، لأن القرآن يقول: ﴿ثم رددنا لكم الكربة - عليهم -﴾ والكربة بإجماع المفسرين هي الدولة والغلبة^(٣) ولفظ ﴿عليهم﴾ يحصر من رُدَّتْ عليهم الكربة فلم تكن هناك كربة من بني إسرائيل على أحد غير المسلمين الذين جاسوا خلال ديارهم.

يقول أسعد التميمي في تعليقه على هذه الآيات: (التدمير الأول كان إخراج اليهود من الحجاز فخرج قسم منهم إلى (أذرعات) من أرض الشام حتى تبدأ المرة الثانية من علوهم وفسادهم، ويقول الله تعالى: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ يعني أنه تم تدمير العلو الأول في عهد النبي والوحي يتزل، وأتمه الصحابة من بعده، وتبدأ الآيات بعد ذلك لتحدث عن المرة الثانية في العلو والإفساد، فتخبر الآيات أن الله سبحانه وتعالى سيجعل لليهود الكربة عليهم، على من؟.. على الذين جاسوا خلال الديار أول مرة، و(الكربة) الدولة والسلطة وحين أراد الله لليهود أن يكرّوا استعمل كلمة (ثم).. وثم كما هو معروف معناها العطف مع التراخي والمهلة.. فهل كرّ اليهود في التاريخ على البابليين

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٨/١٥.

(٢) جاء في تفسير ابن عاشور ما يلي: «ولذلك انتهى أمر اليهود وانقرض وتفرقوا في الأرض، ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة ١٦ هجرية صلحاً مع أهلها وهي تسمى يومئذٍ «إلياء» انظر ١٥/١٥ وما بعدها وانظر الأساس في التفسير ٣٠٤٤/٦.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥ وانظر صفوة التفاسير ١٥٢/٢.

وكانت لهم دولة وسلطة عليهم؟.. لم يحدث في التاريخ ولن يحدث الآن ولا في المستقبل، حيث أن البابليين قد انقضوا من الدنيا كأمة وليس لهم مكان يعرفون فيه أو دولة يعيشون فيها، وحاش لله أن لا يصدق القرآن أو يكون خبره غير محقق.. إذن لابد أن تكون الكرة على أبناء من جاسوا خلال الديار وهم المسلمون أو العرب المسلمون فقد كرّ اليهود على بلاد الشام وفلسطين منهما.. وهذا الذي نعيشه الآن^(١).. ويؤيد الدكتور فضل عباس ما قال به التميمي فيقول: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ أي على هؤلاء الذين جاسوا خلال الديار، لا على أشخاصهم وإنما على ذريتهم من بعد، ويؤيد ما أقول:

أ - كلمة (ثم) وهي للتراخي كما يقول علماء العربية وهذا التراخي يتسع لأزمة طويلة، ويدرك هذا من قرأ القرآن الكريم.. فكلمة - ثم - إذن تدل على المدة الزمنية الممتدة بين أولئك الصحابة وبين عصرنا الذي نعيش فيه.

ب - ومن أعجب ما في الأمر وأدل على الإعجاز والإيجاز كلمة (الكرة).. والكرة يعبر بها عن الدولة، كما يقول علماء اللغة.. والتاريخ يشهد أنه لم تكن لليهود دولة في تاريخ المسلمين.. والواقع إن هذه الدولة إنما كانت في أيامنا هذه، هذه هي المرة إذن التي كان لليهود فيها دولة وهذا ما أشارت إليه كلمة (الكرة)..

ج - ومما يؤكد هذا القول ويرفعه إلى مرتبة الحقيقة قوله سبحانه: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾، أما أمر المال فلا يحتاج إلى شرح وتفصيل، وليس هناك أحد إلا ويدرك تحكم اليهود في أمر المال، وأما البنون فقد ذكروا هنا في الدولة (والكرة...) ^(٢).

وهذه قضية ظهرت حقيقتها لأكثر من عالم ومفكر في مجال الوعي والفكر الإسلامي المعاصر ولعل أبرزهم الشيخ عبد المعز عبد السلام إذ يقول في قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾.. ردت الكرة علينا بعد ألف وثلاثمائة وسبعين سنة من تأديب الله لهم منذ بعث عليهم عباده المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فجاسوا

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص ٤١-٤٢.

(٢) نفحات من/الإسراء والمعراج د. فضل حسين عباس - الجامعة الأردنية ص ١٢٢.

خلال الديار.. بعد هذه المدة - التي أشار الله سبحانه لطولها بقوله (ثم) التي تقتضي في العطف تراخيا في الأجل - رُدَّتْ لليهود الكرة وأمدوا بثلاث ما أمدوا بمثلها في تاريخهم..

١/ بأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض على ما أرادوا من صعبة وسهلة.
٢/ بنين مهاجرين ومقاتلين ينتخبون لحماسهم وصلاحياتهم لبناء دولتهم.
٣/ وجعلناكم أكثر نفيرا، ولم يكن اليهود في يوم أكثر نفيرا وناصريا منهم اليوم.
كل هذه الأوصاف تؤكد إن الدور الذي نعانیه اليوم هو الكرة المعنية في الآية، وكل ما ذكره المفسرون بعيد لا تنطبق عليه هذه الصفات^(١).

ثانياً: ردّ الكرة وبدء الإفساد الثاني: في قوله تعالى: ﴿رددنا لكم﴾
كلمة «ردد» من «الرد» وهو الرجوع أو الإرجاع^(٢).. «ردّه» عن وجهه يرده «رداً» صرفه و«ردة عودة مردود» و«مرداً» مصروف. قال تعالى «فلا مرد له» أي فلا صارف له.. و«الارتداد» الرجوع ومنه «المرتد» و«الردة» اسم منه أي الارتداد^(٣).. «والردّ - صرف الشيء ورجعه والردّ مصدر رددت الشيء»^(٤).
والرد نوعان..

الأول: صرف الشيء بذاته - يقال «رددته فارتد» كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ الأنعام/٢٨ وقوله تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه﴾ القصص/١٣ - قوله: ﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ الإسراء/٦.

الثاني: صرف الشيء بحالة من أحواله - منه الرد إلى حالة كان عليها كقوله تعالى: ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ آل عمران/١٤٩ - ومنه قوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل

(١) سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل - عبد المعز عبد السلام - انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢٧٧/٢ وما بعدها.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٢/١٥.

(٣) مختار الصحاح - للرازي ص ٢١٩ وانظر المنجد للبستاني ص ٢٣٨.

(٤) لسان العرب لابن منظور ١١٥٠/١.

الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً» البقرة/ ١٠٩ أي يرجعونكم إلى حال الكفر بعد أن فارقتموه..

«والارتداد والردة» الرجوع في الطريق الذي جاء منه، قال تعالى: ﴿فارتدا على أثارهما قصصاً﴾ أي فعادا في الطريق نفسه الذي جاء منه..

لكن «الردة» تختص بالكفر.. كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه﴾ المائدة/ ٥٤ - وهو الرجوع عن الإسلام إلى الكفر ومنه قوله تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ محمد/ ٢٥. أي رجعوا إلى الحال الذي كانوا عليه قبل ذلك..

وقوله: ﴿ثم - رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الإسراء/ ٦ - أي رددنا لكم الدولة والغلبة عليهم^(١) أي بعد ما كانت لهم عليكم...

قال القرطبي: «هي الدولة والرجعة» وكذلك النسفي^(٢) وابن الجوزي يقول «أي أظفرناكم بهم - والكرة معناها: الرجعة والدولة» وبه قال الماوردي^(٣).

بينما يفصل الإمام الثعالبي قوله «رددنا لكم الكرة» فيقول: (جعل «رددنا» [التي هي للماضي] موضع «نرد» [للمستقبل] لما كان وعد الله في غاية الثقة وأنه واقع لا محالة... فعبّر عن المستقبل بالماضي... [ثم قال].. وهذه الكرة هي بعد الجولة الأولى..^(٤) وقال صاحب صفوة البيان: «الكرة: المرة من الشيء وأصلها الكر وهو الرجوع إلى الشيء»^(٥)... ويقول الراغب: إن أصل الكرة هي «العطف على الشيء إما بالذات وإما بالفعل». فبالذات - كقولك للحبل المفتول «كر» وهو الأصل مصدر وصار اسماً وجمعه «كرور».

(١) مفردات الراغب ص ١٩٢-١٩٣ وانظر صفوة التفاسير للصابوني ١٥٢/٢.

(٢) تفسير القرطبي «٢١٧/١٠»، وانظر تفسير النسفي «١٥٣/٣».

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥ وتفسير الماوردي ٤٢٤/٨.

(٤) الجواهر الحسان - للثعالبي ٣٣١/٢.

(٥) انظر صفوة البيان لمحمد مخلوف ص ٣٦٠.

وأما بالفعل - كقوله تعالى: ﴿فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾ الشعراء/١٠٢ - ومنه.. ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾^(١) الإسراء/٦.

أي بعد مدة أعدنا لكم حالكم الذي كنتم عليه قبل ذلك ﴿عليهم﴾ أي: على من جاسوا خلال دياركم...

ثم إن مجيء لفظ ﴿الكرة﴾ هنا يومي بحقائق مهمة تلوح من ثنايا التعبير القرآني الكريم.. فالكرة التي هي المرة من الشيء معطوفة على ما كان قبلها.. أي رجوع الشيء إلى ما كان قبلاً... كما هو المفهوم من كلام صاحب صفوة البيان وكلام الراغب أيضاً.. فإن هذا يقتضي..

أولاً: أنه حين رُدَّت الكرة لبني إسرائيل على من جاسوا خلال ديارهم من العباد أنه كان للعباد دولة وغلبة على بني إسرائيل فأديلت وعادت إلى بني إسرائيل وأمدوا بثلاث، بأموال وبنين وجعلوا فيها أكثر نفيرا الإسراء/٦.

ثانياً: إن هذه الدولة والغلبة التي كانت للعباد الذين بعثوا عليهم فجاسوا خلال ديارهم وكما رأينا إن مقتضى الجوس خلال الديار كان يقتلوا فريقاً منهم ويأسروا آخرين ويخرجوا الباقين من ديارهم ومن ثم يجوسون يبحثون عن تحرُّ واستقصاء هل بقي منهم أحد لم يقتلوه أو لم يخرجوه ومن بعد ذلك دخلوا المسجد أول مرة وكل ذلك إنما كان وعداً مفعولاً فكل هذه الدولة والغلبة التي كانت لهم إنما كان لها «مقومات وجود» بحيث إنهم حين فقدوا هذه المقومات فقدت منهم الدولة والسلطة التي كانت لهم وردت الكرة لبني إسرائيل عليهم.. وهذه المقومات هي:

أولاً: الإقرار بالعبودية لله وحده والكفر بكل ما عداه وهذه من أهم خصائص إخلاص العبودية لله سبحانه: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ والذين شملهم اختصاص الله لهم في «عباداً لنا» والذين لا يملك الشيطان وأعوانه عليهم سبيلاً ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ الحجر/٤٢.

(١) مفردات الراغب ص ٤٢٨.

وفي هذا يقول صاحب الظلال: والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه
لله ويجردها له وحده ويعبده كأنه يراه.. وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان..
﴿هذا صراط علي مستقيم... إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من
الغاوين﴾ الحجر/٤٢. هذا صراط.. هذا ناموس.. هذه سنة وهي السنة التي ارتضتها
الإرادة قانوناً وحكماً في الهدى والظلال ﴿إن عبادي﴾ المخلصين لي ليس لك عليهم
سلطان ولا لك فيهم تأثير.. إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين فهو
استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءاً من عباد الله المخلصين^(١).

وتلك قضية بينها النبي ﷺ بقوله: (من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل
الجنة)^(٢) ولا يتم خلوص لا إله إلا الله إلا بالبراءة من كل شيء سوى الله سبحانه..
وتلك هي عقيدة الأنبياء والمرسلين على مر التاريخ كما هو معلوم..
ثانياً: اتباع النبي ﷺ اتباعاً شاملاً كما أراد الله وكما أمر بحيث أنه جعل اتباع النبي
ﷺ شرطاً لمرضاة الله وشرطاً في صحة الإيمان فقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
يحبكم الله﴾ آل عمران/٣١.

وقد قرن طاعة الرسول بطاعة الله وجعلها شرطاً للإيمان فقال: ﴿وأطيعوا الله
ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ الأنفال/١.
ثالثاً: تحكيم شرع الله في كل شؤون الحياة بنفس راضية تمام الرضى دون
الإحساس بأي حرج مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما
شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ النساء/٦٥.
وجعل الذين لا يرتضون حكم الله هم الظالمين: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله
فأولئك هم الظالمون﴾ المائدة/٤٥.

هذه المقومات التي حققها النبي ﷺ في واقع الحياة إنما كانت هي هي مقومات
العهد الذي أعطى بسببه إبراهيم الإمامة على الناس في قوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٢٠٧/٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٢٩/٥ واللفظ له وللنسائي في عمل اليوم والليلة ١١٣٦.

ربه بكلمات^(١).. فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً البقرة/١٢٤.

قلت: ولعل هذه المقومات هي بعض تلك الكلمات التي استحقت بها هذه الأمة أن تكون بها خير أمة أُخرجت للناس وأن تكون بها الأمة الوسط لتكون شاهدة للناس فتكون بمستوى العهد الذي قال عنه سبحانه وتعالى لإبراهيم: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ البقرة/١٢٤ - وذلك العهد الذي قال عنه الربيع بن أنس «عهد الله الذي عهد لعباده - دينه -، يقول لا ينال دينه الظالمين»...

وقال السُّدي: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ «عهدي نبوتي»^(٢).

هو دين الله إذاً ومهمة النبوة وتبليغ الرسالة وارتقاء صرح الشهادة وقيادة الناس، وحين تخلت الأمة عن هذا كله عادت القهقري حين تضعضعت وتبعت أذئاب البقر وتركت الجهاد في سبيل الله يوم دبَّ الوهن فيها ونُزِعت منها هيبة الإسلام ونزع من صدور عدوها المهابة منها.. فكانت النتيجة أن ردت الكرة لبني إسرائيل عليها.. وقد أمدوا بأموال وبنين وكانوا أكثر فقيراً من كل وقت مضى بل وحتى أكثر فقيراً منا...

(١) قال الإمام ابن كثير في تفسيره: «لقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام فروي عن ابن عباس قال - ابتلاه الله بالمناسك.. وقيل هي الخمسة من الفطرة.. وقال عكرمة عن ابن عباس انه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة: ﴿التائبون العابدون﴾ إلى آخر الآية - وعشر آيات في أول سورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وعشر آيات في الأحزاب ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة: قال الله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾..

وعن الربيع بن أنس قال: الكلمات ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقوله ﴿واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾ وقوله ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقوله ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ وقوله ﴿واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم.. قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع قال ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم به. انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/١١٦.

(٢) المصدر السابق ١/١١٧.

واليوم كان هذا واقعاً ملموساً يبرز حالة هي في حقيقتها تمثل فرصة اختيار لنا ولهم.. فان عدنا عباداً لله وحده واتبعنا سنة رسوله ﷺ واحتكمتنا لدينه وهداه فان الله قادر على أن يرد لنا الكرة عليهم فتكون لنا الدولة والغلبة عليهم... وحين ذاك إن تحققت فينا صفة الإنتساب إلى الله على وجه الإختصاص وصفة البأس الشديد فإن كرم الله علينا بالبعث على بني إسرائيل (لنساء وجوههم.. ولندخل المسجد كما دخلناه أول مرة ولنتبر كل ما علوه تتبيرا..) وإن أحسنوا هم - وهيهات - فلأنفسهم^(١) وإن أسأؤوا فلا ينفعهم ما أمدوا به من مال وبنين وكانوا أكثر نفيرا..

فإنه... ﴿إذا جاء وعد الآخرة﴾... معناه إذا يجيء^(٢) نبعث عليكم.. عباداً لنا... ليسؤوا وجوهكم..

ثم بعد ذلك نجد الأندلسي أبا حيان، يقول في تفسيره لهذه الآية: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ قال: (جعل «رددنا» موضع «نردُّ» إذ وقت أخبارهم لم يقع بعد لكنه لما كان وعد الله في غاية الثقة انه يقع عبّر عن مستقبله بالماضي)^(٣).

وبهذا الانسجام والاتفاق مع الثعالبي فيما قال بأن مجيء رددنا بالماضي الذي يراد به الاستقبال^(٤)..

فحين قراها الصحابة والتابعون لهم «رددنا» وهي - ماض لفظاً - ومضافة إلى الضمير «نا» الذي هو للمتكلم وهو الله سبحانه - والمستقبل معنى - فكانوا يجدون فيها خطاباً لهم ينبئهم عن المستقبل أما نحن اليوم فكأننا حين نقرأها اليوم «رددنا» نجد أنها تخاطب بني إسرائيل اليوم بواقع الحال وتقول لهم بعد ما ردّت لهم الدولة والغلبة علينا ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾...

(١) انظر هذا المعنى في تفسير القاسمي ص ٣٩٠٤.

(٢) انظر تفسير الإمام الثعالبي ٣٣١/٢ وانظر تفسير ابن عاشور ٢٢/١٥ وانظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤١/٦.

(٣) النهر الماد في البحر المحيط - لأبي حيان الاندلسي ص ٢٨٠.

(٤) انظر تفسير الثعالبي ٣٣١/٢.

فحين نتمُّ قراءة الآيات نجد أنها تقول... فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا.. أي المبعوثون عليكم - وجوهكم...

وفي هذا يقول ابن عاشور... (والردُّ: الإرجاع وجيء بالفعل «رددنا» ماضياً جرياً على الغالب في جواب «إذا» كما جاء شرطها فعلاً ماضياً في قوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما - بعثنا﴾ أي إذا يجيء نبعث...

والكرّة... الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه^(١).

فكان الآيات تعني أن بني إسرائيل كانت لهم الغلبة على الناس والظهور عليهم بسبب فسادهم واستكبارهم على الحق وتعاليمهم عن هدى الأنبياء فلما فسدوا وأظهروا الإفساد في الأرض بعث الله عليهم المؤمنين فأوقعوا عليهم العقوبة الأولى فأذلّوهم وقتلوهم وأخرجوهم من ديارهم وجاسوا خلالها يوم أن تمثلت فيهم أعلى درجات العبودية لله والطاعة له والخضوع لحكمه لكنه بعد إن رجع المسلمون عن هذه الصفات التي هي أهم مقومات العبودية الخالصة والقيادة الرشيدة فدخلهم الشرك والنفاق وأصبحوا في وهن إيماني فتراجعوا القهقري وأعيدت لأعدائهم من اليهود الدولة والغلبة والتسلط كرّة أخرى.. بل إنهم أصبحوا أقوى وأشدّ مما كانوا عليه يوم فسادهم الأول فقد أمدوا بأموال وبنين وجعلهم الله أكثر نفيراً في فسادهم الثاني هذا.

وما ذهب إليه بعض المفسرين من هذه الكرّة والمدد إنما كانا زمن نبي الله سليمان حين كانت فترة حكمه يطلق عليها الفترة الذهبية في تأريخ يهود نقول إن هذا التأويل لا يستقيم مع ما يوحى به النص القرآني الكريم... ولا الأحداث التاريخية كذلك.

(١) تفسير ابن عاشور ٣٢/١٥.

المطلب الثاني

تحقق المدد واللفيف النافر

أولاً: المدد - الزيادة في الأموال والبنين في قوله تعالى: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾.

جاء في لسان العرب...

المدد من المَدَّ: الجذب والمطل.. مَدَّة - يَمُدُّه - مَدًّا: زاده...

والمادَّة - الزيادة المتصلة.. قال تعالى: ﴿ويعمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ البقرة/١٥

- معناه يمهلهم.. وطغيانهم غلوهم في كفرهم... وشيء مديد - ممدود...

● / وقال اللحياني - يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثرة: مَدَّه.. مَدًّا..

وأمدُّ له في الأجل: أنساه فيه، ومدة في الغي والضلال يمدُّ مَدًّا..

ومدُّ له: أملى له وتركه..

وفي التنزيل: ﴿ويعمدهم في طغيانهم يعمهون..﴾ البقرة/١٥. أي يملئ لهم..

● / والمدد - ما مَدَّهم به أو أمدَّهم.. سبويه - والجمع إمداد.

● / والمدد - العساكر التي تلحق بالمغازي في سبيل الله.

● / والإمداد - : إن يرسل الرجل للرجل مدداً..

قال تعالى: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ الإسراء/٦.

فالمدد ما أمددت به قومك في حربٍ أو غير ذلك من طعام أو أعوان^(١) والراغب

يقول: إن «أصل المَدَّ هو الجرُّ أي الزيادة ومنه المَدَّة للوقت الممتد.. ومددت عيني إلى

كذا، قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك﴾ الحجر/٨٨.

وأمددت الجيش بمدد والإنسان بطعام. قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ

الظل﴾...

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٥٣/٣.

وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب... والمدّ في المكروه..

فمثال المحبوب قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَمْدُدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ﴾ آل عمران/١٢٥.

وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ الإسراء/٦.

ومثال المكروه قوله تعالى: ﴿وَنُمِّدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ مريم/٧٩.

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾^(١) الأعراف/٢٠٢.

ومن معطيات قوله تعالى «وَأَمْدَدْنَاكُمْ» نجد حقيقة تناولها التعبير القرآني لكنها لم تجد حظها في الظهور كغيرها من الحقائق الجديرة بالاهتمام..

إنه ما دام «المدّ» هو «الزيادة المتصلة بالشيء» وأن «المدد» هو ما تزيد به الجيش في الحرب من عساكر أو طعام كما قال الراغب، فإن لبني إسرائيل مدداً كان ولا يزال.. وتلك قضية تتجلى فيها حكمة الله سبحانه فإن بني إسرائيل كما أنهم يختلفون عن غيرهم من الأمم في كثير من المسائل العقيدية والاجتماعية وغيرها فإنهم يختلفون كذلك في المسائل المصيرية - إن صح التعبير - فكل أمة من أمم الكفر والظلال التي سبقتهم وعاصرتهم في الوجود التاريخي والتي أخرج عنها القرآن فإنما تعرضت لغضب الله تعالى وانتقامه حين كفرت بالله ورسله وكتبه وظلمت نفسها فكان أن أخرج القرآن عنها بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ - لِمَا ظَلَمُوا - وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يونس/١٣.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ - لِمَا ظَلَمُوا - وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ الكهف/٥٩.

فكان سبب الهلاك هو الظلم والكفر... والهلاك هو تدمير الشيء وفناؤه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص/٨٨.

ويقال للعذاب والخوف والفقر والشر كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ الأنعام/٦. وكقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ الأعراف/٤. ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ

(١) مفردات الراغب ص ٤٦٤/٤٦٥.

إلا القوم الفاسقون»^(١) الأحقاف/٣٥. فهلاك أمم الكفر والظلال كان بحيث لا يبقى الله منها شيئاً وهذا ما عبر عنه القرآن بتعبير آخر...

وهو - قطع دابر الكافرين والظالمين...

وتلك سنة الله جرت على الأمم التي كفرت بالله وعصت رسله ولم تستجب لهديه وقد حكاها القرآن في مواطن كثيرة..

أحدها: حينما أخبر عن عاد قوم هود فقال: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ الأعراف/٦٥ فحين كفروا أهلكتهم فقال: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، فهل ترى لهم من باقية﴾ الحاقة/٦-٨.

وقال عنهم بعد هلاكهم: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ الأعراف/٧٢.

وكذلك ثمود قوم صالح: ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ الحاقة/٦٧.

وفي موضع آخر هي الرجفة: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثين﴾ الأعراف/٧٨.

كما قيل مثل ذلك عن قوم شعيب في الأعراف/٩١ وقيل عن قوم لوط: ﴿إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ الحجر/٦٦.

وكذلك كان الأمر في كثير من الأمم الكافرة قال عنهم: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ الأنعام/٤٥.

تلك سنة الله في الذين خلوا من قبل والتي عومل بنو إسرائيل بغيرها حيث لم يقطع دابرهم وإنما قُطِّعوا هم إلى أمم في الأرض ومزقوا فيها...

وكان لله سبحانه في ذلك حكمة ومشية أعيت مذاهبها أولي الأبواب فإنه سبحانه كان يستطيع وهو القادر أن يعاملهم بذنوبهم كما عومل غيرهم.. فقال سبحانه:

(١) انظر مفردات الراغب ص ٥٤٤.

﴿أولم يهدي للذين يريثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون، تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ الأعراف/١٠٠-١٠٢.

وما أنت واحد في القرآن آية تقول إن بني إسرائيل قطع دابرهم على الرغم من أن كفرهم كان أعنى من كفر غيرهم وما قتل غيرهم أنبياءهم حين قتلوا هم أنبياءهم حتى قيل لهم: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ البقرة/٨٧. حتى قيل إنهم «قتلوا على الصخرة التي في بيت المقدس سبعين نبياً منهم يحيى بن زكريا» فيما أورده القرطبي في تفسيره وابن كثير في بدايته^(١).

أقول مع هذا فإن الله لم يقطع دابرهم وإنما جرت عليهم سنة التقطيع فقال تعالى: ﴿وقطعناهم إثنى عشرة أسباطاً أمماً﴾ الأعراف/١٦٠.

وقال بعدها: ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ الأعراف/١٦٨.

وحين يُسأل عن الحكمة من تقطيع بني إسرائيل في الأرض أمماً وجماعات تعيش حالة الذل والشتات يستشف من خلال آيات الإسراء أنه سبحانه قد قدر عليهم وقضى أن يجعلهم في يوم ما يمد بعضهم بعضاً بالزيادة والعون في المال والبنين ويجعلهم أكثر من عدوهم نفيراً إلى نصرة بعضهم بعضاً أو أكثر من أي وقت آخر نفيراً.. فزيادة المال والبنين إذاً من المقضي به عليهم أيضاً وذلك داخل في مفهوم قوله تعالى: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ فهذا يعني أن إمدادهم سيكون عن طريق زيادة نسلهم وإكثار أولادهم.. فلو أنهم قطع دابرهم لانقرضوا كما انقرض غيرهم ولكن الله يريد أن يستمر نسلهم حتى يُحق الحق بكلماته ويترل عليهم عذابه ونقمته فيما قدره عليهم من جعل عقابهم على كفرهم وفسادهم وفق سنة خاصة بهم تشتمل على قانونين^(٢) للعقوبة لهم على فسادهم وانحرافهم..

(١) انظر تفسير القرطبي ٢١٩/١٠ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٥٠/٢.

(٢) سنتكلم عن قانوني العقوبة المقضي بها على بني إسرائيل لاحقاً إن شاء الله.

أحدهما: قانون ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا..﴾ الإسراء/٥.

والثاني: قانون ﴿وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء

العذاب﴾ الأعراف/١٦٧.

قلت: ولعل تلك هي كلمة الله التي كتبها على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا - كلمة - سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شكٍ منه مريب﴾ هود/١١٠. وجاءت الآية ذاتها بنصها في سورة فصلت/٤٥ فانظرها...

إن الكلمة التي سبقت من الله أن لا يأخذ بني إسرائيل بسنة عامة كأهل الكفر السابقين ولا بسنة^(١) أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ أن لا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسها فيستحل بيضتها، بل ليجعل - بني إسرائيل - بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وان يسلط عليهم كل أعدائهم من المؤمنين الداخلين في ﴿عباداً لنا﴾ ومن غير الداخلين فيها ممن يشملهم قوله: ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾.

(وهنا نسأل مرة أخرى: هل أمدّ الله اليهود بأموال وبنين غير هذه المرة؟ لم نعرف أن ذلك قد حدث، واليهود منذ أن غضب الله عليهم وهم في بلاءٍ متصل وعذاب مستمر، فقبل الإسلام كان عذاب البابليين لهم والرومان، وبعد الإسلام أخرجهم المسلمون من الجزيرة ثم بدأت أوربا تعذبهم في إسبانيا وفي بقية أقطارها حتى جاء المسلمون فأنقذوهم من الأسيان، واستمر العذاب لهم حتى هذا القرن.. ولقد عاش اليهود في ظل دولة الإسلام عبر القرون آمين مطمئنين، تحفظ لهم دمائهم وأموالهم، ولكنهم لم يحفظوا الجميل... وحتى نرى مبلغ صدق الآية ونرى إعجازها بأعيننا نجد دولة اليهود اليوم تعيش على البنين الذين يأتونها من أطراف الأرض ليمدوها بالجند وفي

(١) روى الإمام مسلم حديثاً عن النبي (يقول فيه: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة.. سألت ربي إن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها.. وسألت إن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها.. وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».. انظر صحيح الإمام مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة ٢٢١٦/٤ رقم الحديث ٢٨٩٠.

هذه الفترة من روسيا بالذات وترى الأموال من دول الغرب^(١) تأتيها بمساعدات مذهلة حتى تستمر في عدوانها وطغيانها وجبروتها ثم يقول تعالى: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً..﴾ ولذلك فإن أكبر قوة عسكرية في الأرض تساند اليهود في حال نفرتها وحربها^(٢).

قلت: وما حركة تحديد النسل في بلاد المسلمين إلا من كيد اليهود بهذه الأمة كي يزدوا هم ويمتدوا ويقل غيرهم.

وفي هذا يقول العلامة أبو الأعلى المودودي مؤكداً: أن (الأهداف التي يرمي إليها الغرب من وراء نشر هذه الحركة في بلاد الشرق فإنما هي سياسية بحتة في حقيقة أمرها)^(٣).

ثانياً - النفير الأكثر في قوله تعالى: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾...

إن في قوله تعالى ﴿وجعلناكم﴾ معاني عديدة.. حيث أن: «الجعل - أعم من الفعل وله عدة تصريفات - بينها الراغب في مفرداته - منها.

(١) إنه يجري مجرى - أوجد - كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ الأنعام/١.

(٢) أنه ما يكون إيجاد شيء وتكوينه منه كقوله تعالى: ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ النحل/٨١.

(٣) ما يكون تصوير الشيء على حالة دون حالة كقوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ البقرة/٢٢.

(٤) الحكم بالشيء على الشيء كقوله تعالى: ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ القصص/٧.

(٥) وهو المهم - أنه يجري مجرى صار كقوله تعالى: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ الإسراء/٦.

(١) قلت ومن دول العرب أيضاً، انظر ما فعلته حرب الخليج من صب الأموال العربية في خزائن إسرائيل وأمريكا ومن يقف معها.

(٢) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص ٤٣.

(٣) انظر حركة تحديد النسل - أبو الأعلى المودودي ص ١٦٩.

أي صيرناكم أكثر نفيراً بعدما كنتم على العكس من ذلك^(١). ولفظ: «أكثر» يعطي معنى غير الذي يعطيه لفظ «كثيراً» فان أفعل - كما هو معلوم - للتفضيل أي أكثر مما سبق نفيراً..

قال ابن عاشور: (والتفضيل في «أكثر» تفضيل على أنفسهم، أي جعلناكم أكثر مما كنتم قبل الجلاء، وهو المناسب لمقام الامتنان، وقال جمع من المفسرين أكثر نفيراً من أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم)^(٢).

وفي هذه المسألة وردت عدة أقوال للمفسرين.. فمنهم من قال معناه.. «أي أكثر عدداً وأنصاراً منهم» أي من أعدائهم قاله ابن الجوزي في تفسيره^(٣) وهذا مما أشار إليه ابن عاشور في قوله السابق وقال بعضهم.. «وجعلناكم أكثر نفيراً» مما كنتم - وهو تمييز جمع نفرٍ وهو من ينفر مع الرجل من قومه قاله الإمام النسفي^(٤). وقال الماوردي في قوله تعالى «وجعلناكم أكثر نفيراً» وجهان: أحدهما: أكثر عزاً وجاهاً منهم.

الثاني: أكثر عدداً.. وكثرة العدد تنفر عدوهم منهم^(٥).

ولقد ورد لفظ «نفيراً» وما اشتق عنه في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى منها (نفر - ونُفر - ونفرا - ونفور - وانفروا - وينفروا - وتنفروا - ونفيرا - ومستنفرة) وهي من النفر - أي الانزعاج من الشيء وإلى الشيء كالفرع إلى الشيء وعن الشيء - ويقال نفر عن الشيء نفوراً..

قال تعالى: «ما زادهم إلا نفوراً» فاطر/٤٢.

(١) مفردات الراغب ص ٩٤.

(٢) تفسير ابن عاشور ٣٣/١٥.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ١٠/٥ وانظر صفوة البيان - مخلوف ص ٣٦٠.

(٤) انظر مدارك التنزيل وحقائق الأقاويل - للنسفي ١٥٣/٣.

(٥) تفسير الماوردي ٤٢٤/٢.

﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ ^(١) التوبة/٣٨. ونفر إلى الحرب ينفر
وينفر نفراً - ومنه يوم النفر.. قال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ التوبة/٤١. ﴿إلا
تنفروا يعذبكم﴾ التوبة/٣٩.

والاستنفار - حثُّ القوم على النفر إلى الحرب.. وأيضاً حملُ القوم على أن ينفروا
أي من الحرب.. ^(٢).

فعلى هذا: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ الإسراء/٦.
أي «صيرناكم أكثر فزعاً من غيركم» ولهذا قال ابن الجوزي في تفسيره «أكثر
عدداً وأنصاراً منهم» ^(٣) كما سبق بيانه.

ولقد أكد كثير من العلماء والمفسرين أن اليهود لم ينفروا كما نفروا في زماننا
هذا.. فلم تكثر أموالهم ولا أولادهم كما كثرت اليوم..

يقول الدكتور فضل عباس في قوله تعالى: ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ (للعلماء فيه
تأويلان اثنان.. بيان ذلك أن «أكثر» أفعل تفضيل، فبعض المفسرين يرى معنى الآية أي
جعلناكم في هذه المرة أكثر منكم في المرة الأولى نفيراً فهم في هذه المرة أكثر مما كانوا في
المرة الأولى، والرأي الآخر للمفسرين أي جعلناكم أكثر من عدوكم نفيراً وكلا
التفسيرين صحيح..

أما على الرأي الأول، فاليهود في المرة الأولى لم يكونوا إلا في المدينة المنورة على
ساكنها أفضل الصلاة والسلام.. أو حولها، ولكنهم في هذه المرة جاؤوا من كل صوب،
فلم يكونوا من المقيمين في هذه البلاد، بل اجتمعوا من كل جانب ومن أصقاع الدنيا.

وأما على الرأي الثاني فقد كانوا أكثر نفيراً منا نحن، سواء فسرنا النفير بمعنى النافر
الذي يحمل السلاح، أم فسرناها بالمؤيد الذي يقف إلى جانبهم، فقد رأينا أن دول

(١) انظر تفسير مجاهد ٢٧٩/١.

(٢) مفردات الراغب ص ٥٠١.

(٣) انظر زاد المسير ١٠/٥.

الأرض رأسمالية وشيوعية وقفت كلها معهم حينما أسست دولتهم، وأمدتهم بالسلاح، وأيدتهم بكل أنواع التأييد المادي والمعنوي..^(١).

ولذلك فإن أكبر قوة عسكرية في الأرض تساند دولة اليهود في حال نفرتها وحربها^(٢).

يقول الشيخ سعيد حوى في الأساس في التفسير: (كما هو الحال الآن إذ تستطيع دولة إسرائيل أن تحشد جيشاً كبيراً وتستنفر العالم من ورائها)^(٣).

ويزيد الشيخ عبد المعز من جامعة الأزهر المسألة توضيحاً فيقول في «وجعلناكم أكثر نفيراً»..

(و لم يكن اليهود في يوم ما أكثر نفيراً وناصرأ منهم اليوم... و لم يتمتع اليهود في تأريخهم ولا أمة في الأرض غيرهم بمثل ما يتمتعون به من كثرة الناصر لهم والناصر لنجدتهم إذا غضبوا غضبت أمريكا وإنجلترا وفرنسا وأمم الغرب جميعاً وان دعوا أجاهم الظالمون وتنادوا لنصرتهم.. لقد اتفق الشرق والغرب - و لم يتفق يوماً - على إنشاء إسرائيل وتقسيم فلسطين.. وسكتوا - و لم يسكتوا يوماً - على مأساة اللاجئين والمنكوبين والمشردين.. كل هذه الأوصاف تؤكد أن الدور الذي نعانیه اليوم هو الكرة المعنية في الآية، وكل ما ذكره المفسرون بعيد لا تنطبق عليه هذه الأوصاف...)^(٤).

ثالثاً: فرصة اختبار واختيار في قوله تعالى: «إن أحسنتم... وإن أسأتم فلها وعليها...»:

الإحسان فوق العدل إذ هو زائد عليه.. فتحري العدل وتحري الإحسان ندب وتطوع وعلى هذا قوله تعالى: «للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة» الزمر/١٠ -

(١) نفحات من الإسراء والمعراج - د. فضل حسن عباس ص ١٢٣.

(٢) زوال إسرائيل - أسعد التميمي ص ٤٣.

(٣) الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤/٦.

(٤) انظر بنو إسرائيل في الكتاب والسنة - محمد سيد طنطاوي ٣٧٣/٢ من مقال للشيخ عبد المعز عبد الستار بعنوان «سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل».

ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين فقال: ﴿وَلَا تُضِيعْ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/ ٥٦ - وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة/ ١٣ - وليس ثمة إحسان من الإنسان لنفسه من أن يتبع ما نُزِّل إليه من ربه ولذلك أمر بقوله: ﴿اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) الزمر/ ٥٥.

والمقصود هنا هو القرآن لأنه نزل مفصلاً وبيناً ومهيماً على الكتب قبله ولذلك قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ النساء/ ١٢٥. فحين خير الله سبحانه هنا بني إسرائيل بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ اختيار العمل الذي تتبعون به أحسن ما أنزل إليه... وتسلمون وجوهكم لله وتمثلون أحسن دين أنزله الله فقد ﴿أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ وبالمقابل إنه و﴿إِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بإعراضكم عن دين الله ومنهجه وهداه ﴿فَلَهَا﴾ لأن الإساءة هي ما يعبر بها عن كل شيء قبيح - من قول أو فكرة أو عمل - والسيئة هي الفعل القبيحة وهي ضدّ الحسنة.. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مِنْ كَسْبٍ سَيِّئَةٍ﴾ البقرة/ ٨١. أي فعله قبيحة.. ولذلك فعلاجها أن يأتي الإنسان بعمل يخالفها فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - السَّيِّئَةِ﴾ المؤمنون/ ٩٦.

ادفع بالعمل الصالح الذي هو أحسن العمل القبيح ليزيله كما قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقِبَى الدَّارِ﴾ الرعد/ ٢٢. فإذا لم تمح السيئات تراكمت وظهرت على الوجوه لذلك قال ﴿سَيِّئَتِ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢) الملك/ ٢٧. فنسب ذلك إلى الوجه من حيث أنه يبين في الوجه أثر القبح والغم والمساءة فإنها تكون من بعض الجزاء المقضي به على الكافرين ولذا قال: ﴿لِيَسُوْءَ وَجُوهُكُمْ﴾ الإسراء/ ٧ ليجعل آثار المساءة بادية في وجوهكم من أثر الحزن والكآبة والغم^(٣) لما عملتم...

(١) انظر مفردات الراغب ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٣.

(٣) انظر تفسير زاد المسير لابن الجوزي ١١/٥.

والمعنى العام يوحى - في ظاهره - أن هناك فرصة اختبار متاحة لبني إسرائيل قال عنها المفسرون ومنهم الإمام الآلوسي: (أنه «إن أحستهم» أعمالكم «أحستهم لأنفسكم» أي لنفعها بما يترتب على ذلك من الثواب «وإن أسأتم» أعمالكم وفعلتم الإساءة «فلها» أي فالإساءة عليها لما يترتب ذلك من العقاب)^(١).

ولكن مما يعجب له القارئ لأغلب التفاسير أن بعض المفسرين يقول إن بني إسرائيل حين تابوا وأصلحوا أعيدت لهم الكرة على أعدائهم وحين عصوا وأفسدوا ردت عليهم الكرة من أعدائهم.. والحقيقة أنني حاولت كثيراً أن أقنع نفسي بصحة هذا المعنى فلم أقنع.. إذ متى تاب بنو إسرائيل حتى ردت لهم الكرة؟ إنهم من يوم أن قالوا: ﴿إنا هدنا إليك﴾ الأعراف/١٥٦. إلى اليوم لم يذكر التاريخ أنهم تابوا ورجعوا وأصلحوا.. سلسلة طويلة جداً للإفساد والمكر والخديعة والكفر والظلم والقتل وو.. ملأوا صحائف الدنيا حتى تأذن الله سبحانه وتعالى بنفسه أن يبعث عليهم - إلى يوم القيامة - من يسومهم سوء العذاب وحتى جعل صفتهم التي لا تنفك عنهم أنهم كما قال الله تعالى: ﴿مغضوب عليهم﴾ تلاحقهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.. ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً﴾ المائدة/٦٤. ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾ المائدة/٦٢.

﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ البقرة/٦١. وضرب الذلة والمسكنة وأنهم باؤوا بغضب من الله ليس له حد يقف عنده وإنما هو مستمر إلى يوم القيامة.. وقوله: ﴿وكانوا يكفرون بآيات الله﴾ ليست إخباراً عن الماضي إنما هي صفة لهم لا تنفك عنهم وكذلك قوله: ﴿وكانوا يعتدون﴾ والدليل نراه ونسمعه من كفر والحاد واعتداء شمل كل مكان وزمان تواجدهم في الأرض والتاريخ...

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١٩/١٥.

إن بني إسرائيل لم يتوبوا إلى الله يوماً وما هم بتائبين وإلا لماذا يقول الله لهم: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يعني وعد المقابلة على فسادهم في المرة الثانية^(١) بعد أن قال ﴿إن أحسنتم.. وإن أسأتم﴾ لو كانت فرصة اختبار؟ إن قدرهم معلوم عند الله وما سيكون منهم كائن في علم الله وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد كما قال صاحب الظلال^(٢) وإن فسادهم الثاني والعقوبة عليه من المقضي به عليهم،

يقول ابن عاشور: (في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة..﴾ تفريع على قوله: ﴿وإن أسأتم فلها﴾. إذ تقدير الكلام فإذا أسأتم وجاء وعد المرة الآخرة..

وقد حصل بهذا التفريع إيجاز بديع قضاء لحق التقسيم الأول في قوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما...﴾ ولحق إفادة ترتيب مجيء وعد الآخرة على الإساءة^(٣)، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرتين فانت إفادة الترتيب والتفريع... و«الآخرة» صفة محذوفة دل عليه قوله «مرتين» أي وعد المرة الآخرة.. وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تعريفه بالفاء^(٤).

ثم إن العبرة من النص ليست مساقاة لبني إسرائيل أو إخبارهم بما سيكون منهم.. إنما المقصود بالعبرة هم المؤمنون بهذا الكتاب وبهذا الدين لكي يعرفوا رسالتهم ومهمتهم وليعلموا إن الكرة حين ردت إلى بني إسرائيل عليهم لا لأن بني إسرائيل تابوا وأصلحوا كما قيل ويقال ولكن لأنكم أنتم الذين عدتم في الطريق الذي منه جئتم على أساس أن معنى «رد» قد عاد إلى ما كان عليه فحين فقدتم مقومات الإمامة وشروط العهد وظلمتم أنفسكم كان ﴿ولا ينال عهدي الظالمين﴾ حقاً واقعاً..

إن كل ما أمد به بنو إسرائيل من أموال وبنين والنفير الكثير إنما هي أسباب للغلبة والقوة ولو أخذتم بها وأعدتم لهم مع ما تحملون من عقيدة إذا لأرهبتم بها عدو الله

(١) انظر تفسير الماوردي ٤٢٥/٢.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٣٠٦/٥.

(٣) الإساءة الحاصلة منهم وقت الكرة والعلو فيها أي بين الوعدين...

(٤) انظر تفسير ابن عاشور ٣٥/١٥.

وعدوكم.. إن كل الأسباب المادية متاحة للطرفين لا يمنع منها أحد فمن أخذ بما كان له
السبق: ﴿كَلَّا نَمُدُّهُ هَوْلًا وَهَوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾
الإسراء/٢٠. هم يطلبون الخير ولو لباطلهم أما نحن فتركنا الأخذ بالأسباب واتكلنا على
أن تمطر السماء عدلاً ونصراً وتراجعنا خوفاً وأصبحت قطرة الدم علينا غالية ولم ننصر
دين الله ونتمنى أن ينصرنا الله والله قال إن دون ذلك شرطاً....
﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ فكيف ينصر الله قوماً لا ينصرونه بل لا ينصرون
حتى أنفسهم؟...

رابعاً - حتمية تحقيق الوعد الثاني ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾:

أ / ليسؤوا وجوهكم..

ب / وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة..

ج / وليتبروا ما علوا تتبيراً..

إن ما قلناه في ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ يمكن أن يقال هنا في حق ﴿فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾^(١).. من أنها تعني المستقبل.

أ / أما قوله تعالى: ﴿ليسؤوا وجوهكم﴾..

فقد سبق الحديث عنها أيضاً غير أن ﴿وجوهكم﴾ فيها من العطاءات القرآنية التي
لا بد من التأكيد عليها في هذا المجال.. منها:

١ / إن في لفظ - ليسؤوا - جاء حرف اللام الذي قال عنه المفسرون إنه لام

كي^(٢).. أي لكسي يسؤوا والضمير عائد على المبعوثين في قوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم
عباداً لنا﴾ والتقدير.. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ - بعثنا عليكم عباداً لنا لكسي - يسؤوا
وجوهكم﴾^(٣).

(١) انظر المعطيات القرآنية للإفساد الأول في المطلب الأول من هذا الفصل.

(٢) انظر تفسير ابن عاشور ٣٦/١٥. وانظر تفسير الآلوسي ٢٠/١٥.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٥٣/٢٠.

٢ / فعل - يسوؤا - مستقبل لفظاً ومعنى والتقدير.. ﴿فإذا جاء وعد الآخرة
- سنبعث عليكم عباداً لنا وسوف - يسوؤن وجوهكم﴾ ومثل هذا يقال في - لنسو -
أي نحن و - ليسو الله - أو - الوعد - أو - البعث وجوهكم..

٣ / فما دام السياق القرآني يتكلم عن مستقبل دلّ عليه مجيء إذا - أولاً.. ولكي
يسوؤا - ثانياً - مقتضى الكلام أن يكون إخبار عن قوم سيأتون فيما بعد.. يخبر عنهم
وهم لم يأتوا بعد.. ولكنك تجد السياق القرآني يتحدث - عما سيكون مستقبلاً - مع
قوم حاضرين يخاطبهم (بكاف المخاطب) ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ وكان مقتضى السياق
أن يقول (ليسوؤا وجوههم) هذا يعني إن القرآن في طرحه لقضايا لا ينحصر في زمن
دون آخر وهو كما قلنا آنفاً يخاطب الحاضر بلغة المستقبل.. فإذا جاء - مستقبلاً - وعد
إيقاع العقوبة الثانية على الإفساد الثاني سنبعث - عليكم عباداً لنا لكي يسوؤا
وجوهكم.. لأنهم منكم.. ولأنهم سيتمون فسادكم..

٤ / إن سوء الوجوه جاء فيه قولان:

الأول - «جعل المساء عليها، أي تسليط أسباب المساء والكآبة عليكم حتى تبدوا
على وجوهكم لان ما يخالج الإنسان من غم وحزن أو فرح ومسرة يظهر أثره على الوجه
دون غيره من الجسد»^(١). ولأن الوجه بمعنى الذات وهو مجاز مرسل أو إستعارة تبعية^(٢).
الثاني: «قيل الوجوه بمعنى الرؤساء واختير هذا على «ليسوؤكم» مع أنه أخصر
وأظهر إشارة إلى أنه جمع عليهم ألم النفس والبدن»^(٣).

ب / ﴿وليدخلوا المسجد.. كما دخلوه أول مرة﴾..

لا خلاف بين المفسرين في إن «المسجد المقصود في قوله تعالى: ﴿وليدخلوا
المسجد﴾ هو (بيت المقدس)^(٤) الذي سمي فيما بعد (المسجد الأقصى).

(١) تفسير ابن عاشور ٣٧/١٥ وانظر تفسير الرازي ١٥٩/٢٠.

(٢) انظر تفسير القاسمي ص ٣٩٠٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١١/١٥ وانظر الآلوسي ٢٠/١٥.

ولكن لابد من الوقوف عند «وليدخلوا المسجد.. كما دخلوه أول مرة» فقد قال الإمام الألوسي: (إن الصحيح في نحو.. دخلت البيت أنك تريد دخلت إلى البيت فحذف حرف الجر فانتصب البيت انتصاب المفعول به)^(١).

(والدخول نقيض الخروج ويستعمل ذلك في المكان والزمان والأعمال، قال تعالى: «ادخلوا مصر إن شاء الله آمين» يوسف/ ٩٩ - وقال: «يدخل من يشاء في رحمته» الشورى/ ٨)^(٢).

وتحقيقه في محله «كما دخلوه» أي دخولا كائناً كدخولهم إياه «أول مرة» فهو في موضع النعت لمصدر محذوف، وجوز أن يكون حالاً أي كائنين كما دخلوه^(٣) أي أول مرة.. أي: بنفس الحال الذي كان عليه الداخلين أول مرة).

يقول ابن كثير: (كما دخلوه أول مرة أي في التي جاسوا فيها خلال الديار)^(٤).

ولاشك أن الدخول حالة تختلف عن الجوس خلال الديار بتحر واستقصاء وهو
- الدخول - يختلف عن - التتير والدمار - الناشئ عن الاجتياح.. إن لكل صورة
حركة ولكل حركة مؤداها ولو كانت كلها سواء لما استعمل القرآن في كل مرة كلمة
تلقى ظلال الصورة التي يريد أن يصورها أو يخبر عنها..

فلو كانت الديار المذكورة في الآية هي ديار بيت المقدس فلم لم يكتف بكلمة الجوس أو بكلمة الدخول؟ فهل الديار أكرم على الله وعلى العباد من المسجد؟ فلم يدخلوها كما دخلوا المسجد وإنما اكتفوا بالجوس خلالها فقط؟ وإذا كان المقصود بالدخول دخول يختصر وغيره ممن قتل الآلاف وسبي الذراري والنساء ودمر وحرقت المسجد فكيف يكون الاجتياح والتتير إذاً؟ ولماذا سُمّاه جوس؟ وإذا كان القرآن يقول إنهم في المرة الثانية سيدخلون المسجد كما دخلوه - أي مثلما دخلوه - أول مرة ثم

(١) روح المعاني للألوسي ٢٠/١٥.

(٢) مفردات الراغب ص ١٦٦.

(٣) روح المعاني للألوسي ٢٠/١٥.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣٦٥/٢.

قال ﴿وليتبروا﴾ فهل سيكون الدمار تابعاً للدخول؟ إن الآيات لم تكن لتوحي بهذا الاختلاط أبداً..

إن الجوس خلال الديار شيء.. ودخول المسجد شيء آخر.. يختلف عنهما التعبير والدمار.. ومن ثم سوف لا يتخذ الدخول صفة الجوس الذي يلقي ظل هذوء الحذر وسكينة التيقظ والتحري باستقصاء كما قال المفسرون^(١) بحثاً عن كمن أو لم يقتلوه.. فالجوس حدث هناك في ديار بني إسرائيل ولم يحدث معه - في نفس الوقت - دخول للمسجد إذ أن المسجد لم يكن من ضمن الديار وإلا لشملة الجوس أو لشملة الدخول الديار ولذلك لم يذكر أول مرة وإنما اكتفى القرآن بالإخبار عن الجوس خلال الديار فقط وقال بعدها ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ وإنما ذكر الدخول متأخراً في الوعد الثاني...

مما يوحي أن الدخول الأول حدث في غير وقت الجوس ثم حين أخبر عن الدخول الثاني قال عنه ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ وأول مرة لم يكن فيه قتال وإنما دخلوه فاتحين أعزة قادرين فكذاك سيكون الدخول الثاني فاتحين أعزة قادرين لا يمسه الدمار ولا الخراب ولا التبير إذ أن التبيز سوف لا يشملهم وإنما سيصيب ما علاه اليهود من أي شيء سواء كان ذلك الشيء مادياً أو معنوياً فكل أبنية اليهود من عمارات ومستوطنات وحصون داخلية في معنى ﴿ما علوا﴾ أو كان معنوياً من ظلم وطغيان وعقائد وأفكار ومذاهب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو ما كان شاملاً للاستعلاء العسكري إلى غير ذلك مما يحمله لفظ (العلو).

ثم أن المساءة التي ستصيب وجوه اليهود كما قال المفسرون إنما بسبب ما يُلاقونه من دمار كل شيء أعلاه وهم يحلمون باليوم الذي يرون فيه المسجد الأقصى وقد دُمّر حجراً.. حجراً.. بل وهم عازمون على ذلك لكي ينوا على أنقاضه هيكل سليمان المزعوم.. فلو كان دمار المسجد مشمولاً لما كان سبب إساءة وجوه اليهود بل لتهللت وجوههم فرحاً بدماره، إن إساءة وجوه اليهود ستكون بشيئين:

(١) راجع تفسير القرطبي ٢١٦/١٠.

أولاهما: بدخول - العباد - المسجد مرةً أخرى وفي هذا دلالة على استخلاصه من أيديهم وعودته إلى حضيرة الإسلام كما أُعيد أول مرة يوم «الفتح العمري للمسجد والمرة الثانية هي هذه التي نحن على أبوابها ف سيدخل المسلمون المسجد فاتحين للمرة الثانية»^(١). إن شاء الله تعالى..

ثانيهما: بتبير كل ما علوه في الأرض سواء كان مادياً أو معنوياً وضياع ما أنفقوا لأجله الأموال والبنين وكانوا - لأجله - أكثر نفيراً..

أما المسجد فباق ببقاء الله له وسيدخله العباد كما دخلوه أول مرة لأن ذلك مما يقتضيه ظاهر الآية كما كان

(ظاهر الآية يقتضي إتحاد المبعوثين أولاً وثانياً، ومن لا يقول بذلك يجعل رجوع الضمائر للعباد على حد رجوع الضمير للدرهم في قولك: عندي درهم.. ونصغهم فافهم)^(٢). كما قال الألوسي.

ج / «وليتبروا ما علوا تبيراً».

والتبير من التبار.. وهو الهلاك.. وتبره تبيراً كسرّه وأهلكه. قال تعالى: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ مِتُّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ الأعراف/١٣٩. - أي مكسّر مهلك، وتبره كسرّه وأذهبه.. وفي التنزيل العزيز ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ نوح/٢٨.

قال الزجاج معناه إلا هلاكاً... ولذلك سمي كل مكسّر تبراً.

وقوله تعالى: ﴿وكلاً تبرّنا تبيراً﴾ الفرقان/٣٩ - قال التبير.. التدمير^(٣)..

وقال الراغب: التبر الكبير.. الإهلاك، يقال تبرّه وتبرّهُ،

قال تعالى: ﴿وليتبروا ما علوا تبيراً﴾ الإسراء^(٤).

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية - أسعد التميمي ص ٤٤.

(٢) انظر روح المعاني للألوسي ٢١/١٥.

(٣) لسان العرب لابن منظور ٣٠٩/١.

(٤) انظر المفردات للراغب ص ٧٢.

وقال الزجاج: (يقال لكل شيء ينكسر من الزجاج والحديد والذهب.. تبر)^(١).

وقال الثعالبي في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا تَبَرَنَا تَبِيرًا﴾ الفرقان: ٣٩.

وتبرٌ معناه (أفسد بغشم وركوب الرأس)^(٢).

فتدمير ما علاه اليهود تدميراً يوحى بأن كل ما علاه اليهود سوف يكون بعد هذا التدمير ميؤساً منه فكلمة «تتيراً» تعني أن علوهم تكسر وتفتت فلا أمل لهم في عودته أو الانتفاع بشيء منه.

يقول الماوردي في ﴿وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أنه الهدم والدمار.

الثاني: أنه الهدم الإخراب.. قاله قطرب و﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ يعني مما حلّ

بكم من الانتقام منكم^(٣).

أي: أرجوا ربكم أن يرحمكم^(٤).. بعدما حلّ بكم وإلا ﴿فإن عدتم.. عدنا﴾.



(١) زاد المسير لابن الجوزي ١١/٥.

(٢) جواهر الحسان - للثعالبي ٣٣٢/٢.

(٣) تفسير الماوردي ٤٢٥/٢.

(٤) انظر مفردات الراغب.

الفصل الخامس

مستقبل بني إسرائيل من خلال سورة الإسراء

المبحث الأول

وإن عدتم عدنا بين الرحمة والعقوبة

المطلب الأول:

الرحمة في العودة

المطلب الثاني:

وإن عدتم عدنا قانوناً عقوبة لبني إسرائيل

المبحث الأول

وإن عدتم عدنا بين الرحمة والعقوبة

المطلب الأول

الرحمة في العودة

المعطيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾. لقد انطوى في قوله تعالى: ﴿وإن عدتم.. عدنا﴾ من الإعجاز القرآني ما لو كشف عنه الحجاب لكان نبراساً ومشعل هداية لأمة الإسلام عموماً - ولئومي الكثرة - خصوصاً الذين يتلمسون الطريق الصحيح والذي بدت بعض معالمه لبعض السائرين فيه. وقبل أن نتحدث عن هذا النص القرآني العظيم الذي جعل المخاطبين به - كائناً من كانوا - أمام اختيارين لا ثالث لهما^(١):

وهي دعوة الله إليهم في رجاء رحمته سبحانه والتوبة إليه من فسادهم والعودة إلى العبودية إليه دون سواه.. وذلك في قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾.

فإن (عسى) هنا كما قال الراغب الأصفهاني:.. تعني (طمع وترجي). بمعنى (اطمعوا وارجعوا رحمة الله) ولقد عتب الراغب على المفسرين فيما ذهبوا إليه في هذا المجال فقال: (وكثير من المفسرين فسّروا (لعل - وعسى) في القرآن باللازم^(٢) كما ذكر ذلك ابن الجوزي في تفسيره حيث قال: (وعسى من الله واجبة)^(٣).

(١) سيأتي بيانهما بعد قليل.

(٢) أي في حقه تعالى....

(٣) انظر زاد المسير ١١/٠.

وقالوا الطمع والرجاء لا يصح من الله تعالى.. وفي هذا منهم قصور نظر - كذا قال - وذاك إن الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً.. لا لأن يكون هو تعالى يرجو.. فقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الأعراف/١٢. أي كونوا راجين في ذلك، وقوله تعالى: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده﴾ المائدة/٥٢. أي كونوا راجين أن يأتي الله بالفتح أو أمرٍ من عنده.

وكذلك قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أي أرجو ربكم أن يرحمكم^(١). ولهذا نجد الإمام الرازي يفسرها - بلعل.. فيقول في تفسيره: (والمعنى: لعل ربكم أن يرحمكم.. ويعفوا عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل..)^(٢).

يقول صاحب الظلال: وذلك (بعد ما صدقت النبوة ووقع الوعد ويضيف.. ثم يعقب السياق على النبوة الصادقة والوعد المفعول، بأن هذا الدمار قد يكون طريقاً للرحمة: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ إن أفدتم منه عبرة)^(٣).

بينما يحصرها صاحب الأساس في تفسيره بقوله: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بالدخول في الإسلام..^(٤).

ويقول الآلوسي: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد البعث الثاني إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي ﴿وإن عدتم عدنا﴾ للإفساد بعد الذي تقدم منكم ﴿عدنا﴾ للعقوبة.. فعاقبناكم في الدنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرتين الأوليتين وهذا من المقضي لهم في الكتاب أيضاً، وكذا الحملة الآتية. والتعبير بـ(إن) للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يعودوا.. ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ قال ابن عباس وغيره أي سجنًا^(٥) يحصرون فيه.

وقال صاحب أضواء البيان: (إن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما: بعث عليهم عباداً له أولى بأس شديد

(١) انظر مفردات الراغب الأصفهاني ص/٣٣٥.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ١٥٩/٢٠.

(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٨/٥.

(٤) الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤٠/٦.

(٥) روح المعاني للآلوسي ٢١/١٥.

فاحتلوا بلادهم وعذبوهم.. وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة: بعث عليهم قوماً ليسؤوا وجوههم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيراً...

وبين أيضاً: أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه جل وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم: وذلك في قوله تعالى ﴿وإن عدم عدنا﴾^(١).

قلت: وما أجد فيما قاله الشنقيطي غير الحق الذي هو أحق أن يتبع..

ويضيف الإمام الرازي إلى ما سبق قوله: (فإن عدم مرة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى)^(٢).

ويؤكد ابن عاشور على أن هذه العقوبة محصورة في الدنيا فهو يقول: (والمعنى: بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمنكم في البلاد التي تلجأون إليها إن عدم للإفساد عدنا إلى عقابكم، أي عدنا لمثل ما تقدم من عقاب الدنيا.. وجملة ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ عطف على جملة ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ لإفادة أن ما ذكر قبله إنما هو عقاب دنيوي وأن وراءه عقاب الآخرة..

وفيه معنى - التذليل - لأن التعريف في ﴿الكافرين﴾ يعم المخاطبين وغيرهم.. ويومئ هذا إلى أن عقابهم في الدنيا ليس مقصوراً على ذنوب الكفر بل هو منوط بالإفساد في الأرض وتعدي حدود الشريعة)^(٣).
قلت: ... على أن للقضية بعداً آخر..

وذلك بقول ينفرد به الإمام الماوردي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإن عدم عدنا﴾ حيث يقول: (فيه تأويلان:

أحدهما: إن عدم إلى الإساءة عدنا إلى الانتقام..

الثاني: إن عدم إلى الطاعة عدنا إلى القبول.. قاله بعض الصالحين..)^(٤).

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٤٠٧/٣ وانظر تفسير ابن الجوزي ١٢/٥.

(٢) تفسير الإمام الرازي ١٦٠/٢٠.

(٣) تفسير ابن عاشور ٣٩/١٥.

(٤) تفسير الماوردي ٤٢٥/٢.

قلت: ... يؤيد ما ذهب إليه الماوردي في التأويل الأول قول صاحب الأساس في التفسير في هذا الموضع حيث قال: (ففي الآيات بشارة للمسلمين في قوله تعالى: ﴿وإن عدتم.. عدنا﴾ فهذا وعيد من الله لهم إنه سيسلط عليهم في كل مرة يفسدون في الأرض وتكون لهم الغلبة على المسجد الأقصى)^(١).

قلت: وفي كلام الماوردي السابق نظر لأمرين:

الأول: أنه مما يحتمله اللفظ والنص القرآني العام..

الثاني: أنه من قبيل التعليل لما قبله.. فإن التعبير بـ (العودة) في: ﴿وإن عدتم -

عدنا﴾ جاء بعد ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾

فالتقدير.. أرجو ربكم أن يرحمكم - بعد توبتكم عن المعاصي والكف عن الفساد.

وإن عدتم إلى الإيمان والإسلام - عدنا إليكم بالرحمة والمغفرة وهذا هو المفهوم من قول

الماوردي الثاني... (وكذلك إن عدتم إلى الإساءة والفساد عدنا إلى الإنتقام منكم...)

والحاصل.. إن الله تعالى يدعوهم إلى التوبة والرجوع وطلب الرحمة منه بالاستقامة

على الدين الحق بعد ما رأوا تحقق الوعدين الأول على الفساد الأول، والوعد الثاني على

الفساد الثاني والعلو فيه فعسى أن يزول منهم سوء الوجوه الذي غدا ميزة لهم بعد

دخول المؤمنين المسجد الأقصى مرة أخرى كما دخلوه أول مرة وبعد تبير علوهم تبيراً

كبيراً.. فكأن القرآن ينقل - كما قال صاحب الظلال: (صورة للدمار الشامل الكامل

الذي يطغى على كل شيء، والذي لا يبقى على شيء...)^(٢).

ثم ها هو الذل والانكسار الشديد ين يبدوان واضحين على وجوه من بقي منهم

حيث ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ الملك/٢٧. وقد نكسوا رؤوسهم حياءاً وذلة

وصغاراً.. فيقال لهم: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم.. وإن عدتم.. عدنا.. وجعلنا جهنم

للكافرين - منكم - حصيراً﴾ الإسراء/٨.

(١) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤١/٦.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٧/٥.

المطلب الثاني

وإن عدتم - عدنا - قانونا عقوبة لبني إسرائيل

لقد كان في قوله تعالى: ﴿وإن عدتم - عدنا﴾ من الإنذار والترهيب والتحذير - ما فيه - لأمة فقدت كل شيء.. فساءت وجوهها بما فقدت بعدما ملكت كل شيء فصعّرت خدها وتولت باركان الأرض تفسد فيها مرتين وعلت فيها - عن أمر الله - وعلى الناس - علواً كبيراً...

فإن قوله تعالى: ﴿وإن عدتم عدنا﴾ قد اشتمل على قانون الهي خاص ببني إسرائيل لعقوبتهم على فسادهم - المستمر في هذه الدنيا.. أما في الآخرة فقد أخبرنا الله عنه بقوله: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ الإسراء/٨.

وهذا القانون الإلهي الذي تحدث عن (مضامينه) القرآن في أكثر من موضع هو أشبه ما يكون بسلاح ذي حدين، كل حد له موضع وزمان وهذا القانون إنما وضع بناءً على سنة خاصة - أيضاً - ببني إسرائيل يؤخذون بها على فسادهم في الأرض تختلف - كما قلنا سابقاً - عن سنة باقي الأمم في المؤاخذة.. وهذه السنة هي (سنة التقطيع في الأرض) كما قال تعالى: ﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً﴾.

وهي بحد ذاتها (لعنة) من الله لهم عوقبوا بها ويعاقبون على مدار الزمان على ما كان منهم... وهذه اللعنة تلازمهم كظلمهم إلى يوم القيامة لا محيص لهم عنها ولا فرار لهم منها مهما حاولوا الخلاص منها أو الإنفكاك عنها.. حتى ضرب القرآن بهم المثل فقال عن الكافرين: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.. وكان أمر الله مفعولاً﴾ النساء/٤٧ - وأصحاب السبت هم اليهود كما هو معلوم...

وقبل أن نتحدث عن هذا القانون الخاص ببني إسرائيل نودّ أن نبين قضيتين:

القضية الأولى: إن الله سبحانه وتعالى قدّر على بني إسرائيل لعنةً أبدية كتبها

عليهم لا تفارقهم ولا ترفع عنهم إلى يوم القيامة كما أخبر القرآن في كثير من آياته كقوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ المائدة/١٣.

وقوله: ﴿قل هل أوتيتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه﴾
المائدة/٦٠ - حتى وصل الأمر إلى أنهم لعنوا على لسان بعض أنبياءهم كقوله تعالى:
﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾ المائدة/٨٧.

والقضية الثانية: تتعلق بأسباب هذه اللعنة وهي أخلاق اليهود التي اقتضت هذه
اللعنة الأبدية.. ولما كانت أخلاق اليهود غير قابلة للتغيير والتبديل فإن هذه اللعنة كذلك
غير قابلة للزوال تبعاً لذلك تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما
بأنفسهم﴾ الرعد/١١.

هذه الأخلاق التي تنبع من داخل نفوسهم التي جبلت على الذل والمسكنة والغرور
والجبن والتكبر وسوء الأدب، والعجيب أنك تجد هذه الأخلاق موجودة فيهم على
اختلاف أزمانهم وأماكن وجودهم فاليهودي اليوم في القرن العشرين يحمل نفس أخلاق
اليهودي الذي عاصر النبي ﷺ وهذا أيضاً يحمل نفس الأخلاق التي كان يحملها الذين
آذوا موسى ولا تجد اختلافاً في أخلاق يهود المشرق عن أخلاق يهود المغرب تلك
حقيقة لا تحتاج إلى برهان..

أقول هذه الأخلاق التي تنبع من داخل نفوسهم هي التي كانت أسباب دوام اللعنة
عليهم.. هذه اللعنة التي كانت هي الأساس لهذا القانون الإلهي الذي أخذوا به وفق
السنة التي عوملوا بها..

وهذه السنة هي - كما قلنا - سيف ذو حدين لها مجالان في التطبيق.. إذا فسدوا
في أنفسهم وأفسدوا بين الناس.

المجال الأول: القانون الخاص - حين يفسدون في الأرض مرتين يطغون فيها على
الناس ويستكبرون عن قبول الحق والهدى وهاتان المرتتان اللتان أخبر بها القرآن في السورة
التي سميت باسمهم (سورة بني إسرائيل) قال عقب كل منها ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾
ولكن في الأول (فجاسوا خلال الديار ودخلوا المسجد) وفي الثانية على تقدير (بعثناهم
عليكم ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد)^(١) فكأن القرآن حدد هوية المبعوثين عليهم

(١) انظر تفسير ابن عاشور ٣٦/١٥.

عقب هاتين الإفسادتين بأنهم «عباداً لنا» على جهة الاختصاص لله تعالى لهم صفات خاصة يتميزون بها عن غيرهم..

صنف من الناس استحقوا فضل نسبتهم إلى الله سبحانه وشرف العبودية له وحده دون سواه كما تمثلت في الأنبياء والصالحين من أتباعهم والذين خصص القرآن انتسابهم بـ (يا عبادي - عبادنا - عباداً لنا)... فهؤلاء جعلهم للبعث على بني إسرائيل بعد مرقي إفسادهم المقضي بهمما عليهم في الأرض.. وقد رأينا كيف نال هذا الشرف سيدنا رسول الله ﷺ والذين معه من أصحابه حينما تحققت فيهم صفة (عباداً لنا - أولي بأس شديد - فجاسوا خلال الديار - ودخلوا المسجد أول مرة - وكان وعداً مفعولاً) بالنصر لهم وتحقق الوعد الأول بالعقوبة على فساد بني إسرائيل الأول والله يعلم من سينال شرف البعث على بني إسرائيل في الوعد الثاني الذي نحن بانتظاره وهو كائن لا محالة إن شاء الله.

المجال الثاني: القانون العام - حين يفسدون في الأرض ويطغون على الناس في زمن أو ظرف أو مكان لا يوجد فيه أمثال هؤلاء العباد أو لم يكن قد اكتمل بناؤهم بعد عند ذلك يبعث الله عليهم صنفاً ثانياً من الناس عبر عنهم القرآن بـ (من) في قوله تعالى: ﴿وَإِذ تَأْذَنُ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف/١٦٧ هذا الصنف من المبعوثين عام لم يستحق فضل النسبة إلى الله ولم يستحق شرف العبودية له وحده وإنما هم عبيدٌ لغيره فكان الإطلاق في ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ... من يسومهم سوء العذاب﴾ ولعل منهم جالوت وبختنصر وسنحاريب والرومان وهتلر وغيرهم.. ممن لم تكن تنطبق عليهم صفات العباد المخلصين إلى الله سبحانه.. فكأن القانون مهياً والظالمون حاضرون يبعثهم الله عليهم - عند فسادهم كل حين^(١).

وما مضى من عطاءات في الفصل الثالث كان بياناً - شافياً - للمجال الأول من قانون العقوبة المقضى به على بني إسرائيل حول الإفسادتين اللتين كثر الحديث عنهما في كتب التفسير والتاريخ دون أن يكون فيه ما يشفي العليل.

(١) يقول صاحب الظلال (فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية ﴿وإن عدم عدنا﴾ انظر الظلال ٣٠٨/٥.

ولتأصيل ما قلناه حول المجال الثاني من قانون العقوبة المقضي به على فساد بني إسرائيل أجدني مضطر لتناوله بشيء من التفصيل لبيان ما فيه من إعجاز قرآني وإيجاء متفجر نتم ما بدأناه..

يقول الإمام الرازي: في ﴿وإن عدتم عدنا﴾ يعني إن بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتترجروا به عن ارتكاب المعاصي، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى.

قال القفال: وإنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الأعراف خبراً عن بني إسرائيل: ﴿وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾^(١) الأعراف/١٦٧.

فكلمة (تأذن) من أذن - أي استمع - كقوله ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ الانشقاق/٢. ويستعمل ذلك في العلم الذي يتوصل إليه بالسمع نحو قوله: ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ البقرة/٢٧٩. والإذن والأذان لما يسمع ويعبر بذلك عن العلم إذ هو مبدأ كثير من أهل العلم فينا، قال تعالى: ﴿إذن لي ولا تفتني﴾ التوبة/٤٩. و﴿وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم﴾ الأعراف/١٦٧. وآذنته بكذا وآذنته بمعنى - أعلمته - والمؤذن كل من يعلم بشيء نداءً. قال تعالى: ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ يوسف/٧٠. ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ الحج/٢٧ - وقوله تعالى: ﴿وليس بضارهم شيئاً إلا يأذن الله﴾ المجادلة/١٠ - قيل معناه بعلمه.

لكن بين العلم والأذن فرق، فإن الأذن أخص ولا يكاد يستعمل إلا فيما فيه مشيئة به راضياً منه الفعل أم لم يرض به، فإن قوله: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ يونس/١٠٠ - فمعلوم إن فيه مشيئة أمره^(٢)..

(١) انظر تفسير الإمام الرازي ١٦٠/٢٠.

(٢) انظر مفردات الراغب ص/١٤.

وفي هذا يقول الدكتور أحمد الكيسي: (إن هذه الكلمة «تأذن» لم ترد في القرآن إلا مرتين... والمرتان جاءتا في مجال الحديث عن اليهود..
الأولى: هذه في سورة الأعراف.

والثانية: في سورة إبراهيم على لسان سيدنا موسى - عليه السلام - مخاطباً اليهود بقوله: «وَإِذْ تَأْذِنُ رَبُّكُمْ لَثْنٍ شَرَكْتُمْ لِأَزِيدَكُمْ وَلَثْنٍ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ...» إبراهيم/٧.

بينما نجد أن القرآن الكريم استعمل مع غير اليهود كلمات أخرى مثل: [قضى - وحكم - وأراد - ...]

كقوله تعالى: «وَقَضِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ» الحجر/٦٦.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ» الرعد/٢١.

وقوله تعالى: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ» الرعد/١١.

واستعمل مع اليهود «قضينا» أيضاً في غير مجال اللعنة فقال: «وَقَضِينَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ» الإسراء/٤.

ولكن لماذا وردت كلمة «تأذن» خاصة في حق اليهود خاصة وفي مجال اللعنة الأبدية عليهم خاصة..؟

إن الحكم والقضاء، والأمر من الله تعالى قد يقع على أساليب مختلفة فهو قد يقع علناً، وقد يقع سراً بين الله وبين أحد رسله..

مثل قوله: «وَقَضِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مَصْبُوحِينَ» الحجر/٦٦.

وهو قد يقع فعلاً وقد يشاء الله تبديله أو عدم تنفيذه: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» الرعد/٣٩.

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَدْرَ إِلَّا الدَّعَاءُ»^(١).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد انظر المستدرک للحاكم ٤٩٣/١

كتاب الدعاء وأخرجه الترمذي في سننه باب الدعاء أيضاً انظر ٤٤٨/٤ برقم ٢١٣٩.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان أي - يتصارعان ويتدافعان - إلى يوم القيامة»^(١).

وقال علي كرم الله وجهه: (ادفعوا أمواج البلايا بالدعاء)... ولكي لا تكون لعنة الله على بني إسرائيل مما يدفع بأي دافع فقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذ تَأْذَن رَّبُّكَ﴾ وهذا إعجاز قرآني يتحدى اليهود، ويعني... إن الحكم الذي حكم الله به على اليهود باللعة الأبدية إنما هو حكم يتسم بما يلي:
أ / بالإعلان على الناس يجب أن يعلمه الجميع، وأن يعيه كل المسلمين، وهذا يستنبط من اشتقاق كلمة ﴿تَأْذَن﴾ من الإعلام والإعلان كما بينا...

ب / أنه حكمٌ مُحْكَمٌ التنفيذ فلا يُدفع ولا يندفع على مرّ العصور وإلى يوم القيامة... وهذا ما حدث وما يزال يحدث، ويبقى حادثاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... وهذا مستنبط من التأكيد باللام الداخلة على جواب القسم ﴿لِيَعِثَنَّ﴾، لأن عبارة ﴿وَإِذ تَأْذَن﴾ جارية مجرى القسم في كونه جازماً ومؤكداً عليه واجب العلم به، وواجب التنفيذ كما يقول الإمام الرازي^(٢)... وهذا أول وجه من وجوه الإعجاز في هذا المقطع من الآية وفيه التحدي الواضح...

المقطع الثاني: قوله تعالى: ﴿لِيَعِثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إعجاز قرآني آخر أثبتته الحوادث والأحداث، ويعني أن هذه اللعة التي كتبها الله على اليهود، مصدرها من خارج اليهود أنفسهم، وذلك بتسليط الغير عليهم.

وهذه خصيصة من خصائص اللعة على اليهود على خلاف سنة الله في بقية خلقه حيث جرت سنة الله في غير اليهود على نحو قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعاً وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بِأَسْ بَعْضاً﴾^(*) الأنعام/٦٥.

(١) رواه البزار والطبراني والحاكم زقال - صحيح الإسناد، انظر المستدرک للحاكم ٤٩٢/١ كتاب الدعاء.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ٤١/١٥.

* انظر ما جاء في تفسير هذه الآية في عمدة القارئ في كتاب التفسير ٨٤/٤٩/٢٥.

وفي قوله ﷺ: «وعدني ربي ألا يسّط على أمتي عدواً من سوى أنفسهم يجتاح بيضتهم»^(١).

وفي حديث آخر: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»^(٢).

﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ النمل/٩٣.

فلم يحدث أن إقتل اليهود فيما بينهم كما حدث للمسلمين، والنصارى وغيرهم، وإنما كان البطش والفناء يأتي اليهود من غيرهم، وهذا أشدّ إذلالاً وإرغاماً وهذا ما حدث فعلاً على امتداد التاريخ القديم والحديث المعاصر..

المقطع الثالث: ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾...

فلم تستعمل كلمة ﴿يسومهم﴾ إلا مع اليهود كما في هذه الآية من سورة الأعراف ووردت بصيغة ﴿يسومونكم﴾ في ثلاثة مواضع أخرى كلها في بني إسرائيل فقط. هي:

١/ في سورة البقرة قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب يذبّون أبناءكم﴾ ٤٩/.

٢/ في سورة الأعراف قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم﴾ ١٤١/.

٣/ في سورة إبراهيم - قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبّون أبناءكم﴾ ٦/.

واشتقاق الكلمة من (السوم) وهو الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ لمعنى مركّب من الذهاب والابتغاء، جيء به في...

قوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ على وجهه الأكمل...

ومنه قيل (سيم فلان الخسف ويسام)^(٣) أي يضام ويهان...

(ومعنى ذلك إن الله سبحانه يسّط بعض عباده، من يطلب اليهود خاصة بسوء

العذاب خاصة أيضاً....)^(٤).

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفتن برقم/٢٨٨٩ - انظر ٤/٢٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن صحيح مسلم ٤/٢٢١٦ رقم الحديث /٢٨٩٠ - ط/فؤاد عبد الباقي.

(٣) انظر مفردات الراغب ص/٢٥٠.

(٤) الإعجاز القرآني - أحمد الكيسي ص/٣٥.

والعجيب أن في هذه المواضع الأربعة التي استعمل القرآن فيها صيغة «يسومونكم» استعمل معها صيغة «سوء العذاب» إذ أن هناك فارق كبير بين (العذاب) المجرد وبين (سوء العذاب).

وفي هذا يقول الدكتور أحمد في معرض حديثه عن الإعجاز القرآني لهذا اللفظ: فلقد عاقب الله سبحانه وتعالى بعض عباده بأنواع من العذاب والموصوف بشتى الأوصاف (عذابٌ - اليم - مهين - غليظ - عظيم - محيط - مقيم).

ولم يوصف العذاب بالسوء إلا بعذاب بني إسرائيل... وهذا يعني إن من العذاب ما يكون مطلقاً، ومنه ما يكون موصوفاً بوصف الألم، أو الشدة، أو الغلظة، أو الإهانة، أو الخزي، ونحو ذلك. وعندما تجتمع كل هذه الأوصاف في عذابه فانه يكون حيثئذ (سوء العذاب). ويضيف فضيلته سائلاً: فما هو وجه سوء العذاب الذي تأذن به الله لعنة على بني إسرائيل.

ويجيب: إن ذلك يشمل الحديث عن (شعب) هذه اللعنة التي تحتمت على بني إسرائيل...

فيقول: (عندما يفصل لنا القرآن معنى - سوء العذاب - فيشير إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل العذاب السيئ ينقسم إلى أقسام ثلاثة.. أ / عذاباً نفسياً.. بالذل والمسكنة.

ب/ عذاباً اجتماعياً.. بالشتات والتشرد.

ج / عذاباً جسدياً.. بالقتل والإبادة بين الحين والحين).

أولاً - العذاب النفسي - الذل والمسكنة:

فقد قال تعالى: «إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة

الدنيا» الأعراف/١٥٢.

ويقول تعالى: «لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا

ينصرون» آل عمران/١١١.

ويقول: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. آل عمران/ ١١٢.

فالذلة، والمهانة، والشعور بالحقارة هو سمت اليهودي في تلك الحالات النادرة والقصيرة في بعض أجزاء التاريخ التي تكون لليهود نوع غلبة على سواهم.. فهم في أوج انتصاراتهم يستندرون عطف العالم وتأييد القوى المؤيدة لهم بالإعلان على ضعفهم ومذلتهم واضطهادهم... وما ذلك إلا لشدة الشعور بالذلة التي عبر الله عنها بقوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾.

قال الرازي: (المعنى جعلت الذلة محيطة بهم ومشتملة عليهم، فهم فيها كمن يكون في القبة المضروبة أو ألصقت بهم كما يضرب الطين على الحائط)^(١).. والذلة في النفس من الغير.. والمسكنة في الحال من أنفسهم فاليهودي - رغم غناه - يظهر المسكنة والفقر والريثة في المسكن والملبس والمطعم، هو أثر من آثار الشعور بالمسكنة المضروبة عليهم. وقال الرازي أيضاً: (وقد عدّ العلماء هذا من باب المعجزات لأنه ﷺ أخبر عن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ووقع الأمر كذلك ولا يزال واقعاً فكان هذا أخباراً عن الغيب فيكون معجزاً)^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أينما ثقفوا﴾ أي أينما وجدوا سواء في بلاد الإسلام أو في غيرها كما هو واقع فعلاً.

وقوله تعالى: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ آل عمران/ ١١٢.

أخبر القرآن الكريم إن الذل والمسكنة لا يزولان عن اليهود إلا في حالتين:

الحالة الأولى: الدخول في الإسلام وهذا هو الحبل من الله...

الحالة الثانية: الدخول في العهد مع المسلمين... وهذا هو الحبل من الناس....

(١) انظر تفسير الرازي ١٩٥/٨.

(٢) انظر تفسير الرازي ١٩٥/٨.

قلت: ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ حتى سرى ذلك فيهم فكان صفة لازمة لهم لا تنفك فكانوا ﴿المغضوب عليهم﴾ ولذلك فقد ﴿ضربت عليهم المسكنة﴾ وكل هذه المساوئ والمخازي وما يترتب عليها من لعنة وذلة ومسكنة كان ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق... ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ آل عمران/١١٢.

يقول...أحمد الكبيسي: (وهذا إعجاز قرآني آخر، يفسره قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ المائدة/٦٤. ويقول: ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ المائدة/٣٢. (أي مسرفون في الفساد)^(١).

ثانياً - العذاب الاجتماعي - وهو الشتات:

من ضمن ما يحمله النص ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ عذاب التمزق والضياع والتفرق في قوله تعالى: ﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً﴾ الأعراف/١٦٨. وهو إخبار عن الغيب في الزمن كله كما يقول الإمام الرازي: (أي قلما توجد أرض مسكونة إلا وفيها يهود يعيشون كتلة واحدة معزولين عن بقية أهل تلك الأرض)^(٢).

يقول الدكتور أحمد: فقد ضرب الله سبحانه وتعالى بين اليهود وبين الأمم التي يساكنوها قطيعة نفسية فرضت عليهم صداماً دائماً مع الغير... صداماً أخلاقياً واقتصادياً واجتماعياً.. ويضيف... (وفي قوله تعالى ﴿أمماً﴾ إعجاز قرآني أثبتته الواقع من حيث أنهم يعيشون في كل بقاع الأرض كتلة مجتمعة في السكن والعمل والقيادة.. والأمة هي الجماعة كما قال تعالى في اليهود: ﴿وإذا قالت أمة منهم﴾ الأعراف/١٦٤ - أي جماعة.. وهم بذلك قادرون من وراء ستار على توجيه السياسة العالمية والتصدي لمن ناوهم أو اعترضهم في هدف أو منفعة، فإذا ما تمّ لهم ذلك أمعنوا في الأرض التي هم

(١) الإعجاز القرآني - أحمد الكبيسي ص/٣٩.

(٢) انظر تفسير الإمام الرازي ٤٢/١٥.

فيها اعتداءً على الشعب الذي هم في ضيافته وتغليب مصلحتهم على مصالحه حتى يسلمهم هذا الوضع - من التعالي والتجبر والعدوان - إلى النوع الثالث من شعب (سوء العذاب).

ثالثاً - العذاب الجسدي - القتل والإبادة:

فقد سلّط الله على اليهود وبعث عليهم من يسوموهم سوء العذاب الجسدي بعد العذاب النفسي والعذاب الاجتماعي ... وذلك بالقتل والإبادة ... فهم لا يجتمعون في بلد إلا كي يبادوا تحقيقاً للعنة الأبدية بسوء العذاب، كما فعل بهم الآشوريون، والفرس والأسبان والفرنسيون والإيطاليون والإنكليز على امتداد التاريخ والألمان أخيراً ... وهي تلوح في الأفق في أمريكا حسب تقديرات كيسنجر كما رواها عنه صاحب كتاب (من يستطيع الكلام في أمريكا).

وحيث تبقى اللعنة عليهم على يد المسلمين (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود... الحديث)^(١) وليس هذا التجمع الاستثنائي لليهود العالم في إسرائيل إلا هذا.. إن شاء الله تعالى...

ويختم حديثه بقوله: ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي إلى تسليط عباداً لنا آخرين أولى بأس شديد أيضاً^(٢).

بقي لدينا شيء نعود به على بدء هذه الآية الكريمة ألا هو (إن) التي لها في اللغة عدة حالات منها...

١ / إن الشرطية.

٢ / إن الثقيلة.

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله: هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرق قد فإنه من شجر اليهود» انظر صحيح مسلم ٤/٢٢٣٩ / برقم ٢٩٢٢ وانظر عمدة القارئ فقد أخرجه البخاري في باب قتال اليهودي في ١٤/١٩٩ / برقم ١٣٦.

(٢) الإعجاز القرآني أحمد الكبيسي ص/٤٢-٤٣.

٣ / إن المخففة من الثقيلة.

٤ / إن النافية.

٥ / إن المؤكدة للنافية.

والذي يهمنا هنا أنها جاءت هنا - للشرط - أي إن رجوتم الرحمة فإن الرحمة منا مرهونة ومشروطة بعودتكم إلينا طائعين.. وفي هذا تأكيد على ما قرّره عليهم حين أعاد لهم الكرة وأمدّهم بالمال والبنين وجعلهم أكثر نفيراً فقال لهم: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن قاعدة الخير هي: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير... تجدوه عند الله﴾ البقرة/١١٠.

ومثل هذا المعنى يقال في الشر والسوء ﴿وإن أسأتم﴾ أيضاً لأنفسكم فقال: ﴿فلها﴾. وعلى هذا فحين يقرر القرآن هذه الحقيقة إنما يريد أن يقول: إن قاعدة التغيير في قوله: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ الرعد/١١. فتغيير النتيجة مشروط بتغيير أسبابها فكذلك قوله تعالى: ﴿وإن عدتم عدنا﴾ هي قاعدة من قواعد التغيير - ربما - كانت تناسب بني إسرائيل أكثر من غيرهم ولكنها على كل حال مشروطة بعودتهم، فان عادوا إلى الإفساد عاد الله عليهم بإنزال العقوبة عليهم وإن عادوا إلى الله بالتوبة عاد الله عليهم بالإحسان وهكذا.. وهذا مما يؤكد القانون الذي تحدثنا عنه والخاص ببني إسرائيل في حال الإحسان والإساءة والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

الجمع اللفيف وعلاقته بالوعد الآخر

المطلب الأول:

علاقة الجمع اللفيف بالوعد الآخر

المطلب الثاني:

المنهج الأقوم في التصدي لاستعلاء الفساد

المبحث الثاني

الجمع اللفيف وعلاقته بالوعد الآخر

المطلب الأول

علاقة الجمع اللفيف بالوعد الآخر

المعطيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾
المسألة الأخيرة التي اضطربت فيها أقوال المفسرين مسألة وعد الآخرة وجمع اللفيف
الذي في نهاية السورة.. في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾.
فقد ذكروا في ﴿وعد الآخرة﴾ هنا عدة أقوال نوردتها على سبيل الاختصار...
★ / الجمهور على أنها يوم القيامة وبهذا قال الطبري والسمرقندي والماوردي
وابن الجوزي والقرطبي والآلوسي^(١).

★ / غير أن الماوردي أورد في معنى (وعد الآخرة) هذه ثلاثة أقاويل:
إحداها: وعد الإقامة... وهي الكرة الآخرة - قاله مقاتل.
الثاني: وعد الكرة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام..
الثالث: نزول عيسى - عليه السلام - من السماء قاله قتادة^(٢).
والذي نميل إليه هو القول الثاني من أقوال الماوردي من إن المقصود بـ ﴿وعد
الآخرة﴾ هنا هو وعد الكرة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام...
وذلك لعدة أسباب:

(١) انظر الطبري ١٧٦/١٥ والسمرقندي لوحة/٣٠٥ والماوردي ٤٦١/٢ وابن الجوزي ٩/٥ والقرطبي ٣٣٨/١٠ والآلوسي ١٨٧/١٥.

(٢) انظر تفسير الإمام الماوردي ٤٦١/٢.

* / منها ما كان يشملها التعبير القرآني نفسه.

* / ومنها ما كان رصيده الواقع التاريخي.

* / ومنها ما كان على شكل قرائن تؤكد على أن المعنى المراد هو ما اخترناه..

السبب الأول: إن كلمة الوعد في سورة الإسراء جاءت بمعنى: (وعد العقوبة على إفسادي بني إسرائيل) ... كما قدّمنا سابقاً^(١).

لكن بقي أن نؤكد هنا على مسألة نتّم بها ما انتهينا إليه هناك وهي الصيغة التي جسيء بها هنا في «وعد الآخرة» إذ أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن كله إلا في سورة الإسراء وجاءت مرتين:

الأولى: في بداية السورة حين قال تعالى: «فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم».

والثانية: هنا هي قوله: «فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفاً».

والخطاب موجه إلى بني إسرائيل في الموضعين بلا خلاف.

وما أدري إن كان المقصود به يوم القيامة لَمْ لَمْ يستعمل القرآن لفظاً صريحاً كالساعة مثلاً أو يوم القيامة أو اليوم الآخر... الخ لماذا لم يقل القرآن مثلاً (فإذا جاءت الصاخة جئنا بكم ليفاً) لماذا استعمل القرآن هنا بالذات لفظ «وعد الآخرة»..

ثم أليس ردّ المعنى في اللفظ العام أو المشترك إلى أقرب مذكور من قواعد التفسير ولن تجد لفظاً أقرب من هذا ولا أشبه به من قوله تعالى: «فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم».

السبب الثاني: إن الخطاب هنا موجه إلى بني إسرائيل على جهة الخصوص والنداء إليهم بتسميتهم: «وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفاً» ... فلا يدخل غيرهم في هذا النداء الذي خصص لهم.. وما أجد في النص إشارة أو ما يلمح إلى أن الخطاب يشمل غيرهم حين قال المفسرون في معنى «ليفاً» أي (جميعاً مختلطين أنتم وعدوكم)^(٢).

(١) انظر ما قلناه عن الوعد في المبحث الأول من الفصل الرابع ص/١٧٧ وما بعدها.

(٢) انظر تفسير القاسمي ص/٤٠٠٧.

واستعمال هذا اللفظ الفريد في هذا الموضع فيه من الإعجاز القرآني العجيب والذي - ربما - لا يؤدي مؤداه أي لفظ آخر.. فمن خلال ما قاله المفسرون وعلماء اللغة فيما يحمله من معان يتبين لنا بعض وجوه ذلك الإعجاز... فأنظر.

* / من المفسرين من قال إن معنى «لَفِيفاً» أي جميعاً. وبذا قال الطبري عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسمرقندي ومجاهد وابن الجوزي وابن كثير والآلوسي^(١). ومن المحدثين الشيخ سعيد حوى في أساسه^(٢).

* / ومنهم من قال إن «لَفِيفاً» فيها تأويلان:

أحدهما: مختلطين لا تتعارفون - قاله رزين.

الثاني: جئنا بكم من جهات شتى، قاله ابن عباس وقتادة مأخوذ من لفيف الناس^(٣).

* / وقال عن معناه صاحب صفوة البيان: (اللفيف اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه (الجماعة من قبائل شتى)^(٤).

* / ويقول ابن عاشور (واللفيف الجماعات المختلطون من أصناف شتى)^(٥).

* / أما صاحب لسان العرب فيفسر هذا اللفظ أيما تفسير فيقول:

(جمع لفيف: مجتمع ملتف من كل مكان. واللفوف - الجماعات. واللفيف -

القوم يجتمعون من قبائل شتى ليس أصلهم واحد.. وجاءوا ألفافاً أي لفيفاً..

واللفيف - ما اجتمع من الناس من قبائل شتى...

قال أبو عمرو: اللفيف.. الجمع من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنيء والمطيع

والعاصي والقوي والضعيف.. قال الله عز وجل: «جئنا بكم لفيفاً» أي أتينا بكم من كل قبيلة.

(١) انظر الطبري ١٧٧/١٥ والسمرقندي ٣٠٥ وتفسير مجاهد ٣٧١/١ وانظر زاد المسير ٩٥/٥.. وابن كثير ٦٧/٣ وانظر الآلوسي ١٨٦/١٥.

(٢) حيث قال: (أي جميعاً إلى فلسطين) انظر الأساس في التفسير ٣٠٤٤/٦.

(٣) انظر تفسير الماوردي ٤٦١٢.

(٤) انظر صفوة البيان - حسنين مخلوف ص/٣٧٤.

(٥) تفسير ابن عاشور ٢٢٩/١٥.

وفي الصحاح: (أي مجتمعين مختلطين.. يقال للقوم إذا اختلطوا - لفٌ - ولفيف وقال أبو حيان الأندلسي (لَفِيفاً) أي منضمّاً بعضكم إلى بعض)^(١).

* / واللف.. الحزب والطائفة.. من الالتفاف، وجمعه أَلْفاف والتف الشيء تجمع وتكاثف..

* / قال الجوهري: (لَفَت الشيء لَفّاً وَلَفَّفْتَهُ.. شدد للمبالغة وفلان لفيف فلان أي صديقه)^(٢).

* / ويورد الإمام ابن الجوزي قولين غير السابق أحدهما للفراء والآخر للزجاج فيقول: (وقال الفراء: لَفِيفاً - أي من هاهنا ومن هاهنا.. وقال الزجاج: اللفيف - الجماعات من قبائل شتى)^(٣).

أقول وأسأل: هل رأي التاريخ يوماً جماعات من قبائل شتى ليس أصلهم واحد... جاؤوا من جهات شتى، وهم مختلطون من أصناف شتى، فشكّلوا جمعاً عظيماً من أخلاط شتى، فيهم الشريف والدينى والمطيع والعاصي والقوي والضعيف، من هاهنا وهاهنا، فشكّلوا أحزاباً وجماعات، منظماً بعضهم إلى بعض، فكان منهم مجتمع مختلط هم وأعدائهم، إلى أرض لم تنم عنها عيون الأفاعي لأنها مباركة ومقدسة وفي زمان واحد كزماننا؟ حملوا ذهب الأرض من كل الدنيا و جاؤوا وقد تركوا الحضارة والتقنية الحديثة إلى أرض يحجب ماؤها عن الزيتون لتسقى به أشجار الغرقد على كل التلال وخلف الأسوار والحصون.. فكانوا أكثر نفيراً منا وأكثر منهم فيما مضى.. فزعاً ونفيراً؟ اللهم لك الحمد فقد أريتنا ذلك ولعلها من بعض آياتك.

السبب الثالث: الذي جعلنا نرجح هذا القول هو ما يتطلبه أو ما تحتّمه علينا الوحدة الموضوعية للسورة، ومن ضرورة التناسق بين بداية السورة وخاتمها ومحور موضوعها الرئيسي.

(١) النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ص/٤٨٤.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ص/٣٨١.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٩٥/٥.

إن الدارس لـ«جو» الآية في محيط إيجاءها حول مضمون تعابيرها يجد أن المقصود من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ بعيد كل البعد عما قال به أغلب المفسرين من أن المقصود به هنا بـ«وعد الآخرة» يعني يوم القيامة.. وإنما هو المعنى المقصود به في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ المذكور في بداية السورة، ولأن السورة جاءت لتنبئ عن الوعد الذي وعد الله بني إسرائيل على فسادهم في الأرض مرتين.. كما رأينا آنفاً فحين قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ.. وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا.. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ الإسراء/ ١٠٣-١٠٤.

قال أهل التفسير بالمأثور في تفسير هاتين الآيتين ما ملخصه.

١ / إن معنى الاستفزاز من فرعون لموسى وقومه هو الإخراج من أرض مصر إما بالقتل أو بالإبعاد.

٢ / اختلفوا في المقصود من (الأرض) في قوله: ﴿يَسْتَفْزِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ فقال بعضهم هي أرض مصر.. وقال البعض الآخر هي الأردن وفلسطين ومصر.

٣ / وكذلك اختلفوا في (الأرض) التي في قوله: ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ فقال بعضهم هي أرض الشام وقال آخرون هي فلسطين وقيل أرض وراء الصين أو هي أرض مصر والشام..

٤ / وقالوا عن معنى (وعد الآخرة) هي: يوم القيامة.

٥ / وقالوا عن معنى (لفيفاً) أي: جميعاً أنتم وأعدائكم.

وقد فصلنا القول في ذلك آنفاً...

ومن جهة نظر أصحاب القول الثاني ممن يقولون بأن وعدي العقوبة على بني إسرائيل هما ليسا قبل الإسلام وإنما بعده لهم نظرة أخرى في تفسير هذه الآية أكثر موضوعية وشمولية ومطابقة للواقع.

ولتوضيح هذه القضية التي أجد أن لها أهمية كبيرة في تأصيل كل ما سبق التوصيل إليه أورد ما قاله المفسرون حول هذا الموضوع باختصار في قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

يقول القرطبي: (أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر إما: ١ / بالقتل.

٢ / بالأبعاد.. فأهلكه الله عز وجل) ^(١).

وقال ابن كثير. (أي يخليهم منها أو يزيلهم عنها) ^(٢).

ويورد الإمام ابن الجوزي قولين في قوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ﴾ فيقول: (وفي

معنى - يستفزهم - قولان..

أحدهما: يستأصلهم.. قاله ابن عباس.

الثاني: يستخفهم حتى يخرجوا.. قاله ابن قتيبة.. ويضيف..

* وقال الزجاج: جائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية.. ^(١).

* ويفسر الإمام الآلوسي ﴿يستفزهم﴾ بأن (أصل الاستفزاز الإزعاج) وكفى به

عن إخراجهم من الأرض (أي مصر التي هم فيها) (أو من جميع الأرض ويلزم إخراجهم

من ذلك قتلهم واستئصالهم وهو المراد) ^(٢).

* وقال القاسمي كذلك (أي يفزعهم ويزعجهم بما يحمله على خفة الحرب فرقا

منه... أو ينفيه عن ظهر الأرض بالقتل و الاستئصال) ^(٣).

* ويبين الماوردي أخيراً أن (في معنى ﴿يستفزهم﴾ وجهين:

أحدهما: يزعجهم منها بالنفي عنها. قاله الكلبي.

(١) ينظر تفسير القرطبي ١٠ / ٣٣٨.

(٢) ينظر تفسير ابن كثير - ٣ / ٦٧.

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٩٥.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١٥ / ١٨٦.

(٣) تفسير القاسمي ص / ٤٠٠٧.

الثاني: يهلكهم فيها بالقتل^(١).

.. من مجموع كل ما سبق نخلص إلى قولين قصدهما المفسرون:

الأول: إبعاد فرعون لموسى ومن معه من بني إسرائيل من أرض مصر التي كان يحكمها خشية أن ينتشر دين موسى بين قومه ويؤمنوا به فلا يبقى له من ملكه شيء.

الثاني: معنى الاستفزاز هو قتل موسى ومن معه من المؤمنين به واستئصالهم من الأرض والقضاء عليهم خشية انتشار دينه ودمار ملكه ... ونحن نرجح السبب الثاني وهو إرادة إهلاك موسى ومن معه بالقتل والاستئصال من الأرض وليس مجرد الاكتفاء بإبعادهم أو إزعاجهم بالنفي عن أرض مصر كما قال بعض المفسرين ... وقد بنينا هذا الترجيح على عدة أمور.. هي:

أولاً: إن معنى الاستفزاز كما يقول أهل اللغة هو (الانزعاج) تقول (فزني فلان أي أزعجني)^(٢).

وقد كني به هنا عن القتل لما في القتل من الانزعاج الكثير) وقد أريد به هنا القتل والاستئصال كما قال بذلك الإمام الآلوسي وغيره من المفسرين^(٣).

ثانياً: لو كان قصد فرعون من استفزاز موسى هو إبعاده عن أرض مصر باستخفافهم ليخرجوا هرباً، يريد نفيتهم عنها لما كان هناك داع إلى أن يتبعهم بجنوده مصباحين أو على أبعد احتمال أنه حين رأى من انفلاق البحر وعبور موسى ومن معه إلى الجانب الثاني أن لا يدخل في ذلك الموقف الرهيب خشية أن ينطبق عليه البحر ولعاد أدراجه بعد ما علم أن موسى لا يحارب وحده وإنما بتأييد الله له من خلال الآيات التي جاء بها ومن خلال وقوف شقي البحر لأجل أن يعبر هو وبنو إسرائيل ولقال ما دام قد عبر وانتهى فقد أمنت شره.

(١) انظر تفسير الماوردي ٤٦١/٢.

(٢) انظر مفردات الراغب ص/٣٧٩.

(٣) انظر روح المعاني للآلوسي ١٨٦/١٥ وانظر ابن الجوزي ٩٥/٥.

أن دخول فرعون خلق بني إسرائيل دليل على إصرار فرعون في القضاء على موسى ومن معه بالقتل والإبادة لأنه يعلم وتلك ميزة الطغيان في كل زمان ومكان انه لا يمكن أن يقر له قرار وفي الأرض من يقول لا اله إلا الله !! ان قبساً واحداً كفيلاً بأن ينير ظلمات كثيرة فكيف لو كان ذلك مشعلاً من كلمة التوحيد انه أما أن يقضي الباطل على حملة الحق وإلا فلا أمان له ولا اطمئنان...

وكل ذلك واضح من التصوير الفني الجميل الذي تجده في هذه الآيات ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون... فأتبعوهم مشرقين، فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا.. إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر... فأنفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين﴾ الشعراء / ٥٢-٦٦.

إنها لم تكن يوماً صرخة في واد أو نفخة في رماد وإنما هي طبائع الاستبداد... لا يرضى الباطل إلا أن يزهق الحق كي تخلو له الأرض... وصدق الله: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ التوبة / ٣٢. ولقد أبرز القرآن هذه الحقيقة في كيد المشركين واليهود برسول الله ﷺ ومحاولة استفرازه من الأرض في السورة نفسها عند قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض... ليخرجوك منها... وإذا لا يلبثون خلافاً لك إلا قليلاً﴾ الإسراء / ٧٦.

فلقد أورد المفسرون فيها عدّة أقوال نذكرها باختصار شديد لأهميتها هنا... قال الإمام الجليل ابن الجوزي في تفسيره: (قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾ في سبب نزولها قولان:

أحدهما: إن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، حسدته اليهود على مقامه بالمدينة، وكرهوا قربه، فقالوا: يا محمد أنبي أنت؟ قال: نعم، قالوا: فوالله لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء وإن أرض الأنبياء الشام، فإن كنت نبياً فانت الشام، فترلت هذه الآية،

قاله أبو صالح عن ابن عباس^(١)..

وقال سعيد بن جبيرة: همّ رسول الله ﷺ أن يشخص عن المدينة، فترلت هذه الآية... وقال عبد الرحمن بن غنم: لما قالت اليهود هذا، صدّق ما قالوا، وغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك، نزلت هذه الآية^(٢)...

الثاني: أنهم المشركون أهل مكة همّوا بإخراج رسول الله ﷺ من مكة فأمره الله بالخروج وأنزل هذه الآية إخباراً عما همّوا به، قاله الحسن ومجاهد... وقد علق الإمام ابن الجوزي على هذين القولين بقوله: (فعلى القول الأول، المشار إليهم... اليهود... والأرض: المدينة..

وعلى الثاني: هم المشركون، والأرض: مكة). ثم قال: (وقيل: المراد به ها هنا: القتل، ليخرجوه من الأرض كلها.. روي عن الحسن)^(٣).

والذي يهمنا في هذا الموضع معرفة المقصود بـ (الاستفزاز)؟. أهو الإخراج من البلد؟ أم القتل؟ فيكون إخراجاً من الأرض.. لنعرف من ثم.. * هل المقصود بالأرض البلد الذي كان يعيش فيها النبي ﷺ حين نزلت هذه الآية أو التي كانت تعنيها الآية...؟.

* أم الأرض هنا المقصود بها الجنس... أي كل الأرض؟. اضطربت أقوال المفسرين في تعيين المراد وقد يحق لهم ذلك فإن هذا يحدث عندما تُردّ عدّة روايات لسبب نزول آية ما، كهذه الآية مثلاً.

فلقد أورد الواحد في (أسباب النزول) ثلاثة أقوال عن سبب نزول هذه الآية. * الأول: عن ابن عباس..

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٦٩/٥ وقد علق على هذا الخبر بقوله: (قال الحافظ ابن كثير في التفسير ٣/٥٣ وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك) هامش رقم ٢.

(٢) قال الإمام ابن الجوزي (قال الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر خبر عبد الرحمن بن غنم عن البيهقي: وفي هذا الاسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالاً لقوله ((يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)) انظر تفسير ابن الجوزي ٧٠/٥.

(٣) انظر زاد المسير - لابن الجوزي ٦٩/٥ - ٧٠ وانظر مختصر ابن كثير ٣٩١/٢.

* والثاني: عن عثمان في اليهود..

* الثالث: عن مجاهد وقتادة والحسن انهم أهل مكة^(١).

فأي هذه الأقوال هو الصحيح؟؟

ويحدث هذا الاضطراب عندما لا يُستقرئ التأريخ إستقراءً صحيحاً كما قدّمنا من

قبل ففي هذا الموضع نجد الإمام الآلوسي في معرض تفسيره لهذه الآية يقول:

(وكان الاستفزاز بما فعلوا من حصره ﷺ في الشعب والتضييق عليه ﷺ)... ثم يقول:

ووقع ذلك بعد نزول الآية - كما في البحر - وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً^(٢).

فكيف يكون هذا؟ إذا كانت الآية مدنية^(٣) وهجرة النبي ﷺ حدثت بسبب إخراج

الكفار له بما فعلوا من حصره والتضييق عليه فكيف يقول (ووقع ذلك بعد نزول الآية؟).

وإذا كانت الآية مكية نزلت بعد حادثة الإسراء التي كانت قبل الهجرة بسنة على

الخلافاً في ذلك وحادثة حصره ﷺ في الشعب حدثت في بداية الدعوة كما هو ثابت

تأريخياً^(٤) فكيف يقول (ووقع ذلك بعد نزول الآية وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً؟ وقد

آليت على نفسي أن ابحث هذه القضية... فوجدت أن النبي ﷺ قد تعرّض لمحاولة

الإخراج من مكة سواء عن طريق الكيد والتبیت لإخراجه بالقوة أم عن طريق التضييق

وقد أخبر القرآن بهذا صراحة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ

يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال/٣٠.

وكان هذا إخباراً عما مكروه في دار الندوة.. ثم تحقيق هذا المكر عن طريق

التضييق ومحاولة قتله ﷺ بدلالة الآية نفسها وبدلالة قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ

نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ التوبة/٤٠.

(١) انظر أسباب النزول للواحد ص/٢٢٠.

(٢) انظر روح المعاني للآلوسي ١٣٠/١٥.

(٣) من المعلوم ان هذه الآية مختلف في نزولها أهي مكية أم مدنية والآلوسي قال إنها مدنية، انظر ١٣٠/١٥.

(٤) كان وقت حصار المشركين لرسول الله ﷺ ومن معه في الوقت الذي هاجر فيه المسلمون إلى الحبشة

- انظر البداية والنهاية لابن كثير ٨١/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ محمد/١٣.

أقول فأن كلتا المحاولتين قد وقعتا للنبي ﷺ من كفار مكة قبل الهجرة.. ثم إن كلتا المحاولتين وقعتا كذلك له من اليهود في المدينة يوم طلبوا منه الخروج إلى الشام كما ذكرنا آنفاً وحين حاول يهود بني النضير إلقاء صخرة على النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق: (وخلا بعضهم وهموا بالغدر، وقال عمرو بن جحاش النضري: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة وكان رسول ﷺ واقفاً إلى جنب جدار من بيوتهم)^(١) وكذلك في محاولتهم سم النبي ﷺ المعروفة.

والذي أريد أن أخلص إليه.. هو أن النبي ﷺ تعرض لمحاولة القتل والإخراج حين كان في مكة وتعرض لهما أيضاً يوم كان في المدينة فأيهما كان المقصود بالاستفزاز أهو الإخراج؟ أم القتل؟ وللإجابة عن هذا السؤال أقول:..

إن معرفة العقوبة التي قدرها الله للاستفزاز تُعين على معرفة المقصود بالاستفزاز.. فالآية تقول: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها.. وإذا لا يلبثون إلا قليلاً... سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستتنا تحويلاً﴾ الإسراء/٧٦.

فالعقوبة إذاً كما قال الألوسي هي: (وعيد لهم بإهلاك مجموعهم من حيث هم مجموع)^(٢).

وقال عنها ابن الجوزي (لاستأصلناهم بعد خروجك بقليل)..

وقال بعد ذلك: قال الزجاج: (لم يلبث العذاب أن يترل بهم)^(٣).

أقول: وقد ثبت الإخراج من كفار مكة للنبي ﷺ يوم كان بمكة كما بينا قبل قليل بدلالة القرآن وشهادة الواقع وكما ثبت ذلك في المدينة فلم يترل العذاب ولم يكن الاستئصال كما قال المفسرون...

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣.

(٢) انظر روح المعاني للألوسي ١٣٠/١٥.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٧٠/٥-٧١.

فدّل ذلك على أن المقصود بالاستفزاز هو القتل الذي لم يقع ولكنه - كاد أن يقع لولا أن الله عصم نبيه من الناس - كاد - التي قال عنها الألوسي:

(تدل على مقاربتة.. لا على حصوله)^(١) - أي الفعل - وهذا ما حدث فعلاً عندما ﴿كادوا﴾ أن يقتلوه ﷺ تنفيذاً لمكرهم في دار الندوة ﴿واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك﴾ وقد فعلوا ذلك ووقفوا ببابه يحملون سيوفاً صارمة ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل...

ومثل هذا (كادوا) أن يقتلوه بصخرة - يوم أن كان بين ديار اليهود.. ولقد عبرت الآية أصدقَ تعبير في أجلى تصوير حين قالت: ﴿وإن كادوا... ليستفزونك من الأرض﴾ - أي كادوا أن يقتلوك - ﴿ليخرجوك منها﴾ - بالقتل - وليس بالأبعاد والإخراج من مكة أو من المدينة...

وقد أشار الإمام ابن الجوزي في تفسيره إلى هذا بقوله: (وقيل: المراد به ها هنا: القتل، ليخرجوه من الأرض كلها... وقال روى ذلك عن الحسن)^(٢).

وهو ما أورده الألوسي في تفسيره كذلك بقوله: (وحكى الزجاج إن استفزازهم ما أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله ﷺ...).

والمراد من الأرض وجه البسيطة مطلقاً، ثم أضاف وقال أبو حيان.. المراد على هذا الدنيا...)^(٣).

وهذا يكون التوافق واضحاً وأصيلاً بين قوله تعالى: ﴿فأراد أن يستفزه من الأرض﴾ أي يقتلهم ويستأصلهم من الأرض، وبين قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾ أي يقتلوك ويستأصلوك من الأرض.

وفي هذا يقول صاحب الأساس في التفسير (فأراد أن يستفزه من الأرض بقتلهم واستئصالهم... وأصل الاستفزاز من الأرض الإخراج، والقتل خروج للروح من الأرض).

(١) انظر روح المعاني ١٣٠/١٥.

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٦٩/٥.

(٣) انظر روح المعاني للألوسي ١٣٠/١٥.

وقال في موضع آخر مبيناً سبب تأخر ذكر قوله تعالى: ﴿فأراد أن يستفزه من الأرض﴾ أنها فسرت الآية الأولى^(١)... إذ الاستفزاز هنا هو القتل، فصار معنى تلك الآية وأنهم كادوا ليقتلوك.. ليخرجوك من الأرض، وإذن يستأصلهم الله بعدك لو فعلوا^(٢).

قلت: وهذا هو الصحيح... وإلا لو كان المعنى هو - الإخراج والإبعاد - الذي وقع والذي قال عنه بعض المفسرين أنه لم يقع من كفار مكة... وإنما بأمر الله له كما نقل الإمام ابن الجوزي عن قتادة قوله: (هم أهل مكة بإخراجه من مكة ولو فعلوا ذلك ما نواظروا ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره بالخروج)^(٣)..

فسبحان الله.. كيف وقد قال تعالى صراحة: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ محمد/١٣.

قلت: ولكنه حين لم يقع القتل الذي كان هو المقصود بالاستفزاز من الأرض لم يقع الهلاك والاستئصال الذي هو عقوبة من يقتل أنبياء الله...

وبناء على هذا نقول... بما أنه قد ثبت أن الاستفزاز معناه: القتل وهو الخروج من الأرض - أي بالموت من الدنيا... كان معنى (الأرض) في قوله: ﴿فأراد أن يستفزه من الأرض﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض...﴾ هي (الأرض مطلقاً) أي - وليس كما قيل أنها مصر أو الشام أو...

ولقد رجّح هذا القول صاحب الأساس في التفسير وقد كان موفقاً في ترجيحه هذا حيث يقول: (أنا نرجّح أن التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿وقلنا من بعده﴾ أي: من بعد موسى ﴿ليني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ كل الأرض متفرقين ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ أي.. جميعاً إلى فلسطين)^(٤).
وبناء عليه أيضاً...

(١) أي قوله تعالى: ((وإن كادوا ليستفزونك من الأرض)).

(٢) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٦/٣١٣١-٣١٣٣.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/٦٩.

(٤) الأساس في التفسير - سعيد حوى ٦/٣٠٤٤.

فإنه حين نُتِمُّ قراءة الآيات ﴿فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيماً...﴾. نجد أن معنى الأرض الثانية هو ذات المعنى في الأرض الأولى إذ المراد بها جنس الأرض وليس كما قيل إنها أرض الشام ومصر^(١).

أو أنها الشام^(٢) أو هي مصر^(٣) أو هي كما قال ابن الجوزي فيها ثلاثة أقوال... أحدها: فلسطين والأردن، قاله ابن عباس.

الثاني: أرض وراء الصين، قاله مقاتل.

الثالث: أرض مصر والشام...^(٤).

وقد اعتمدت هذا القول إضافةً إلى ما سبق - على أمرين هما:

الأول: ما قال به أهل العلم في التفسير في رد المعنى إلى اقرب مذكورين قد تحقق

هنا دون إخلال بالمعنى كما ثبت لدينا.

الثاني: إن الله تعالى قصّ علينا في سور أخرى خبر بني إسرائيل وأهم لم يسكنوا

أرض مصر حيث توجه بهم موسى إلى الأرض المقدسة بعد إغراق فرعون ومن معه...

ولا هي الأرض المقدسة التي حرّمت عليهم بعد ما أبو أن يدخلوها حين قال لهم موسى:

﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا﴾ المائدة/٢١... فقالوا:

﴿إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ المائدة/٢٢.

ثم قيل لهم: ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ المائدة/٢٦.

فكيف يسكنون أرضاً صدر الأمر الإلهي بتحريمها عليهم^(٥) عقوبة لهم...

(١) كما قال القرطبي في ٣٣٨/١٠.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٧٦/١٥.

(٣) انظر تفسير الآلوسي ١٨٦/١٥.

(٤) انظر تفسير ابن الجوزي ٩٥/٥.

(٥) قلت ربما كان التحريم تحريم استحقاق للأرض لعدم ايفاءهم بالعهد لا تحريم سكنى وحتى السكن لو

حدث فمؤقت فلا يلبثون ان يخرجوا منها مقهورين... والله أعلم.

إن العقوبة التي قدرها الله لبني إسرائيل هي ما ذكرناها آنفاً^(١) من أن الله قد جعلهم أمماً ممزقة تعاني الشتات في الأرض — كل الأرض — بين الشعوب فقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنِي عَشَرَ أَسْبَاطاً أُمَمًا﴾.. الأعراف/١٦٠ وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ الأعراف/١٦٨. وهذا ما يؤيده الواقع عبر الزمان في كل مكان. فالأرض التي أمروا بسكنائها هي الأرض مطلقاً على شكل أمم تعاني الشتات والذلة بين الأمم ﴿ملعونين أين ما ثقفوا﴾ الأحزاب/٦١.

وتبرز الحكمة من وراء ذلك عند إكمال الآية إذ يقول القرآن: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ - أي من بعد إغراق فرعون - ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ - أي كل الأرض - ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

فهي إذا مدة انتظار يسكنون فيها في كل الأرض حتى يجيء وعد الآخرة - وعد العقوبة الثانية على إفسادهم الثاني واستعلائهم فيه عند ذلك سنجيء بكم من كل الأرض - لفيفاً، جماعات من قبائل شتى، وأمماً مختلطين بعضكم مع بعض،.. أصنافاً شتى، من ها هنا ومن ها هنا، منضماً بعضكم إلى بعض، على شكل جماعات من قبائل شتى... تنفرون لتنصروا الباطل الذي اجتمعتم عليه واستنفرتم له وكنتم لنجدته أكثر نفيراً له مما مضى... تحقيقاً لوعد الله الذي قضاه وتطبيقاً لقدره الذي أنزله عليهم بالحق وبالحق نزل... و

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾...

﴿لَيْسَؤَ. أَوْ. لَنَسْؤَ. أَوْ. لَيْسْؤُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ... وَلِيَتَبَرَّوا مَا عَلَوْتُمْ بِهِ...﴾.

ويوم يكون ذلك سيخر الذين أوتوا العلم من قبله للأذقان سجداً يكون ويقولون: سبحان ربنا... سبحان ربنا... ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا...﴾.

(١) راجع المطلب الثاني من المبحث الأول في هذا الفصل.

المطلب الثاني

المنهج الأقوم في التصدي لاستعلاء الفساد

قال تعالى... ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

إن هذا القرآن الذي أنبأ المؤمنين بإفسادي بني إسرائيل في الأرض واستعلائهم فيها لم يتركهم هكذا دون أن يرسم لهم... منهج للتصدي - لاستعلائهم في هذا الإفساد. فلئن كان هذا القرآن قد أخبر بما قضى الله على بني إسرائيل سواء بما كانوا سيحدثونه من فساد في الأرض مرتين أو بما سيلاقونه من عقوبة على هذين الإفسادين!! فإن الله قد بعث المؤمنين وهداهم إلى كيفية إنزال العقوبة عليهم في الوعد الأول بالجوس خلال الديار، ومن ثم دخول المسجد حتى من قبل أن يحدث وقال عنه ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾...

وفي الوعد الثاني الذي قضى الله أنه سيبعث عليهم - أيضاً - عبداً له أولي بأسٍ شديد (ليسؤوا وجوههم) و﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً﴾ وذلك داخل فيما قضاه الله عليهم - كما صرح بذلك بعض المفسرين^(١)... وكان وعداً مفعولاً...

ولكن كيف ومتى؟ وهنا ينبغي أن نقف ونبحث...

أما متى... فأن ذلك مرهون بعودة المسلمين إلى الله وتحقيق صفة العبودية الخالصة له سبحانه وامتنال أمره ونهيه وتحكيم شريعته التي لا يؤمنون إلا بتحكيمها بكل الرضا فيها والتسليم لها بحيث يكون الدين كله - في الأرض - لله وحده دون سواه... عند ذاك تنتهي فترة الكرة التي لهم لتبدأ فترة إيقاع العقوبة عليهم وفق سنة الله التي لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً...

(١) كابن عاشور حيث قال في تفسيره (وهذا الكلام من بقية ما قضى في الكتاب بدليل تعريفه بالفاء) انظر ٣٥/١٥.

أما عن كيف فإن ذلك مما ينبغي أن تتكاتف كل الجهود لتحقيق المنهج الذي رسمته سورة الإسراء في التصدي لهذا الإفساد... وتحطيم ذلك العدو...

وتحقيق تلك العقوبة والذي كان هذا القرآن يهدي - في كل حين - للتي هي أقوم... في مجال تحقيقها كما ينبغي.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هو إطلاق صفة العموم في قوله تعالى: ﴿التي هي أقوم﴾ والتي أشار إليها الإمام الآلوسي في تفسيره في هذا الموضع بقوله: (فـ للتي - صفة لموصوف حذف اختصاراً وقدره بعضهم (الحالة) أو (الملة) وأما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في الإيهام من الدلالة على أنه جرى الوادي وطم على القرى)^(١).

وقبل أن نعرض أقوال المفسرين ... نقف عند أهل اللغة لنرى ماذا يقولون: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

يقول الراغب: (إن وأن: ينصبان الاسم ويرفعان الخبر والفرق بينهما أن - إن - يكون ما بعده جملة مستقلة...) ^(٢).

﴿هذا القرآن﴾ هذا مكونة من مقطعين... (ها) و (ذا).

يقول ابن منظور (ها) بفخامة الألف - تنبيه - وبإمالة الألف - حرف هجاء - . وهي بلا معنى سوى الافتتاح حيث تفتح العرب بها كلامها تقول (هذا أخوك - يعني - ها إن ذا أخوك).

وتقول (ها أنتم هؤلاء) تجمع بين التنبيهين للتوكيد وقد تكون تلبية...

قال الأزهري: يكون جواب نداء، يمد ويقصر... قال الشاعر...

لا بل يجيبك حين تدعو باسمه..... فيقول: هاء، وطالما لي^(٣).

(١) روح المعاني للآلوسي ٢٢/١٥.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني ص/٢٧.

(٣) لسان العرب لابن منظور ص/٧٥٦ ولم يبين من صاحب الشاهد.

ويقول الراغب: إن (ها...) للتنبيه في قولهم هذا وهذه وقد ركب - مع - ذا -
 وذه - وأولاء حتى صار معها بمتزلة حرف منها...
 وها في قوله تعالى: ﴿ها أنتم﴾ استفهام...
 ويضيف: وها... كلمة في معنى الأخذ، وهو نقيض هات أي إعط، يقال (هاؤم)
 كقوله تعالى: ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه﴾^(١) الحاقة/١٩....
 وأما - ذا - فيقول عنها ابن منظور: (ذا يكون بمعنى هذا.. ومنه قوله: ﴿من ذا
 الذي يشفع عنده﴾...)

أي من هذا الذي يشفع عنده...؟

* وقال: - ذا - يوصل به الكلام...

* قال ابن سيده في موضع آخر: (ذا إشارة إلى المذكر يقال (ذا وذاك) وقد تُزاد
 اللام فيقال (ذلك) ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ البقرة/٢...
 قال الزجاج: معناه هذا الكتاب.

* وقد تدخل على - ذا (ها) التي للتنبيه فيقال: ... هاذا..^(٢).

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

يقول ابن عاشور: هذا (استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم في السورة
 وهو تأييد النبي ﷺ بالآيات والمعجزات وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن...)^(٣).
 وقد (أخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل إذ
 هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل...
 و﴿التي هي أقوم﴾ صفة لمحدوف دل عليه - يهدي - أي للطريق التي هي أقوم،
 لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم...

(١) انظر مفردات الراغب ص/٥٤٨-٥٤٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور ص/١٠٤٧.

(٣) تفسير ابن عاشور ٣٩/١٥.

والأقوم: تفضيل القويم... والمعنى: أنه يهدي للتي هي أقوم من هدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾^(١).

أما أهل التفسير فيكادون يتفقون في معنى هذه الآية...

يقول الإمام الطبري: (إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدد من اهتدى به ﴿لتي هي أقوم﴾... يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام)^(٢).

وبنحوه هذا قال السمرقندي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن كثير والثعالبي^(٣).

وكذا الألوسي حيث يبين ﴿إن هذا القرآن﴾ الذي آتيناه، هذا متعلق بصدر السورة كما مرت الإشارة إليه، وفي الإشارة هذا تعظيم لما جاء به النبي المجتبي ﷺ ﴿يهدي﴾ أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى عليه السلام ﴿لتي﴾ أي للطريقة التي ﴿هي أقوم﴾ أي أقوم الطرق وأسدها أعني ملة الإسلام والتوحيد...

فلتي صفة لموصوف حذف اختصاراً وقدّره بعضهم الحالة والملة^(٤).

ويفصل المعنى أكثر صاحب الأساس في التفسير إذ يقول: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها أو للملة التي هي أقوم، أو للطريقة التي هي أقوم في كل شيء، في العقائد، والأخلاق، والسلوك، والعبادات، والتشريع. ويضيف: وقد بينت الآية خصيصة من خصائص القرآن هو أنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل، مع التبشير والانداز، وهذا مظهر من مظاهر إعجازه.

(١) المصدر السابق ٤٠/١٥.

(٢) تفسير الطبري ٤٦/١٥.

(٣) انظر تفسير السمرقندي ص/٢٩٠ وزاد المسير لابن الجوزي ١٢/٥ والرازي ١٦١/٢٠ والقرطبي ١٠/٢٢٥ وابن كثير ٢٦/٣ والثعالبي ٣٣٢/٢.

(٤) انظر الألوسي ٢٢/١٥ وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٤٠٩/٣.

إذ تحدث عن كل شيء... فهدى فيه إلى أقوم ما يمكن أن يكون فيه بإسلوب التبشير والإنذار، فأى كتاب يمكن أن يكون كذلك؟ وكيف يكون كذلك لولا أنه من عند الله...؟^(١).

قلت: إنني أرى ... إن هذه الخصيصة التي يتحدث عنها صاحب الأساس - رحمه الله - هي ضالة المؤمنين - اليوم - فهم يعتقدونها إجمالاً ولا يتخذونها منهجاً، وهم اليوم أحوج ما يكونون لهذا المنهج الذي يتصدون به ومن خلاله لفساد بني إسرائيل واستعلائهم في الأرض والذي كان - كما نرى اليوم - وفق منهج مرسوم... ويسرون عليه بعزم لا يعرف الكلل... ودقة لا يشوبها الخلل ويبدلون فيه الجهد الذي لا يعرف الكسل سخرّوا فيه القوى والطاقات واستنفروا من استطاعوا من أعوانهم بإعلامهم وصحافتهم ودعائياتهم ووعودهم حتى نفذوا في أغلب المؤسسات الدولية العالمية وشاركوهم بأموالهم وأولادهم خداعاً وغروراً...

إنه منهج للإفساد قد رسمه كتاب التوراة وصنّاع التلمود ونظام للاستعلاء في الأرض فصلّت مراحلها ومضامينه - جماجم المكر اليهودية في (بروتوكولات) غدت - كما هو معروف - قيد التنفيذ..

إن المؤمنين بهذا القرآن - اليوم - ينبغي أن يستجيبوا إلى دعوة الحق في ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ في علاج واقع المسلمين اليوم من جهة... وفي التصدي لاستعلاء إفساد بني إسرائيل - اليوم - من جهة أخرى...

فإن هذا القرآن جاء يحمل بين ثناياه - هذا المنهج الذي يهدي للتي هي أقوم... هكذا... بهذا الحذف الذي أقرّه المفسرون والذي قالوا عنه أنه حذف اختصاراً وتقديره للحالة أو الملة التي هي أقوم من غيرها... سواء في العقائد والأخلاق والسلوك والعبادات والتشريع كما ذكر ذلك صاحب الأساس في التفسير^(٢).

(١) انظر الأساس في التفسير - سعيد حوى ٣٠٤٦/٦.

(٢) راجع الآلوسي ٢٢/١٥ والأساس ٣٠٤٦/٦.

وكما فصله صاحب الظلال في تفسيره حيث يقول: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾... هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

● / يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواتج الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

● / ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، بين مشاعره وسلوكه، بين عقيدته وعمله، فإذا هي بكلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى ومستقرة على الأرض... وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة...

● / ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصر والاعتدال وحدود الاحتمال.

● / ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنئان ولا تبصر منها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال والاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

● / ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووثام^(١).

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٣٠٨/٥ - ٣٠٩.

فهل أدرك اليهود هذا؟.

وهل عرفوه؟...

لا شك في هذا وهم الذين أخبر الله عنهم أن ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه

كما يعرفون أبناءهم﴾ البقرة/١٤٦.

إنما الذي يحز في النفس أن الذين يجهلون هذا هم أغلب المسلمين...



الختام

النتائج... والتوصيات:

أولاً- النتائج:

وخلاصة ما تقدم نستنتج حقائق عدّة أجمالها فيما يلي اختصاراً.

- ١ / اقتصار السور المكيّة - غالباً - بالإخبار عن فساد بني إسرائيل الماضي ومعالجة السور المدنية - غالباً - لإفساد بني إسرائيل المعاصر للنبي ﷺ وتفرد سورة الإسراء بالإنباء عن إفساد بني إسرائيل مستقبلاً ورسم المنهج الأقوم للتصدي له.
- ٢ / كذب ادعاء اليهود أنهم من سام وحده وإنما هم أخلاط من قبائل وأمم شتى كانوا مقطّعين في الأرض وقد جيء بهم ليفاً لتحقيق الوعد الآخر بهم بعد إفسادهم الذي نعاصره اليوم.

٣ / عدم حصر فسادهم في جريمة ما وإنما برفضهم الاهتداء بهدى الله، واتباع أنبياءه، وتطبيق ما جاء في كتبه، واتخاذهم من دون الله وكيلاً سبحانه، فضلّوا وأضلّوا فبعث الله عليهم من جاس خلال ديارهم ودخل المسجد الذي كان رمز وجودهم وأعادته إلى حضيرة الإسلام.

٤ / إن أغلب ما قاله المفسرون الأجلاء - إن لم يكن كلّ - في تحديد وقتي الفساد ومن بعث عليهم فيهما إنما كان أصله الروايات الإسرائيلية المنقولة إليهم من أهل الكتاب عن طريق كثير من التابعين الذين اعتمد أغلب المفسرين على أقوالهم في تفسير الآيات الواردة في صدر سورة الإسراء.

٥ / كان الإعتماد على الروايات الضعيفة - سنداً وممتناً - السبب الأول في إهمال بعض القواعد التفسيرية التي قعدها المتقدمون وبالتالي عدم إعطاء النص القرآني والمفردة القرآنية حضاها من الاهتمام والتقدير.

٦ / إن استعمال القرآن لمفردة معينة دون غيرها له أهمية كبرى في اختيار معنى - أو معانٍ - معينة يراد من خلالها إبلاغ - وحي ما - في - زمن ما - لقوم يؤمنون... كالعباد - والجوس - والكرّة - والوعد - واللفيف... الخ.

٧ / إن الفساد شيء والإفساد أعم منه وأشمل فالفساد ما كان خاصاً بحيث لا يكون الفعل متعدياً إلى غيره أي أن الفاسد قد يكون فساداً منحصراً فيه وعليه بينما الإفساد هو تعدّي الفعل إلى الغير بحيث أن المفسد لا يكتفي بفساده وإنما يسعى جاهداً أن يفسد غيره وذلك ملحوظ من دقة التعبير القرآني في قوله تعالى [وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين] ولم يقل - لتفسدنّ - فإن في كسر السين معنى الإفساد للغير وفي ضم السين معنى الفساد الشخصي - إذا صح التعبير.

٨ / إن الفساد غير العلو فيمكن أن يتحقق الأول دون الثاني.. بينما الثاني لا يتحقق إلا بالأول وذلك عندما يتعاضم الفساد فيكون إفساداً.. ومن ثم فإن العلو لا يكون إلا أساس الإفساد في الأرض هذا من جانب ومن الجانب الآخر فإن - الإفساد والعلو - شيء والوعد عليهما شيء آخر.. فإن الأول رفض الاهتداء واستحباب العمى عليه والبغي في الأرض ومحاربة الحق والثاني هو إيقاع العقوبة عليه بمجيء الفتح من الله حين يكون أصحاب الحق أهل لذاك أو بأمر من عند الله بإجماع المفسرين.

٩ / إن البعث له مقومات أبرزها - تحقيق العبودية الخالصة لله كشرط للإمامة وأن النصر له أسباب - أبرزها - الثقة بالله واتخاذها وكيلاً والاستعداد الكامل لأعدائه فإذا عذمت المقومات وتركت الأسباب فلا إمامة ولا نصر وإنما هي ردة من ناحيتين - تراجع منا إلى ما كنا عليه قبل البعث... وكرة علينا لهم فيها مدد في الأموال والبنين والنفير الكثير.

١٠ / بروز المعنى المقصود من خلال النص بعد تحقيق اللفظ لغوياً ومطابقته للواقع مما يساعد على الفهم الصحيح للعبارة القرآنية كما هو الحال في الجوس والدخول فإن الأول للديار والثاني للمسجد وبالتالي فإن ما ذكره المفسرون لم يكن جوساً ولا دخولاً وإنما هو اجتياح ودمار...

١١ / التأكيد على دخول المسجد في الوعدين له أهميته في بيان وتحديد هذين الوعدين وكل قول لم تؤيده حقائق التاريخ فمردود... وحصر كيفية الدخول في ﴿كما دخلوه﴾ يؤشر إلى كيفية الدخول الثاني من حيث الأسباب والمقومات الواجب توفرها والاستعداد الكامل لتحقيق ذلك.

١٢ / ردّ الكرة لهم علينا لا لفضلهم ولا لأفضليّتهم وإنما ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ و﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ وكما قال أكذبهم حيي (من يخذل الله يخذل) وبالتالي فنهاية الكرة مرهونة بعودتنا إلى الله.

١٣ / أمدّوا بأموال وبنين ليحقّ قول الحق في إمهال الظالمين ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿أتحسب أن ما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات - كلا - بل لا يشعرون﴾ فحين يأتي وعد الله ﴿فساء صباح المنذرين﴾ وحين يتزل وعد الآخرة على من جيء بهم لفيفا... ستسوء وجوههم ويؤتبر كل ما علوه... تتبيرا.

١٤ / النفير من الفرع من الشيء وإلى الشيء وما نفر بنو إسرائيل في أيام سليمان كما قال المفسرون ولم ينفرون وعند سليمان من الجنود من يغوصون له ومنهم من يصنعون له ما شاء ومنهم من يطرون له عبر الآفاق ليأتوه بالملوك وعروش الملوك... واليوم كانوا - بحق - أكثر نفيرا.

١٥ / وإن عدتم عدنا - قانون الهي أساسه ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..﴾ وأن الله يمدّ كلا من هؤلاء وهؤلاء من عطائه ليرى غيرة الناس على الحق فإذا غار الناس انتصر لهم وإذا لم يغاروا غار هو عليه وانتقم منهم فجعل بأسهم بينهم بعدما يلبسهم شيعاً ليزيق بعضهم بأس بعض.

١٦ / رحمته سبحانه وسعت كل شيء... فعسى.. أي أرجو ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا.. وإن أسأتم فإن جهنم كانت - في الآخرة - للكافرين.. حصيراً... أما في الدنيا.. لنبعثن عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد - أو - من يسومكم سوء العذاب.

١٧ / عدم صلاحية المنهج القائم على أساس استقراء التوراة أو محاكمة القرآن إلى التاريخ الذي مهما قيل عن قدمه وصلاحيته فإن القرآن كان وما يزال وسيبقى الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم وهداية هذا القرآن للتي هي أقوم أمرٌ قرره القرآن وبينه النبي ﷺ وأثبتته الواقع التاريخي.

ثانياً - التوصيات:

- ١ / الاعتصام بحبل الله الذي ليس غيره متين وتدبره وعدم الانشغال عنه بغيره.
 - ٢ / التعامل مع النصوص بموضوعية في السلوك لتحكم حركة الحياة وفق ما تقتضيه مهمة الخلافة عن الله في الأرض.
 - ٣ / الاهتمام بمناهج تدريس الأديان وتدريب طلبة العلم على فهم النصوص ودراساتها وتفسيرها وفق الضوابط الموضوعية لهذا العلم الجليل.
 - ٤ / الاهتمام بقضية العصر - استعلاء فساد اليهود - اهتماماً كافياً يتناسب مع خطورة هذه القضية وكيفية التصدي لها.
 - ٥ / إعادة النظر في المواضع المتعلقة بدراسة تاريخ وعقائد اليهود... وضرورة عرضها وفق المستجدات الحاصلة اليوم ووفق طرائق البحث الصحيحة والتحليل الدقيق لفهم النصوص التي أجملت في موضع وفصلت في مواضع أخرى.
 - ٦ / حث الأقسام الشرعية على دراسة الخطط والمناهج التي اعتمدها اليهود في - غسل أدمغة المسلمين - للتصدي لها أو الوقاية منها ومن أجل إخراج عنصر علمي متخصص وملتزم في هذه القضايا وبما يسهم في خدمة المشروع الحضاري لهذه الأمة والدفاع عنه عن طريق بناء جيل إيماني فريد ليعتد الأمة من جديد.
- وما ذلك على الله بعزيز.

الباحث

ملحق رقم ١/

جدول بأسماء السور المكيّة التي ورد فيها الخبر عن بني إسرائيل وزمنه

حسب الترتيب النزولي

التسلسل	اسم السورة	ترتيب النزول	زمن الخبر	آيات
١-	المزمل	٣	ماض	١٥-١٦
٢-	المدثر	٤	مستمر	٣١
٣-	الفاتحة	٥	مستمر	٧
٤-	الأعلى	٨	ماض	١٩
٥-	الفجر	١٠	ماض	١٠-١٤
٦-	البروج	٢٨	ماض	١٨-١٩
٧-	ص	٣٨	ماض	١٧-٤٠
٨-	الأعراف	٣٩	ماض	١٠٣-١٠٧
٩-	الفرقان	٤٢	ماض	٣٥-٣٦
١٠-	مريم	٤٤	ماض	٢-٣٨/٥٠-٣٥
١١-	طه	٤٥	ماض	٩-٧٩
١٢-	الشعراء	٤٧	ماض	١٠-٦٨
١٣-	النمل	٤٨	ماض	٧-٤٤
١٤-	القصص	٤٩	ماض	٣-١٥/٧٦-٨٢
١٥-	الإسراء	٥٠	معاصر ومستقبل	٢-٨/١٠١-١٠٤
١٦-	يونس	٥١	ماض	

١١١-٩٦	ماض	٥٢	هود	-١٧
١١١-١	ماض	٥٣	يوسف	-١٨
٩٤-٩١	معاصر للنبي	٥٥	الأنعام	-١٩
١١٢/١١٤	ماض	٥٦	الصفاء	-٢٠
١٤/١٠	ماض	٥٨	سبأ	-٢١
٥٤/٢٣	ماض	٦٠	غافر	-٢٢
٤٥	ماض	٦١	فصلت	-٢٣
١٤/١٣	ماض	٦٢	الشورى	-٢٤
٦٧/٤٦	ماض	٦٣	الزخرف	-٢٥
٣٧/١٧	ماض	٦٤	الدخان	-٢٦
١٧/١٦	ماض	٦٥	الجاثية	-٢٧
١٢/١٠	ماض ومعاصر	٦٦	الأحقاف	-٢٨
٤٠/٣٨	ماض	٦٧	الذاريات	-٢٩
٨٢-٦٠	ماض	٦٩	الكهف	-٣٠
١١٨	معاصر ومستمر	٧٠	النحل	-٣١
١٤/٥	ماض	٧٢	إبراهيم	-٣٢
٨٢/٧٨/٤٨/٩١/٨٩	ماض	٧٣	الأنبياء	-٣٣
٥٠/٤٥	ماض	٧٤	المؤمنون	-٣٤
٢٥/٢٣	ماض	٧٥	السجدة	-٣٥

١٠/٩	ماض	٧٨	الحاقة	-٣٦
٢٦/١٥	ماض	٨١	القارعة	-٣٧
٤٧/٤٦	معاصر ومستمر	٨٥	العنكبوت	-٣٨

١- السور التي ذكر فيها ما يخص بني إسرائيل إحدى وثلاثون سورة من مجموع (٣٨) سورة^(١).

٢- السور التي ذكر فيها ما يخص بني إسرائيل وما كان معاصراً للنبي ﷺ خمس سور وهي (الإسراء/ الأنعام/ الأحقاف/ النحل/ العنكبوت)^(٢).

٣- تفردت سورة الإسراء بالإنباء عن مستقبل فساد بني إسرائيل دون غيرها من السور المكية^(٣).

(١) انظر الجدول آنفاً.

(٢) انظر تسلسل الجدول رقم ((٣٨/٣١/٢٨/١٩/١٥)).

(٣) انظر تسلسل الجدول رقم ((١٥)).

جدول بأسماء السور المدنية التي ورد فيها الخبر عن بني إسرائيل وزمنه
حسب الترتيب النزولي:

التسلسل	اسم السورة	ترتيب النزول	زمن الخبر	الآيات
١-	البقرة	٨٧	معاصر للنبي	١٥٩/١٤٦/١٢٣/٤٠ ٢١١/١٧٦/١٧٤/١٦٢ ٢٥٣/٢٤٣/٢١٣/
٢-	آل عمران	٨٩	معاصر للنبي	٤٢/٣٧/٣٥/٢٥/١٩ ١٠٥/١٠٠/٩٣/٨٣ ١٢٧/١٢٠/١١٠
٣-	الأحزاب	٩٠	معاصر للنبي	١٥٠/٥٦/٤٤/٢٧/٢٦
٤-	النساء	٩٢	معاصر للنبي	١٧٣/١٧١/١٦١
٥-	الحديد	٩٤	معاصر للنبي	٢٩/٢٧/١٦
٦-	البينة	١٠٠	معاصر للنبي	٦/١
٧-	الحشر	١٠١	معاصر للنبي	١٥/١١/٦/٢
٨-	الصف	١٠٩	ماضي ومعاصر	١٤/٩/٥
٩-	الجمعة	١١٠	معاصر للنبي	٨/٥
١٠-	المائدة	١١٢	ماضي ومعاصر للمستقبل	٥٣/٤١/٣٢/٢٦/١٢ ١١٩/١١٠/٨٦/٥٧
١١-	التوبة	١١٣	معاصر ومستقبل	٣٥/٢٩

- ١- السور التي تحدثت عن فساد بني إسرائيل المعاصر للنبي ﷺ (١١) إحدى عشر سورة من مجموع (٢٩) تسع وعشرين سورة مدنية.
- ٢- لم تتحدث إلا سورة واحدة عن فساد بني إسرائيل في الماضي مع الإشارة إلى الحاضر وهي سورة الصف^(١).
- ٣- سورتان فقط ذكر فيها الإخبار في الزمن المعاصر للنبي والمستقبل بشكل عام هما سورتي المائدة والتوبة^(٢).

(١) انظر التسلسل رقم ٨/.

(٢) انظر التسلسل رقم ١٠-١١.

ملاحظة خاصة بالملحق الثاني:

حاصل ما قاله المفسرون حول تعيين الإفساد الأول والثاني ومن بعث عليهم فيهما وفق ما ورد من أقوال مأخوذة عن أهل الكتاب أو مستقاة من التأريخ ونصوص التوراة... مع بيان تسلسل الأنبياء الموافق لتسلسل من تعرض لهم من الملوك... موضحاً المراحل المهمة التي مر بها بنو إسرائيل عبر التأريخ... وكذلك ما تحصل لدينا من بيان مرقي الإفساد وفق ما أوحى به المعطيات القرآنية ومرحلة الاستعلاء الكبير الذي ذكر في النص ويؤيده الواقع.

أ - تسلسل الأنبياء الذين بعثوا إلى بني إسرائيل والذين ذكرهم القرآن الكريم ابتداءً بموسى وهارون وانتهاءً بعيسى آخر أنبيائهم.

ب - الأحداث التي مرت ببني إسرائيل من يوم أن كانوا بمصر وحتى القضاء عليهم على يد النبي ﷺ وأصحابه الذين تحققت فيهم مقومات العباد.

ج - تسلسل الملوك الذين تعرضوا لبني إسرائيل ابتداءً من فرعون ومن جاء بعده وصولاً إلى الرومان ثم تعرض النبي ﷺ والصحابة والقضاء عليهم.

- د - المراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل من يوم إن كانوا بمصر وإلى يومنا هذا.
- هـ - المخطط التوضيحي للإفسادين الأول والثاني كما قال به المفسرون الأقدمين ومن تعرض لهم فيهما. وفيه دلالة على عدم صحة ما ذهبوا إليه حيث جاءت المعطيات القرآنية وحقائق التاريخ تخالفه وبشدة.
- و - المخطط التوضيحي للإفسادين الأول والثاني كما أوضحت به المعطيات القرآنية والذي أكدته الأحداث التاريخية.
- ز - الفترة الزمنية التي تمثل ظهور الإسلام بعد القضاء على الوجود اليهودي ودخول المسلمين المسجد الأقصى في خلافة عمر رضي الله عنه وانتشار الإسلام.
- ح - المخطط الذي يوضح استعلاء بني إسرائيل اليوم وقد تحققت كل مقوماته ونهايته على يد العباد بعدما يبعثون عليهم مرة أخرى لكي يسؤوا وجوه اليهود ويدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ويتبرأوا كل ما علوه تتبيرا.
- ط - نماذج وصور من إفسادهم الماضي.
- ي - نماذج وصور من إفسادهم المعاصر للنبي ﷺ.
- ك - نماذج وصور من إفسادهم المعاصر.

المصادر والمراجع

كتب التفسير:

- ١ / جامع البيان - محمد بن جرير الطبري ط/٢ - ١٩٥٤م - مصطفى الباب - بمصر.
- ٢ / تفسير القرآن الكريم - نصر الدين السمرقندي - مطبعة الإرشاد بغداد - ١٩٨٦م.
- ٣ / تفسير الماوردي - علي حبيب الماوردي - ط/١ - ١٩٨٢م - مطابع مقهوي - الكويت.
- ٤ / الكشف - لأبي القاسم الزمخشري، حقائق التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ط/ دار الفكر بيروت.
- ٥ / المحرر الوجيز - عبد الحق بن عطية ط/١ - ١٩٨٣م - الدوحة.
- ٦ / زاد المسير في علم التفسير - أبي الفرج ابن الجوزي ط/١ المكتب الإسلامي للنشر - ١٩٦٥م.
- ٧ / التفسير الكبير للفخر الرازي ط/٢ دار الكتب العلمية.
- ٨ / الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط/ المكتبة العربية - ١٩٦٧م - دار الكتاب العربي.
- ٩ / أنوار التزويل - للبيضاوي ط/١٣٣٠هـ - مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت.
- ١٠ / النهر الماد من البحر المحيط - ابن حيان الأندلسي - ط/١ ١٩٨٧م - دار الحيان - الكتب الثقافية.
- ١١ / تفسير ابن كثير لأبي الفداء ابن كثير ط/١ دار أحياء الكتب العربية - دمشق.
- ١٢ / مختصر تفسير ابن كثير ط/٧ تحقيق واختصار محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٨١.
- ١٣ / الجواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمن الثعالبي.
- ١٤ / تفسير مجاهد - مجاهد بن جبر - تحقيق عبد الرحمن الطاهر - مجمع البحوث الإسلامية - إسلام آباد.

- ١٥ / الدر المنثور - عبد الرحمن السيوطي - ط/١ - ١٩٨٣م - دار الفكر - بيروت.
- ١٦ / تفسير الجلالين - المحلي والسيوطي - عالم الكتب بيروت.
- ١٧ / فتح القدير للشوكاني ط/١ ١٣٥٠هـ - مصطفى البابي بمصر.
- ١٨ / روح المعاني للإمام الألوسي ط/٢ دار أحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٩ / في ظلال القرآن - سيد قطب ط/٧ - ١٩٧١م - دار أحياء التراث - بيروت.
- ٢٠ / التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور - الدار التونسية للنشر.
- ٢١ / أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي - عالم الكتب - بيروت.

- ٢٢ / صفوة البيان لمعاني القرآن - حسنين مخلوف - ط/٣ - ١٣٣٧هـ - مصر.
- ١٣ / صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - ط/٥ - ١٩٨٦م - دار القلم - بيروت.
- ١٤ / الأساس في التفسير - سعيد حوى ١/١ - ١٩٨٥ - دار السلام - القاهرة.

علوم القرآن:

- ١ / الفهرس الموضوعي لآيات القرآن - محمد مصطفى - ط/٢ - ١٩٨٤م - مطبعة الخلود - بغداد.
- ٢ / المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد فؤاد عبد الباقي - دار أحياء التراث العربي - بيروت.
- ٣ / معجم غريب القرآن من صحيح البخاري - فؤاد عبد الباقي - ط/٢ دار المعرفة - بيروت.
- ٤ / تأويل مشكلات القرآن - ابن قتيبة، ط/٣ - ١٩٨١ - المكتبة العلمية - بيروت.
- ٥ / الإعجاز والإيجاز - أبي منصور الثعالبي - ط/٢ - ١٩٨٣م - دار الرائد العربي - بيروت.

- ٦ / أسباب النزول - الواحدي - ط/١٣١٦ - عالم الكتب - بيروت.
- ٧ / لباب القول في أسباب النزول - للسيوطي - ط/الدار التونسية للطبع.

- ٨ / التفسير والمفسرون - محمد حسين الدهبي - ط/١ - ١٩٦١م - دار الكتب الحديثة - القاهرة.
- ٩ / البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي - ط/٣ - ١٩٨٠م - دار الفكر - بيروت.
- ١٠ / مقدمة في أصول التفسير - ابن تيمية - ط/٢ - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ١١ / دراسات في التفسير ورجاله - أبو اليقطان - ط/١٤٠٦٣هـ - ١٩٨٦م - دار الندوة - بيروت.
- ١٢ / القرآن معجزة ومنهاج - محمد متولي الشعراوي - ط/١ - ١٩٨٤م - دار الندوة - بيروت.
- ١٣ / تطور تفسير القرآن - محسن عبد الحميد بيت الحكمة جامعة بغداد - ١٩٨٩م.
- ١٤ / إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي - ط/٩ - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ١٥ / تحت راية القرآن - مصطفى صادق الرافعي - ط/٧ - ١٩٧٤م - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ١٦ / الإعجاز القرآني - بحوث المؤتمر الأول للأعجاز القرآني المعقود ببغداد ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٧ / الظاهرة القرآنية والعقل - علاء الدين المدرس - ط/١ - ١٩٨٦م - مطبعة العاني - بغداد.
- ١٨ / تأملات في آيات القرآن - إبراهيم النعمة. ط/١ - ١٩٨٥ - مطبعة الزهراء - الموصل.
- ١٩ / التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - ط/١٩٦٦.
- ٢٠ / الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم وابن حزم الأندلسي - مكتب الشرق الجديد - بغداد.

٢١ / القرطبي ومنهجه في التفسير القصبي محمود زلط - المركز العربي للثقافة والعلوم - بيروت.

٢٢ / جواهر التفسير - أحمد الخليلي - ط/١ - ١٩٨٤م مكتبة الاستقامة - عمان.

٢٣ / منهج الأمام محمد عبده في التفسير - عبد الله محمود شحاته - رسالة ماجستير - ١٩٦٣م - القاهرة.

التأريخ والسيرة والرجال:

١ / البداية والنهاية - إسماعيل ابن كثير - ط/٣ - ١٩٨٧م دار الكتب العلمية - بيروت.

٢ / تأريخ الأمم والملوك - لابن جرير الطبري - ط/١٩٧٩م دار الفكر - بيروت.

٣ / الكامل في التأريخ - ابن الأثير - دار بيروت - ١٩٦٥م.

٤ / الأوائل - أبي بكر عاصم النبيل ط/١ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٥ / السيرة النبوية - ابن هشام - ط/١٠ - ١٩٨٨م - مكتبة المنار - الأردن.

٦ / السيرة النبوية - أحمد زيني دحلان - ط/١٩٨٣م - المكتبة الأهلية - بيروت.

٧ / فقه السيرة - محمد سعيد رمضان البوطي - ١٩٧٣م - دار الفكر.

٨ / دراسة في السيرة - عماد الدين خليل - ط/١٠ - ١٩٨٦م - دار النفائس - بيروت.

٩ / ميزان الاعتدال في نقد الرجال - الذهبي - ط/١ - ١٩٦٣م دار أحياء الكتب العربية - دمشق.

١٠ / تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني - ط/١ - ١٣٢٥هـ - دار أحياء - بيروت.

١١ / تذكرة الحفاظ - الذهبي - دار الكتاب العلمية - بيروت.

١٢ / الضعفاء والمتروكين. تحقيق عبد العزيز السيروان - ط/١ - ١٩٨٥ - دار القلم - بيروت.

١٣ / طبقات ابن سعد. طبعت دار بيروت للطباعة والنشر / ١٩٥٨م بيروت.

- ١٤ / أعلام الساجد - محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق الشيخ المراغي ط/١
١٣٨٤ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية -
- ١٥ / تقريب التهذيب - ابن حجر العسقلاني / عادل رشد - ط/١ - ١٩٩٧ مؤسسة
الرسالة - بيروت.
- ١٦ / تحرير التقريب التهذيب / د. بشار عواد / سعيد الأرناؤوط - ط/١ - ١٩٩٧ م
مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٧ / كتاب الجرح والتعديل لأبن أبي حاتم ١/١ - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١٨ / شذرات الذهب في أخبار من ذهب ط/ دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١٩ / صفوة الصفوة لابن الجوزي ط/١ - ١٩٦٩ م مطبعة الأصيل حلب.
- ٢٠ / طبقات الحفاظ - جلال الدين السيوطي - ط/١ - ١٩٨٣ م دار الكتب العلمية
- بيروت.

السنة والحديث:

- ١ / فتح الباري لابن حجر العسقلاني ط/١ - ١٩٨٩ - دار الكتب العلمية بيروت.
- ٢ / عدة الباري في شرح صحيح البخاري طبعة دار الفكر - بيروت.
- ٣ / إرشاد الجامع - بشار عواد ط/١ ١٩٨٦ مطبعة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد.
- ٤ / المسند الجامع - بشار عواد ط/١ ١٩٨٦ مطبعة الأوقاف والشؤون الدينية - بغداد.
- ٥ / مختصر صحيح البخاري - تحقيق ناصر الدين الألباني - ط/٢ - ١٩٨١ م -
المكتب الإسلامي دمشق.
- ٦ / جواهر البخاري - شرح العسقلاني - مصطفى محمد عماره - ١٣٤١ هـ -
المكتبة التجارية الكبرى.
- ٧ / صحيح الإمام مسلم - مسلم بن الحجاج - ط/١ - ١٩٥٥ م تحقيق فؤاد عبد
الباقي - دار الكتب العربية.
- ٨ / سنن الإمام الترمذي - محمد بن سورة الترمذي - ط/١ - ١٩٣٧ م - تحقيق أحمد
شاكر - دار الكتب العلمية.

- ٩ / الترغيب والترهيب - زكي الدين المنذري - ط. ١٩٨٨م - دار الفكر - بيروت.
١٠ / الجامع الصغير - لجلال الدين السيوطي - ط/٤ - دار الكتب العلمية - بيروت.

اللغة والأدب:

- ١ / المفردات في غريب القرآن - الراغب الأصفهاني - ط/ دار المعرفة - بيروت.
٢ / لسان العرب المحيط - العلامة ابن منظور - دار لسان العرب - بيروت.
٣ / القاموس المحيط - للفيروز أبادي ط/ ١٩٧٨م - دار الفكر بيروت.
٤ / مختار الصحيح - محمد عبد القادر الرازي ط/ ١٩٨١ - دار الكتاب العربي - بيروت.
٥ / منجد الطلاب - فؤاد البستاني - ط/٣١ - دار المشرق - بيروت.

الكتب التاريخية:

- ١ / المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - عماد الدين خليل - ط/١ - ١٩٩٤م - دار القلم.
٢ / في التاريخ الإسلامي - عماد الدين خليل ط/١٩٨٥م - مطبعة الزهراء - الموصل.
٣ / في التفسير الإسلامي للتاريخ - نعمان السامرائي - ط/١ - ١٩٨٥م - مكتبة المنار - الأردن.
٤ / كتاب الورع - أحمد بن حنبل - ط/١ - ١٩٨٦م - دار الكتاب العربي - بيروت.
٥ / اليهود في القرآن - صلاح أبو إسماعيل - ط/٢ - ١٩٩٠م - جمعية الشيخ عبد الله النوري - الكويت.
٦ / تاريخ فلسطين القديم - ظفر الإسلام نخالد - ط/١ - ١٩٧٣م - دار النفائس - بيروت.
٧ / - تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية - سعدون الساموك - رشدي عليان ط/ ١٩٨٨ - جامعة بغداد.

كتب عامة:

- ١ / حركة تحديد النسل - أبو علي المودودي - ط/١ / ١٩٦٥م - دار الفكر - بيروت.
- ٢ / العبادة وحقيقة العبودية - ابن تيمية - ط/ ١٩٨٩م - مكتب تعز للنشر - تقديم عامر الشينخلي.
- ٣ / نفحات من الإسراء والمعراج - فضل حسن عباس - ط/ ١٩٨٧م - دار البشير - عمان.
- ٤ / مكائد يهودية - عبد الرحمن حنكة - ط/١ - دار القلم - دمشق.
- ٥ / المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزو الفكر الإسلامي المعاصر - ط/٢ / ١٩٧٤م دار الاعتصام.
- ٦ / مسائل ابن حزم الأندلسي - ج/٣ - تحقيق إحسان عباس - ط/١ - ١٩٨١م - المؤسسة العربية للنشر.
- ٧ / زوال إسرائيل حتمية قرآنية - سعد التميمي - ط/ ١٩٨٨م
- ٨ / برتوكولات حكماء صهيوني - ترجمة محمد خليفة التونسي ط/٤ - ١٩٦١م - دار الكتاب العربي - بيروت
- ٩ / المفسدون في الأرض - س - ناحي - ط/١ - ١٩٦٥م - مطبعة الانشاء - دمشق.
- ١٠ / المسيح الدجال - سعيد أيوب - ط. ١٩٨٩م - دار الاعتصام - القاهرة
- ١١ / الوعد الحق والوعد المفترى - سفر الحوالي ط/١ / ١٩٩٢ - دار الدعوة للطبع والنشر - الإسكندرية
- ١٢ / أين الخلل - يوسف القرضاوي - مؤسسة الرسالة
- ١٣ / الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - ترجمة عمر فروغ - ط/٤ - ١٩٦٢م - دار العلم للملايين
- ١٤ / الإسلام والدعوات الهدامة - أنور الجندي ط/١ - ١٩٧٤م - دار الكتاب اللبناني - بيروت
- ١٥ / - خطر اليهودية العالمية - عبد الله التل - ط/ ١٩٦٤ - دار القلم - بيروت.

- ١٦ / أحجار على رقعة الشطرنج - وليام غاي كار - ترجمة سعيد الجزائري ط/١ - ١٩٧٠ - دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت.
- ١٧ / النبوة والإعجاز في القرآن والسنة - علاء الدين المدرس - دار الكتب العالمية - العلمية - بغداد.
- ١٨ / بنو إسرائيل في القرآن والسنة - محمد سيد طنطاوي - ط/٢ - ١٩٧٣ - مكتبة الأندلس - ليبيا.
- ١٩ / سقوط العلمانية - أنور الجندى - ط/١ - ١٩٧٣ - دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- ٢٠ / وعد الله ليس لبني إسرائيل - محمد عبد اللطيف - ط/١٩٧١ - الحقبة المصرية للتأليف والنشر.
- ٢١ / في الأدب الإسلامي المعاصر - محمد حسن بريغش - ط/٢ - ١٩٨٥ - مكتبة المنار - الزرقاء.
- ٢٢ / الفكر الإسلامي - تقويمه وتجديده - محسن عبد الحميد - ط/١ - ١٩٨٣ - مكتبة دار الأنبار.
- ٢٣ / التبشير والاستعمارية في البلاد العربية - مصطفى الخالدي - عمر فروخ - ط/١ - ١٩٥٣ - المكتبة العلمية - بيروت.
- ٢٤ / الرؤية العربية لليهودية - مهنا يوسف حداد - ط/١ - ١٩٨٩ - منشورات ذات السلاسل - الكويت.
- ٢٥ / الأفعى اليهودية في معازل الإسلام - عبد الله التل - ط/١ - ١٩٧١ - دار الإرشاد - بيروت.
- ٢٦ / مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة - ط/١.
- ٢٧ / بروتوكولات حكماء صهيوني - عجاج نويهض - ط/١ - ١٩٨٤ - دار الجليل - عمان - جزئين.
- ٢٩ / القدس - المخططات الصهيونية - الاحتلال والتهويد - سمير جرجيس - ط/١ - ١٩٨١ - الدراسات الفلسطينية.

- ٣٠ / مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها - ليلي سعد الدين - ط/١ - ١٩٨٤ -
دار الفكر - عمان.
- ٣١ / تفسير حزقيال - رشاد فكري - ط/ - كنيسة الانخوة - ١٩٨٣ - بيروت.
- ٣٢ / اليهودية - احمد شلي - ط/٣ - ١٩٧٣ - مكتبة النهضة المصرية.
- ٣٣ / المسيحية - أحمد شلي - ط/٣ - ١٩٧٣ - مكتبة النهضة المصرية.
- ٣٤ / تاريخ الكنيسة - جون لوريمر ط/دار الثقافة - ١٩٨٢.
- ٣٥ / حكمة الغرب - برتاندراسل - ط/دار المعرفة - ١٩٨٣.
- ٣٦ / حقيقة التبشير - احمد عبد الوهاب - مكتبة وهبة.
- ٣٧ / دراسات في الكتب المقدسة - موريس بوكاي - ط/١٩٧٨ - دار المعرفة.
- ٣٨ / الصهيونية وقضية فلسطين - عباس محمود العقاد - ط/المكتبة العصرية.
- ٣٩ / قصة الحضارة - دل ديورانت - طبعة جامعة الدول العربية - القاهرة.
- ٤٠ / الإسراء والمعراج - محمد متولي الشعراوي.
- ٤١ / تاريخ اللغات السامية - إسرائيل ولفنسون - ط/١٩٨٠ دار القلم - بيروت.
- ٤٢ / الصهيونية والماسونية - عبد الرحمن سامي - طبعة دار الفكر - بيروت.
- ٤٣ / كتاب - الله - عباس محمود العقاد - طبعة دار الفكر - بيروت.
- ٤٤ / الأسفار المقدسة - علي عبد الرحمن وافي - طبعة دار الجليل - بيروت.
- ٤٥ / تاريخ الآلهة - فاروق الدملاجي - ط/٣ - العبرية.
- ٤٦ / الثقافة العربية - عباس محمود العقاد - ط/طبعة دار القلم - بيروت.
- ٤٧ / قصة العقائد - سليمان مظهر - ط/١ - ١٩٨٤ - الوطن العربي - بيروت.
- ٤٨ / التراث الإسرائيلي - صابر طعيمة - ط/١٩٧٩ - دار الجليل - بيروت.
- ٤٩ / اليهود في القرآن - عفيف عبد الفتاح طيارة - دار القلم - بيروت.
- ٥٠ / حول إعادة تشكيل العقل المسلم - عماد الدين خليل - ط/١ - كتاب الامة - قطر.
- ٥١ / الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي الإسلامي - يوسف القرضاوي - ١٩٨٨.



CONCLUSIONS AND RECOMMENDATIONS

In the name of Allah, the beneficent, the merciful

Praise to be Allah & be upon Mohammed his messenger. One could be exclaimed that a matter of the children of Israel and the consequences of their corruption in this earth for a period of twelve (12) hundred years without being studied or to salive the real differences which falls in which are against which Allaha likes, from the beginning of that day when the famous scholar Ibn tarear when tackled in his explanations in which he mentioned different stories or narration which were most of them have a very weak support.

Historical facts came appeasing their structure as well.

For that what the old scholars have brought, was taken as a whole or part of them as has been narrated or some of the support were omitted from the new scholars who were followes them or gave their own opinion in the explanation of verses the very well known narration's. They brought nothing new, but it is something wan't satisfy their enthusiasisem (brand).

As a whole this study for this problem from a different point of view as a study of the narration's and their confirmation from the correctness point of view or Nat in the study of history and its facts and the position of the corruption of Israel in the study of singularity of verses of the Quaran and the position of their use in Quaran and their meaning in the use of frank and their clear language at the Arab and the collection of scholar's saying and the scholar of language in the explanation of a single verse in the study of a single history and position of conflation between Islam and the children of Israel and their role in its war and the initiation of the devil forces for the sake of finishing his messengers who they were found written in their scepters (toehold testament and the bible) and after that what has happened to them from a killing strikes on the hand of Mohammed followers who were complete surrenders (submitter) to Allah, they were with a strong effects rooming their

lands and invade Al - Alsque as a controllers. Children of Israel were melted down and were distributed here and there in the earth. They were humiliated, weak, very sorry and they were striking in the dark places with complete humiliation, no fighting day and night, playing bad games, following the devil until they were able to introduce weakness in the heart of believers & push them away from most important leadership rules when the believers went back & deluging day. In that day, the skulls of Jews muck were conspired putting spades of demolishing and destroying to defeats the earth newly and in this sense, they came back as they were supplied three factors which were not existing before (moneys from every where, Youngster supporting their bad claims and they were filled down every to be proved at the end of this Universe). From these facts where many points were exposed clearly. As in the following:

1. The verses in the beginning of Isra'a Sura dose not explain an old corruption by the son's of Israel, but it explain their future corruption as mentioned by Quaran & prophetic hadith (peace be upon him) & all of Muslims scholars.
2. There is tow corruption and one prejudice accompany one of the corruption, this mentioned in Quaran & History never mentioned any prejudice for Son's of Israel before.
3. Those who humiliate Son's of Israel in their first corruption were Mohammed (peace be upon him) and his believer, whose their criteria's were sincerely for Allah and purely prying for their Eritrea, in addition to be a strong invaders for the Son's Israel lands & enter the Mosque. There fore the criteria's of Muslims invaders in the second corruption must be similar to that of the first invaders.
4. Today recurrence of similar corruption of Son's of Israel while they are riding the mave of prejudice on the earth and they were intended apply their power on the whole earth population, by their new rules. Son's of Israel never struggles unless the have well controlled village or from behind walls, also they look all together, but actually their hearts completely disrupted.
5. For these reasons we as believers must be ready to face them by being sincere and pure believer of Allah. And Storage invaders.

Dose Muslims Knows that ?...

Isra'a sure pronounced that to:

First: Son's of Israel that if the last corruption appointment came Allah will collect them from every where to genie their fate, from our believer's who will invade their laved, disrupt their buildings (espeually suluaman skeletan), & Kill all Jews and dean the earth from them.

Second: To Muslims believers your Quaran learn you how to be straight regarding the treatment of son's of Israel corruption & other corruption, because Quaran give us the truth because its giving by the truth.

Third: For the whole population on the earth that the right & truth has been appeared and the darkness have been exhausted because darkness always exhausted.

Researcher:

Amer Naif Hamad Al - Zobaei

المحتوى

الموضوع	رقم الصفحة
من هدي كتاب الله وهدي رسوله	٣
كلمة للذكرى	٤
الإهداء	٥
اقترح البعض واعتذر إليهم	٦
تقريظ... بقلم الدكتور عماد الدين خليل	٧
مقدمة المؤلف	١٠
بين يدي الكتاب	١٢
الفصل الأول: أهم المواضيع الرئيسية في سورة الإسراء	٢٩
المبحث الأول: التعريف بسورة الإسراء	٣١
المطلب الأول: أسمائها - أياتها - نسبتها - وقت نزولها - فضلها عند النبي والصحابة .	٣١
المطلب الثاني: موضوعاتها وأغراضها ومحورها الرئيسي	٣٤
المطلب الثالث: علاقة سورة الإسراء ببني إسرائيل	٤٢
المبحث الثاني: خارقة الإسراء وبنو إسرائيل	٤٨
المطلب الأول: الإسراء - معناه - مناسبتة - بعض الروايات التي وردت فيه	٤٩
المطلب الثاني: علاقة الإسراء ببني إسرائيل	٦٣
خارطة الإسراء	٦٨
المبحث الثالث: بنو إسرائيل من خلال سورة الإسراء	٧٤
المطلب الأول: أصل بني إسرائيل	٧٥
المطلب الثاني: أسماء بني إسرائيل	٨٣
المطلب الثالث: كتب بني إسرائيل	٩٢
الفصل الثاني: سورة الإسراء بين الحقائق والقواعد والأصول التفسيرية	١٠٣
المبحث الأول: سورة الإسراء بين الحقائق القرآنية والقواعد التفسيرية	١٠٥
المطلب الأول: ثلاث حقائق لها علاقة بسورة الإسراء	١٠٦
المطلب الثاني: ثلاث قواعد تفسيرية بين الإهمال والتعسف	١١٩

المبحث الثاني: في بعض أصول التفسير وقواعده	١٢٩
أولاً: المنقول والمعقول في التفسير	١٢٩
ثانياً: الضعف في رواية التفسير بالمأثور وأسبابه	١٣٩
ثالثاً: مصادر تفسير القرآن وقواعده	١٤١
رابعاً: الاختلاف في التفسير	١٥٣
خامساً: أهم ما تميز به التفسير المأثور في هذه المرحلة	١٥٦
الفصل الثالث: إفساد بني إسرائيل عند المفسرين	١٦١
المبحث الأول: القضاء على بني إسرائيل في الكتاب بالإفساد والعلو	١٦٣
المطلب الأول: أولاً معنى القضاء الوارد في قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾	١٦٣
القضاء عند علماء اللغة	١٦٤
القضاء عند علماء التفسير	١٦٨
أولاً: توحيد الأقوال وإبراز الراجح منها	١٧١
ثانياً: معنى الكتاب في قوله تعالى وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب	١٧٣
مناقشة المفسرين	١٧٦
المطلب الثاني: معنى الإفساد في قوله تعالى لتفسدن في لأرض عند علماء اللغة والتفسير	١٧٩
أولاً: عند علماء اللغة	١٧٩
ثانياً: عند علماء التفسير	١٨٠
المسألة الأولى: التفريق بين الفساد وبين الوعد	١٨٤
المسألة الثانية: التفريق بين الفساد وبين العلو	١٨٦
المطلب الثالث: معنى قوله تعالى ولتعلن علواً كبيراً	١٩٠
المبحث الثاني: أقوال المفسرين في الإفسادين ومناقشتها	١٩٧
المطلب الأول: أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الأول	٢٠١
أ- من قتل من الأنبياء	٢٠٢
ب- من بعث عليهم	٢٠٢
أ - مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الأول	٢٠٣

ب- مناقشة أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الأول	٢٠٩
المطلب الثاني: أقوال المفسرين الأقدمين في الإفساد الثاني	٢٢٥
أ- من قتل من الأنبياء	٢٢٥
ب- من بعث عليهم	٢٢٦
أ- مناقشة أقوال المفسرين فيمن قتل من الأنبياء في الإفساد الثاني	٢٢٧
ب- مناقشة أقوال المفسرين فيمن بعث على بني إسرائيل في الإفساد الثاني	٢٣٠
المطلب الثالث: أقوال المفسرين المحدثين في الإفسادين الأول والثاني	٢٤٢
القول الأول: من أقوال المحدثين لأبن عاشور ومناقشته فيه	٢٤٣
القول الثاني: من أقوال المحدثين لمحمد سيد طنطاوي ومناقشته فيه	٢٤٩
القول الثالث: من أقوال المحدثين لسعيد حوى ومناقشته فيه	٢٥٤
الفصل الرابع: إفساد بني إسرائيل كما أوحى بهما المعطيات القرآنية	٢٧٠
تمهيد	٢٧١
المبحث الأول: الإفساد الأول والعقوبة عليه	٢٧٦
المطلب الأول: تحقق مقومات الإفساد الأول	٢٧٧
أولاً: نفي الماضي واقتضاء المستقبل	٢٧٧
ثانياً: العلاقة بين الوعدين	٢٨٣
ثالثاً: في صيغ الأفعال ودلالاتها	٢٨٨
المطلب الثاني: تحقق الوعد الأول بالعقوبة على الإفساد الأول	٢٩٢
أولاً: معنى البعث وحتميته في قوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا﴾	٢٩٢
ثانياً: أهم صفات المبعوثين	٣٠٠
ثالثاً: الجوس خلال الديار في قوله تعالى: ﴿فجاسوا خلال الديار..﴾	٣٢٦
رابعاً: حتمية تحقق الوعد الأول في قوله تعالى: ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾	٣٣٥
المبحث الثاني: الإفساد الثاني والعقوبة عليه	٣٤٠
المطلب الأول: تحقق مقومات الإفساد الثاني	٣٤١
أولاً: ثم لتراخي الزمن في قوله تعالى: ﴿ثم رددنا﴾	٣٤١
ثانياً ردّ الكرة وبدء الإفساد الثاني: في قوله تعالى: ﴿رددنا لكم﴾	٣٤٨

المطلب الثاني: تحقق المدد واللفيف النافر	٣٥٥
أولاً: المدد - الزيادة في الأموال والبنين في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾	٣٥٥
ثانياً: النفي الأكثر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾	٣٦٠
ثالثاً: فرصة اختبار واختيار في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ... وَإِنْ أَسَأْتُمْ...﴾	٣٦٣
رابعاً: حتمية تحقيق الوعد الثاني ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾	٣٦٧
الفصل الخامس: مستقبل بني إسرائيل من خلال سورة الإسراء	٣٧٣
المبحث الأول: وإن عدتم عدنا قانوني عقوبة	٣٧٥
المطلب الأول: الرحمة في العودة	٣٧٥
المطلب الثاني: وإن عدتم عدنا قانوناً عقوبة لبني إسرائيل	٣٧٩
المجال الأول	٣٨٠
المجال الثاني	٣٨١
أولاً: العذاب النفسي الذلة والمسكنة	٣٨٦
ثانياً: العذاب الإجتماعي - وهو الشتات	٣٨٨
ثالثاً: العذاب الجسدي القتل والإبادة	٣٨٩
المبحث الثاني: الجمع اللفيف وعلاقته بالوعد الآخر	٣٩٢
المطلب الأول: علاقة الجمع اللفيف بالوعد الآخر	٣٩٢
المطلب الثاني: المنهج الأقوم في التصدي لإستعلاء الفساد	٤٠٧
الخاتمة	٤١٤
النتائج	٤١٤
التوصيات	٤١٧
الملحق رقم ١	٤١٨
الملحق رقم ٢	٤٢١
المصادر والمراجع	٤٢٥





هذا الكتاب ...

* / قيس من وحي القرآن ... الذي كان ولا يزال وسيبقى ... هو هو معيار التمييز بين الحق والباطل وجودا ومصداقية وتفاعل .

* / وعليه فقد تناول فيه الباحث بل عاش القضية - قضية إفسادي بني إسرائيل - بقلبه وعقله ومشاعره وكيانه كله ، بحثا ودراسة وتأصيلا فلقد كانت محاور هذه القضية في القرآن عموما وفي سورة الإسراء خصوصا الميدان الرحب الذي سلط فيه الباحث أضواء القرآن وإحياءاته البيانية " الإعجازية " في الماضي والحاضر والمستقبل ، مستصحباً الدلالات الحديثة واللغوية والتاريخية مما كان لها علاقة بالموضوع ، فجعلت القارئ يخرج من دائرة الشك إلى فهم واقعي للآيات ومصداقية للنصوص تنقله إلى رؤية قرآنية معاصرة للأحداث الجارية على الساحة اليوم . . مما حدا بالدكتور عماد الدين خليل أن يقول فيها " حيث تتحدد الأبعاد التاريخية للآيات الواردة في صدر سورة الإسراء عن الموضوع . ويجد القارئ نفسه يخرج من دائرة الاحتمال والتخمين والتنبؤ إلى استقراء دلالي داخل النص القرآني يقوده إلى نتائج منضبطة إلى حد كبير .

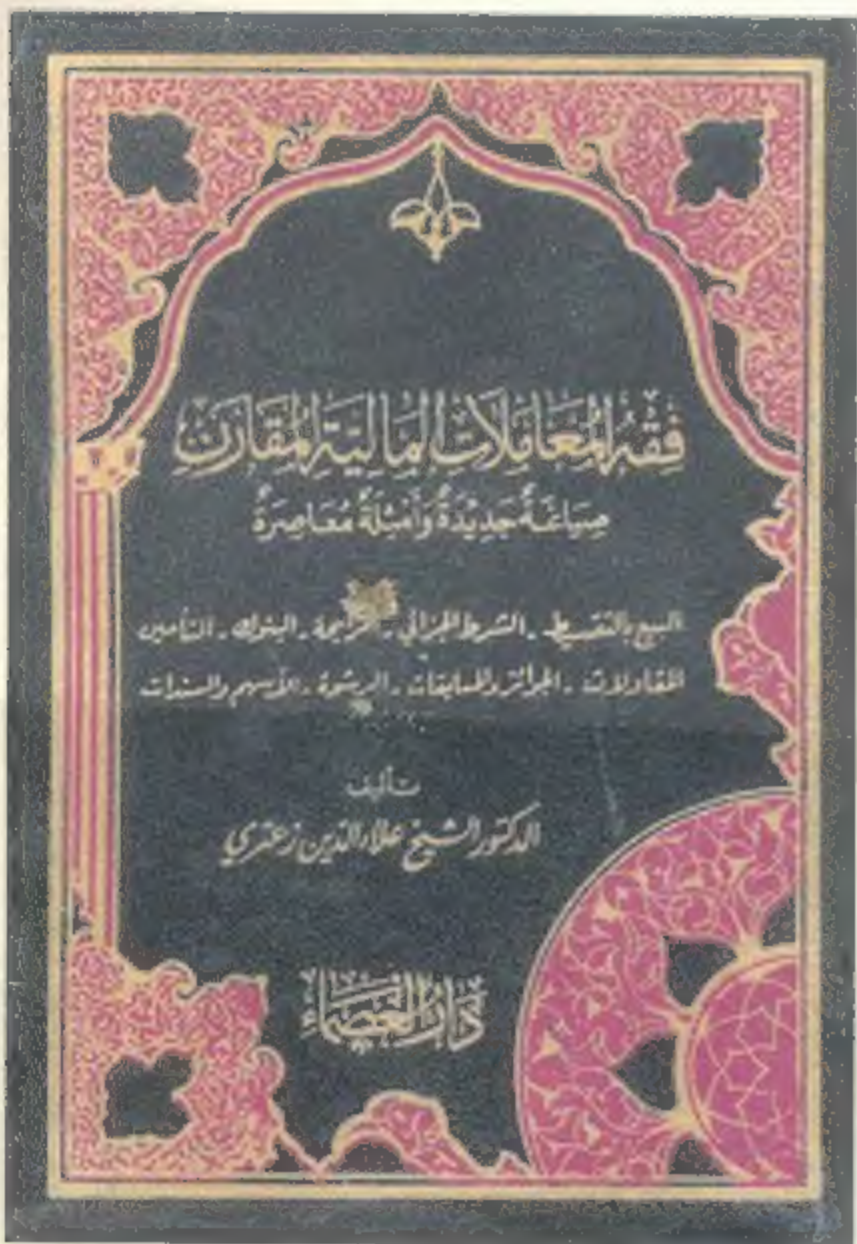
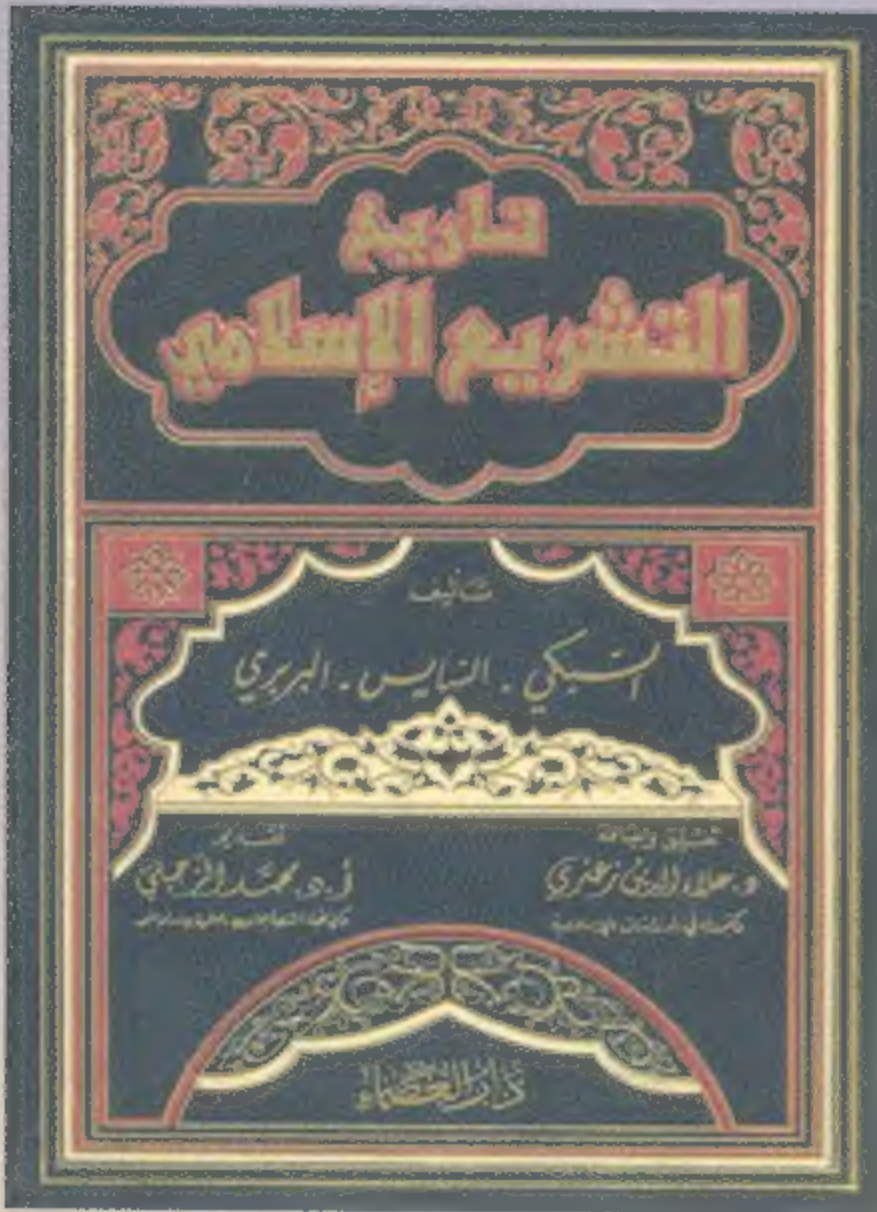
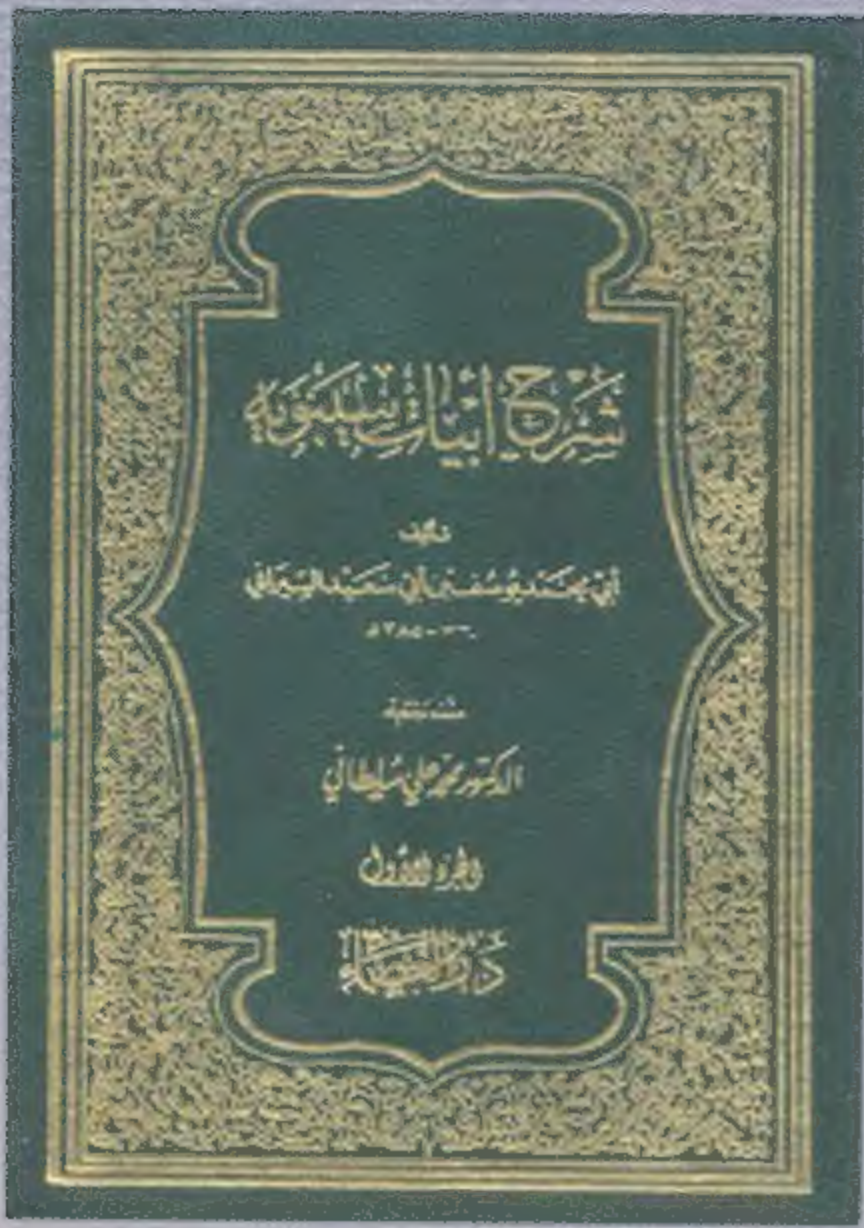
* / لقد أمضى الباحث شطرا من عمره يكابد غمرات إفسادي بني إسرائيل وعلوهم في الأرض بين النصوص القرآنية والأحداث التاريخية دراسة وتأصيلا ومناقشة للمفسرين والعلماء الذين سبقوا وتحقيقا لمعطيات القرآن ودلالات النصوص فيها والتي جاءت وتجيء تخبر عما مضى وترسم الخطى بعلامات من نور لجيل البعث الإيماني الجديد من العباد وهو يواجه تحديات الاستكبار اليهودي تحوكة وتوقد ناره جماجم المكر اليهودية العالمية في الأرض .

* / وعليه فقد جاء هذا الكتاب تلبية لاحتياجات الواقع الإسلامي اليوم ومعالجة لواقع المسلمين من حيث أنه يمثل العلامة الكبرى على مفترق الطرق ليقول لحملة الحق والسائرين على هديه من العباد هذا هو الطريق لكي تسيئوا وجوه الذين كفروا ولتدخلوا المسجد الأقصى كما دخله أسلافكم أول مرة ولكي تتبرؤا ما علو تنبيرا .

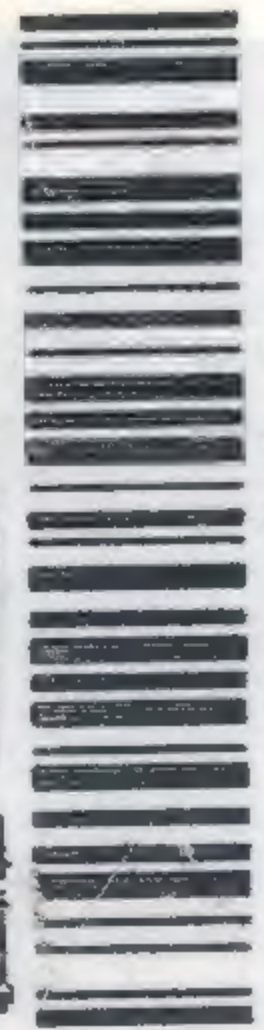
* / لقد جاء هذا الكتاب على قدر مقدور وفي أكثر الأوقات حرجا وأشدّها جراحا وأكثرها إيلاما على مدى القرون ، وكأنه يقول للعالم إنها ساعات مخاض لميلاد جيل التغيير .

* / لقد منّ الله على الباحث فأخرج هذا الكتاب بأسلوب شيق وكلمات تنبض بالحياة وتسلسل في تفسير وتحليل النصوص والمفردات القرآنية مسلطا الضوء على الأحداث التاريخية ، متتبعا حقائق القرآن يكمل بعضها بعضا حتى يوصل القارئ بالنتيجة إلى أن يرى ثبور بني إسرائيل وتبار علوهم في الأرض واقعا ملموسا ترهص به جل المعطيات القرآنية والأحاديث الصحيحة والمفردات اللغوية ومن ثم الأحداث التاريخية مما لا يدع مجالا للشك في أن وعد الله لا بد مفعولا .

الناشر



Bibliotheca Alexandrina



0672454